المرجع فى
الحضارة العربية الإسلامية

الأستاذ الدكتور
إبراهيم سلمان الكروى
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة

مركز الاسكندرية للكتاب
٤٦ ش الدكتور مصطفى مشرفة
الأزاريطة ت ٤٨٤٦٥٠٨

المرجع في

الحضارة العربية الإسلامية

الأستاذ الدكتور

إبراهيم سلمان الكروى

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة

٢٠٠٨

مركز الإسكندرية للكتاب

٤٦ شارع الدكتور مصطفى مشرفة

ت : ٤٨٢٦٥٠٨ الإسكندرية

المقدمة

لم تكن الحضارة العربية الاسلامية ذات أثر كبير إلا بفضل الإسلام ، وبفضل التعاليم الإسلامية ، وما ورد في كتاب الله الكريم وفي سنة نبيه محمد ﷺ ، فكانت أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس ، أقامت حضارة أضاءت بها الدنيا في وقت كان فيه العالم في ظلام دامس .

لقد دعا الإسلام إلى المساواة في الحقوق والواجبات ، وإلى حرية الإنسان ، وإلى العلم لأنه ركيزة أساسية لتحقيق التربية الصحيحة التي كانت تهدف إليها الدعوة الإسلامية ، وتعبر أولى آيات القرآن الكريم عن أهمية العلم في الإسلام ، يقول الله عز وجل : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[1] ، ثم نزلت آيات أخرى كثيرة تتضمن حثاً للمسلمين وتشجيعاً لهم على تحصيل العلم ، كما تتضمن تمييزاً للذين أوتوا العلم عن غيرهم ، وتمجيداً لهم وتزكية ، ويتمثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً

---

(١) سورة العلق ، الآيات من ١ - ٤ .

عظيماً ﴾[1] . و﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات ﴾[2] . كذلك حث الرسول الأعظم محمد ﷺ على تلقي العلم وتحصيله ، وذكروا أنه قال : « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فليس يأجركم الله حتى تعلموا ». وفي حديث آخر للنبي ﷺ أنه مر بمجلس في مسجده فقال : « كلاهما خير وأحدهما أفضل من صاحبه ، فأما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه ، فإن شاء أعطاهم ، وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلمون الجاهل ، فهم أفضل ، وإنما بعثت معلماً » و« من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة ».

كما اهتم الخلفاء والحكام من بعدهم في العصور الاسلامية الزاهية بالعلم والعلماء ، فكانت البيئة الاسلامية أساساً لنهضة علمية في كل فروع العلم والمعرفة ، فتقدمت العلوم وارتقت ، وتقدم الطب وعلا شأنه بعد أن كان قائماً على الخرافات . وتقدمت الزراعة والصناعة والتجارة والنظم بمختلف أنواعها .

وهكذا وصلت الأمة الاسلامية في نواحي نشاطها الفكري والعقلي من عمران وعلوم ومعارف وفنون إلى غاية كبرى دفعتها إلى التأثير في الحضارات الأخرى التي جاءت بعدها بقرون عديدة .

والحضارة كما يقول ابن خلدون « أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفة ، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر » .

والحضارة إذن كما نرى في هذا المفهوم تختلف عن التاريخ ، فعلى حين يميل المنهج التاريخي إلى التخصص بتجزئة العصر التاريخي الواحد إلى طائفة من دوائر التخصص ، وإلى تقسيم التاريخ إلى طائفة من العصور ،

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٦٢ .
(٢) سورة المجادلة ، الآية ٩ .

كما أنه يميل إلى الاسراف نحو النزعة الفردية في تصور التاريخ وتصوير الوقائع والأحداث الاجتماعية ؛ نرى الدراسة الحضارية لا تنهج هذا المنهج ، وإنما تجمع بين العنصر التاريخي والعنصر الفلسفي وتهتم قبل كل شيء ، بما بين الاتجاهات الاجتماعية من وجوه التفاعل والارتباط ، فهي تعنى بالنظرة الكلية التي تتضح من خلالها شخصية المجتمع الحضارية ، وملامح النشاط الانساني في كل إتجاه من إتجاهاته .

وهكذا ، نستطيع تعريف الحضارة بمعناها العام بأنها تراث وإنتاج مشترك بين الأمم المختلفة ، فضلُ كلٍ منها بقدر إسهامه ، ولتستمد صورة فلسفية للمجتمع .

أما الحضارة العربية الاسلامية ، فإننا نعني بها التنظيم الاسلامي القائم على العقيدة الألهية فأنشأت مجتمعاً فريداً قدم الانجاز والانتاج الفكري المتميز ، النظري والعملي ، المتنوع الاتجاهات ، المتجانس الروح ، الموحد الهدف الذي انبته الاسلام ورعاه ووجهه ، والاسلام هو الشرعة والمنهاج الذي أوحاه الله إلى الرسول عليه الصلاة والسلام : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾[1] ، ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[2] . وهذا الانتاج شاركت فيه أمم متباينة وأجناس متعددة جمعها الاسلام ووحد بينها وصاغها في وحدة روحية وخلق منها مجتمعاً يحلق فوق الحدود القومية .

وكانت اللغة العربية هي اللغة التي كتبت بها غالبية هذا الانتاج في كافة العلوم والمعارف من لغة وأدب وفلسفة وطب وتاريخ وفقه وفلك ورياضيات

---

(١) سورة الجاثية : الآية ١٨ .
(٢) سورة الانعام : الآية ١٥٣ .

وغير ذلك من علوم فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجري فاق كل ما كتب بأي لسان آخر .

ومن أجل هذا استحقت أن تسمى الحضارة العربية الاسلامية .

وقد يعجز الباحثون جمع كل ما يتعلق بموضوع الحضارة العربية الاسلامية في مجلد واحد ، ذلك لأنها ذات موضوعات كثيرة وتحتاج إلى مجلدات كبيرة وتفصيل أكبر ، وقد حاولنا جهد طاقتنا أن نعرض في هذا العمل ما اغفلته الدراسات التي بين يدي القارىء بحيث نقدم له مرجعاً يستقي منه جوانب الحضارة العربية الاسلامية .

وتيسيراً للدراسة قمنا بتقسيم المرجع إلى عشرة فصول رئيسية تناولنا في الفصل الأول وعنوانه « قيام الوحدة الحضارية بين شعوب الأقاليم الاسلامية »، مفهوم الحضارة بشكل عام ومقومات الحضارة العربية الاسلامية والدور الحضاري الذي قام به الاسلام في تلك الأقاليم كما تناولنا خصائص الحضارة العربية الاسلامية .

وفي الفصل الثاني وعنوانه « النظام السياسي » بحثنا بالتفصيل الخلافة والوزارة والكتابة والحجابة .

وأفردنا الفصل الثالث وعنوانه « النظام الاداري » للحديث عن النظام القضائي والدواوين والنظر في المظالم والحسبة والشرطة .

أما الفصل الرابع فأفردناه للحديث عن النظام الحربي .

وفي الفصل الخامس وعنوانه « النظم المالية والاقتصادية »، تكلمنا عن موارد الدولة العربية الاسلامية ونفقاتها والنقود الاسلامية ، كما تكلمنا عن الدور الحضاري للعرب المسلمين في مجال الزراعة والنبات والحيوان ، ثم تكلمنا عن الصناعة والتجارة .

أما الفصل السادس وعنوانه « العلوم الدينية » ، فتكلمنا فيه بالتفصيل عن علوم القرآن والحديث والفقه . وفي الفصل السابع وعنوانه « العلوم اللسانية والإنسانية ، فتكلمنا فيه بالتفصيل عن اللغة ، ومعاجم اللغة العربية ، والنحو، والبلاغة ، والأدب ، والتاريخ والجغرافية والفلسفة .

أما الفصل الثامن وعنوانه « التراث العلمي عند العرب المسلمين » تناولنا الحديث عن الطب والفيزياء والرياضيات ، والطريقة العلمية في التفكير والبحث أو ما يسمى بـ (الطريقة العلمية) أو (المنهج العلمي) فلولا هذا المنهج العلمي لما استطاع العلماء أن يتوصلوا إلى الكشف عن عدد من أسرار الطبيعة ، وحقائق الكون المجهولة ، ويسيطروا على بعض ظواهر الطبيعة ويطبقوا قوانين العلم عملياً فينتجوا المخترعات التي أغنت حياة لانسان ويسرتها .

وفي الفصل التاسع تناولنا التربية والتعليم والمكتبات في الاسلام .

أما الفصل العاشر فأفردناه للحديث عن الفنون الإسلامية متضمناً نشأتها ودراسة العمائر كالمساجد والحصون والقلاع والمدارس وأخيراً الفنون الزخرفية عند العرب المسلمين .

والله نرجو أن يسدد خطانا نحو ما قصدنا إليه من بعث لحضارة هذه الأمة راجين كذلك أن يوفقنا دائماً للمزيد من تقديم صورة أوضح لحضارتها ، وعلى الله قصد السبيل وهو ولي التوفيق .

الفصل الأول

قيام الوحدة الحضارية بين شعوب الأقاليم الإسلامية

أولاً : مفهوم الحضارة

ثانياً : مقومات الحضارة العربية الإسلامية

ثالثاً : الدور الحضاري الذي قام به الإسلام في تلك الأقاليم

رابعاً : خصائص الحضارة العربية الإسلامية

أولا : مفهوم الحضارة :

أما الحضارة (بفتح الحاء وبكسرها) فهي - لغةً - الإقامة في الحَضَر ، والحضر خلاف البَدْو ، وبهذا المعنى استعملها القُطَامي الشاعر في قوله ، مفتخراً ببداوة قومه ، مستخفّاً بساكني القرى والمدن :

فَمَنْ تَكُنِ الحَضَـارَةُ أَعْجَبَتْـهُ فـأيُّ رِجـالِ بَـادِيَـةٍ تَـرَانَـا !؟

وهي تطلق الآن - اصطلاحاً - على كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه ، عقلاً وخُلُقاً ، مادةً وروحاً ، دنيا وديناً . فهي - في إطلاقها وعمومها - قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور وتقلب الأزمان ، وما صُوِّرت به علائقه بالكون وما وراءه . وهي - في تخصيصها بجماعة من الناس أو أمة من الأمم - تراث هذه الأمة أو الجماعة على وجه الخصوص ، الذي يميِّزها عن غيرها من الجماعات والأمم . وهي بهذا المعنى الإصطلاحي نظير المدينة ، التي هي في أصل الاستعمال سكنى المدُن ، والتي تقابل الكلمة الأوروبية (Civilization) . والحضارة بهذا المعنى أعم من الثقافة ، التي تنطبق على الجانب الروحي أو

الفكري والصناعي ، كأنما لوحظ فيها أن النشاط البشري في مختلف جوانبه ومواهبه يكون في أرقى حالاته في الحواضر والمدن ، وأن سكنى الحواضر مرحلة أكثر تقدماً من سكن البادية . والكلمة ـ بهذا المعنى الاصطلاحي ـ قديمة في الاستعمال العربي ، وليست ترجمة للكلمة الأوروبية (Civilization) . فقد استعملها ابن خلدون في مقدمة تاريخه ، حين كتب فصولاً متعددة عن (العمران في البدو وفي الحضر وطبائع كل منهما) وعن (إنتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة) وفي (أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ، وأنها مؤذنة بفساده) .

والحضارة بهذا المعنى الاصطلاحي عند ابن خلدون أضيق من الحضارة بالمعنى الاصطلاحي الحديث ، لأنها لا تصور إلا الجانب المترَف من النشاط البشري ، ولا تُدخِل فيه النشاط الديني والخلقي والعقلي . يقول ابن خلدون : (والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله ، والكَلَف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه ، ومن الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفُرُش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل . . . . وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعةُ الشهوات ، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا تستقيم حالُها معها في دينها ولا دنياها) .

والحضارة بهذا المعنى عند ابن خلدون أحد شطري العمران ، الذي قَسمه إلى بدوي ومدني . وتصوُّرُه للحضارة بهذه الصورة فرعٌ من تصوره لفضل البدو على الحَضَر ، في الفصول التي كتبها في تفضيل أهل البدو على أهل الحَضَر ، مثل (فصل في أن البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر) و (فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر) و (فصل في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مُفسِدة للبأس فيهم ذاهبة بالمَنَعَة عنهم) .

أما « الغرب » فهو اصطلاح حديث ، جرينا فيه على ما اصطلح عليه الأوروبيون في عصور الاستعمار ، من تقسيم العالم إلى « شرق » و « غرب » ، يعنون بالغرب أنفسهم ، ويعنون بالشرق أهل آسيا وإفريقية ، الذين كانوا موضع استعبادهم واستغلالهم ، وجرينا نحن من بعدُ على هذا الاستعمال . والكلمة إن كانت حديثة إصطلاحاً وإستعمالاً فهي قديمة في مفهومها ودلالتها . فقد كان في العالَم من زمن قديم قوتان تصطرعان وتتنازعان السيادة ، إحداهما في الشرق ، والأخرى في الغرب . تمثَّل ذلك في الصراع بين الفرس والروم ، ثم في الصراع بين المسلمين والروم ، ثم في الصراع بين المسلمين والصليبين ، ثم في الصراع بين العثمانيين والاوروبيين ، مدا وجزرا ، ثم كان آخر فصول هذه الملحمة الصلات بين الشرق ممثلا في آسيا وافريقية ، وبين الغرب ممثلا في اوروبا وامريكا ، وهي صلات متنوعة ، بعضها ثقافي ، وبعضها اقتصادي ، وبعضها سياسي .

ثانيا : مقومات الحضارة العربية الإسلامية :

كانت الحضارة العربية الإسلامية أعظم حضارات العصور الوسطى دون منازع . ومن الواضح أن البيئة التي نبتت فيها هذه الحضارة ونمت حتى استوت على عودها كانت موطناً لكثير من الحضارات القديمة المزدهرة ، فلا مناص من حدوث تجاوب بين القديم والجديد في هذا الحال ، فأخذ المسلمون واقتبسوا من الحضارات التي سبقتهم وتأثروا بها ثم تناولوا ذلك القديم بالشرح والتصحيح والتغيير والتبديل والحذف والإضافة ، ونجم عن هذا كله حضارة جديدة لها طابعها الخاص وهو طابع الإسلام .

ويمكن إرجاع أصول هذه الحضارة الإسلامية إلى مؤثرات ذاتية داخلية كالإسلام ، وأخرى خارجية مستمدة من حضارات بعض الأمم القديمة كالفرس والهنود واليونان والرومان وفيما يلي هذه الأصول : -

١ ـ الدين الإسلامي : الإسلام عقيدة وشريعة ، دين ودنيا ـ كما هو معروف ـ فالعقيدة تتمثل في وحدانية الخالق والتصديق بملائكته وكتبه ورسله ، وعلى رأسهم رسول الإنسانية محمد بن عبدالله ﷺ وكتابه المبين ثم الإيمان بالبعث بعد الموت ، والثواب والعقاب في دار الخلود . أما الشريعة فتعني الأحكام التي فصلها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة باعتبارهما أهم مصادر التشريع الإسلامي وهي تنتظم ، أولاً : علاقة الإنسان بخالقه ، ونقصد بها الفرائض كالصلاة والزكاة والصوم والحجم بشروطها المعروفة . ثانياً : علاقة الناس بعضهم مع بعض ، ويراد بها المعاملات المختلفة لتلك التي تتعلق بالأسرة وأركانها الثلاث : الزوج والزوجة والأبناء ، والتجارة كالبيع والشراء ، وجمع الثروة والمال ، والحدود والقصاص وغيرها .

من ناحية أخرى نلاحظ أن الإسلام كان له أثر واضح ومباشر في ميدان العلم والفكر لدى المسلمين ، فظهرت العلوم النقلية (الشرعية) كالتفسير والقراءات والحديث والفقه والأصول وغير ذلك من العلوم التي وجدت لخدمتها وفهمها بعد أن انضمت لدولته شعوب متعددة كان لا بد لها أن تتفهم الإسلام وتقرأ كتابه ، فنشأ علم النحو والأدب والبلاغة والسير والمغازي والتاريخ وغيرها .

ولما كان الإسلام يعتبر الإنسان أشرف مخلوقات الله وأعظمها بفضل ما أودعه فيه ـ سبحانه وتعالى ـ من عقل ، لذلك دعاه إلى النظر والتأمل في الكون الذي يعيش فيه وتسخير كل ما فيه لخدمته وتطوير حياته نحو الأفضل ، فاندفع بنعمة العقل التي فكها الدين الجديد من الأسر وأطلقها من عقالها ، فاندفع إلى الاشتغال بالعلوم الطبيعية كالفلسفة والطب والفلك والرياضيات (الحساب والجبر والهندسة) والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وغيرها .

لذلك كان الدين الإسلامي المنهل الأول والأعظم للفكر والثقافة فطبع

حياتهم العامة والخاصة بطابعه ، وصبغ نظمهم وفنونهم وآدابهم بهذه الصبغة الإسلامية المميزة ، فكان ـ دون ريب ـ المصدر الرئيسي الذي رسم للمجتمع الإسلامي نمط الحياة الجديدة فاستقوا منه أسلوب معيشتهم وحياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والفكرية . وقد دفع هذا المسلمين إلى السعي نحو الاستفادة من الحضارات الأخرى .

٢ ـ العروبة : ونعني بها دور العرب ولغتهم وآثارهم بصورة عامة في بناء دولة إسلام وحضارتها ، فقد كان العرب العنصر الأول والأساسي الذي حمل لواء الإسلام ومهمة الجهاد لنشر الدين الجديد خارج بلادهم وتوصيله لشعوب الدنيا كلها ، كما كانت العربية لغة قريش هي اللسان الذي نزل به كتاب المسلمين جميعاً ، هذا بالإضافة إلى طبائعهم وعاداتهم كالشجاعة والأنفة وإكرام الضيف والجوار وغيرها من التقاليد الموروثة ، وفنونهم ومعارفهم التي اشتهروا بها كالولع بالشعر ، والمحافظة على الأنساب ، والحكمة والنباهة ، واقتفاء الأثر إلى غير ذلك من مظاهر التحضر التي تميزت بها بعض المجتمعات العربية في الدول التي نشأت على أطراف شبه الجزيرة بصورة خاصة ، قبل مجيء الإسلام ، كحضارة بلاد اليمن القديمة ومملكة الأنباط ، والحيرة والغسانة وغيرهم[١] .

٣ ـ الحضارة الفارسية الهندية : وهي بمثابة المؤثر الأجنبي الأول الذي استمدت منه الحضارة العربية الإسلامية جانباً من مقوماتها . فالفرس أمة ذات حضارة قديمة ، ونبغوا في السياسة والإدارة والحروب ، ومظاهر العمارة والفنون والآداب والعلوم . فلما فتح العرب بلاد فارس وقوّضوا عرش الدولة الساسانية دخل الفرس في الدين الإسلامي أفواجاً وصاروا موالي للفاتحين ، وبدخولهم في الإسلام طرحوا دياناتهم ولغتهم السابقة ، وأقبلوا على الإسلام

---

(١) مجلة عالم الفكر ، المجلد ١١ ، العدد الأول ، الكويت ، يونيو ١٩٨٠ م ، ص ١٨٦ـ ١٩٣ .

يدرسونه ، وعلى اللغة العربية يحصنونها ، ولم يمض زمن طويل حتى أسهموا في الحركة العلمية والتأليف في مختلف العلوم ، وأفادت الحضارة العربية الإسلامية من ذلك فوائد جمة ، وانتقل إلى الحضارة العربية الإسلامية عن طريق هذه الحركة أيضاً بعض علوم ومعارف الهنود ـ خاصة في الرياضيات كالحساب ـ وغيرهم من الشعوب الآسيوية المتحضرة كالشعب الصيني .

٤ ـ الحضارة اليونانية الرومانية : وهذه تمثل المؤثر الأجنبي الثاني الهام للحضارة العربية الإسلامية ، فاليونان أمة عريقة في الفلسفة والعلوم والفنون والآداب ، ظهر فيها أساطين الفكر في العالم القديم كسقراط وأفلاطون وأرسطو في الفلسفة ، وأبو قراط وجالينوس في الطب ، وإقليدس في الهندسة ، فانتشر علمهم وفكرهم في الشرق على أثر فتوح الاسكندر الأكبر وقيام أسر يونانية حاكمة في الشام ومصر .

وفي القرون السابقة على مجيء الإسلام نقل السريان في الشام والعراق إلى لغتهم السريانية كثيراً من تأليف هؤلاء العلماء وغيرهم ممن نبغوا في الرياضيات والكيمياء والفلك والجغرافيا ، وعلقوا عليها وشرحوها . كما أنشأت مدارس في المدن الكبرى كانطاكية وقيصرية ونصيبين والرها لتعليم تلك العلوم ، وكان لمدرسة الإسكندرية دور بارز في هذا الميدان ، فانتشرت الحضارة اليونانية في أقطار الشرق التي تأثرت بحضارة الرومان ولا سيما في تشريع القوانين وهندسة الطرق .

وجاءت حركة الترجمة التي بدأت في زمن الأمويين وبلغت أوجها في العصر العباسي الأول ولا سيما في عهد الخليفة المأمون ، تعمل على نقل الكتب اليونانية في العلوم المختلفة في مؤسسة (بيت الحكمة) المشهورة ، إلى اللغة العربية ، وبذلك انتقل فكر اليونان القديم وعلومهم إلى المسلمين الذين لم يقبلوا بصورة خاصة على ملاحم الإغريق ومسرحياتهم وأساطيرهم ، فانصرفوا عنها لما تضمنته من مظاهر الوثنية التي لا تتمشى مع دياناتهم .

ثالثا: الدور الحضاري الذي قام به الاسلام في تلك الاقاليم :

من هذه المصادر السالفة الذكر انبعثت حضارة إسلامية تمثلت فيها القيم والمثل العليا وكانت بحق مناراً احتذت به شعوب العالم وما زالت حتى يومنا الحاضر . فالمدقق في هذا الموضوع يدرك أن الحضارة الإسلامية التقت بالتقاليد المختلفة في الأقاليم التي انضوت تحت لواء الإسلام وصارعتها ، فقضت على ما يخالف الدين الإسلامي منها ، واختلطت بالتقاليد الأخرى فعدلتها حتى تتمشى مع الفكر الإسلامي ، وأعطى الإسلام في تشريعاته هذه الفرصة للوفاق والامتزاج الحضاري .

وكان انتشار الحضارة الإسلامية سهلاً يسيراً كانتشار الدين نفسه ، فالمسلمون لم يبذلوا جهوداً كبيرة في نشر دينهم أو نشر حضارتهم ، وكان دورهم في ذلك أن قدموا الدين لطالبيه ، وعلموا الناس سلوك هذا الدين ونظمه ، وهذا يختلف اختلافاً كبيراً عن نشر المسيحية التي كانت تحمل الناس على اعتناقها بمختلف الأساليب . بينما الإسلام كفل لأصحاب الديانات الأخرى الحرية ، بل سوّى بينهم وبين المسلمين في الحقوق والواجبات .

وقد شملت الحضارة الإسلامية النواحي النظرية والنواحي العمرانية ، فعرّفت الشعوب قاعدة الشورى في الحكم ، ونظام البيعة الذي مارسه المسلمون منذ خلافة أبي بكر الصديق ، كما أوضحنا في الفصل الثاني . وعرّفت الشعوب في الاقتصاد حق الفقير من مال الغني ، ونظام بيت المال ، ورد الأمانات إلى أهلها ، كما عرّفوا في الآداب الدينية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتزموا بترك المحرمات وأداء الصلوات وعرفوا في الآداب الاجتماعية اللباس الفضفاض والعمامة والقلنسوة ، واهتموا بالنظافة اهتماماً

كبيراً ، والتزموا بمراسم الوفاء ، وحصلت المرأة على العديد من الحقوق الجديدة فعلا شأنها وشاركت في الحياة العامة .

وكان ميدان العمارة والإنشاء من الميادين الأخرى الهامة التي ترك فيها المسلمون بصماتهم واضحة جلية . فخلّفوا في حواضر الإسلام الكبرى في مشرقه ومغربه على السواء كطشقند وبخارى وسمرقند وفرغانة وهراة وغزنة ونيسابور والرّي وشيراز وبغداد والموصل وسامراء والبصرة والكوفة ودمشق وحلب والقدس والفسطاط والقاهرة والقيروان وتونس وتاهرت وفاس ومراكش والرباط وقرطبة وإشبيلية وغرناطة وفي غيرها من المناطق التي دخلها الإسلام وعاش فيها المسلمون كجزيرة صقلية وجنوب فرنسا وإيطاليا في هذه البلاد وتلك المدن خلف المسلمون العديد من المباني والعمائر كالمساجد والمدارس والكتاتيب والأضرحة والقصور والحمامات والخنقاوات(١) والوكالات والفنادق والأسبلة والقلاع والحصون والأربطة وغير ذلك من المنشآت الدينية والإجتماعية والحربية والاقتصادية التي ما يزال الكثير منها قائماً ومحتفظاً بتخطيطه وهندسته وعناصره الأولى كشاهد صدق ودليل حي على ما وصلت إليه العمارة الإسلامية وفنونها من تطور وتقدم وازدهار ، وفي نفس الوقت على ما بلغته حياة المسلمين من ثراء وترف وبذخ ونعمة(٢) .

رابعا : خصائص الحضارة العربية الاسلامية :

١ ـ الحضارة العربية الإسلامية حضارة انسانية :

ونعني بكونها حضارة انسانية أنها حضارة ملائمة لفطرة الانسان وخصائصه المتعددة التي ينفرد بها دون سائر المخلوقات ، ومسايرة لتطلعاته

(١) الخنقاوات هي عبارة عن دور لرعاية المسنين من الرجال والنساء .

(٢) محمد توفيق بلبع وآخرون ، الخلافة والفتوح الإسلامية ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ص ١٩٧ - ٢٠٠ .

ونشاطاته السوية وقادرة على تلبية حاجاته لأنها اعطتنا في جملة ما أعطت اكمل تصور للانسان باعتباره كائناً بشرياً خلقه الله تعالى واستخلفه في هذه الأرض من أجل غايات سامية وأهداف نبيلة .

والانسان في نظر الإسلام كائن حي خلقه الله تعالى على نحو خاص يختلف عن باقي المخلوقات وتبعاً لهذا التفضيل وهذه المنزلة الخاصة التي انفرد بها الانسان فإن الله تعالى قد اختاره من بين المخلوقات جميعاً ليكون خليفة الله في الأرض ، لأن لدى الانسان الطاقة العقلية والنفسية والحسية التي تجعله قادراً على الافادة مما خلقه الله في السموات والأرض ، فالانسان مؤهل بأصل خلقته لتحمل أمانة التكليف الإلهي ، فالتكليف والمسؤولية المترتبة عليه أمران موافقان لفطرة الانسان مسايران لما خصه الله به من قدرات لازمان لاستقامة سيرته في الحياة الدنيا وتحقيق سعادته فيها وعن طريق استجابة الانسان السوية لهما يكون جزاؤه في الحياة الأخرة نعيماً مقيماً . وكان من تمام رحمة الله وبالغ حكمته أنه لم يترك الانسان في هذه الحياة الدنيا يسير على غير هدى إذ أرسل إليه الرسل الذين يحملون وحي الله وهديه وتشريعاته ، قال تعالى : ﴿ رُسُلاً مبشرينَ ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(١) .

فلم يكن الأمر مقصوراً على مجرد الفطرة الانسانية أو تسخير المخلوقات الأخرى لمصلحة الانسان وإنما امتدت رحمته تعالى ومشيئته لترشيد الانسان إلى ما يصحح مسيرته في الحياة الدنيا وما يفسر له كل ما يعجز عن تفسيره من أمور هذه الحياة ، واستمر ذلك الوحي الإلهي إلى أن تم واكتمل برسالة الاسلام ورسوله . ومع التسليم بما سبق يتضح لنا جانب مهم آخر هو وحدة المصدر في الخلق وفي الهداية ، فالانسان مخلوق بقدرة الله تعالى وعلمه وحكمته والله تعالى هو الذي أوحى إليه بمعطيات الحضارة الاسلامية ومن هنا يبدو التوافق الكبير بين الانسان باعتباره مخلوقاً مفطوراً على

(١) النساء : ١٦٥ .

نحو خاص وبين الوحي الإلهي الذي يشكل لب الحضارة الإسلامية وفي هذا ضمان واضح لسلامة الأسس التي قامت عليها حضارة الإسلام ودليل أكيد على أنها الحضارة التي يمكن أن يتحقق للانسانية في ظلها أقصى ما تطمح إليه من سعادة في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة .

٢ ـ الحضارة الإسلامية حضارة عالمية :

ومعنى ذلك أنها ليست حضارة محصورة في جنس واحد من بني الانسان أو في مجموعة أجناس تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً . . . ﴾(١)

والواقع التاريخي يزيد هذا المعنى تأكيداً فقد وسعت هذه الحضارة سكان الدنيا كلها رغم اختلاف عقائدهم وأنماط حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتعدد أجناسهم ولغاتهم ومن دخل منهم في دين الإسلام ومن بقي منهم في ظل الحضارة الإسلامية على دينه القديم .

والدليل الواضح على عالمية الحضارة العربية الاسلامية أن كل البيئات والشعوب التي عاشت هذه الحضارة قد استطاعت أن تطور حياتها معنوياً ومادياً تطويراً واضحاً في ظلها وترتقي بجميع مكونات هذه الحياة رقياً كبيراً على حين أنها كانت تعاني من تخلف كبير في حياتها الروحية والعقلية والاجتماعية وأساليب العيش ، ومناطق ازدهار الحضارة الاسلامية في بلاد الشام وفي العراق وما وراءه وفي الشمال الافريقي وفي جنوب غربي أوروبا شواهد تاريخية لا تقبل النقض ، لأن أبناء هذه البلاد أنفسهم كانوا حملة لواء هذه الحضارة بعد أن هداهم الله إلى الدخول في الإسلام فلم تكن مفروضة عليهم دون أن يتمثلوها في نفوسهم ويؤمنوا بها ويكونوا جزءاً من نسيجها .

٣ ـ الحضارة الاسلامية حضارة متطورة :

لما كانت رسالة الاسلام هي خاتمة الرسالات السماوية . وكان الاسلام

---

(١) سبأ : ٢٨ .

خاتم الأديان ، ورسوله الكريم خاتم الرسل ، فإن من الضروري أن تكون الحضارة المؤسسة على هذه الرسالة الخاتمة حضارة متطورة تستطيع أن تسع كل تطورات الحياة الانسانية بحيث تواجه ما يجد في حياة الانسان من تطورات ، ولا تقف جامدة أمام متغيرات الحياة البشرية في واقعها الفردي والاجتماعي ، ولا تقف عاجزة عن الفصل في القضايا المتجددة لهذا المجتمع البشري ، في بيئاته المختلفة ، المتنوعة في نشاطها الانساني ، واعرافها وأنظمة حياتها . ولذلك أقامت أساس تشريعاتها وقوانينها وآدابها على أصلين ثابتين واضحين ، هما : الكتاب والسنة ، فنرى المبادىء والأصول الكلية جميعها تعود إليهما ، والقرآن محفوظ بحفظ الله تعالى ، والسنة النبوية ـ كذلك ـ محفوظة بتوجيه الله تعالى المسلمين إلى حفظها والأخذ بها أمراً ونهياً . وقد دعا الله تعالى المسلمين إلى تدبر القرآن الكريم وفهمه وفقهه ، قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مُدكر ﴾[1] . ومن ثم فإن علماء المسلمين في استجابتهم لدعوة الله تعالى قاموا بوضع الكثير من قواعد التشريع وأصوله ، ليواجهوا ما يجد في حياة الناس من وقائع وقضايا مما لم يرد فيه نص قاطع من كتاب أو سنة ، كذلك اجتهد المسلمون في مواجهة متغيرات الحياة اجتهاداً واسعاً استجابة لدعوة الله لهم لأعمال العقل والنظر في الكون من حولهم .

وفي عهد الرسول الأعظم محمد ﷺ والوحي ينزل عليه اجتهد نفر من أصحابه في بعض شؤون الحياة ، فأقرهم الرسول ﷺ على اجتهادهم ، وكان في ذلك مصلحة للمسلمين . ففي غزوة بدر سنة ٢ هجرية أشار أحد أصحابه رضوان الله عليهم أن يغير الرسول موقع جيش المسلمين تبعاً لنظرة عسكرية، فوافق الرسول الكريم ﷺ وأنفذ تلك المشورة . وعلى هدى الرسول ﷺ سار أصحابه من بعده ، وتبعهم باحسان علماء المسلمين وفقهاؤهم ، فلم تصادفهم واقعة ولم تجد أمامهم حادثة إلا وكان لهم فيها رأي واجتهاد وحل

(١) القمر : ١٧ .

فخلفوا لنا تلك الثروة الكبيرة من العلوم والفنون كانت وما تزال معلماً بارزاً من معالم الحضارة الاسلامية ومصدراً مهماً من مصادر التطور الإيجابي في الحضارات التي جاءت على أثر الحضارة الإسلامية مثل الحضارة الأوروبية الحديثة .

٤ ـ الحضارة العربية الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان :

لما كانت الحضارة الاسلامية إنسانية وعالمية فإن مقتضى إنسانيتها وعالميتها أن تكون صالحة للتطبيق في كل البيئات الانسانية وفي أي بقعة من الأرض وأن تكون كذلك صالحة على مر الأزمان وتطاولها باعتبارها رسالة السماء الخاتمة لكل الرسالات . ويمكننا أن نتبين مدى هذه الصلاحية إذا نظرنا في الأسس العقائدية والتشريعية والأخلاقية التي جاء بها الاسلام والتي قامت عليها الحضارة الاسلامية وبهذا تتوافر لنا براهين موضوعية واضحة الدلالة على صلاحية هذه الحضارة لكل زمان ومكان بالاضافة إلى أهمية ما كتبه الباحثون المختصون حول دور هذه الحضارة وقدرتها على العطاء الانساني المتجدد إضافة إلى الدليل التاريخي الذي لا يمكن اغفاله في مثل هذا المجال .

ففي مجال الاعتقاد والتشريع والأخلاق نجد الحقائق التالية : أولها ، أن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له ولا معبود سواه ، وثانيها ، أن الله تعالى خالق هذا الكون ومبدعه على هذا النحو المعجز من حيث الدقة والنظام والتوازن والعلاقات وخلق الانسان . وثالثها ، أن الله سبحانه وتعالى سخر هذا الكون بما فيه للإنسان وزود هذا الانسان بالطاقات النفسية والعقلية والجسدية التي تؤهله لاستغلال ما فيه من خيرات ، ورابعها ، أن الاسلام قد سن من التشريعات والقوانين ما يناسب فطرة الانسان وما تستقيم به حياته ، وجاءت تشريعاته قاطعة مفصلة في المجالات التي يعجز العقل البشري عن الاجتهاد النافع فيها . وخامسها ، أن الحضارة الإسلامية حضارة أخلاقية ، للقيم

الفاضلة فيها المقام الأول ، والنشاط الانساني فيها محكوم بهذه القيم خاضع لها . وسادسها ، أن الإسلام قد ترك للعقل الإنساني حرية الابداع والابتكار في مجال استغلال خيرات هذا الكون ، ولم يقيد حرية السلوك الانساني في هذا المجال ، ولكنه وضع ضوابط انسانية تحكم هذا السلوك من الانحرافات المنافية للفطرة الانسانية .

٥ ـ الحضارة العربية الاسلامية تؤمن بالفكر والعلم وسيلة للتقدم والرقي :

إن أولى آيات القرآن الكريم تحض على التعليم : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق . . . ﴾(١) ولا يزال الإسلام يحض على العلم ويدعو إليه في آيات عزيزة كثيرة : ﴿ الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾(٢) . فعلم البيان مقرون بخلق الإنسان . وفي آية أخرى يقول الكتاب العزيز : ﴿ وقل رَبِّ زدني علماً ﴾(٣) .

ويمجد الإسلام العلماء ويفرق في الحكم بينهم وبين العامة فيقول الكتاب العزيز : ﴿ قُل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾(٤) . ذلك أنه كلما ازداد المرء علماً ازداد قرباً إلى الله وخشية له ، والقرآن يسجل ذلك في قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾(٥) . فالعلماء اكثر الناس فهماً لآلاء الله ووعياً لآياته وتمثلاً لبديع قدرته : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾(٦) . ويخاطب القرآن الكريم العقل والقلب جميعاً ويدفع بهما إلى التأمل في كل ما خلق الله فإن العقل الراجح والقلب المتفتح إذا أمعن النظر في آيات الله كان أقرب إلى الإيمان وأدنى إلى

(١) العلق : ١ .
(٢) الرحمن : الآيات ٣ ـ ٤ .
(٣) طه : ١١٤ .
(٤) الزمر : ٩ .
(٥) فاطر : ٢٨ .
(٦) العنكبوت : ٤٣ .

التقوى : ﴿ لخلقُ السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾[١] . وفي نطاق دفع العقل الإنساني إلى التفكير يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن آياته خلقُ السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم والوانكم إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[٢] .

ويخاطب الإسلام العقل ويحضه على التفكير في خلق الكون والوصول ـ ما استطاع ـ إلى شواطىء المعرفة ، ومراسي العلم ، فيقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿ إن في خلقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المُسخر بين السماء والأرض لأيات لقوم يعقلون ﴾[٣] .

وإذا كانت الحضارة بنت العلم ، والعلم هدف وضالة وغاية يسعى المسلم إليها جميعاً من واقع كتابه الذي آمن به ، وتعاليم رسوله الذي اهتدى به ، فليس ثمة شك في أن العلم يدفع إلى الخلق والابداع والتفكير والتدبر ، وكل من الخلق والإبداع والتفكر والتدبر ينبت حضارة وينشىء معرفة .

٦ ـ الحضارة العربية الاسلامية تمزج بين عالم المادة وعالم الروح :

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من مادة وروح وأمده بكل أسباب الحياة في جانبيها المادي والروحي فهيأ للجسم البيئة الصالحة التي يعيش فيها على وجه الأرض وهيأ سبحانه وتعالى للجانب الروحي غذاءه من وحي السماء الذي نزل إلى الإنسان على يد رسل الله تعالى . فالانسان في مفهوم الحضارة الإسلامية هو ذلك الكائن المادي والروحي ، وأن حياته الصالحة المستقيمة هي تلك التي يراعي فيها هذا الجانب وذاك ، ويظهر ذلك جلياً في تعاليم

---

(١) غافر : ٥٧ .
(٢) الروم : ٢٢ .
(٣) آل عمران : الآيتان ١٩٠ ـ ١٩١ .

الاسلام وتشريعاته فإلى جانب الدعوة إلى الايمان والحرص على العبادة نجد الدعوة إلى الأخذ بالأسباب المادية للحياة ، ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى : ﴿ آلم ذلك الكتب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾[2] .

وعلى هذا الأساس أقام المسلمون صرح الحضارة الاسلامية بمعطياتها الروحية والمادية ، وحققت للإنسانية أقصى درجات طموحها في تلك العصور التي كان فيها العالم من حولها يعيش خواء روحياً واخلاقياً وتخلفاً واضحاً في صناعة الحياة ، مقصراً عن بلوغ الغايات الانسانية السامية التي بلغتها الحضارة الاسلامية في فترة قصيرة من عمر الزمن . فكل نشاط مادي في ظل الحضارة الاسلامية له غاية أخلاقية ، وفيه جانب روحي فالرسول محمد ﷺ يقول : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه انسان أو طير أو بهيمة إلا كانت له به صدقة » . ويتمثل الجمع بين الروحية المعتدلة والمادية المقتصدة في الآية الكريمة من كتاب الاسلام : « وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . . . »[3] .

المراجع

١ - أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر العربي ، القاهرة ١٩٦٤ م .

(١) البقرة : الآيات ١ - ٥ .
(٢) الملك : ١٥ .
(٣) القصص : ٧٧ .

٢ ـ أحمد إبراهيم الشريف : دراسات في الحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٦ م .

٣ ـ أحمد شلبي : تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٦ م .

٤ ـ ابن النديم (محمد بن اسحق) : الفهرست .

٥ ـ أنور رفاعي : الانسان العربي والحضارة ، دمشق ١٩٥٧ م .

٦ ـ أنور رفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ، بيروت ١٩٧٧ م .

٧ ـ جاك . س . ريسلر : الحضارة العربية ، ترجمه إلى العربية غنيم عبدون ، مراجعة أحمد فؤاد الأهواني ، طبعة القاهرة .

٨ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة .

٩ ـ عبد الرحمن علي الحجي : الحضارة الاسلامية في الأندلس ، بيروت ١٩٦٩ م .

١٠ ـ عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ م .

١١ ـ محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية (جزءان) ، دمشق ١٩٦١ م .

١٢ ـ هاميلتون جب : دراسات في حضارة الاسلام ، الترجمة العربية ، بيروت ١٩٦٤ م .

١٣ ـ هل : الحضارة العربية ، الترجمة العربية ، سلسلة الألف كتاب (٨٨) ، القاهرة ١٩٥٦ م .

١٤ ـ هنري ماسيه : الإسلام ، الترجمة العربية ، بيروت ١٩٦٤ م .

الفصل الثاني

النظام السياسي

أولاً : الخلافة

ثانياً : الوزارة

ثالثاً : الكتابة

رابعاً : الحجابة

أولا : الخلافة :

اختلف المسلمون عندما علموا بوفاة الرسول الأعظم محمد ﷺ ، فقد هزهم موته هزاً عنيفاً ، وذهل بعضهم حتى خرج عن حد التعقل ، فقد قام عمر بن الخطاب (رض) يأبى أن يصدق الخبر ، ويهدد من يقول إن الرسول قد مات ، والتف حوله الناس لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً أو يفكروا في شيء . ولم يحتفظ برباطة جأشه إلا أبو بكر الصديق (رض) الذي واجه الموقف بشجاعة ، فوقف يخطب الناس ويقول : « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » ثم تلا عليهم قول الله تعالى : ﴿ وما مُحمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَت من قَبلِهِ الرُّسُلُ أفإين مات أو قُتِلَ انقلبتُم على أعقبكم ومن يَنقَلِب على عَقِبيه فلن يَضُر الله شيئاً وَسيجزي الله الشكرين ﴾[1] . وبهذا سكن الناس ، وأخذ كبار المهاجرين يفكرون فيما يكون عليه الأمر بعد وفاة الرسول محمد ﷺ .

ما كاد الأنصار يسمعون بوفاة محمد ﷺ حتى سارعوا إلى الاجتماع في

(١) آل عمران الآية : ١٤٤ .

سقيفة بني ساعدة واتجهوا بتفكيرهم إلى سعد بن عبادة ، زعيم الخزرج الذي كان مريضاً فأخرجوه إلى الاجتماع ، فخطبهم سعد مبيناً فضلهم وأثرهم في قيام الدولة ، ودعاهم إلى الاستمساك بحقهم في تولي الأمر ، والانفراد به دون الناس .

وبلغ خبر اجتماع الأنصار إلى المهاجرين في المسجد ، فسارع إلى السقيفة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وتبعهم المهاجرون . ودارت مناقشات بين المهاجرين والأنصار ، فيمن هو أحق بخلافة النبي محمد ﷺ في رياسة الدولة ، وقد أنهى المناقشة أبو بكر الصديق بخطاب ألقاه ، بين فيه مركز المهاجرين وأحقيتهم ، ثم ذكر الأنصار فعرّف حقهم ولم ينكر فضلهم ، وأوضح أن العرب لا تقبل الخضوع إلا لمن هو من قريش . ثم خرج من كل ذلك بحكم سليم ، وهو أن الأمراء يجب أن يكونوا من المهاجرين ، على ألا ينفردوا بالأمر دون الأنصار ، بل الأنصار هم وزراؤهم وأهل المشورة فيهم . فاستراح الجميع لمرأيه ، وانتهز الفرصة عمر ابن الخطاب فأعلن ترشيح أبي بكر لفضائله ، فهو أكبر المهاجرين سناً ، وهو أقدم الناس إسلاماً ، وأكثرهم تضحية في سبيل الدعوة ، ثم هو رفيق النبي محمد ﷺ في الهجرة ، وقد جعله النبي يصلي بالناس بدله حين كان مريضاً . ثم بايع أبا بكر ، وبايعه المهاجرون ، وبايعه الاوس ، فبايعته الخزرج وبقية المسلمين في المدينة . وبعد دفن جثمان الرسول محمد ﷺ بايع المسلمون في المسجد أبا بكر بيعة عامة ، وبذلك تم انتخابه خليفة . ومنذ ذلك الحين قام نظام الخلافة الاسلامية .

وما كادت البيعة تتم لأبي بكر الصديق (رض)، حتى وقف في المسجد وألقى خطاباً ، كان أول حديث له في خلافته ، أوضح فيه مفهوم الحكومة في ظل الإسلام . قال : « أما بعد ، أيها الناس ، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني .

الصدق أمانة والكذب خيانة . الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه (أرد إليه حقه) إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » .

بهذا الخطاب رسم أبو بكر سياسة الدولة الاسلامية ، وحدد العلاقة بين الحاكم والمحكومين . فهو يقرر تقريراً واضحاً : أن الحاكم ملتزم بنصوص القانون ، فإذا خالفها كان للرعية ألا تطيعه . والحكم شورى يتعاون فيه الحاكم والمحكوم ، فيُعَان الحاكم إن أحسن ، ويُقوم بالتوجيه والنصيحة إن حاد عن الطريق السليم . كما يقرر حق المساواة كاملاً بين الناس في نظر الحاكم كما هو في نظر القانون ، فالضعيف قوي بقوة القانون حتى يرد إليه حقه ، والقوي ضعيف بسطوة القانون حتى يؤخذ الحق منه . وسياسة الدولة مبنية على القوة العادلة وسبيلها الجهاد في سبيل الله ، أي الدفاع عن الحق في الداخل والخارج . وما تخلى قوم عن نصرة الحق إلا ذلُّوا . وبناء الأمة سليم ما دام المجتمع سليماً . فإذا عمت الفاحشة وانتشر الفساد ، أصاب الدولة الضعف والانحطاط بفساد المجتمع .

وحين أحس أبو بكر الصديق (رض) بدنو أجله استخلف على المسلمين عمر بن الخطاب (رض) ، وقد جاء هذا العقد متمشياً مع القواعد والأصول الاسلامية المتبعة في هذا الشأن . فقد رأى - قبل وفاته - بحكم تجربته وخبرته وحرصه الشديد على مصالح المسلمين أن يجنبهم الفرقة والإنشقاق كما حدث في السقيفة لا سيما وأن الظرف قد تغير كثيراً ، حيث بدأت جيوش الدولة تناح في أملاك أكاسرة الفرس ، وأباطرة الروم ، وتقف نداً قوياً ، بل ومنافساً خطيراً لأصحاب أعظم قوتين معروفتين في ذلك الوقت .

من ناحية أخرى رأى أن يخلفه في هذا المنصب شخص كفء قادر على تسيير دفة الحكم بثقة وعزيمة وإصرار على ما بداه الرسول محمد ﷺ وخليفته الأول ، لذلك كله وقع اختياره على عمر بن الخطاب لينهض بالمهمة خاصة وأن أبا بكر كان على معرفة ودراية كافية بكل ما يتمتع به مرشحه من خصال كريمة وصفات طيبة لطول صحبتهما منذ أيام الرسول . فاستشار فيه مجموعة من كبار الصحابة كعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبد الله ، وعثمان بن عفان ، فاستصوبوا الرأي وامتدحوا عمر ، حتى روي أن عثمان قال عنه : « سريرته خير من علانيته ، وليس فينا مثله ». بعد ذلك لقي الخليفة المسلمين وخطبهم قائلاً : « أترضون بمن استخلفت عليكم ؟ فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة ، إني قد استخلفت عليكم عمراً ، فاسمعوا له واطيعوا ، فإني والله ما ألوت من جهة الرأي » فأجابوه قائلين : سمعنا وأطعنا . بهذه الصورة تم اختيار عمر وترشيحه للخلافة ومبايعته البيعتين : الخاصة والعامة . لما آل الأمر إلى عمر بن الخطاب قام بأعباء المهمة على أفضل وجه وأكمله ، فسار على الدرب الذي خطه الرسول الكريم ، وأتبعه أبو بكر ، فكان ثاني الراشدين دائم الإهتمام بأمور المسلمين والتعرف على أحوالهم كما يظهر في قوله (رض) : « والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ، لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه » ، كما كان في نفس الوقت يأمر عماله بأتباع هذه السياسة المسؤولة والحكيمة مع الرعية ، فشدد في اختيارهم ومحاسبتهم ، حتى كان يقول : « لا تصلح الوالي إلا بأربع خصال إن نقصت واحدة لم يصلح له أمر ولا نهي : قوة على جمع المال من أبواب حله ، ووضعه في حقه ، وشدة لاجبروت فيها ، ولين لا وهن فيه ».

وحين أحس عمر بالموت ، ترك الأمر شورى في ستة من كبار الصحابة ، هم من الذين ما ت النبي ﷺ وهو عنهم راض وبشرهم بالجنة ، وهم الذين كان الناس ينظرون إليهم ، ويرجعون في أمورهم لهم ، وهم علي ابن أبي طالب ، وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ،

وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص . وقال لهم : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض ، وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم . ولكني أخافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس » وطلب إليهم أن يتشاوروا ويختاروا من بينهم الخليفة ، وبلغ من شدة خوفه من الفتنة وانفراط عقد أمة الإسلام إذا تفرقت كلمات هؤلاء الستة أنه أمر صهيباً الرومي بعد أن منحهم ثلاثة أيام فقط للمشاورة والإختيار أن يشيح بالسيف رأس من يخرج عن رأي الأغلبية .

ودارت بين المجتمعين مناقشات ومحاورات أفاضت في تفاصيلها المصادر التاريخية المختلفة التي اتفقت جميعها على اختيار أهل الشورى لعثمان بن عفان ومبايعته للخلافة ، فكانت بمثابة « البيعة الخاصة » ، بعد ذلك ذهب « الخليفة » المنتخب صحبة أهل الشورى الى المسجد النبوي حيث اجتمع إليه المسلمون ، ومن وفد من أهل الأمصار ، فصلى بهم ، ثم صعد المنبر ، فخطب الناس ووعظهم فأقبلوا يبايعونه « البيعة العامة » .

كذلك قام عقد الخلافة لعلي بن أبي طالب على نفس القواعد والأصول السابقة ، على الرغم من استمرار اشتعال نار الفتنة التي أودت بحياة سلفه (رض) ، فبعد مقتل عثمان اجتمع الثوار إلى أهل المدينة وقالوا لهم : « أنتم أهل الشورى الذين تعقدون الامامة ، وحكمكم جائز على الأمة فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع » .

فاتفقت كلمة أهل المدينة على اختيار علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) فاجتمعوا إليه وطلبوا منه قبول الخلافة ووضع حد لهذه الأحداث التي نزلت بدولة الاسلام ، فوافقهم قائلاً : « قد اجبتكم واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدهم ، الا إني أسمعكم

وأطوعكم لمن وليتموه ». ولكنهم تمسكوا به فكانت بمثابة البيعة الخاصة لآخر الخلفاء الراشدين .

فلما أصبح اجتمع علي بن أبي طالب إلى الناس بالمسجد وخطبهم قائلا : « أيها الناس . . . إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمَّرتم ، وقد افترقنا بالأمس على أمر وكنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم ، ألا وإنه ليس لي دونكم إلا مفاتيح ما لكم معي وليس لي آخذ درهماً دونكم ، فإن شئتم قعدت لكم وإلا فلا أجد على أحد ، فقالوا : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس فقال : « اللهم اشهد » ، ثم قام العامة فبايعوا ، فكانت « البيعة العامة » .

هكذا أوضحت أحداث اختيار علي بن أبي طالب للخلافة وعقد الامامة له ، من أتباع قواعد وأصول الشورى في الاسلام ، كما أجلت كلمات الخليفة الراشد الرابع في النص السابق حق الأمة كلها ممثلة في أهل العقد والحل والمسلمين جميعاً من ورائهم في اختيار الخليفة ومبايعته وكذلك حقها في مباشرة الرقابة .

بعد مقتل آخر الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب حدث تغير واضح في « الشورى » واختيار الخليفة من جهة ، ومجموعة « أهل الحل والعقد » وشكلها من جهة أخرى ، وإن ظلت مراسم البيعتين « الخاصة والعامة » باعتبارهما التطبيق العملي لشرعية عقد الخلافة دون تبديل . فقد سن والي الشام ومؤسس الدولة الأموية (٤١ ـ ١٣٢ هـ) معاوية بن أبي سفيان الذي آلت إليه أمور المسلمين من بعد علي ابن أبي طالب ، مبدأ « الوراثة » عندما عهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد وطلب الى الناس أن يبايعوه بولاية العهد ، وهذه أول مرة ينتقل فيها اختيار الخلفاء ، من مبدأ الشورى والانتخاب ، إلى مبدأ الوراثة .

ونظراً لما كانت الأمة الاسلامية تمر به في ذلك العصر من موجة انشغال

بالفتوحات الواسعة في كل ناحية ، فقد سلم الناس للأمويين ، فتوالوا على الفتوحات واحداً بعد الآخر ، وشيئاً فشيئاً أصبحت الخلافة وكأنها ملكية يحصر الحق فيها على أفراد بيت واحد .

وعندما قامت الدولة العباسية دخلت أمة الاسلام طوراً جديداً وعصراً جديداً ولم يجد المسلمون غضاضة في أن يقتبسوا عن الحضارات التي احتكوا بها ويأخذوا منها وعنها ما لا يتعارض مع أحكام شريعتهم . وهكذا فقدت نظم الحكم والادارة في الدولة الاسلامية كثيراً من عناصر بساطتها الأولى ، وجنحت نحو التعقيد وزيادة المراسيم مما تناسب مع الوضع الجديد في الدولة .

ففيما يتعلق بالخلافة ، أقام العباسيون حقهم في الحكم بوصفهم وارثي بيت الرسول عليه الصلاة والسلام . ويقال أن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الالهي أو المقدس للحكام ، بمعنى أن الحاكم يتولى بتفويض مقدس من الله ، وكل حاكم لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصباً للحكم . وهكذا أصبح الخلفاء العباسيون يحكمون بتفويض من الله لا من الشعب ، مما جعل خليفة مثل أبي جعفر المنصور يقول « إنما أنا سلطان الله في أرضه » . ولا يخفى علينا أن هذا الاتجاه الجديد يخالف ما كان عليه وضع الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين بل والأمويين . فأبو بكر الصديق ينادي في الناس بعد توليته الخلافة قائلاً : « فإن أحسنت فاعينوني ، وإن أسأت فقوموني ». والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز يقول : « لست بخير من أحدكم ولكنني أثقلكم حملاً ».

وبعبارة أخرى فإن العباسيين جعلوا من الخلافة نظاماً ثيوقراطياً أي يسيطر عليه زعماء الدين فسلطة الخليفة العباسي السياسية مستمدة من مكانته الدينية ومن هذا المنطلق حرصوا على أن يظهروا الفارق بين خلافتهم وخلافة بني أمية ، فالأمويون لا ينتمون إلى البيت النبوي ، ولذا كانت حكومتهم حكومة دنيوية بحته .

وترتب على هذا وذاك من الآراء أن أصبح الخليفة العباسي مطلق النفوذ ، مستبداً ، بيده أمور الدين والدنيا . وهو المصدر الأول والأخير للسلطة وصاحب الأمر والنهي في الدولة . وما دام الخليفة العباسي قد أصبح ظل الله في أرضه فإنه كان عليه أن يحيط شخصه بالقداسة والرهبة فاحتجب عن رعيته ، واتخذ السياف ، وأحيط بلاطه بقواعد من البروتوكول أشبه بتلك التي سادت بلاط آل ساسان ، بحيث ينحني الداخل على الخليفة أمامه ، ويقبل الأرض بين يديه ، وإذا قرب منه قبل طرف رداءه ، وهذا شرف كبير لا يناله إلا المقربون . ولكي يقوي الخليفة العباسي هذه الصفة الدينية ، صار يرتدي بردة النبي عليه الصلاة والسلام عند توليه الخلافة أو حضوره الحفلات الدينية ، ليبدو في صورة خليفة النبي في حكم المسلمين ، كذلك تلقب الخلفاء العباسيون بلقب « إمام » تأكيداً لصفتهم الدينية ، ومع ذلك فإن تحجبهم عن الناس جعلهم لا يؤمون الناس في الصلاة ولا يقيمون خطبة الجمعة مثلما كان يفعل الخلفاء الراشدون .

وقد ظل نظام الحكم في الدولة العباسية استبدادياً حتى عهد الرشيد ثم أخذ نفوذ الخليفة يتضاءل بعد ذلك .

ذلك أن الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني اتصفت بالضعف والوهن نتيجة لازدياد نفوذ الأتراك ، حتى أصبح خلفاء ذلك العصر مسلوبي السلطة محرومي النفوذ ، بل لقد غدا معظمهم العوبة في أيدي قادة الأتراك ، يولون من شاءوا الخلافة ويعزلون من يشاؤ ون ويلغ من تفاقم نفوذ الأتراك في ذلك العصر أن خليفة مثل المعتز كان لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا في الليل ولا في النهار خوفاً من الأتراك ، وخاصة بغا الصغير . ولم ير بعض الخلفاء العباسيين بداً من مصانعه الأتراك وتملق قادتهم ، حتى استنجد الخليفة المستكفي ببني بويه ، فما كان من معز الدولة أحمد بن بويه إلا أن أتى إلى بغداد ، ولكنه بدأ بالحجر على الخليفة وسمل عينيه . وهكذا

ازدادت الخلافة العباسية ضعفاً في عهد بني بويه منذ القرن الرابع للهجرة ، ولجأ بنو بويه إلى تزويج بناتهم من بعض الخلفاء حتى تتحول الخلافة بذلك إلى أحفادهم ، وأسرف الخلفاء في تملق أمراء بني بويه وأضفاء الألقاب الضخمة عليهم مثل : تاج الملة وضياء الملك وغياث الأمة ، وشاهنشاه .

ولما دخلت الخلافة العباسية تحت نفوذ السلاجقة ، حل سيد محل سيد آخر ، وصار سلطان السلاجقة هو المتحكم في الخلافة . على أننا نلاحظ أن السلاجقة لم يتخذوا من بغداد مركزاً لهم وإنما أقاموا في إيران واكتفوا بأن ينوب عنهم في مركز الخلافة أحد موظفيهم للاشراف على شؤون العراق وترتيب أموره . ولعل هذا مما مكن الخلافة العباسية من أن ترفع رأسها في أواخر العصر السلجوقي ويحاول الخليفة استرداد مكانته .

أما ولاية العهد فقد أصبحت وراثية في عهد الأمويين والعباسيين بعد أن ظلت على أساس الشورى أيام الخلفاء الراشدين . ومعنى هذا أن الخليفة العباسي كان يعين ولي عهده ويأخذ له البيعة في حياته من وجوه الناس والأعيان وكبار القواد ، وعن طريق الولاة في الأقاليم . وأحياناً كان يلجأ الخليفة إلى تولية العهد أكثر من واحد من أبنائه ويرتب لهم تتابع توليهم الخلافة ، مما أثار كثيراً من الفرقة بين الأخوة ، ذلك أنه ما كاد يتم الأمر لأحد المتنافسين حتى كان يعمل على التنكيل ببقية المتنافسين وأنصارهم[1] .

ثانيا : الوزارة :

١ - تعريف لفظة الوزارة ومصدر اشتقاقها وأهميتها :-

يتفق المؤرخون واللغويون على أن لفظ الوزارة مشتق من ثلاثة مصادر

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، مذكرات في الحضارة العربية الاسلامية ، جامعة الكويت ، ص ٣٠ - ٣١ .

لغوية عربية : الأول من الوزر وهو الثقل لأن الوزير يحمل عن الملك أثقاله ، والثاني من الوزر وهو الملجأ لأن الملك يلجأ إلى وزيره ويستعين به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كلا لا وزر ﴾ أي لا ملجأ لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته لأن عليه مدار السياسة وإليه تفوض الأموال والثالث من الأزر بمعنى الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كما يقوى البدن بالظهر(١) .

لكن بعض المستشرقين يعيدون لفظة الوزارة إلى الفارسية القديمة أي البهلوية لما بين وزير و« فشير » البهلوية من الشبه ومعناها القاضي أو الحكم(٢) .

ولا شك أن بين القضاء والوزارة فرقاً واضحاً لا يأذن لنا بموافقة المستشرقين على رأيهم في أستقاق هذا اللفظ من الأصل الفارسي القديم(٣) . ولذلك كله نرجح أن لفظة وزير مشتقة من أصل عربي لا علاقة له بالفارسية .

والوزارة كما يقول ابن خلدون « أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية ، لأن اسمها يدل على مطلق الاعانة ، فطبيعة عمل الوزير أن يعاون الخليفة في شتى الأمور ، وهي بهذا الشمول تفوق المناصب الأخرى التي تخصصت كل

---

(١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٩ م ، ص ٢٠ .
أدب الوزير أو قوانين الوزارة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٢٩ م ، ص ٩ .
ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد الخامس ، بيروت ١٩٥٦ م ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .
الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ج ١ ، ج ٢ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٤٤ هـ - ص ٣٦٣ ، ص ١٥٤ .
الزبيدي ، تاج العروس ج ٣ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٠٦ هـ ص ١١ ، ٦٠١ - ٦٠٢ .
(٢) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ١ الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٥٢ م ، ص ١٧٦ .
صبحي الصالح ، النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٥ م ، ص ٢٩٤
Encyclopaedia of Islam, Vol IV, article «Vizier», Leyden 1934, p. 1135
Dominique Sourdel, Le Vizirat «ABBaside», VolI, Damas 1959, pp. 43- 46.
(٣) صبحي الصالح ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .

منها لعمل معين كالكتابة والحجابة والجباية[1] .

كانت كلمة وزير موجودة قديماً في اللغة فإن ملوك العرب قبل الاسلام في اليمن والحيرة والشام كانوا يسمون من يوازرهم أعباء الملك « الراهن » لأنه مرتهن بالتدبير و« الزعيم » لأنه زعيم بصواب الرأي ، و« الكافي » لأنه يكفي الملك مهمات الأمور ، و« الكامل » لأن المفروضْ فيه أنه كامل الفضائل[2] . والملوك لا يستغنون عن الوزراء إذا أرادوا الخير لأمتهم ، فإنه : « كما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح ، وأفره الخيل إلى السوط ، وأحد الشفار إلى المسن ، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير[3] . وقال ابن المقفع : « إن الملك لا يستطاع ضبطه إلا مع ذوي الرأي وهم الوزراء والأعوان »[4] . وقد أوضح ابن خلدون الغرض من إنشاء هذه الوظيفة فقال : « إن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه ، فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده[5] .

٢ ـ ممارسة وظيفة الوزير في الجاهلية وصدر الاسلام :ـ

كانت وظيفة الوزير معروفة للعرب منذ عهد بني اسرائيل وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى قدم استخدام الوزراء فقد قال تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ، أشدد به

(١) المقدمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ص ٢٠٣ .

(٢) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، مراجعة عبد الله اسماعيل الصاوي ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٢٩٤ .

(٣) الابشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، ج ١ الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

كبرى زادة ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم مراجعة وتحقيق كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النورج ١ ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤١٤ .

(٤) كليلة ودمنة ، القاهرة ١٩٦٨ م ، ص ٩١ .

(٥) نفس المصدر السابق ص ٢٠٢.

أزري ، وأشركه في أمري ﴾[1] كما كانت معروفة عند الفرس منذ عهد الدولة الساسانية إذ كان ملوك آل ساسان يقيمون لاحتجابهم عن الرعية وسطاء يصرفون أمور الدولة ويرسمون سياستها ويعينون موظفيها ، ومن أشهرهم بزر جمهر وزير أنو شروان الذي عرف بحكمته وحنكته[2] .

وعرف اليونانيون أيضاً هذه الوظيفة بدليل أن الأسكندر الأكبر كان يعتمد في آرائه على أرسطو طاليس الذي عرف بالحكمة فكان يأخذ منه الرأي والمشورة ، أي أن أرسطو كان يعتبر بمثابة الوزير له[3] .

كذلك كانت الوزارة معروفة عند العرب قبل ظهور الاسلام فقد ذكر ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء »[4] : أن أبا ذؤيب الهذلي[5] خان في امرأة ابن عم له ، ثم خانه خالد بن زهير فيها ، فقال : خالد يخاطب أبا ذؤيب :

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها وأول راض سنة من يسيرها
وكنت إماماً للعشيرة تنتهي إليك إذا ضاقت بأمر صدورها
ألم تنتقذها من ابن عويمر وأنت صفي نفسه ووزيرها

وبعد ظهور الاسلام تولى الرسول الأعظم محمد ﷺ الاشراف الكلي

---

(١) القرآن الكريم ، سورة طه (السورة العشرين)، آية ٢٩ ـ ٣٢ .
(٢) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ج ٣ (العصر العباسي الأول) القاهرة ص ٢٢ .
(٣) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ج ٣ الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣٨ م ، ص ٩.
(٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، صححه وعلق على حواشيه مصطفى السقا ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٣٢ ، ص ٢٥٢ .
أحمد أمين ، نفس المرجع السابق ، ج ١ ص ١٧١ .
(٥) هو خويلد بن خالد من شعراء الجاهلية والاسلام ، كان شاعراً فحلاً لا غميزة فيه ولا وهن .
الضبي ، المفضليات تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٦٤ ص ٤١٩ .
الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، شرح محمود محمد شاكر ، القاهرة (مجموعة ذخائر العرب ، عدد ٧) ص ١١٠ .
ابن قتيبة ، نفس المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

على أمور المسلمين والدولة بنفسه فكان هو الأمير والوزير والقاضي والقائد ، ولكنه مع ذلك كان يستشير بعض المقربين إليه من الصحابة[1] . ويأخذ بآرائهم في كثير من الأمور العامة والخاصة ، وكان يخص أبا بكر الصديق (رض) ببعض الأمور ، حتى أن العرب الذين اختلطوا مع الروم والفرس قبل الاسلام ، كان يسمون أبا بكر وزير النبي[2] لأنه كانت تتوفر فيه مهام الوزير باعتبار أن هذهالوظيفة كانت معروفة عند هؤلاء الأقوام قبل الاسلام . وهكذا نجد أن الوزير هو مستشار ليس له حل أو عقد كما هو الأمر بالنسبة للأمير وهو رئيس الدولة[3] .

كذلك كان حال عمر بن الخطاب في خلافة أبي بكر فقد أسند إليه الخليفة مهمة القضاء بين الناس وتوزيع الزكاة وكذلك كان شأن عثمان وعلي مع الخليفة عمر الذي كان يستعين بهما ، ويستنير بآرائهما ويعهد إليهما القيام بكثير من شؤون الدولة وأعمال الرعية . وكان علي يقوم بالقضاء بين الناس وكتابة الرسائل والنظر في أمور الأسرى وفداء أسرى المسلمين[4] .

يتضح لنا مما تقدم بأن صحابة الرسول ﷺ كانوا يمارسون جميع اختصاصات الوزير ولكنهم مع ذلك لم يتسموا بالوزراء لأن وظيفة وزير لم تكن معروفة لدى المسلمين لبساطة الاسلام وبعده عن أبهة الملك[5] . وكان

---

(١) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، مراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٤١ ، د . عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ م ص ٣١ . وللمزيد من التفصيلات راجع : ابن هشام ، السيرة النبوية تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ج ٤ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٦٤٩ ـ ٦٥٠ ، د . محمد يوسف موسى ، نظام الحكم في الاسلام ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٤ م ، ص ١١٧ .

(٢) ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، د . حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن ، النظم الاسلامية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٢ م ، ص ١١٣ .

(٣) Soudel: op. cit., vol 1,p.53

(٤) ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٥) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

الخليفة يستعين في ادارة شؤون الدولة بمجلس من الشيوخ ، يتألف من كبار الصحابة وأعيان المدينة ورؤساء القبائل ، وكانوا يجتمعون في مسجد المدينة (المسجد النبوي) ، ولا يقطع الخليفة أمراً دون استشارتهم[1] .

وهناك أحاديث شريفة للرسول الكريم ﷺ يذكر فيها لفظ الوزير فروي عن عائشة (رض) أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه[2] .

وذكر الماوردي أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من رجل من المسلمين أعظم أجراً من وزير صالح مع إمام يطيعه ويأمره بذات الله تعالى »[3] .

وورد عن علي بن أبي طالب ، قال : « قال رسول الله ﷺ أنه لم يكن نبي إلا أعطى سبعة نجباء وزراء ورفقاء وأني أعطيت أربعة عشراً »[4] .

وأورد المؤرخون ما يشير إلى أن لفظة وزير كانت معروفة عند المسلمين في حياة الرسول ﷺ فبعد أن قبض الرسول ﷺ بادر ثلاثة منهم وهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح إلى السقيفة حتى لا يتيحوا للأنصار فرصة البت في أمر الخلافة دون الأخذ برأيهم[5] .

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، نفس المرجع السابق ، ص ١١٤ ، مولوي ، الادارة العربية ترجمة د . إبراهيم أحمد العدوي ، مراجعة عبد العزيز عبد الحق ، القاهرة ١٩٥٨ م ، ص ٧٦ .

(٢) أبي داود ، السنن ، طبع حجر ورقة ٢١٣ وجه (٢) ، الحسن بن عبدالله ، آثار الأول في ترتيب الدول ، بولاق ١٢٩٥ هـ ، ص ٦٢ .

(٣) أدب الوزير ، ص ٣ .

(٤) عبد الحي الكتاني ، التراتيب الادارية والعمالات والصناعات في الرباط ١٣٤٦ هـ ، ص ١٩ .

(٥) ابن هشام ، نفس المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٥٦ .
جمال الدين سرور ، الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ـ القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٢ .

فلما اجتمع هؤلاء الثلاثة بالأنصار دار بين الفريقين حوار عنيف ، فقد نهض أبو بكر (رض) وألقى أول خطبة له في الأنصار وقال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء[1] . وقيل أن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) لما أراد أن يبعث إلى الكوفة بإمام يعلم الناس قال : بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً ، وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً . هذا إذا صح أن عبدالله بن مسعود كان يضطلع بأعباء الوزير في هذه البلاد على النحو الذي كان يعرف به عند الفرس والروم[2] .

إن لفظة وزير التي ذكرت في الأحاديث الشريفة عن النبي ﷺ وعن الصحابة لم يقصد بها أن هناك منصباً للوزير قد تحددت مهامه بل كان معناه استعانة الأمير أو السلطان بمن يشد أزره أو يعاونه في الحكم[3] . والحديث الآتي للرسول الأعظم ﷺ يؤيد ذلك ويوضحه قال ﷺ : « يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل بما قد جئتكم به ، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي ! فأحجم القوم عنها جميعاً إلا علي بن أبي طالب فإنه قال : أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه »[4] .

من ذلك يتضح لنا بأن المقصود بالوزارة في صدر الاسلام نظام يكفل للملوك وأولي الأمر مساعدتهم في شؤون الدولة والرعية فعلى هذا الأساس

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين تحقيق وشرح حسن السندوبي ج ٣ ، الطبعة الثانية القاهرة ، ١٩٣٢ م ، ص ١٨١ ، ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٩ م ، ص ٨١ ، اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ط النجف ، ١٣٥٨ هـ ص ١٠٢ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٢ ، القاهرة ١٣١٦ هـ ، ص ١٧٥ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٠١ هـ ، ص ٢٠٢ .

(٢) حسن إبراهيم ، نفس المرجع السابق ، ص ١١٣ .

(٣) ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ٢٠٤ .

(٤) الصدفي : تاريخ دول الاسلام ، ج ١ ، القاهرة ١٩٠٧ م ، ص ١١ .

نرى أن الرسول الكريم ﷺ كان يستعين بكبار الصحابة في قضاء شؤون الرعية وكان يتخذ له كتاباً يدونون ما تقتضيه الحاجة إلى ذلك ولم يسموا وزراء وكان لكل منهم اختصاص يقوم به فعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان كانا يكتبان الوحي ، كما كان يقوم بذلك أيضاً أثناء غيابهما أبي بن كعب وزيد بن ثابت ، وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان المداينات والمعاملات بين الناس ، وكان عملهما هو تسجيل المعاملات وتوثيقها ، وكان لدى عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة سجلات عن القبائل ومياهها ، وكذلك عن الأنصار ذكوراً وأناثاً .

وكان زيد بن ثابت يعد الكتب إلى الملوك والزعماء ، وكان عبدالله بن الأرقم ينتدب أحياناً لأداء هذا العمل ، وكان معيقيب بن أبي فاطمة يسجل دخل الدولة أي يكتب مغانم رسول الله ﷺ وأطلق على حنظلة بن الربيع اسم كاتب النبي حيث كان يعهد إليه بخاتم النبي ﷺ[1] . ومن هنا يتضح لنا بأنه ظهر منذ عهد النبي ﷺ نفسه هيئة من الكتاب في صورة أولية[2] .

ونهج أبو بكر الخليفة الراشد الأول نهج النبي ﷺ في الاستعانة بآراء الصحابة لقضاء أمور الدولة فقد كان عمر يتولى القضاء لأبي بكر ، وكان أبو عبيدة أميناً لبيت المال قبل أن يسيره أبو بكر إلى الشام ، وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان يكتبان له من حضر[3] .

وعندما تولى عمر الخلافة استشار أيضاً كبار الصحابة ، وكان له خاصة من كبار أولي الرأي من بينهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبدالله وكان لا يكاد يفارقه في سفر ولا حضر ، وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف

---

(١) الجهشياري ، نفس المصدر السابق ، ص ١٢ - ١٤ .

(٢) مولوي ، نفس المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٣) محمد الخضري ، تاريخ الأمم الاسلامية ، ج ١ ، القاهرة ١٩١١ م ، ص ٢٨١ .
محمد كرد علي ، الادارة الاسلامية في عز العرب ، القاهرة ١٩٣٤ م ، ص ٢٣ - ٢٤ .

وعلي بن أبي طالب ونظراؤهم[١] وكان من الطبيعي بعد اتساع الدولة العربية الاسلامية بفتوح الشام والعراق ومصر وفارس أن يحتك العرب بشعوب متحضرة لها أنظمة في الحكم وادارات متفوقة . ولم يكن من الغريب أن يستفيد العرب من هذه الأنظمة خاصة فيما يختص بالدواوين عندما تدفقت عليهم الأموال وأصبحوا في مسيس الحاجة إلى هذه النظم الادارية فأخذوا عن الفرس نظام الدواوين ، ويعلل الجهشياري ذلك بقوله : « كان عمر أول من دون الدواوين من العرب في الاسلام ، وكان السبب في ذلك أن أبا هريرة قدم عليه من البحرين ومعه مال ، فلقي عمر فقال له عمر ، ماذا جئت به ؟ قال : خمسمائة ألف درهم ، فقال عمر : أتدري ما تقول ؟ قال : نعم مائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ، فقال عمر : أطيب هو؟ قال : لا أدري ، فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس : قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلناه كيلاً ، وإن شئتم أن نعد غداً . فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين . قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديوان لهم قال : دونوا الدواوين »[٢] ويضيف ابن طباطبا إلى ما سبق بقوله : « كان بالمدينة بعض مرازبة الفرس . فلما رأوا حيرة عمر قال له : يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء . وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق إليها خلل فتنبه عمر وقال : صفه لي فوصفه المرزبان ، فدون الدواوين وفرض العطاء[٣] . لكن البلاذري ينسب نظام الديوان إلى الروم فيذكر أن عمر استشار المسلمين في تدوين الديوان فقال علي بن أبي طالب « تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً » وقال عثمان بن عفان : « أرى مالاً كثيراً يسع الناس ، وإن لم يحصوا حتى يعرف

---

(١) الخضري نفس المرجع السابق ج ١ ، ص ٣٥٤ .

(٢) الجهشياري ، نفس المصدر السابق ، ص ١٦ - ١٧ .

(٣) ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية بيروت ١٩٦٦ م ، ص ٧٩ - ٨٠ .

من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر » . فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : « قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً : فدون ديواناً وجند جنداً » فأخذ بقوله ، فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من أنساب قريش فدونوا الدواوين »[1] .

والديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر[2] ، ويعلل ابن خلدون أصل تسميته بهذا الاسم إلى أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال « ديوانه » أي مجانين بلغة الفرس[3] ، فسمي موضعهم بذلك ، وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان ، ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسبانات[4] . وأطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان[5] . وفي ذلك يقول الماوردي : « والديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال »[6] .

ولما عزم الخليفة عمر (رض) على تدوين الديوان سنة ٢٠ هـ استخدم الكتاب في الدواوين ، وأنشأ ديواناً للجند لكتابة أسمائهم وما يخص كلاً منهم من العطاء ، وديوان الخراج أو الجباية لتدوين ما يرد إلى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء[7] .

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠١ م ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .
(٢) محمد موسى هنداوي ، المعجم في اللغة الفارسية ، القاهرة ١٩٥٢ م ، ص ١٦٣ .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٤ .
(٤) الماوردي ، نفس المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .
(٥) د . حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ١ الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٥٩ م ، ص ٤٤٤ .
(٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٧٥ .
(٧) البلاذري ، نفس المصدر السابق ، ص ٤٥٣ ، الماوردي ، نفس المصدر السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٧ .

وكان ديوانا البصرة والكوفة : ديوان الجند والأعطية بالعربية ، وديوان المال بالفارسية ، وكان ديوانا الشام بالعربية والرومية[1] وكان ديوان مصر بالقبطية[2] ، لأن العمال الذين يشتغلون في هذه الدواوين كانوا من أمم تلك اللغات الثلاث ولم يكن المسلمون قد مهروا بعد فيها[3] .

ثم بويع عثمان بن عفان بالخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب (رض) فسار على نهج الرسول الأعظم ﷺ والخلفاء الذين سبقوه في ادارة الأمة الاسلامية معتمداً في ذلك على مشورة كبار الصحابة ، لكنه بعد ذلك مال إلى الاعتماد علي أهله وعشيرته من بني أمية ، واختص به مروان بن الحكم[4] . وسبب ميل عثمان إلى بني أمية أنهم ساندوه في مبايعته للخلافة ووقفوا ضد بني هاشم الذين أرادوا تولية علي مكانه .

٣ ـ تعدد اختصاصات كتاب الدواوين في العصر الأموي :

ولما آلت الخلافة إلى الأمويين ساروا على نفس النهج الذي اختطه الرسول محمد ﷺ وسار عليه الخلفاء الراشدون في إدارة أمور الدولة والرعية فكان خلفاء بني أمية لا يقطعون في أمر من الأمور إلا بعد استشارة وجوه الرأي في ولاياتهم بدعوتهم إلى المسجد ، يعلنون عنها في عبارة مشهورة وهي :

ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ١ بولاق ١٢٨٤ هـ ، ص ٢٠٣ ، د . صبحي الصالح ، نفس المرجع السابق ص ٣١٢ . د . حسن إبراهيم حسن نفس المرجع السابق ج ١ ، ص ٤٤٧ .

(١) الجهشياري ، نفس المصدر السابق ، ص ٣٨ ، الصولي ، أدب الكتاب ، تحقيق الأستاذ محمد بهجة الأثري القاهرة ١٩٤١ م ، ص ١٩٠ وما يليها ، د . عبد العزيز سالم التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧ ، ص ١٣٤ .

(٢) الكندي ، كتاب الولاة والقضاة تحقيق الأستاذ رفن جست ، بيروت ١٩٠٨ م ، ص ٥٩ ، د . عبد العزيز سالم ، نفس المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٣) الخضري ، نفس المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٤٣ .

(٤) كرد على ، نفس المرجع السابق ، ص ٥٥ .

الصلاة جامعة ، وكان لا يشهدها سوى العرب ، كما كانوا يلجأون إلى هذه المشورة في الترشيح للوظائف الكبيرة[1] .

وإلى جانب هؤلاء المستشارين كان هناك طائفة من كتاب الدواوين ومن المعروف أن نظام الدواوين تعقد في العصر الأموي فبالاضافة إلى ديوان العطاء وهو نفس الديوان الكبير الذي أسسه عمر بن الخطاب (رضى) لتحديد أعطيات الجند[2] . وديوان الخراج الذي كان قائماً في الأمصار منذ عهد الفتح ، والذي ظل في كل اقليم يكتب بلغته حتى عربت الدواوين في خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد . استجدت دواوين أخرى في العهد الأموي أهمها : ديوان الرسائل ومنه كانت تصدر الرسائل إلى الأمراء والعمال في الامارات المختلفة وكان بالعربية وهو ما يعرف بديوان الانشاء[3] وديوان الخاتم الذي أنشأه معاوية بن أبي سفيان حتى لا تخرج التوقيعات بدون ختم فلا يعلم أحد مضمونها سوى الخليفة[4] . وكان أكبر دواوين الدولة ويشتغل فيه نواب مهمتهم نسخ أوامر الخليفة وايداعها هذا الديوان ، كما هو الحال اليوم في قلم « الأرشيف » أو السجلات[5] ومنها ديوان البريد ويتولاه صاحب البريد ، وأول من اتخذ البريد في الاسلام كإدارة منظمة معاوية بن أبي سفيان وذلك عندما اتسع نطاق الدولة وأصبح من الضروري نقل الرسائل في سرعة بالغة للاتصال السريع بين الخليفة وبين ولاته في الأمصار .

وكان من الطبيعي بعد أن انتقل نظام الخلافة في العصر الأموي إلى حكم وراثي وتعقد نظام الدواوين واتجه بنو أمية إلى اصطناع سياسة حزبية أن

---

(١) مولوي ، نفس المرجع السابق ، ص ١٦٣ والكلام لمراجع الكتاب الدكتور عبد العزيز عبد الحق .

(٢) مولوي ، نفس المرجع السابق ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٣) الخضري ، نفس المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٤٣ - ٦٤٤ .

(٤) ابن طباطبا ، نفس المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

(٥) د . حسن إبراهيم حسن ، نفس المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٤٧ .

يحتاج الخلفاء الأمويون إلى مشورة أولي الرأي ويتخذوا لادارة شؤون الدولة المترامية الأطراف كتاباً تعددت اختصاصاتهم بتعدد المهام التي اسندت إليهم وعلى هذا النحو ظهر عدد من الشخصيات البارزة في العصر الأموي اصطنعهم الخلفاء وقربوهم إليهم ، وكانوا يقومون بعمل الوزراء دون أن يتلقبوا بهذا اللقب[1] . في حين تلقب بعضهم بألقاب الوزراء أمثال زياد بن أبيه الذي تلقب بلقب الوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان وروح بن زنباع الجذامي الذي تلقب بلقب وزير في عهد عبد الملك[2] وعبد الحميد كاتب الخليفة مروان بن محمد الذي قام مقام الوزير في الدولة[3] . ولا ينبغي أن نفهم هذا اللقب الذي اتخذه هؤلاء بنفس المعنى الذي عرف به وزراء العصر العباسي ، فقد كانوا مجرد كتاب كبار قربهم الخلفاء واعتمدوا عليهم في المشورة والرأي في كثير من جلائل الأمور ، وعلى هذا الأساس فإنه يجوز من باب التشبه بالوزراء أن يطلق عليهم لقب وزير ، إلا أن وظيفة وزير بالمفهوم الذي تحدد في العصر العباسي والعصور التالية لم تكن من الوظائف المعروفة في الدولة الأموية وظل الخليفة الأموي يعتمد في تصريف أمور دولته على كتابه إلى جانب مستشاريه يصطفيهم للاسترشاد بآرائهم . فانقضت دولتهم دون أن يتخذ الخلفاء وزراء ودون أن تظهر الوزارة في نظم الاسلام[4] .

٤ ـ الوزارة في الأندلس في عصر دولة بني أمية :

أما الوزارة في الدولة الأموية في الأندلس فهي وإن كانت مشتركة في جماعة يعينهم الأمير أو الخليفة للاعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة[5] كما

---

(١) الاربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، القاهرة ١٨٨٥م ، ص ٤٢ ، د . أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الطبعة الأولى الاسكندرية ١٩٦٨ م ، ص ١٣٥ .

(٢) د . حسن إبراهيم حسن ، نفس المرجع السابق ج ١ ، ص ٤٤١ .

(٣) الأربلي ، نفس المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٤) جرجي زيدان ، نفس المرجع السابق ، ج ١ ص ١٥٨ .

(٥) المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

كان الحال من قبل في عصر الدولة الأموية في المشرق ، إلا أن خطة الوزارة في حد ذاتها وجدت منذ قيام دولة بني أمية في الأندلس ، فكان لعبد الرحمن الداخل وزراء يعتمد عليهم في تصريف شؤون دولته منهم عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت وحسان بن مالك(١) اختارهم من بين أوثق المقربين إليه من موالي بني أمية ، بالاضافة إلى أنه استوزر ولديه هشام وسليمان تنويهاً بحالتهما وأخذهما بالركوب إلى القصر ومشاهدة مجالس مشورته(٢) وكان للأمير هشام بن عبد الرحمن ثمان وزراء(٣) وكان للأمير الحكم بن هشام خمس وزراء(٤) . وكان الأمير يرفع من بين هؤلاء حاجب هو عبد الكريم بن عبد الواحد يفرده للتردد بين الوزراء وبين الأمير(٥) . وينوب عن الأمير أو الخليفة(٦) بمثابة رئيس الوزراء في العصر الحاضر . وكان هذا المنصب في الأندلس يختلف عن منصب الحاجب في المشرق وتقوم وظيفته على الوقوف بباب الخليفة ليحجبه عن الخاصة والعامة(٧) .

ثم تطور نظام الوزارة في الأندلس في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط فتحددت اختصاصات كل وزير ، وخصص الأمير لاجتماعاتهم اليومية بيتاً

ج ١ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٩ م ، ص ٢٠١ .

Levi- provencal:, L'Espange Musulmane auxe. Siecle, paris, p.64.

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، بيروت ١٩٥٠ ج ٢ ص ٧١.

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٣ م ، ص ٤٢ ، ونلاحظ أن الأمير عبد الرحمن الداخل كان يعتمد في تصريف دولته إلى جانب الوزراء المذكورين على عدد من الشخصيات البارزة في عصره أمثال حبيب بن عبد الملك بن عمر المرواني الذي كان يشاوره في رأيه وإدارته ويدني مجلسه منه ويضمه إلى خاصته من نقباء دولته (ابن الأبار ، نفس المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٠).

(٣) ابن عذارى ، نفس المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩١.

(٤) ابن عذارى ، نفس المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٢.

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٦ ، المقري ، نفس المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٢ .

(٦) المقري ، نفس المصدر ج ١ ص ٢٠٢.

(٧) العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

رفيعاً داخل قصره[1] ودست يجلس عليه[2] وأصبح للوزارة في عهد عبد الرحمن الأوسط مراسم منها أن الوزير لا يقوم إلا لوزير مثله ويتلقاه ولا يحجبه ولا لحظة[3] .

ويذكر ابن خلدون أن بني أمية في الأندلس « أبقوا على اسم الوزير في مدلولة أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافاً ، وأفردوا لكل صنف وزير فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، وللترسيل وزيراً ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر في أحوال الثغور وزيراً . وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له »[4] وهكذا تحدد اختصاص كل وزير وترتب على ذلك إزدياد عدد الوزراء فارتفع هذا الرقم إلى تسع في أيام عبد الرحمن الأوسط . ويذكر ابن عذاري أن الأمير عبد الرحمن الأوسط اتخذ له حاجباً هو عبد الكريم بن عبد الواحد[5] غير أن منصب الحاجب أصبح منذ خلافة هشام المؤيد من المناصب الكبرى في الدولة المروانية وأخذ نفوذ الحاجب يقوى ويعظم حتى أصبح يستبد بكل أمور الدولة وقد برز من بين حجاب الدولة الأموية شخصياً منها الحاجب منصور محمد بن أبي عامر الذي بلغ الغاية في السلطة والعظمة[6] . ومن أشهر وزراء بني أمية الوزير فطيس بن سليمان وزير الحكم الربضي والوزير أبو خالد هاشم بن عبد

---

(١) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ م ، ص ٤٦ ، العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ١٤٣ (عن ابن حيان).

(٢) ابن الأبار ، نفس المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٣) نفسه .

(٤) المقدمة ، ص ٢٠٦ .

(٥) ابن عذارى ، نفس المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢١ .
وكان قد استحجبه أيضاً في عهد الحكم بن هشام وكان أبوه عبد الواحد بن مغيث حاجباً لهشام بن عبد الرحمن الداخل (الحلة السيراء ، ص ١٢٥) وكان عبد الواحد هذا يغزو بالصوائف (ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٤٠).

(٦) الحميدي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٧٣ .

العزيز أعظم وزراء الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط[1] ، ووليد بن عبد الرحمن بن غانم أول وزراء الأمير محمد وأقدرهم وتمام بن عامر الثقفي الذي ولي خطة الوزارة للأمير محمد وولديه المنذر وعبد الله وسليمان بن وانسوس المكناسي في امارة عبد الله .

٥ ـ نظام الوزارة في بداية العصر العباسي حتى نهايته :

كان من الطبيعي وقد قامت الدولة العباسية على العنصر الفارسي أن يسيطر هذا العنصر سيطرة شاملة على شؤون الدولة وعلى كل مناحي الحياة فيها أدبية ومادية فيعتمد العباسيون على الفرس في تصريف شؤون دولتهم اعترافاً منهم بفضلهم عليهم ، ويسلمون إليهم أزمة أمورهم ويفسحوا لهم المجال في المناصب الكبرى بعد أن كانت هذه المناصب في العصر الأموي البائد وقفاً على العرب . وعلى هذا النحو كان لا بد من أن تنتصر التقاليد الفارسية وتسود وتصطبغ الدولة العباسية بالصبغة الفارسية ، ويقتبس العباسيون كثيراً من عادات الفرس وتقاليدهم وأنظمتهم في الادارة والحكم وبذلك حلت جماعات من الموظفين محل الاستقراطية العربية التي كانت تحيط بالخليفة الأموي ، وقسمت إلى طبقات يسيطر بعضها على بعض وكان على رأسها الوزير[2] . ويعبر بالمر عن ذلك بقوله : « لما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي ، كان طبيعياً أن تسيطر الآراء الفارسية . ولهذا نجد وزيراً من أصل فارسي على رأس الحكومة ، كما نجد الخلافة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به امبراطورية آل ساسان . واحتجب الخليفة عن رعيته واتخذ الوزير والسياف »[3] .

---

(١) ابن سعيد ، نفس المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٢.

(٢) يوليوس فلهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها ترجمة الدكتور يوسف العش ، دمشق ١٩٥٦ م ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

الدكتور عبد العزيز الدوري ، العصر العباسي الأول ، بغداد ١٩٤٥ م ص ٤٥ .

(٣) Palmer; Haroun al- Rachid, London 1881, pp. 405- 406.

ولم يكتف العباسيون باقتباس نظام الوزارة من الفرس ، بل عمدوا إلى إختيار وزرائهم من الفرس ، وعلى هذا فقد أخذت الفكرة واللفظ والشخص من فارس في العهد العباسي الأول في كثير من الأحيان[1] ، وكان أبو سلمة الخلال أول وزير اصطنعه الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح . ويعلق ابن خلكان على ذلك بقوله : « إن أبا سلمة الخلال أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس ، ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول »[2] .

ولكن سلطات الوزير لم تكن قد تحددت بعد بصورة واضحة في وزارة أبي سلمة ولكنها ستتدرج في النمو وستتضح تدريجياً حتى تتخذ شكلها النهائي في أواخر العصر العباسي الأول[3] . فكانت وظيفة الوزراء الأول للعباسيين كوظيفة الكتاب عند الأمويين ، وكان خلفاء بني العباس يقيمون على الوزارة من يجيد الكتابة[4] .

وبعد قتل أبي سلمة لم يتلقب أحد ممن جاء بعده بلقب الوزارة تطيراً مما حدث له ، فخالد بن برمك على الرغم من علو منزلته عند الخلفاء العباسيين وإشرافه على ديواني الجند والمال ، كان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً[5] .

كما أن أبا أيوب المورياني الذي قلده المنصور الدواوين وغلب عليه غلبة شديدة ، لم يطلق على نفسه لقب الوزير بل (كاتب الخليفة)[6] .

---

(١) د. أحمد شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ م ، ص ١٣١ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ١ ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٣) د. حسن ابراهيم حسن ، نفس المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٤) د. شاكر مصطفى ، في التاريخ العباسي ، ج ١ ، دمشق ١٩٥٧ م ص ١٢٧ .

Sourdel; op. cit; vol 1,p. 43.

(٥) ابن طباطبا ، نفس المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

(٦) الجهشياري ، نفس المصدر السابق ، ص ٩٧ .

وظلت الوزارة في خلافة المنصور اسماً على غير مسمى ، وذلك لاستبداده وبطشه وكان المنصور يشرف على جميع أمور الدولة بنفسه ، مما أدى إلى تركيز السلطة في يده ولم يترك أحداً ممن يستعين بهم يعمل برأيه فقط بل ينهي إليه كل ما يعرض له من أمور الدولة قبل البت فيها[١] ولهذا اتسمت الإدارة العباسية في العصر العباسي الأول بالمركزية الشديدة فكان الخليفة هو مركز السلطة وكان اشرافه شاملاً على الضرائب وكافة النواحي الإدارية والحربية[٢] . كذلك كان الوزير مجرداً من كل سلطة وعلى جانب كبير من الحذر لوقوعه تحت رقابة الخليفة الدقيقة[٣] . حتى أنه لم ينج أحد من وزراء السفاح والمنصور من القتل إلا خالد بن برمك .

ولما استقرت الأمور في خلافة المهدي واستنام إلى بعض الدعة ووكل كثيراً من الأمور للوزراء يدبروها حسبما يرون ، عظم لذلك مركز الوزارة واستقرت قواعدها[٤] وربما دعاه إلى ذلك كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار الذي كان كاتباً للمهدي ونائباً عنه قبل أن يتولى الخلافة ، وهو الذي جمع له حاصل المملكة ورتب الديوان وقرر القواعد وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس[٥] .

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد بلغت الوزارة حداً كبيراً من القوة ولم تكن قاصرة على العرب وحدهم ، وبلغ الوزير حداً كبيراً من النفوذ حين استوزر الرشيد « يحيى البرمكي » وكان يخاطبه بالأبوة فقال له : « يا أبت أنت

---

(١) كرد علي ، نفس المرجع السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢) Von Kremer. The Orient under the Caliphs, Calcutta 1920, p. 228

ابن طباطبا ، الفخري ، ص ١٧٤ .

(٣) مولوي ، الادارة العربية ، ص ٢٩٠ .

(٤) احمد شلبي ، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، ج٣ ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٦ م ، ص ٦٥ - ٦٦ .

(٥) ابن طباطبا ، الفخري ، ص ١٨١ .

أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبرك ، وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت وأسقط من رأيت ، فإني غير ناظر معك في شيء » ، فكان يحيى وأبناه الفضل وجعفر يجلسون للناس جلوساً عاماً في كل يوم الى انتصاف النهار وينظرون في أمور الناس وحوائجهم لا يُحجب أحدٌ ولا يلقي لهم ستر .

لكن البرامكة أساءوا التصرف فحصروا الوظائف في أيدي أعوانهم وأنصارهم ، وسيطروا على خزائن الأموال ، وخافهم الرشيد لاتساع جاههم وتأثيرهم في عامة الناس ، فمن هنا كانت نكبتهم الشهيرة .

وفي عصر الخليفة المأمون أطلقت يد الوزير الفضل بن سهل في الأمور السياسية ، فقد فوضه المأمون بقيادة الحرب ورئاسة الشؤون الإدارية ، وسماه إسماً مبتكراً جديداً « ذا الرياستين » وكان الفضل بن سهل فارسياً ، ثم نكل به الخليفة عندما ألفاه خطراً عليه .

وحين تسلط الأتراك ضعف مركز الوزراء ، وانتقلت السلطات الفعلية إلى الجيش ، ثم بطل منصب الوزارة حين فتح البويهيون بغداد ، وكان كاتب الأمير البويهي يقوم مقام الوزير ، وكان ذا صفة عسكرية وحربية ، وكان من واجباته كذلك وضع الخطط ، وأوشكت أن تصبح وراثية كالخلافة في بعض العائلات ذات النفوذ أو المقدرة الكتابية ، وشاع للوزراء ألقاب فكان بعضهم يدعى « شرف الملك » وبعضهم « سعد الدولة » وهكذا . . .

من كل ما تقدم يتضح لنا أن سلطات كافة الوزراء لم تكن واحدة ، فبعضهم تمتع بسلطات إدارية واسعة وبعضهم لم يعط إلا سلطات محدودة ، حتى أن الماوردي[1] وهو من أعظم من بحث النظم الادارية العباسية ، صنف

---

(١) الأحكام السلطانية ، ص ١٨ وما بعدها ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٩ م.

الوزارة صنفين رئيسين ، أولهما وزارة التفويض التي يمارس فيها الوزير كافة سلطات الخليفة في الادارة ، ما عدا حق تعيين ولي العهد أو عزل الخليفة . ومن أشهر وزراء التفويض في العصر العباسي الأول آل برمك وآل سهل وآل الربيع . والثاني وزارة التنفيذ التي تقتصر سلطته فيها على تنفيذ أوامر الخليفة وقراراته . ولكن حتى في هذه الحالة كان يتمتع بسلطات واسعة . ومن حيث العموم فإن مدى سلطات الوزير تتوقف على شخصية الخليفة ومقدار ما يمنحه للوزير من حقوق .

وكان يشترط في الوزير لأهمية منصبه بإعتباره وسيطاً بين الخليفة والرعية أن يكون في طبعه جانب يناسب طباع الملوك ، وجانب يناسب طباع العوام حتى يتمكن من معاملة كل من الفريقين بما يعينه على الاحتفاظ عند كل منها بالقبول والمحبة والرضا ، وأن يكون أميناً صادقاً شجاعاً ، وأن تتوفر فيه الكفاية والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم بالاضافة إلى صفات أخرى لا غناء عنها كالفضل والكرم ، ليصطنع الأنصار ، والرفق والاناة والتثبت في الأمور والحلم والوقار ونفاذ القول[1] .

وفي ضوء هذه الشروط كان الوزراء يُختارون بدقة وخاصة في العصر العباسي الأول ، فقد روى عن الخليفة المأمون أنه قال : « إني التمست لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة في خلائقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات نهض فيها ، يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة ، له صولة الأمراء وأناة الحكماء وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، إن أحسن إليه شكر ، وإن ابتلى بالاساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن

(١) ابن طباطبا . الفخري ، ص ١٥٢ .

بيانه[1] . ومع ذلك ففي كثير من الأحوال كانت تتدخل بعض العوامل في إختياره ، فكان أحياناً يقلد الوزارة مكافأة له على جهد بذله أو عون قدمه لشخص الخليفة على أنه لم يعد ضرورياً أن يراعى في إختيارهم لا الجمع بين الصفات السابقة ولا ما قدموه للدولة أو للخلفاء من أفضال ، عندما أصيبت الخلافة العباسية بالانحلال والضعف ، وأصبح اختيار الوزراء يتم وفقاً لأغراض أخرى من أبرزها الرشوة التي أصبحت الوسيلة العملية للترشيح لهذا المنصب الكبير .

وكان من مهام الوزراء في العصر العباسي الاشراف عن دواوين الدولة ، والشؤون المالية وشؤون الترسيل والمكاتبات ، والشؤون الحربية ، ولهذا أصبح الوزير يجمع في عمله بين السلطتين الدينية والحربية ، أو بمعنى آخر بين خطتي السيف والقلم ، كذلك كان من مهامه النظر في قضايا الناس ومطالبهم وتعيين الولاة[2] .

ثالثا : الكتابة :

ظهرت وظيفة الكاتب في الدولة العربية منذ أيام الرسول الأعظم محمد ﷺ في المدينة ، فقد ذكر من جملة كتابه الصحابة : علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت ، كتبوا له سور القرآن الكريم ، والكتب التي خاطب بها ملوك عصره يدعوهم للإسلام . وباتساع الدولة العربية في عهد الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب (رض) ، وتعقد ادارتها ظهرت الحاجة الماسة إلى وجود الكتاب في الأقاليم ، خاصة بعد أن دونت الدواوين ، وعين كاتب لكل ﷺولاية يكتب في ديوانها .

(١) الماوردي ، نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢) ابراهيم سلمان الكروي ، نظام الوزارة في العصر العباسي الأول ، ص ٣٤ وما بعدها ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨٣ م.

وكان من الطبيعي بعد أن اتسعت الدولة العربية الاسلامية بفتوح الشام والعراق ومصر وفارس أن يحتك العرب بشعوب متحضرة لها أنظمة وادارات متفوقة ولم يكن من الغريب أن يستفيد العرب من هذه الأنظمة خاصة فيما يتعلق بالدواوين عندما تدفقت عليهم الأموال وأصبحوا في مسيس الحاجة إلى هذه النظم الادارية ، فأخذوا عن الفرس نظام الدواوين ، ثم ظهر اختصاص الوزير في العصر الأموي عندما تحولت الخلافة إلى ملك وراثي واحتاج الخلفاء إلى من يتولى التدبير وابداء الرأي في الشؤون العامة والخاصة ، فاصطنعوا أولي الرأي وقربوهم إليهم ، واصبح هؤلاء يقومون بعمل الوزراء دون أن يتلقبوا بهذا اللقب ، وإنما أطلق عليهم لفظ « كاتب » وتعددت اختصاصات هؤلاء الكتاب بتعدد المهام التي اسندت إليهم ، ومع ذلك فلم يتلقب بعضهم بلقب الوزراء ، ومنهم امثال زياد بن أبيه في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وروح بن زنباغ الجذامي الذي كانت له مهام الوزير في عهد عبد الملك بن مروان ، وعبد الحميد بن يحيى بن سعيد كاتب الخليفة مروان بن محمد الذي قام مقام الوزير في الدولة . ولا ينبغي أن نفهم هذا اللقب الذي اتخذه هؤلاء بنفس المعنى الذي عرف عند وزراء العصر العباسي فقد كانوا مجرد كتاب كبار قربهم الخلفاء إليهم واعتمدوا عليهم في تصريف الأمور وفي المشورة والرأي ولذلك لا يجوز من قبيل التشبه بالوزراء أن يطلق عليهم لقب وزراء إذ أن وظيفة الوزير بالمفهوم الذي تحدد في العصر العباسي والعصور الاسلامية التالية لم تكن من الوظائف المعروفة في الدولة الأموية .

ويمثل العصر العباسي قمة التطور في ازدهار فن الكتابة ، وضبط أصولها ، وتعدد كتابها ، الذين اصبح لهم حظ وافر من السلطة والجاه لدى الخلفاء العباسيين نظراً لخبرتهم ودرايتهم في الأمور السلطانية .

وعندما ظهر منصب الوزير بشكله الرسمي في العصر العباسي الأول

---

(١) إبراهيم سلمان الكروي ، نظام الوزارة في العصر العباسي الأول ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨٣ م ، ص ٣٤ وما بعدها

كان لا بد من وجود فئة من الكتاب يقومون بمساعدة الوزير في ادارة شؤون الخلافة ، خاصة بعد تعقد اختصاصاته وتعدد واجباته . فظهر عدد من الكتاب ، كان منهم كتاب الرسائل الذين اطلق عليهم تراجمة الملوك(١) لأهميتهم وكانت وظيفتهم : « اذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل السياسية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمه . كذلك كان يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة ، وكان الوزير يتولى ذلك أحياناً ، وكثيراً ما كان يتولى الخليفة ذلك بنفسه ، فقد أثر عن الخليفة أبو جعفر المنصور أنه لما جاءه كتاب محمد بن عبدالله بن الحسن العلوي هم كاتبه أن يجيبه ، فقال المنصور : لا بل أنا أجيبه ، إذا تقارعنا على الاحساب فدعني واياه » . أما كاتب الخراج فمهمته الاشراف على تنظيم الخراج وجبايته والنظر في مشاكله باعتباره العمود الفقري لمالية الدولة ، وكانت مهمة كاتب الجند تقييد اسماء الأجناد وصفاتهم وطبقاتهم واعطياتهم ونفقات الأسلحة وغير ذلك .

أما مهمة كاتب الشرطة فتنحصر في كتابة التقارير في بعض حالات العقود والديات . أما كاتب القاضي فوظيفته كتابة الشروط والأحكام .

ونظراً لأهمية منصب الكاتب في الدولة العباسية ، فإن الخلفاء كانوا يختارون كتابهم من رجال الأدب ومن اعرق الأسر ، ممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب ، لحرصهم على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ ، وفي ذلك يقول ابن خلدون(٢) : « أعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخيروا من ارفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم وعارضة البلاغة ، فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس

(١) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٣ .
(٢) المقدمة ، ص ٢٤٧ ، وقد ذكر القلقشندي هذه الشروط بصورة أكثر تفصيلاً . انظر : صبح الأعشى ، ج ١ ، القاهرة ١٩١٣ م ، ص ٦١ وما بعدها .

الملوك ومقاصد أحكامهم ، من أمثال ذلك مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة واسرارها » .

وقد زخر العصر العباسي الأول بعدد من الكتاب ، الذين ذاع صيتهم ، فقد اشتهر يحيى بن خالد البرمكي وابنه جعفر ، والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد ، والفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف في عهد المأمون ، وعبد الملك الزيات والحسن بن وهب واحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق ، ومن الجدير بالذكر أن معظم هؤلاء الكتاب قد تولوا منصب الوزير فيما بعد ، لأن الكاتب كان يرشح عادة لهذا المنصب في الدولة العباسية لجمعه الصفات المطلوبة في الوزير .

وكان لهؤلاء الكتاب أثر كبير في نشر نوع من الثقافة الخاصة ، ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم ، وكانت معارفهم ودائرة اطلاعهم واسعة شاملة لأنهم ـ بحكم منصبهم ـ مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم ، وأن يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافيا والتاريخ طرفاً لأن كثير من مواقفهم يحتاج إلى ذلك[1] .

ويبدو أن كثير من الوزراء كانوا يُشجعون على اتخاذ مثل هؤلاء الكتاب ، فذكر عن يحيى بن خالد أنه أوصى أولاده بقوله : « لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا بالأشراف واياكم وسفلة الناس ، فإن النعمة على الإشراف أبقى وهي بهم أحسن والمعروف عندهم أشهر والشكر منهم أكثر[2]

ولقد امتاز كتاب ذلك العصر بحسن الكتابة وغزارة العلم وسعة الاطلاع وحس البلاغ فكان جعفر البرمكي « كاتباً بليغاً وكان إذا وقع نسخت توقيعاته

---

(١) أحمد امين ، ضحى الاسلام ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٢ م ، ص ١٧٧ .
(٢) الجهشياري ، ص ١٧٩ .

وتدورست بلاغاته »[1] . وقيل عن اسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد بأنه ـ لم ير أطيش من قلمه ولا أثبت من حمله[2] .

وقد وصفوا بأنهم « نظام الأمور وكمال الملك وبهاء السلطان وهم الألسنة الناطقة عن الملوك وخزان أموالهم وأمناؤهم على رعيتهم وبلادهم »[3] . ولذلك كان كتاب الدولة مثلاً يحتذيه الناس في الزي والوقار ـ وبلغت عظمتهم ومكانتهم في المجتمع إلى حد أن الناس أخذوا يقلدونهم ويتشبهون بهم وليس ادل على ذلك قول رجل لبنيه « يا بني تزيوا بزي الكتاب فإن فيهم أدب الملوك وتواضع السوقة »[4] .

ويقال أن المهدي أول خليفة عباسي جعل للكتاب يوم الخميس عطلة رسمية يستريحون فيه وينظرون في أمورهم ولا يحضرون الدواوين[5] . ويبدو أن هذا التقليد ظل متبعاً حتى خلافة المعتصم الذي ازال الرسم بتأثير من وزيره الفضل بن مروان ، فأخذ الكتاب يحضرون يوم الخميس[6] .

وقد حرص الخلفاء والوزراء على أن تدون رسائلهم وكتبهم بأسلوب شائق ومختصر ، فكان الخليفة المنصور يقول لكتابه « اكتب وقارب بين الحروف وفرّج بين السطور واجمع خطك »[7] . وذكر عن يحيى بن خالد البرمكي بأنه قال لكتابه « إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات اختصاراً فافعلوا »[8] . كذلك نرى الفضل بن سهل يأمر كتابه أيضاً بأن « يقاربوا بين

(١) الجهشياري ، ص ٢٠٤ .
(٢) الصولي ، أدب الكتاب ، ج ١ ، تحقيق محمد بهجت الأثري ، القاهرة ١٣٤١هـ ، ص ٧٣ .
(٣) الجهشياري ، نفس المصدر السابق والصفحة .
(٤) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ١ ، القاهرة ١٩٢٥م ، ص ٤٦ .
(٥) الجهشياري ، ص ١٦٦ .
(٦) الجهشياري ، نفس المصدر السابق والصفحة .
(٧) الجهشياري ، نفسه ص ١٣٢ .
(٨) الجهشياري ، ص ٢٠١ .

الحرف لئلا يسافر البصر سفراً بعيداً في حروف قليلة »[1]

وترتب على ارتفاع الكتاب في الدولة العباسية إن ظهر نوع من التنافس بين الوزراء والكتاب تحول إلى عداء ، وكان هذا التنافس سبباً في تنكيل الخلفاء ببعض وزرائهم ونكبهم . فإذا كان الكاتب يحظى بمكانة طيبة عند الخليفة ، سعى الوزير إلى النيل منه عند الخليفة أو يحدث العكس ، فذكر أن المنصور قبض على وزيره أبي أيوب المورياني وقتله نتيجة لسعاية كاتبه ابان بن صدقة[2] . كما أن ابن المقفع كاتب المنصور راح ضحية دسائس أبي أيوب المورياني وزير الخليفة ، وذكر أن سبب ذلك هو « أن أبا جعفر قال يوماً لأبي أيوب وقد أنكر عليه شيئاً : كأنك تحسب أني لا أعرف موضع اكتب الخلق وهو ابن المقفع مولاي ، فلم يزل أبو أيوب خائفاً له يسعى ويدب في أمره حتى قتله »[3] .

وكانت الحكومة العباسية تدفع لكتابها رواتب مقررة في كل شهر ، قدرت في زمن الخليفة أبي جعفر بثلثمائة درهم[4] . وبقيت كذلك حتى خلافة المأمون عندما أمر بزيادة ارزاقهم فقد أورد التنوخي بأنه كان « راتب كاتب في ديوان الجند زمن المأمون ثلاثة الاف درهم »[5] .

ولكن يبدو أن الكتاب كانوا يجمعون أموالاً ضخمة عن طريق الاختلاس والرشاوي ، نظراً لمكانتهم عند الخلفاء وتوليهم رئاسة بعض الدواوين الخاصة بالمالية ، ولا سيما ديوان الخراج منها . فقد ذكر أنه في سنة ٢٢٩ هـ حبس الواثق الكتاب والزمهم أموالاً عظيمة وأخذ من أحمد بن اسرائيل ثمانين ألف

---

(١) الجهشياري ، نفسه ، ص ٣٠٦ .
(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٣٦ .
(٣) الجهشياري ، ص ١٠٩ ، « وقيل إنه اتهمه بالشعوبية والزندقة ، انظر : الدكتور مصطفى الشكعة ، الأدب في موكب الحضارة الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ٣٥٥ » .
(٤) الطبري ، ج ٨ ، ص ٩٥ ، الجهشياري ، ص ١٢٦ .
(٥) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٥ م ، ص ٢٠٤ .

دينار بعد أن ضربه ، ومن سليمان بن وهب كاتب ايتاخ اربعمائة ألف دينار ، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألف دينار ، ومن إبراهيم بن رباح وكتابه مائة ألف دينار ، ومن أحمد بن الخصيب وكتابه ألف ألف دينار ، ومن نجاح ستين ألف دينار ، ومن أبي الوزير مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار[1] .

ولا عجب في ذلك إذا علمنا أن أحمد بن خالد الأحول كاتب المأمون بتوسط لدى الخليفة بتولية طاهر بن الحسين خراسان ويشترط على نجاحه في ذلك ثلاثة الاف درهم[2] .

رابعا: الحجابة :

ومفردها حاجب وهو من كبار موظفي الدولة ، وهو همزة الوصل بين الخليفة والناس يقدم السفراء ، ويأذن لمن يشاء بالدخول على الخليفة أو يمنعه ، وتفادياً لازدحام الناس في حضرة الخليفة منح الصلاحية للبت في القضايا التي لا تستدعي نظر الخليفة . وهذه الوظيفة بشكلها المتكامل لم يعرفها العرب في عصر الخلفاء الراشدين لأن أبوابهم كانت مفتوحة للجميع ، مقتدين في ذلك بسيرة الرسول الأعظم محمد ﷺ الذي لم يمنع أحداً من الناس من لقائه وحل ما يعترض حياته من مشكلات .

ولما انتقل الحكم إلى بني أمية ظهرت هذه الوظيفة واضطر خلفاءها إلى اتخاذ الحجاب مدفوعين في ذلك بحرصهم على ارواحهم من خطر اعدائهم وخصومهم من الأحزاب السياسية المعارضة . ويعتبر معاوية بن أبي سفيان أول من فكر باستحداث منصب الحاجب خاصة بعد ظهور محاولة اغتيال الخلفاء علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص من قبل

(١) ابن الأثير الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٦٩ ، الخضري ، تاريخ الأمم الاسلامية ، ج ٢ ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٣٠ م ، ص ٣٤٣ .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ٣ ، العراق ، ١٣٥٨ هـ ، ص ١٨٣ .

الخوارج ، فكان الحاجب يمنع الناس من الدخول عليه إلا باذن خاص ، ويبدو أن خلفاء بني أمية استثنوا من تلك المراسيم بعض الأشخاص الذين لا غناء عن دخولهم عليهم بلا إذن أو تصريح : المؤذن للصلاة ، وصاحب البريد ، وصاحب الطعام . وفي قول الخليفة عبد الملك بن مروان لحاجبه ما يؤكد ذلك : « قد وليتك حجابة بأبي إلا عن ثلاث : صاحب الطعام فإنه يفسد بالتأخير ، والأذان بالصلاة فإنه داع إلى الله والبريد فإن في تأخيره فساد القاصية »[1] .

وقال لأخيه عبد العزيز بن مروان واليه على مصر : « أنظر حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يقف أحد ببابك إلا اعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن أو ترده »[2] .

وفي أواخر عصر الدولة الأموية تشدد الحجاب في منع الناس من المثول بين يدي الخلفاء ، فعندما قدم وفد البربر برئاسة ميسرة على باب قصر الخلافة بدمشق لمقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك وبثه شكاواهم مما يلاقيه قومهم في المغرب الاسلامي من عسف ولاتهم واستبدادهم بهم وسوء معاملتهم له ، منعهم وزيره الأبرش عن ذلك ، وظلوا مقيمين على بابه شهراً حتى يئسوا من لقائه ، فتركوا للوزراء رقاعاً بمطالبهم وانصرفوا بعد ذلك ساخطين ، ليشعلوا نار الثورة في المغرب[3] .

ومن أشهر حجاب بني أمية : خالد وسعيد موليا الوليد بن عبد الملك وحاجباه ، وأبو عسكر مولى سليمان بن عبد الملك وحاجبه ، والأبرش الكلبي حاجب هشام ، وكان هذا الحاجب « يدخل عليه فيقول فلان بالباب وفلان ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢٠ .
(٢) علي ابراهيم حسن ، التاريخ الاسلامي العام ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٣ م ، ص ٥٢٢ .
(٣) عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج٢ ، الاسكندرية ١٩٦٦ م ، ص ٣٠٣ .

فيقول : ائذن ، فلا يزال الناس يدخلون عليه حتى اذا انتصف النهار وضع الطعام ورفعت الستور » . ومن حجاب بني أمية أيضاً قطر مولى يزيد بن الوليد بن عبد الملك وحاجبه وحاجب إبراهيم بن الوليد ، وصقلاب مولى مروان بن محمد وحاجبه .

ولما قامت الدولة العباسية اقتدى خلفائها بالأمويين ، فاتخذوا الحجاب ونصحوهم بعدم التشدد في معاملة الناس الذين يرغبون في مقابلتهم ، فقد روي عن الخليفة المنصور أنه عندما ولي الخصيب حجابته قال له : « إنك بولايتي عظيم القدر وبحجابتي عظيم الجاه فبقها على نفسك ، ابسط وجهك للمستأذنين وصن عرضك عن تناول المحجوبين فما شيء اوقع بقلوبهم من سهولة الاذن وطلاقة الوجه »[1] .

وعندما اتخذ الخليفة الهادي الفضل بن الربيع حاجباً له بعد أبيه قال له : « لا تحجّب عني الناس فإن ذلك يزيل عني البركة ، ولا تلقي إلي امراً إذا كشفته اصبته باطلاً ، فإن ذلك يوقع الملك ويضر الرعية »[2] .

ولم يقف اختصاص الحاجب في هذا العصر على ادخال الناس على الخليفة حسب مقامهم واهمية اعمالهم كما يعبر عن ذلك ابن قتيبة[3] اذ يروي أن أحد الخلفاء قال لحاجبه :

« قد وليتك بأبي فما تراك صانعاً برعيتي ؟ قال : أنظر لهم بعينك واحملهم على قدر منازلهم عندك واضعهم في ابطائهم عن زيارتك ولزوم خدمتك مواضع استحقاقهم وارتبهم حيث وضعهم ترتيبك واحسن ابلاغك

---

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ج٦ ، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٩ م ، ص ٩١ .
(٢) الطبري ، نفس المصدر السابق ، ج٨ ص ٢١٧ .
(٣) عيون الأخبار ، مج١ ص ٨٣ .

عنهم وابلاغهم عنك . قال : قد وفيت ما لك وما عليك » .

بل تجاوز هذا الاختصاص إلى المشورة على الخلفاء مستغلين في ذلك مكانتهم العالية ، ومنزلتهم السامية وقربهم من الخلفاء ، وفيما يلي كثير من الأمثلة نذكرها على سبيل المثال لندلل بها على صحة ما ذهبنا إليه ، فالربيع بن يونس[١] وزير المنصور أخذ البيعة للمهدي والهادي ولعب دوراً مع عيسى بن موسى في أن يخرج البيعة من عنقه إلى موسى ولد المهدي ومما هو جدير بالذكر أن الربيع سبق أن لعب دوراً مماثلاً مع عيسى بن موسى في اثناء خلافة المنصور ، وهو الذي عمل على نكبة أبو عبيدالله معاوية بن يسار وزير المهدي ، وعن طريقه استوزر المهدي يعقوب بن داود لصداقة كانت بين الربيع وبينه ، فجعل يثني على يعقوب في خلواته بالمهدي حتى استوزره

أما الفضل بن الربيع حاجب الخليفة الرشيد فقد لعب دوراً عظيماً في السعي للايقاع بالبرامكة فقد كان لا يترك أي فرصة تمر دون أن يستغلها لايغار صدر الرشيد عليهم ، فيذكر الجهشياري[٢] أنه حرض الرشيد على جعفر البرمكي ونسب إليه أنه اهان الخليفة . كما كان له أثر في احداث الخلافة بين الأمين وأخيه المأمون فهو الذي شجع الأمين على خلع أخيه أو الفتك به وتمزيق امارته[٣] .

وكان الحجاب في عصر الدولة العباسية كغيرهم من ذوي المناصب العليا ، يسعون إلى الاثراء السريع وجمع الأموال بشتى الطرق سواء كان ذلك

---

(١) ذكر بعض المؤرخين انه لم ير في الحجابة اعرف من الربيع ومن ولده الفضل الذي حجب لهارون الرشيد ولمحمد الامين ، ومن عباس بن الفضل الذي حجب للامين ، وقد مدحهم ابو نواس بقوله :

ساد الملوك ثلاثة ما منهم ... ان حصلوا الا اغر قريع
عباس عباس اذا احتدم الوغى ... والفضل فضل والربيع ربيع

(٢) الوزراء ، ص ٢١٦ .

(٣) للمزيد من التفصيلات عن هذا الموضوع راجع الفصل الرابع من كتاب : نظام الوزارة في العصر العباسي الاول للدكتور ابراهيم سلمان الكروي .

عن طريق الرشوة أو عن طريق الهدايا الكبيرة التي يقدمها طالبوا الحاجات لهم ، لقاء توسطهم لهم لدى الخليفة أو التعجيل في الاذن لهؤلاء الأفراد بالدخول عليه . فقد ذكر أن الربيع حاجب المنصور كان قد اتفق مع يعقوب بن داود على رشوة مقدارها مائة الف دينار حين يتوسط له لدى الخليفة ليتولى الوزارة[1] .

ويأتي الطبري[2] في ذلك بروأية أخرى تعبر عن تفنن الحجاب في جمع الأموال وإن كانت بعيدة التصديق لأنها تشير إلى نوع من التواطؤ بين الرشيد وبين حاجبه لتقاسم الأموال يقول الطبري « أراد الرشيد أن يشرب الدواء يوماً فقال له ابن أبي مريم هل لك أن تجعلني حاجبك غداً عند اخذك الدواء وكل شيء اكسبه فهو بيني وبينك؟ قال : افعل فبعث إلى الحاجب ، الزم غداً منزلك فإني قد وليت ابن أبي مريم الحجابة . وبكر ابن أبي مريم فوضع له الكرسي وأخذ الرشيد دواءه وبلغ الخبر بطانته فجاء رسول أم جعفر يسأل عن أمير المؤمنين وعن دوائه فأوصله إليه وتعرف حاله وانصرف بالجواب وقال للرسول اعلم السيدة ما فعلت في الاذن لك قبل الناس : فاعلمها فبعث إليه بمال كثير ، ثم جاء رسول يحيى بن خالد ففعل به مثل ذلك ، ثم جاء رسول جعفر والفضل ففعل كذلك فبعث إليه كل واحد من البرامكة بصلة جزيلة ثم جاء رسول الفضل بن الربيع فرده ولم يأذن له وجاءت رسل القواد والعظماء فما أحد سهل اذنه إلا بعث إليه بصلة جزيلة فلما صار العصر حتى صار إليه ستون ألف دينار ، فلما خرج الرشيد من العلة ونقى بدنه من الدواء دعاه فقال له ما صنعت في يومك هذا ؟ قال : يا سيدي كسبت ستين ألف دينار فاستكثرها وقال : واين حاصلي قال : معزول قال : قد سوغناك حاصلنا فاهد الينا عشرة الاف تفاحة ، ففعل فكان اربح من تاجره الرشيد .

(١) ابن طباطبا ، الفخري ، ص ٢٥١ .
(٢) الطبري ، ج ٨ ، ص ٣٥٠- ص ٣٥١ .

المراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ إبراهيم أحمد العدوي : النظم الاسلامية ، طبعة القاهرة .

٣ ـ إبراهيم سلمان الكروي : نظام الوزارة في العصر العباسي الأول ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨٣ م .

٤ ـ الماوردي (أبو الحسن علي بن حبيب) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، القاهرة ١٩٦٦ م .

٥ ـ توفيق سلطان اليوزبكي : دراسات في النظم العربية والاسلامية ، بغداد ١٩٧٧ م .

٦ ـ حسن إبراهيم حسن ، علي إبراهيم حسن : النظم الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٢ م .

٧ ـ ابن طباطبا (محمد بن علي ، المعروف بابن الطقطقي) : الفخري في الآداب السلطانية ، بيروت ١٩٦٦ م .

٨ ـ عبد الخالق النواوي : النظام المالي في الاسلام ، بيروت ١٩٧٣ م .

٩ ـ ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي) : الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ، القاهرة ١٩٧٧ م .

١٠ ـ محمد الخضري : تاريخ التشريع الاسلامي ، القاهرة ١٩٧٠ م .

١١ ـ محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٢ م .

الفصل الثالث

النظام الإداري

أولاً : القضاء

ثانياً : الدواوين

ثالثاً : النظر في المظالم

رابعاً : الحسبة

خامساً : الشرطة

أولا : القضـاء :

كان الرسول الأعظم محمد ﷺ يتولى الفصل في الخصومات والمنازعات التي تقوم بين المسلمين ولم يكن للمسلمين في عهدة قاض سواه . وعندما تولى ابو بكر الصديق (ر ض) الخلافة أسند هذه المهمة إلى عمر بن الخطاب (ر ض) رغم انه لم يتخذ لقب قاض . وفي خلافة عمر توسعت حدود الدولة الإسلامية ، وتباعدت المسافة بين الخليفة في العاصمة وبين المسلمين في المناطق المفتوحة ، كما ازدادت المشاكل وتنوعت ولذا رأى عمر انه لا بد من تعيين قضاة لمختلف الولايات ، وقد طلب منهم العمل بكتاب الله العزيز وسنة نبيه الكريم . كما وضع لهم دستوراً يسترشدون به في احكامهم ويتمثل ذلك في الوصايا التي كان يزود بها قضاته وابرز مثل على ذلك الوصية التي بعث بها إلى أبي موسى الأشعري ، احد قضاته وجاء فيها : " . . . واسى بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في جيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا احل حراما أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس فراجعت اليوم فيه عقلك ،

وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق . فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . . . » .

لم يكن للقاضي في بادىء الأمر كاتب ولا سجل تدون فيه المرافعات والمحاكمات ، بل كان يبت في القضايا في حينها ، وكان القاضي يجلس للحكم اما في داره أو في المسجد . وفي العصر الأموي بقي القضاء منصباً هاماً وكثيراً ما كانت احكام القضاة نافذة حتى على الولاة والعمال وكبار رجال الدولة . وفي هذا العهد ظهرت لأول مرة سجلات لحفظ الاحكام التي يصدرها القضاة .

أما في العصر العباسي فقد تعقد القضاء لتعقد الحياة الاجتماعية وما طرأ على المجتمع من أساليب جديدة شملت النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، الأمر الذي ادى إلى ظهور الكثير من المشاكل المحتاجة إلى قضاة يفصلون فيها وفقاً للشريعة الاسلامية ، هذا بالإضافة إلى أن ظهور المذاهب الأربعة ترتب عليه ضعف روح الاجتهاد في الاحكام ، بحكم التزام القضاة في احكامهم باحد هذه المذاهب ، فكان قاضي العراق يحكم وفق مذهب ابي حنيفة ، بينما ساد المذهب الشافعي في مصر والمذهب المالكي في الشام والمغرب والاندلس . وقد نتج عن ذلك ان أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، ينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه . لقد ادخل العباسيون تطوراً اساسياً في السلطة القضائية عندما حصروا سلطة تعيين القضاة بالخلفاء وحدهم ، فقوي مركز القاضي في الأقاليم ، واستقل بوظيفته عن الأمير، وكان أبو جعفر المنصور أول خليفة عباسي ولي قضاة الأمصار من قبله[1] ، وهذا يعني ان القضاء في هذا العصر فقد استقلاليته وتأثر بالسياسة العامة للدولة لرغبة الخلفاء العباسيين في اكساب اعمالهم صبغة شرعية ، مما دفع بالكثير من الفقهاء إلى الامتناع عن تولي القضاء خشية حملهم على الافتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية . وعنيت الادارة

(١) ابن ايبك ، درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان ، مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٤٠٩) تاريخ ، ص ٢٤٩ .

العربية باختيار الاكفاء من القضاة ووضعت شروطاً اساسية في اختيارهم كالذكورية والبلوغ والعقل والحرية والإسلام والعدالة والسلامة في السمع والبصر والعلم[1] بالأحكام الشرعية ، هذا بالاضافة إلى شروط اخرى الزامية كالشرف والأناة والتفقه ، فقد ذكر أن الرشيد احضر رجلاً ليوليه القضاء فقال له : « إني لا احسن القضاء ولا انافقيه ، قال الرشيد : فيك ثلاث خلال : لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ، ولك حلم يمنعك من العجلة ومن لم يعجل قل خطؤه وانت رجل تشاور في امرك ومن شاور كثر صوابه ، وأما الفقه فسينضم اليك من تتفقه به[2] .

ولقد منح القضاة في العصر العباسي الأول الكثير من المزايا ، حتى توسعت سلطاتهم فاصبح القاضي « يجمع مع الفصل بين الخصوم ، استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين واوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء على رأي من رآه ، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب »[3] . ونظراً لتوسع مهام القضاة ، وتعدد اختصاصاتهم كان يعاونهم مساعدون ونواب عرفوا بنواب الحكم ، وكان القاضي يتخذ شهوداً عرفوا بالأمانة والتفقه في الدين ، ولذلك سموا بالشهود العدول أي الذين لا يشك في ذممهم .

أضف إلى ذلك أن بعض الخلفاء عهدوا إلى بعض قضاتهم بقيادة الجيوش كما حدث بالنسبة إلى يحيى بن اكثم حين كان يخرج أيام المأمون بالجيوش إلى أرض الروم . وقد اقتدى زيادة الله بن الأغلب عندما ارسل القاضي اسد بن الفرات قائداً على الحملة الأغلبية على صقلية في سنة ٢١٢هـ[4] .

---

(١) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ٦١ .
(٢) ابن قتية ، عيون الاخبار ، مج ١ ، ص ١٧ - ١٨ .
(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢١ .
(٤) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ص ١٨٧ .

كذلك تمتع القضاة بكثير من ضروب التقدير والاحترام لدى الخلفاء العباسيين ، فقد ذكر أن المهدي عندما كان يجلس للمظالم ، يقول : ادخلوا علي القضاة فلو لم يكن ردي للمظالم إلا للحياء منهم لكفى[1] .

وقد اشتهر قضاة ذلك العصر بالقوة والعدالة والنزاهة وعدم التحيز إلى أي جانب ، حتى ولو كان الأمر متعلقاً بالخليفة نفسه ، وخير دليل على ذلك ما ذكره الكندي من أنه وقع بين أم المهدي وبين ابي جعفر المنصور خصومة ، فقالت لا أرضى إلا بحكم غوث بن سليمان ، وكان هذا قاضياً على مصر من قبل المهدي ، فحمل للعراق للحكم بينهما ، فوكلت أم المهدي عنها وكيلاً جلس أمام القاضي ، فطلب القاضي من أمير المؤمنين أن يساوي خصمه في مجلسه فانحط عن فرشه ، وجلس مع الخصم ، وبعد النظر في القضية حكم القاضي لأم المهدي على أمير المؤمنين[2] .

كذلك خوصم مولى السيدة زبيدة زوجة الرشيد ووكيلها إلى القاضي محمد بن مروق فأمر باحضاره فجلس متربعاً فأمر به مروق فبطح وضرب عشراً[3] . على الرغم من أن هذا المولى كان وكيلاً للسيدة زبيدة ذات النفوذ والسلطة في ذلك الوقت .

وكان القاضي يباشر اعماله اول الأمر في المسجد الجامع ، باعتبار ان منصبه كان دينياً أكثر منه دنيوياً ، ثم أصبح يعقد في دار القاضي ، وذلك بعد أن تعددت المساجد الجامعة في المدينة الواحدة ، وفي بعض الأحيان كان القاضي يعقد جلسته في قصر الخلافة خاصة إذا ما كان الأمر متعلقاً بالمظالم[4] . ويتألف مجلس الحكم من القاضي والشهود العدول والموقعين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ص ٧٢ ، ابن طباطبا . الفخري ، ص ٢٤٣ .
(٢) الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ، بيروت ١٩٠٨م ، ص ٣٧٤ - ٣٧٦ .
(٣) الكندي ، نفس المصدر السابق ، ص ٣٩٢ .
(٤) ابن خلدون ، نفس المصدر السابق والصفحة .

الذين يسجلون محضر الجلسة والحجاب الذين يتولون ادخال الخصوم إلى مجلس الحكم .

ويلاحظ أن منصب القاضي لم يكن يتأثر بالاحداث السياسية بدليل ان القاضي كان يستمر في خدمته مدة طويلة سيما إذا كان يتمتع بالجدارة والنزاهة . ومع ذلك فقد لجأ بعض خلفاء بني العباس احياناً إلى حمل القضاء على السير وفق رغباتهم ليكسبوا اعمالهم صفة الشرعية .

لذلك امتنع بعض الفقهاء عن قبول منصب القضاء ، فقد ذكر الطبري « أن المنصور عرض على أبي حنيفة النعمان القضاء والمظالم فامتنع »[1] .

ورغم هذا ، نقض الخلفاء العباسيون العهد مع بعض القواد والعلويين بعد أن اعطوهم الأمان ، وذلك عن طريق فتاوى القضاة : فقد تسلم ابن هبيرة من أبي جعفر المنصور كتاباً يحمل امضاء الخليفة السفاح يعطيه فيه الأمان ولكن لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة ، وغدر المنصور بعمه عبد الله بن علي وابي مسلم الخراساني ، وكتب الرشيد بخطه امانا ليحيى بن عبد الله اخي محمد النفس الزكية وكان قد ثار في بلاد الديلم ولكنه لم يلبث ان حبس ونقض الأمان .

ولم يكتف العباسيون بسلطة تعيين القضاة حسب ، بل طوروا الإدارة القضائية بشكل دقيق ومنظم ، فاستحدثوا وظيفة « قاضي القضاة » ليشرف على قضاة الدولة كلها ، ويراقب سيرهم في القضاة ، وكان القاضي ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم[2] صاحب كتاب الخراج أول من تقلد منصب قاضي القضاة في العهد العباسي من الرشيد . وربما يعود ذلك إلى غزارة

(١) الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ص ٦١٩ .

(٢) يسميه العيني : « قاضي قضاة الدنيا لانه كان يستنيب في سائر الاقاليم التي يحكم فيها الخليفة » انظر : عقد الجمان ، ج ١٣ ، مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ .

علمه ودرايته بالشؤون القضائية والادارية خاصة ، فقد ذكر انه « كان افقه اهل عصره ، فلم يتقدم عليه أحد في زمانه ، وكان بالنهاية في العلم والحلم والرياسة والقدر والجلالة ، وهو أول من وضع الكتب في اصول الفقه على مذهب ابي حنيفة واملى المسائل ونشرها وبث علم ابي حنيفة في اقطار الأرض »[١] .

وكان القاضي في عصر الدولة الأموية يجلس مجلسه بدون مراسم ، إلا أنه منذ العصر العباسي اصبح يتخذ لنفسه الرسوم ، كأن يضع الطيلسان على منكبيه ، ويعقد بوسطه سيفاً ، ويتوشح بالسواد أو البياض حسب مذهبه . وأول من ميز لباس القضاة والعلماء القاضي أبو يوسف ، فاصبح القاضي « يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة »[٢] ، بعد أن كان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا يتميز احد بلباسيه[٣] .

ومن المظاهر التي تعبر عن ازدياد مكانة القضاة في العصر العباسي الأول ، ما بلغه أبي محمد يحيى بن اكثم قاضي الخليفة المأمون ، فقد خوله بامتحان القضاة الذين يراد توليتهم من وجوه الفقهاء[٤] وبلغ من أهمية القاضي احمد بن ابي دؤاد أن الخليفة المعتصم لم يكن بيت في أمر إلا برأيه[٥] .

أما عن ارزاق القضاة ، فالحقيقة إننا لم نقف على ما كانوا يتقاضونه في العراق في ذلك العصر . إلا أنه قد وردت بعض الاشارات عن رواتب القضاة في مصر . يمكن ان نستنتج منها الراتب التقريبي لقاضي العراق . فقد ذكر أن الخليفة أبا جعفر المنصور حين ولى عبد الله بن لهيعة سنة ١٥٥هـ قاضياً

---

(١) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ١ ص ٣٠١ .
(٢) الكندي ، نفس المصدر السابق ، ص ٣٧٨ .
(٣) العيني ، نفس المصدر السابق والصفحة .
(٤) ابن طيفور ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٨م ، ص ٤٠ .
ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٦٧ .

على مصر اجرى له ثلاثين دينار في كل شهر[1] .

وكان راتب المفضل بن فضاله قاضي مصر من قبل المهدي ثلاثين ديناراً في كل شهر أيضاً ، وكان يأخذ عسلاً بدل عشرة منها[2] . ويبدو أن هذا الراتب ارتفع ارتفاعاً عظيماً في أيام المأمون ، فقد اجرى والي مصر من قبل المأمون على القاضي الفضل بن غانم سنة ١٩٨هـ مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر ، وكان الفضل أول قاضي اجرى عليه هذا الرزق الكبير[3] ثم زاد حين قلد عيسى بن المكندر القضاء في مصر سنة ٢١٢هـ إلى أربعة الاف درهم في الشهر[4] . أي ما يوازي ٢٧٠ ديناراً شهرياً[5] . وهذا الراتب الذي يدفع للقضاة في مصر يمكن أن يكون مثله في العراق اذ اخذنا في الاعتبار ان قضاة مصر كان يصدر تعيينهم في بغداد .لقد اعطى العرب للعدل والقانون المكانة الاسمى في دولتهم ، وإذا كان القضاة هم الاداة الفعالة لتطبيق القانون ، فإننا نجد ثمة سلطات أخرى تمارس سلطة قضائية وقانونية إلى جانبهم . في بداية تاريخ الدولة العربية الإسلامية لم يكن فصل السلطات واضحاً تماماً ، خاصة فيما يتعلق بالسلطة القضائية فإلى جانب القاضي ، كان هناك صاحب الشرطة يتولى النظر في الجرائم ، وصاحب المظالم ، يتولى النظر في الدعاوي التي يدفعها الناس على السلطة نفسها ، حتى ولو كانت هذه السلطة متمثلة بالخليفة أو قضاته ، وإلى جانب هؤلاء كان هناك المحتسب . ويقوم بالاشراف على تنظيم الأسواق وسير المعاملات فيها .

ومع استقرار الأوضاع ، وتطور المجتمع ، ظهر الفصل بين السلطات أو الاختصاص في ممارستها واضحاً ، حتى شهد العصر العباسي إلى جانب

---

(١) الكندي ، نفس المصدر السابق ، ص ٣٦٩ .
(٢) الكندي ، نفسه ، ص ٣٧٧- ٣٧٨ .
(٣) الكندي ، ص ٤٢١ .
(٤) الكندي ، نفس المصدر ، ص ٤٣٥ .
(٥) زيدان ، التمدن الاسلامي ، ج ١ ، ص. ١٨٧ .

مؤسسة القضاء مؤسسة قضائية أخرى ، هي النظر في المظالم ، علاوة على الشرطة ، والحسبة .

ثانيا : الدواوين:

مفهوم الديوان :

أختلف في أصل التسمية ، ومهما كان أصل الكلمة فارسية أم معربة ، فإن الديوان هو موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال [1] .

نشأة الدواوين :

أول من أنشأ الديوان عند المسلمين عمر بن الخطاب ، أما قبل ذلك فلم يحتج المسلمون إلى أي من التدوين الحكومي سوى كتاب الوحي للرسول عليه السلام والكتاب الذين كتبوا له رسائله إلى ملوك الأمم المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام .

ولما كان عهد عمر كثر المال ، واتسعت البلاد ، وكثر الناس . فدونت الدواوين لوجود الدواعي ؛ فكان رضوان الله عليه أول من وضع الدواوين في الدولة الاسلامية .

واختلف الناس في سبب وضعه له ، فقال قوم : سببه أن أبا هريرة رضي الله عنه قدم عليه بمال من البحرين ، فقال له عمر : ماذا جئت به ؟ فقال : خمسمائة ألف درهم ، فاستكثره عمر ، فقال له : أتدري ما تقول ؟ قال : نعم ، مائة الف خمس مرات ، فقال عمر : أطيب هو؟ قال : لا أعلم إلا ذاك ، فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، قد

(١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٧٥، ابن خلدون ، المقدمة ، ج٢ ص ٦١٣ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج١ ص ٩٠ .

جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلنا لكم كيلا ، وإن شئتم عددنا لكم عدا ، فقام اليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت الاعاجم يدونون ديوانا لهم ، فدون أنت لنا ديوانا .

وقال آخرون بل سببه أن عمر بعث بعثاً ؛ وكان عنده أحد زعماء الفرس (الهرمزان) فقال لعمر : «هذا بعث قد اعطيت أهله الأموال ، فإن تخلف منهم رجل ، وأخل بمكانه ، فمن أين يعلم صاحبك به ، فأثبت لهم ديواناً ، فسأله عن الديوان حتى فسره له .

وقال جماعة : بل سببه مال أتى به أبو هريرة من البحرين ، فاستكثروه وتعبوا في قسمه . . . فأشار خالد بن الوليد بالديوان ، وقال رأيت ملوك الشام يدونون ، فقبل منه عمر(١) .

ويقول ابن تيمية في السياسة الشرعية «لم يكن للأموال المقبوضة والمقسومة ديوان جامع على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه ، بل كان يقسم المال شيئاً فشيئاً ، فلما كان في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثر المال ، واتسعت البلاد ، وكثر الناس ، فجعل ديوان العطاء للمقاتلة وغيرهم» .

ويقول ابو يوسف في كتابه الخراج «لما استقر رأي عمر على تدوين الديوان دعا عقيل بن أبي طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وكانوا من شباب قريش وكتابها ، وأمرهم أن يكتبوا الناس . على منازلهم ، فكتبوهم على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله ﷺ ، وما بعدها الأقرب فالأقرب ، ثم روعي في التفضيل عند انقراض أهل السوابق ، التقدم في الشجاعة ، والبلاء في الجهاد» .

---

(١) ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ج٢ ص ٦١٤ ، أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٥ ، ص ٢٦ ، ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص ٤٢ ، ابن طباطبا ، الفخري ، ص ٦٠ .

وفرض العطاء للناس جميعاً حتى للأطفال فقد أمر عمر رضي الله عنه مناديه « ألا لا تعجلوا أولادكم الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود في الاسلام ، ففرض للمنفوس مائة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم ، فإذا بلغ زاده[1] .

ومن هذا يتبين أن هذا الديوان كتب بادىء ذي بدء بالعربية ، كما أنه كان يضم الجند وأهل الأعطيات حتى الأطفال « وتلك هي الحادثة الأولى في تاريخ العالم ، حيث اضطلعت الحكومة بمسئولية إطعام سكان الدولة ، وكسوتهم . هكذا كان تدوين الديوان في ابتداء وضعه ، وكان ذلك في المحرم سنة ٢٠هـ كما يقول البلاذري ص ٥٥ ، ٤٦٢ ، ابن خلدون في مقدمته ص ٢ ص ٦١٤ أو كما قيل سنة ١٥هـ كما ورد في الطبري ص ٣ ص ١٠٨ ، الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٦٠ ، وتاريخ ابي الفداء ص ١ ص ١٦٠ .

وبقي ديوان الخراج والجبايات بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل : ديوان العراق بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وكتاب الدواوين من أهل الذمة من الفريقين .

الدواوين في عهد الأمويين :

أشهر الدواوين التي عرفت زمن الأمويين هي :
ديوان الجند ـ ديوان الخراج ـ ديوان الرسائل ـ ديوان الخاتم ـ ديوان الطراز ـ ديوان الصدقات :

١ ـ ديوان الجند : بقي هذا الديوان أول العهد الأموي على ما أنشأه

---

(١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٧٨ .

الخليفة عمر ، وهو أكبر ديوان في الدولة ، تحدد فيه مقدار اعطيات جميع العرب ، والجنود المقاتلة من عرب وغير عرب .

ولما خفت حركة الجيوش ، لهدأة الحروب الخارجية ، أبطل الخليفة ـ هشام بن عبد الملك الاعطاءات لمن لا يقوم بالعمل العسكري بنفسه أو من يبعث مكانه نائباً عنه ، والغى اسماء جميع من يستنكفون في الجندية ولو كان امير امويا ، وبهذا الاصلاح ، تحدد الاشخاص الذين يتناولون اعطيات مقدرة ومقررة من ديوان الجند ، ولم يعد أموال هذا الديوان حقاً لجميع العرب . . وقد أعجب المنصور العباسي باصلاح الخليفة هشام الأموي وأمر بتنفيذه .

٢ ـ ديوان الخراج : وواجباته جمع الخراج والانفاق من موارده على شؤون الدولة ، وكان في كل ولاية ديوان اشبه بالإدارة المالية المحلية ، يجمع الخراج ، ويحتفظ بما يحتاج اليه الولاة من مصروف ، ويرسل الفائض إلى العاصمة ، حيث يجمع دخل الأراضي الزراعية في ديوان مركزي ، لقاء ايصالات استلام وصرف وتجري عن طريقه محاسبة دواوين الولايات .

٣ ـ ديوان الرسائل : يقول القلقشندي : أن ديوان الرسائل ويسمى ايضاً ديوان الانشاء هو أول ديوان أنشيء في الاسلام وذلك أن النبي ﷺ استلم كتاباً يكتبون عنه إلى أمرائه واصحاب سراياه ، وإلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، كما كتبوا له العهود والاقطاعات والهدن والامانات إلى غير ذلك .

فهؤلاء الكتاب وان لم يطلق عليهم اسم الديوان كانوا يقومون بشيء من متعلقات ديوان الرسائل . فلما جاء العهد الأموي كان كل خليفة ـ يفوض أمر ديوان الرسائل إلى كاتب يختاره .

ثم جاء العهد العباسي فكان الذي يتولى ديوان الرسائل هو الوزير نفسه .

وفي كتاب الوزراء الكتاب للجهشياري صور للنشرات والرسائل التي كانت توجه للعمال والرعية .

وقد ألف القلقشندي لمن يرشحون انفسهم لمنصب ديوان الرسائل كتاباً قيماً ذكر فيه تاريخ هذا الديوان وتفاصيل العلوم والمعارف التي ينبغي لصاحبه أن يعلمها . قال : « ليس في منزلة خدم السلطان والمنصرفين من مهماته أخص من كاتب الرسائل ، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه ، والافضاء إليه بمهماته واطلاعه على حوادث ديوانه ، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به . . » وقد ذكر القلقشندي تفصيلات كثيرة عن آداب صاحب ديوان الرسائل واختصاصاته في كتابه صبح الأعشى .

٤ ـ ديوان الخاتم : لم يكن القصد من الختم أن يوضع الخاتم في أدنى الرسالة ، وإنما كانت تطوى ويلصق طرفها بالشمع أو الطين الأحمر الذي يطبع عليه ، وهو طري ، خاتم الخلافة . ويترك حتى يجف ، فإذا فتحت الرسالة من قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك .

وأول من وضع هذا الديوان معاوية ، وقد ذكر الصولي في أدب الكاتب ان معاوية حين افرد ديوان الخاتم ولاه عبيد بن أوس النسائي وسلم الخاتم إليه ، وكان منقوشاً على فصه « لكل عمل ثواب » ، وسبب ذلك أنه كتب لعمرو بن الزبير بمائة الف درهم إلى زياد عامله في العراق . ففض عمرو الكتاب وجعلها مئتي الف درهم ، فلما رفع زياد حسابه ، قال معاوية ما كتبت له إلا بمئة الف درهم . وكتب إلى زياد بذلك وأمره المئة المئة الف منه ، وان يعتقله بتهمة التزوير ، فدفع عبد الله بن الزبير المبلغ إلى معاوية وحصل على اطلاق سراح عمرو ، وصارت العادة أن يحتفظ ديوان الخاتم بنسخة عن كل ما يوقع من رسائل وحسابات ، وكذلك فعل الولاة ، وذلك للرجوع اليها والمطابقة والمقارنة ، وخاصة في العصر العباسي حين نكب عدد كبير من

الوزراء بدعوة الرشوة والتلاعب بالقيود والغنى غير المشروع .

وأنشأ الأمويون في دمشق دارا خاصة للمحفوظات الرسمية ، وكذلك فعل العباسيون ، وقد ظل هذا الديوان قائماً حتى عهد الأمين (٨٠٩ـ ٨١٦م) على حد قول الجهشياري ، بينما يرى فون كريمر وسيد امير على ومتز أنه حل ديوان التوقيع محل ديوان الخاتم في عهد الرشيد (٧٧٦ـ ٨٠٩م) وعرفت الأوامر الصادرة عن هذا الديوان باسم التوقيعات . . ولكن المصادر الأخرى تذكر ديوان الخاتم في عهد المأمون . . مما قد يستنتج أن ديوان الخاتم بقي قائماً مع احداث ديوان التوقيع لمدة من الزمن ثم حل الثاني محل الأول .

٥ ـ ديوان الطراز : يقول ابن خلدون : « الطراز هو أن يرسم اسماء الملوك والسلاطين أو علاقات تختص بهم من طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج » .

يضاف إلى هذه الدواوين ديوان البريد ، وقد ذكر المؤرخون كذلك انه كان في عهد عمر بن عبد العزيز ديوان يعنى بالمرضى والمقعدين وترتيب الخدمة لهم والانفاق عليهم . وكان في عهد هشام بن عبد الملك ديوان للصدقات ، كما كان عندهم دواوين للنفقات والرقيق وغيرها .

تعريب الدواوين :

كانت لغة الدواوين حتى زمن عبد الملك في العراق الفارسية وفي الشام الرومية وفي مصر القبطية واليونانية .

كان سرجون بن منصور يتقلد ديوان الشام فأمره عبد الملك يوما بشيء فتثاقل عنه وتوانى فيه ، فعاد لطلبه وحثه فيه ، فرأى منه تفريطاً وتقصيراً ، فقال عبد الملك لسليمان بن سعد وكان يتقلد له ديوان الرسائل ، أما ترى إدلال سر جون علينا ، وأحسبه قد رأى ضرورتنا إليه وإلى صناعته ، أفما

عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولت الحساب إلى العربية . قال : فافعل ، فحوله ، فرد اليه عبد الملك جميع دواوين الشام .

كما حول الحجاج في العراق ديوان الخراج من الفارسية إلى العربية ، وذلك أنه كان يتقلده زادان فروخ وكان يكتب معه صالح بن عبد الرحمن . وقال صالح مرة لزادان : إني قد خففت على قلب الحجاج ولست آمن أن أزيلك عن عملك . فأجاب زادان : لا تظن ذلك لأنه لا يمكن ان يجد من يكفيه حسابه غيري فقال صالح : والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته . قال فحول شطرا حتى أرى ، ففعل صالح . وبذل له زادان مائة الف درهم كي يظهر العجز عن نقل الديوان إلى العربية فأبى . ولما قتل زادان خلال ثورة ابن الاشعث خلفه صالح وترجم الديوان إلى العربية ، وفي رواية للجهشياري والبلاذري أن زادان خشي أن يلحظ الحجاج مهارة صالح فأمره أن يدعي المرضى ، فأرسل الحجاج طبيبه الخاص لمعالجته ثم عينه بعد مقتل زادان ، وتقول هذه الرواية أن الذي عرض على صالح المائة الف درهم ، هم اصحاب المصالح من الفرس بعد تعيينه في عمله الجديد وبعد وفاة زادان .

أما في مصر فقد ظلت الدواوين تدون باليونانية إلى أن انتقلت الخلافة ـ إلى الوليد بن عبد الملك فسار على سياسة ابيه في تعريب الدواوين فحول ديوان خراجها إلى العربية ، وقام بتنفيذ هذه السياسة واليه على مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان سنة (٨٧هـ) .

وكان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية فقد أصبحت لغة الدواوين هي اللغة العربية مما ساعد على تقلص نفوذ غير العرب . أما من الناحية الأدبية فقد اصبحت اللغة العربية لغة التدوين ، فنقل اليها كثيراً من الاصطلاحات الفارسية والرومية واليونانية ، وابتدأت تظهر طبقة الكتاب منذ ذلك الوقت ، وكان عبد الحميد الكاتب يقول :

« لله در صالح بن عبد الرحمن ما أعظم منته على الكتاب » وكان حرى به أن يقول لله در عبد الملك .

الدواوين في العهد العباسي :

تأثر العباسيون بالنظم الادارية الفارسية كما أن الأمور تعقدت وتشعبت بعد العصر الأموي فأنشئت دواوين عديدة عدا التي عرفت زمن الراشدين والأمويين ، وكان أهمها :

١ ـ ديوان العزيز : كان مجلس الخليفة يسمى بديوان العزيز كما كانت الحكومة العثمانية تسمى بالباب العالي ، وكان يرأس المجلس الوزير الأكبر ولهذا سمي مجلس العزيز وكان رؤساء الدواوين المختلفة يسمون بالوزراء أحياناً ولكنهم كانوا اقل درجة من الوزير الأكبر الذي كان رئيس الإدارة .

٢ ـ ديوان الأزمّة : يقول البلاذري بأن هذا الديوان أحدث زمن الأمويين بينما سيد أمير علي يقول : إنه من ابتكار الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٨هـ) وقد سمي ديوان الأزمة في العاصمة وديوان الزمام في الولايات كما يقول الجهشياري .

وصاحبه يشبه وزير المالية الذي يجمع أنواع الواردات كلها ، وأنواع النفقات كلها ، ويقيم الموازنة بينهما . وقد حوله العباسيون إلى ديوان حسابات عامة لبلاد الخلافة كلها ، وذلك بما يشبه ديوان المحاسبة اليوم أو الجهاز المركزي للرقابة المالية .

٣ ـ ديوان النظر في المظالم : كان الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدون من بعده يستمعون إلى شكاوى الناس وينصفونهم في كل وقت تعرض عليهم هذه الشكاوى ، ولكن بعد مقتل الإمام علي ، والاعتداء على معاوية ، احتجب الخلفاء ، وخصصوا أوقاتاً محدودة للنظر في المظالم ، كما فعل عبد الملك وعمر بن عبد العزيز .

فلما جاء العباسيون وانشغل الخلفاء بأمور الدولة المتشابكة ، افردوا للمظالم ديواناً منظـماً كان بمثابة المحكمة العليا الاستئنافية ، تعرض عليها الأمور التي لم يقبل اصحابها بحكم القضاة ، وذكر أن جعفر البرمكي قد تولى رئاسة هذا الديوان في عهد الرشيد وأن المأمون قد انفرد من بين سائر خلفاء بني العباس ، وترأس مجلس ديوان المظالم يوم الأحد من اكثر الاسابيع . ويذكر الماوردي أن امرأة تقدمت بشكوى من ابن الخليفة المأمون ، فحضر المأمون بنفسه جلسة النظر بالدعوى ، واستمع إلى أقوال الأمرأة وابنه ، وأصدر القاضي الحكم ضد الأمير ونفـذ الحكم .

٤ ـ ديوان النفقات : واختص بمطالب البلاط ، من تأمين الرواتب وبناء واصلاح القصور وملحقاتها ، وشراء المواد الغذائية والخيول ، وما يطلبه سكان القصور من ملابـس وأدوات وأثاث . . وتكاليف الحفلات والمآدب وما شابه ذلك .

٥ ـ ديوان الصوافي : تعني الصوافي أراض الدولة ، وهذا يعني أيضاً اهتمام هذا الديوان بجميع أملاك الدولة من تأجير واستئجار أو شراء وبيع وهو أشبه بدائرة الأملاك العامة اليوم .

٦ ـ ديوان الضياع : ويقصد بها ضياع وقرى وأراضي الخليفة الخاصة ، إذ انفرد لادارتها واستثمارها ديوان خاص ، لا علاقة له بالديوان السابق .

٧ ـ ديوان الموالي والغلمان : وتسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده .

٨ ـ ديوان الجهبذة : وهو خاص للمحافظة على مصالح غير المسلمين ، يضاف إلى هذه الدواوين دواوين أخرى كثيرة منها : ديوان البريد ، ديوان الشرطة ، ديوان العطاء ، ديوان الدية ، ديوان الري .

وكان يعهد بادارة كل ديوان إلى مدير يسمى الرئيس أو الصدر . أما التفتيش فكان يقوم به مفتشون يسمون بالمشرفين أو النظار ، وكان مشرف الممتلكات يضطلع من حين لآخر بالتفتيش على دواوين الدولة ويرفع التقارير الوافية عنها إلى الخليفة .

ثالثا: النظر في المظالم :

تميزت السلطة القضائية في الدولة العربية بالحيوية والنمو ، وكان من مظاهر حيويتها نمو مؤسسة قضائية ذات أهمية استثنائية إلى جانب دائرة القاضي ، ينحصر اختصاصها في النظر في دعاوى الناس ، المرفوعة إلى الخليفة أو الوالي أو من ينوب عنهما ، لترفع عنهم الظلم الذي حل بهم من موظفي الدولة وأجهزتها .

فناظر المظالم ينظر « في كل حكم يعجز عنه القاضي ، فينظر فيه من هو أقوى منه سلطة »[1] . ظهرت وظيفة المظالم في عهد الخلفاء الراشدين ، وكان الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أول من نظر فيها ليرسي العدل ويرد مظالم الناس . وإن أول من أفرد يوماً محدداً للنظر في المظالم هو الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان . وكان يستعين في ذلك بقاضيه ابن ادريس الأودي . وفعل مثل ذلك من خلفه من الأمويين ، فكان عمر بن العزيز ، رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها ، وراعى السنن العادلة وأعادها ، ورد مظالم بني أمية على أهلها . ثم جلس لها من خلفاء بني العباس جماعة ، فكان أول من جلس لها المهدي ، ثم الهادي ، ثم الرشيد ، ثم المأمون ، فآخر من جلس لها المهتدي حتى ، عادت الأملاك إلى مستحقيها .

(١) ابن خلدون المقدمة ، ص ١٠٨ . المقريزي ، الخطط ٢ / ٢٠٧ .

صلاحيات قاضي ديوان المظالم :

ديوان المظالم هو عبارة عن هيئة قضائية عالية يشرف عليها شخص يدعى « قاضي المظالم » أو « صاحب المظالم » وهو أعلى مرتبة من القاضي ، كما أن صلاحياته أوسع . ويمكن اجمال مهامه بما يلي : -

١ - النظر في الشكاوى التي يرفعها أفراد الرعية ضد الولاة والحكام وكتاب الدواوين وجباة الضرائب ، وانزال العقوبات بمن تثبت ادانته .

٢ - تنفيذ ما وقف من احكام القضاة ، لأن والي المظالم أقوى نفوذاً وسلطة منهم .

٣ - النظر في تظلم الجند (خاصة المرتزقة منهم) إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر دفعها .

٤ - مراعاة اقامة الشعائر والعبادات كالجمع والاعياد والحج والجهاد وغيرها . وقد اصبحت بعض هذه الصلاحيات فيما بعد من مهام المحتسب .

كان والي المظالم يعقد مجلسه في يوم محدد ، ولا ينتظم المجلس الا بحضور خمس جماعات هم : -

١ - الفقهاء ، للرجوع اليهم والاستفادة منهم فيما اشكل على القاضي من مسائل معقدة .

٢ - الحكام والقضاة ، لمعرفة ما يصدر من الأحكام ، والقيام برد الحقوق إلى اصحابها .

٣ - الشهود ، ومهمتهم الادلاء بما يعرفونه عن المتنازعين .

٤ - الكُتاب ، وكانوا يقومون بتدوين أقوال الخصوم والشهود وقرارات الحكم .

٥ - الحماة والأعوان ، ومهمتهم التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الهرب من وجه القضاء .

كانت محكمة المظالم تنعقد برياسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عنه ، ولم تكن هناك مباني خاصة بالمحاكم وإنما كانت تنعقد المحكمة بالمسجد ، فكان الناس يدخلون عليهم مباشرة في اليوم المخصص (الجمعة أو السبت) لعرض ظلاماتهم .

وتعرض ظلامات الناس في رقاع (عرائض) ، ينظم ترتيبها موظف خاص ، ويعرضها على الخليفة ليتدارسها مع مجموعة من الفقهاء والعلماء والقضاة المحيطين بمجلسه . فإذا استقر رأيه فيها أصدر حكمه مثبتاً اياه في العريضة نفسها ، وما على الجهة المسؤولة أيا كانت ، إلا تنفيذ حكم الخليفة فوراً .

من هنا نرى سلطة ناظر المظالم ونفوذه يفوقان بكثير ما يتمتع به القاضي المقيد في اجراءات وأصول النظر في الدعاوي ، حتى أن الماوردي يعدد لنا عشر صفات لناظر المظالم يفوق فيها بسلطته سلطة القضاة .

إن المصادر تشير إلى كثير من الدعاوي رفعت إلى ناظر المظالم موجهة ضد الخليفة مباشرة ، أو ضد احد أفراد أسرته . وفي مثل هذه الحال كان الخليفة لا ينظر في المظلمة بنفسه ، فيوعز إلى القاضي القضاة لينظر في الدعوى على طريقة المظالم . لا بأسلوب القضاة . لقد حدثت مثل هذه الدعاوي على المنصور ، والرشيد ، والمأمون ، فحكم القضاة لصالح أفراد الشعب .

ولو احصينا دعاوي المظالم لوجدناها كثيرة ، وبعضها جماعية تقدمها مجموعة من الشعب ، كأن تتظلم من أحكام احد القضاة ، أو من ضريبة الخراج ، أو من اغتصاب بعض الوزراء للأملاك ، وقد يتظلمون من بعض الضرائب ، أو من مواعيد استحقاقها .

لقد اشارت المصادر إلى أن الخلفاء كانوا يبادرون إلى عقد مجلس المظالم بسرعة للنظر في مثل هذه الدعاوي ذات التأثير العام ، كالخراج ،

والري ، والضرائب . ثم ما يلبثون ان يصدروا احكامهم العادلة لتقرأ وتعمم على أقاليم الدولة كافة .

نظر الخلفاء في مظالم الشعب ، كما نظر الوزراء ، وقد اولى العباسيون هذه المؤسسة اهتماماً خاصاً ، فحضروا جلساتها بانفسهم ، وتابعوا تنفيذ أوامرهم بانفسهم أيضاً ، وقد استمر جلوسهم للمظالم إلى عهد الخليفة المهتدي أما بعد هذا العهد فقد ضعفت سلطة الخلفاء لتسلط القوى الأجنبية ، فكان من الطبيعي أن تضعف سلطتهم في فرض الأحكام .

ولكن الخلفاء ما لبثوا في فترات انتعاش سلطة الخلافة ، حتى عاودوا النظر في مظالم الشعب ، وكان ذلك في أواخر العهد السلجوقي .

لم يقتصر وجود مؤسسة المظالم على حاضرة الدولة (العاصمة) حسب ، بل انتشرت في كافة اقاليمها ، ولكن افراد الشعب كانوا يفضلون عموماً المجيء إلى بغداد لعرضها على الخليفة مباشرة .

رابعا : الحسبة :

الحسبة كوظيفة القاضي ، استحدثت لتطبيق أسس العدالة في المجتمع ولتنفيذ مبدأ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) . من هنا كانت وظيفة الحسبة ذات سلطة قضائية ، تتوسط بين القضاء والمظالم . ومع أن (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) كقاعدة اجتماعية تدخل في مجال الأخلاق والتشريع ، لا يمكن تحديد اطارها بشكل دقيق ، فإن الحسبة ، كوظيفة ادارية ، اختصت بشكل اساسي في تنظيم احوال السوق ومعاملاته[1] .

(١) وزارة التربية العراقية ، تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، الطبعة الاولى ، بغداد ١٩٧٧م ص ٨٧ .

نشأتها :

نشأة الحسبة في عهد الرسول الأعظم محمد ﷺ ، استجابة لحكم الآية الكريمة ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾[1] ، وقد تولى الرسول ﷺ الحسبة بنفسه ، وقلدها غيره ، واتبعنا من بعده الخلفاء ، ثم صارت ولاية من ولايات الإسلام ، ونظاماً من أنظمة الحكم التي جرى عليها الولاة والحكام »[2] وفي احاديث الرسول محمد ﷺ اهتمام واضح بالسوق ومعاملات البيع والشراء فيه ، وحديثه : «ليس منا من غشنا» ،إنما يشمل غش البضاعة في السوق ، وبيعها على غير حقيقتها . وقد عين الرسول ﷺ سعد بن سعيد على سوق مكة لمراقبتها ، كما استعمل عمر بن الخطاب (رض) على سوق المدينة .

وفي عهد الخلفاء الراشدين ، كان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) يشرف على أسواق المدينة ، وحالة الأسعار فيها بنفسه . والمصادر تذكر انه ولى احدى الصحابيات (الشفاء بنت عبد الله العدوية) على سوق المدينة ، وكانت لها عنده منزلة كبيرة ، حتى إنه كان يقدمها في الرأي ، وتولت السيدة . سمراء بنت نهيك الأسدية هذا المنصب أيضاً ، وقد ادركت الرسول الأعظم محمد ﷺ وعمرت طويلاً ، وكانت تمر في الأسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتضرب الناس على ذلك بسوط معها . كذلك كان الخليفة علي (كرم الله وجهه) يمر في الأسواق ينهي عن الغش ، في الكيل والميزان ، ويوصي اصحاب السلع بأخذ الحق واعطاء الحق .

واستمر اشراف الدولة على الأسواق طيلة العهد الأموي ، وقد اطلق في هذا العهد ، على الموظف الذي يشرف على الأسواق اسم « العامل على

---

(١) آل عمران : الآية ١٠٤ .

(٢) أبو زيد شلبي ، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ، ص ١٣٠ ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م .

السوق ، وانحصرت وظيفته بمراقبة الأوزان والمكاييل .

إن وجود وظيفة العامل على السوق ، أو صاحب السوق ، لدليل واضح على عروبة اصول هذه الوظيفة . فوظيفة صاحب السوق اصلاً كوظيفة المحتسب في نظم الدولة العربية[1]. وفي بداية العهد العباسي ، أولى المنصور اسواق بغداد اهتماماً ملحوظاً فعين عليها محتسباً ، وهو المنصور أبو زكريا بن عبد الله . ومنذ ذلك التاريخ صار الخلفاء يعينون محتسبين على أسواق بغداد ، وغيرها من المدن العربية في مختلف الأرجاء .

أعمال المحتسب :

أعمال المحتسب كثيرة تشمل نواحي أدبية ودينية وعمرانية وأخلاقية ، ولا نجد في الوقت الحاضر موظفاً حكومياً له سلطة شبيهة بسلطة المحتسب ، ويمكن ان تلخص أعماله فيما يلي :-

(أ) مراقبة الأسواق للإشراف على الأسعار والمقاييس والموازين والمكاييل وغيرها من المعاملات التجارية لمنع كل ما حرمه الإسلام كالربا والنجش[2] ، والتطفيف ، ومنع الاحتكار والاستغلال والغش .

(ب) مراقبة أرباب الحرف وأصحاب المهن المختلفة ، كمراقبة الأطباء واجبارهم على دفع دية المريض إذا مات بسبب سوء تصرفهم . وكانت الشروط التي يضعها على الخبازين في النظافة لا نجد لها مثيلاً في الوقت الحاضر .

(جـ) مراقبة الآداب العامة في الطرقات والأماكن التي يرتادها الناس لشرب الخمر ومنع الرجال من التعرض للنساء .

(د) مراقبة العبادات ، إذ يأخذ المحتسب المسلمين لصلاة الجمعة والجماعة والأعياد ويمنعهم من الإفطار في شهر رمضان ، ويعني بنظافة المساجد وهيبتها .

---

(١) وزارة التربية العراقية ، نفس المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٢) الزيادة في الأسعار المقررة (انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نجش) .

(هـ) مراقبة الأبنية والطرقات ، فيأمر بهدم الأبنية البارزة ، ويمنع فتح النوافذ على الأبنية المقابلة لها ، ويأمر أصحاب الدور المتداعية إلى هدمها ورفع أنقاضها ، ويراقب البسطات في الأسواق وعدم اشغال الطريق لتسهيل حركة المرور .

(و) يضاف إلى الأعمال السابقة أعمال أخرى منها ، إجبار السادة على معاملة العبيدة والإماء معاملة حسنة ، والسهر على الأطفال اللقطاء والتكفل بهم ، ومنع معلمي الكتاتيب من ضرب الصبيان ضرباً مبرحاً ، ومنع الحمالين وأرباب السفن من الإكثار في الحمل حتى لا تتعرض للغرق في مياه البحار والمحيطات .

خامسا : الشرطة :

في ظل الدولة العربية ازدهرت الحضارة ، ونمت المدن وتوسعت ، وكان لزاماً على المسؤولين أن يوجدوا لهذه المدن نظماً تنظم نمط الحياة فيها وتوفر للسكان رغد العيش ورفاهه .

لقد ازدهرت المدن في أسواقها ، ومدارسها ، وحياتها الاقتصادية ، وكان لا بد من جهاز امني منظم يضبط شؤون المدن ، ويوفر لها استقرارها ، وما استحداث نظام الشرطة الاخذمة لهذا الغرض[1] . وأول من استن نظام العسس الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رض) ، وكان يعس بالمدينة يحرس الناس ، وينفض الليل عن أهل الريبة ويكشفهم .

وفي خلافة علي كرم الله وجهه عرفت وظيفة صاحب الشرطة الذي يشرف على جهاز الشرطة والأفراد ، كما استحدثت مؤسسة السجن لحبس الجناة والمخالفين .

(١) وزارة التربية العراقية ، نفس المرجع السابق ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

وفي العهد الأموي ازدادت اهميتها والعناية بها ، وكان صاحبها يختار من علية القوم واهل العصبية والقوة ، واطلقوا عليه صاحب الأحداث . وكانت الشرطة من توابع القضاء في اول الأمر ، فقد كان الغرض منها تنفيذ أحكام القضاء ، أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، وإقامة التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ، ومساعدة للقاضي في إثبات الذنب على مرتكبه ، كذلك كان صاحبها يتولى إقامة الحدود ، كحد الزنا ، وشرب الخمر ، وغير ذلك من الأمور الشرعية إذا تنزه عنها القاضي[1] .

وفي العصر العباسي ازدادت سلطتها بعد انفصالها عن القضاء وأصبح لصاحبها الحق في نظر الجرائم وايقاع العقوبات .

وكان رئيس شرطة بغداد يعادل مرتبه الحاكم أو الوالي ، وقد شغل هذا المنصب في عهد الخليفة المأمون ، طاهر بن الحسين ، وكان الخليفة يعين صاحب الشرطة في عاصمة الدولة ، أما في الأقاليم الإسلامية فكان لكل أمير أيضاً صاحب شرطته ، وكانوا يختارون من كبار القواد وعظماء الخاصة . ومن أبرز الصفات التي كان ينبغي أن تتوفر في صاحب الشرطة هي أن يكون حليماً مهيباً . دائم الصمت ، طويل الفكر ، بعيد الغور ، وأن يكون غليظاً على أهل الريب ، وأن يكون طاهراً نزيهاً ، غير عجول .

ويجب عليه عمارة سور المدينة وأبوابها ، ولم شعثها ومعرفة من يدخلها ، وإذا أُفرج عن أحد من السجن ثم عاد بجرم فليجعل الحبس قبره . ويأمر العامة أن لا يجبروا أحدا ولا ينبهوه للهرب بل يدلوا عليه ، وينبغي أن تكون عقوبة الخاص والعام واحدة كما أمرت الشريعة السمحاء .

---

(١) شلبي ، نفس المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

المراجع

١ ـ أبو زيد شلبي ، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، القاهرة ١٩٦٤م .

٢ ـ ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ١٣٧٨هـ .

٣ ـ أبي يوسف ، الخراج ، القاهرة ١٣٠٢هـ .

٤ ـ أنور الرفاعي ، الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والإجتماعية والإقتصادية والفنية ، دمشق ١٩٧٣م .

٥ ـ حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن ، النظم الإسلامية ، القاهرة ١٣٥٨هـ .

٦ ـ محمد كرد علي ، الإدارة الإسلامية في عز العرب ، القاهرة ١٩٣٤م .

الفصل الرابع

النظام الحربي

أولاً : الجيش

ثانياً : البحرية

أولا : الجيش :

لم تكن الحرب في الاسلام حرباً من أجل الاعتداء على الغير بل كانت حرباً دفاعية ، وقد بين القرآن الكريم في مواضع منه السبب الذي من أجله شرع القتال ، وأذن للمؤمنين في الحرب والجهاد ، وقد حصرت هذه الآيات في كتاب تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي لابو زيد شلبي ، كما يمكن الرجوع إلى فهرس محمد فؤاد عبد الباقي في مادة حرب وجهاد وقتال .

والخلاصة أن الحرب في الاسلام كانت من أجل أمرين اثنين :

الأول : الدفاع عن النفس عند التعدي .

الثاني : الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن ، أو بصد من أراد الدخول في الاسلام عنه ، أو بمنع الداعي من تبليغ دعوته .

وأول آية نزلت في شأن القتال هي قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . . . ﴾. ويقول الله مخاطباً نبيه ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . . . ﴾.

من هذا يتبين أن الاسلام لا يريد القتال ، ولا يهدف إليه إلا لغرض الدفاع عن النفس ، أو الدفاع عن الدعوة وفيما يلي الموضوعات الرئيسية في دراستنا للجيش في الاسلام :

١ ـ الجهاد :

كان لا بد للدولة العربية الاسلامية أن تعتمد على قوة حربية منذ بداية نشأتها للدفاع عن نفسها ضد الأعداء ، ونشر الاسلام . لذلك كان الجهاد فرضاً على جميع المسلمين وأمر به القرآن الكريم وأكدته الأحاديث النبوية الشريفة . وهو واجب على كل مسلم يستطيع أداءه . والجهاد هو القتال في سبيل الله ، ومن قتل في سبيل الله فمأواه الجنة ، وهذه العقيدة زودت المحاربين بمعنويات عالية . وكان على الخليفة بصفته امام الدولة العربية الاسلامية واجب القيام بالجهاد في (دار الحرب) ، إذ لم يكن يجوز في نظر المسلمين الصلح مع الدول غير الاسلامية ولكن جوز عقد هدنة معها لا تتجاوز عشر سنوات ، وبخاصة حين يحتاج المسلمون إلى مثل هذه الهدنة .

٢ ـ تطور الجيش :

كانت حياة العرب في الجاهلية معرّضة للأخطار بسبب فقدان الأمن وكثرة الغزوات ، لذلك كان على جميع أفراد القبيلة أن يكونوا مستعدين للقتال في سبيل مصالح قبيلتهم . لقد كان المسلمون في حياة الرسول ﷺ جنوداً يجاهدون في سبيل الله وبقيادة الرسول . ولم تكن للدولة ميزانية خاصة للانفاق على الجند لأنهم يتطوعون وينالون أربعة أخماس الغنائم ، وكان كل مقاتل يجهز نفسه بأسلحته ودابته ، فإن لم يتح له ذلك استطاع أن يحصل على الدابة من مخازن الصدقة .

ولما بدأت حركة التحرير أيام الراشدين ، احتاجت الدولة إلى جيش كبير دائم يكون على إستعداد في أيام الحرب والسلم على السواء وقد دفعت هذه الحاجة الخليفة عمر بن الخطاب إلى إنشاء ديوان الجند وصرف

العطاء لهم من خراج البلاد المحررة ليتفرغوا للجندية ولا يلجأون إلى الزراعة وإمتلاك العقارات فيفقدوا روحهم العسكرية . وقد أبدى الجيش العربي المحرر تسامحاً وحسن معاملة للشعوب المحررة وإحترام كرامتهم ، فلم يسترقهم ، بل صان حياتهم وأملاكهم وبيوتهم الدينية ، وعقد معهم معاهدات أمان ، واكتفى بأن يدفعوا ضريبة معتدلة .

شهد الجيش تطوراً كبيراً في العصر الأموي فقد ادخل التجنيد الاجباري أيام عبد الملك . وكان الأمويون قد تأثروا بالنظام البيزنطي العسكري القائم على تقسيم بلاد الشام إلى عدة (أجناد). وكان على العرب أصحاب الأراضي تزويد الدولة بعدد من الجند دونت أسماؤهم في ديوان الجند ، وصرفت لهم رواتب معينة علاوة إلى حصتهم من الغنائم ، والحق أن الأمويين اعتمدوا على القبائل العربية في بلاد الشام التي كونت غالبية جندهم .

كان الجند يقيمون في العصر الأموي في ثكنات ومعسكرات بعيدة عن دور الحكومة القديمة في البلاد المحررة وجدير بالذكر أن العرب عملوا منذ البداية إلى تمصير الأمصار في البلاد المحررة ، فبنوا البصرة والكوفة والفسطاط وغيرها على شكل معسكرات يقيم فيها الجند المحرر وقسموها إلى خطط بحسب القبائل . وفي العصر الأموي كان للجيش داراً لاقامته في كل مدينة ، ولكن إذا مرَّ عند تحركه بالريف فعلى أهل القرى إيواؤه وإطعامه من طعامهم ثلاثة أيام .

وكان العرب في عصر الراشدين والأمويين يحملون معهم نساءهم إلى ميادين القتال وكان جيش الخليفة الخاص يتكون من أجناد الشام وهو يقوم بحرب الروم والقضاء على الفتن الداخلية . أما في الولايات فقد كان الولاة هم المسؤولون عن شؤون الحرب وقد استعانوا بالقبائل العربية التي استوطنت الولايات . ولما كانت حروب الأمويين لا تكاد تنقطع مع جيرانهم البيزنطيين (الروم) فقد وجه الأمويون عناية كبيرة لجيوشهم . وكان التفوق في

هذه الحروب للمسلمين في أول الأمر حتى كادوا يستولون على القسطنطينية مرتين مرة أيام معاوية ومرة أيام سليمان بن عبد الملك ، غير أن البيزنطيين انتهزوا فرصة الفتن والانقسامات الداخلية في أواخر العصر الأموي فأخذوا يغيرون على البلاد لاسلامية المتاخمة لهم . ومع ذلك ظل الأمويون يقومون بغزوات سنوية منظمة على أراضي البيزنطيين وبخاصة في الصيف وهي التي سميت بالصوائف .

ظل التطوع للجهاد قائماً في جميع العصور الاسلامية ، وقد ساهم المتطوعون في الغزوات على حدود الدولة البيزنطية وفي مناطق الحدود هذه قامت (الرُبطُ) التي امتلأت بالمتطوعة ، وهي المعسكرات التي يكونون فيها على إستعداد دائم للحرب . ثم أصبح (الرباط) فيما بعد نوعاً من حصون العبادة يعيش فيه رجال جمعوا الزهد والجهاد وأسهموا في الحروب ضد الروم والصليبيين فيما بعد .

وقد إزداد عدد أفراد الجيش في العصر العباسي حتى بلغ مئات الألوف من الجند . فكان جيش العراق وحده (٥٢١) ألفاً ، وكانت للجند النظاميين رواتب تدفع من ديوان الجيش (الذي سمي فيما بعد ديوان العرض). وكان راتب الجندي يبلغ عشرين درهماً في الشهر وهو مبلغ يكفي للمعيشة الاعتيادية بسبب القوة الشرائية للدرهم ورخص أسعار الحاجات وقيام الدولة بالصرف على تغذية الجنود وسلاحهم .

٣ ـ قيادة الجيش وتشكيلاته :

كان الخليفة نادراً ما يقود الجيش ، ولكننا لا نعدم خلفاء خرجوا إلى الغزو بأنفسهم مثل هرون الرشيد . غير أن قيادة الجيش عهد بها كل جبهة إلى قائد يدعى (الأمير) وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة ، لأنه ينوب عنه في القيادة وإمامة الصلاة . وكان إذا اجتمع أكثر من قائد في مكان ما جعل الخليفة أحدهم مقدماً على الآخرين فيصبح هذا القائد بمثابة (قائد القواد) ،

وإذا توقفت الحرب أصبحت مهمة هؤلاء القادة مقصورة على النظر في أمور الجند وتدريبهم .

لما ضعفت الخلافة العباسية وتعددت الدويلات الاسلامية ظهرت ألقاب عديدة تدل على قائد الجيش مثل : أمير الأمراء ، وأمير الجيوش ، ورئيس الرؤساء ، وقائد القواد . ومع ذلك بقي الخليفة من الناحية النظرية القائد الأعلى لجيش المسلمين ومن ثم احتفظ بلقبه (أمير المؤمنين) .

ومنذ العصر الأموي هجر العرب تنظيم الجند في صفوف تجري في مقدمتها المبارزات الفردية التي كانت مجالاً لإبراز الشجاعة والمفاخر ، وتبنو نظام تعبئة يقوم على تقسيم الجيش إلى خمسة أقسام أو كتائب هي : الميمنة والميسرة والقلب ـ حيث يكون القائد ـ والمقدمة والساقة أي المؤخرة . وهذا النظام يقوم على تقسيم الجند إلى مجموعات في عشرات ومئات وألوف على شكل مربعات أو مثلثات أو أهلة . وظل هذا التقسيم معمولاً به في أيام المماليك والعثمانيين . وأطلق على القائد الذي يقود عشرة جنود لقب عريف ، والذي يقود مائة لقب نقيب أو خليفة والذي يقود ألفاً لقب قائد . أما لقب أمير فأطلق على القائد العام للجيش .

ونجد بجانب المقاتلين من الفرسان والرجالة طوائف أخرى كثيرة تقوم بخدمة الجيش وتسهيل مهمته مثل النفاطين وضاربي المنجنيق والعيون وهم الطلائع الذين يرصدون تحركات العدو كما نجد القضاة والأطباء والمؤذنين والقراء والنجارين والحمالين .

٤ ـ الأسلحة والفنون الحربية :

كان العرب في الجاهلية يعيشون في حالة حرب مستمرة بسبب فقدان سلطة مركزية عليا . وقد أدى هذا إلى تدربهم على القتال وإلى اهتمامهم الكبير بالأسلحة التي صنعوها أو عملوا على توفيرها بشرائها من البلدان المجاورة لهم فأتقنوا السيوف والرماح والأقواس والسهام والدروع وغيرها .

وكان من مبادىء تربية الصبيان قبل الاسلام وفي صدره تعليمهم العلوم والرماية .

كانت السيوف أبرز أسلحة العرب والمسلمين وهي أنواع منها اليمانية والهندية والمشرفية والبصرية . أما الرماح فقد اشتهرت عندهم منها الردينية (نسبة إلى امرأة تدعى رُدينة اشتهرت في الجاهلية بتثقيف الرماح) والسمهرية والخطية التي كانت تستورد من الهند وتباع في مدينة الخط في البحرين .

وكانت أسنة الرماح العربية تختلف ما بين مشعبة وعريضة ودقيقة ومموجة ومستوية . وكانت الرماح في الجاهلية وفي صدر الاسلام تعقد برؤوسها الألوية (الأعلام) ، وكان يحملها الفرسان في المواكب . أما في الحرب فكان يقاتل بها الفرسان على الخيل .

وعرف العرب الأعمدة واستخدموها في مختلف العصور . كذلك عرفوا أنواع الخناجر والنصول والقؤوس وتفنن العرب في صنع السهام ، فمنها (النشاب) ذات النصول المثلثة من الخشب ومنها (الجرادة) وهي قصيرة تطلق نحو الهدف فتجري بسرعة هائلة ، ومنها النبل وهي السهام المعروفة . وحذقوا في إستعمال الأقواس التي تطلق باليد وبالرجل أو التي تشد من ركاب الخيل .

وبرع العرب في إستخدام آلات الحصار لحاجتهم إليها ، فعرفوا المنجنيق وهو آلة تقذف الحجارة أو اللهب ، وعرفوا الدبابات والأبراج والستائر ، وكلها من آلات الحصار يكمن داخلها الرجال ويستخدمونها في ثقب أسوار القلاع والحصون . والحق أن العرب عرفوا هذه الأسلحة في وقت مبكر بحيث أن النبي ﷺ إستخدم المنجنيق والدبابة الضبور (نوع من الدبابة يصنع من الخشب المغطى بالجلد) في الطائف .

ولبس المحاربون العرب على رؤوسهم الخوذة « البيضة » . كما أنهم وقوا أجسامهم بالدروع التي صنعت من الحديد في الغالب ومنها ما كان يغطي

الصدر وهي (الجواشن) ومنها ما يغطي الجسم كله وهي الدروع المسبلة . وبسبب حب العرب للخيل وما اشتهر عنهم من فنون الفروسية فقد اهتموا بوقاية خيولهم خلال الحرب فألبسوها التجافيف وهي دروع حديدية تغطي أجسادها وتصد عنها إصابات الأعداء .

وإستخدم العرب النفط في حروبهم وكانت فرقة النفاطين من الفرق الأساسية في إرباك صفوف العدو وإحراق سفنه وقلاعه . وبسبب الاحتكاك بالبيزنطيين اقتبسوا (النار اليونانية) وهي عبارة عن تركيب كيمياوي أساسه النفط يستخدمه النفاطون في إشعال الحرائق في جبهة العدو .

وكان الجيش العباسي يزود بكل ما يحتاج إليه من المعدات مثل الخيام والدواب من الخيل والجمال والفيلة والبغال . ونجد (خزائن السلاح) من المؤسسات الرئيسة في بغداد أيام العباسيين وتكون موضع عناية الخلفاء . وقد استخدم في (خزانة السلاح) و (خزانة السروج) أيام العباسيين عدد كبير من الصناع والموظفين .

برع الجيش العربي الاسلامي في كل فنون الحرب المعروفة في العصور الوسطى فكانوا في حالة الدفاع يحفرون الخنادق ثم عمدوا إلى إنشاء القلاع والحصون . واستخدموا الكمائن والخدع الحربية ولجأوا إلى عرقلة العدو بإحراق الأرض أو إستخدام الثعالب والكلاب وذلك بأن يعلقوا النار في أذنابها ثم يطلقوها لتعدو في معسكرات العدو .

تميز الجندي العربي بالخفة وسرعة الحركة والصبر على الجوع والعطش والتعب . وكان الانضباط عالياً بين صفوف الجند فقد شدد القواد بالعقاب على الذين يعبثون بالنظام أو الذين يتعرضون للسكان المدنيين . ومما ساعد على حسن السلوك قوة العقيدة الدينية . وقد اتبع العرب المسلمون الرأفة مع الأسرى ومعاملتهم معاملة كريمة . وسلكوا مسلكاً إنسانياً مع الأعداء فكان لا يجوز قتل الشيوخ والرهبان والنساء والأطفال في حروب ولا في

سلم . ومن جهة أخرى اتبع العرب المسلمون أسلوب تبادل أسرى الحرب وأسلوب (الفداء) بالمال .

٥ ـ فنون القتال :

أما تنظيم الجيوش الاسلامية وفنونها القتالية فقد تطورت مع الزمن ووصلت إلى درجة عالية من التنظيم والمهارة . في بداية العصر الاسلامي كان ترتيب المقاتلين العرب حسب قبائلهم . ثم أصبح الترتيب حسب اختصاصهم في المعركة . وكان قائد الجيش يحمل لقب أمير ، وفي العصر العباسي وجد منصب أمير الأمراء : أي قائد الجيوش كلها . واتخذت كل فرقة عسكرية راية خاصة بها ، وكان لبعض الفرق زيها العسكري المميّز . وكان قائد الجيش يتخذ لواءً وهو الراية الكبرى ، ورمز القيادة ، وينصب بجانب خيمته في وسط المعسكر . وقبل بدء المعركة كان الجيش يعبأ في خمسة أقسام ولذلك عرف الجيش الاسلامي باسم الخميس : وهذه الأقسام هي :ـ المقدمة ، القلب ، الميمنة، الميسرة ، الساقة . على أن ضرورات المعركة وطبيعة أرضها كانت تحتم بعض التعديل في شكل هذه التعبئة ، خاصة إذا كانت المنطقة جبلية وعرة . فكان الجنود المقاتلون ينظمون أحياناً في مجموعات صغيرة يعرف كل منها باسم كردوس (جمعها كراديس) ، ويدخلون المعركة صفوفاً متتابعة .

وكان الجيش يتألف من أنواع مختلفة من المقاتلين مثل الفرسان أو الخيالة ؛ والمشاة ؛ والنشابة أي رماة السهام ؛ وفئات الآليات ، والوحدات المختصة ببناء الجسور ؛ ومجموعات الخدمات الطبية والاسعاف . ومن بين المجموعات المقاتلة كان الدور الرئيسي للفرسان أو الخيالة خاصة في الهجوم . وكان رماة السهام يعملون على إيقاع الاضطراب في صفوف العدو . بينما يتصدى المشاة للهجمات المعادية . ويسعى الخيالة بهجماتهم لخرق صفوف العدو والاحاطة به . وقد برع الخيالة العرب بخفة الحركة وسرعة الكر والفر ، أي الهجوم الخاطف . ثم الانسحاب السريع مؤقتاً . فالهجوم كرة أخرى . كما برع الفرسان الأتراك المسلمون في هذا الفن . وقد

برع المسلمون في حصار المدن والحصون ، وتطور لديهم فن الحصار نتيجة معاركهم الكثيرة . فقد استخدموا سلالم من الحبال لتسلق الأسوار . وعمدوا إلى عمل نفق سري يوصل إلى قاعدة السور ، ثم إلى عمل خرق في قاعدة السور نفسه ، ومن ثم إشعال النار فيها فيضعف السور ويتهاوى . وقد عرفت هذه العملية باسم النقب ، وقد بلغت فنون الحصار درجة عالية ، أثناء حروب المسلمين ضد الصليبيين .

٦ ـ نفقات الجند :

كان مورد رزق الجنود في الجيش الاسلامي في عصور الفتوحات من الغنائم ، ثم من العطاء . وكان العطاء ، وهو الراتب السنوي للجندي النظامي ، يتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ درهم أيام الراشدين والأمويين . وكان القادة يتناولون عطاءاً أكثر من ذلك . ومع الزمن توقفت حركة الفتوحات . وعندما ضعفت الدولة العباسية وظهرت الدويلات الاسلامية في الأقاليم أصبحت لها جيوشها وظهرت أساليب جديدة لتأمين أرزاق المقاتلين . وأصبح دفع رواتب الجند وتأمين أسلحتهم وعتادهم وخيولهم يكلّف كثيراً . ولذلك عمد الخلفاء والحكام إلى منح مقاطعات بأكملها إلى أمراء شريطة أن يقدِّم هؤلاء جنوداً مجهزين بالأسلحة والخيل والأدوات للحاكم عند الحاجة . وبنفس الوقت أصبح من المعتاد أن يُمنح كبار القادة العسكريين حق جمع الضرائب في منطقة معينة . وأدى هذا ابالتالي إلى قيام النظام المعروف بنظام الاقطاع في التاريخ الاسلامي . وقد ظهر هذا النظام خاصة منذ العصر السلجوقي (ق ٥ هـ / ١١ م). وبموجبه كان السلطان السلجوقي يمنح بعض أتباعه الحق في جباية الضرائب عن منطقة زراعية معينة . دون أن يكون لهم الحق في ملكيتها . وكان متولّي الاقطاع يدفع جزءاً من قيمة الضرائب التي يحصّلها لخزينة السلطان . وبلغ نظام الاقطاع ذروته في القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين في عصر الأيوبيين والمماليك .

٧ ـ أثر المرأة في الجيش :

كان للمرأة في الجيش أثر فعال ؛ فقد كانت تقوم بسقي الجند ، وتضميد الجرحى وتذمير الجيش وتحميسه للقتال ، وكثيراً ما كانت تقاتل إذا حمي الوطيس ، ورخصت النفوس ، وكان لوجودها في الجيش أثره في تحميس الرجال فإنهم كانوا إذا رأوا النساء استحيوا من الفرار ، واستهانوا بالموت ، فيتم النصر لهم على عدوهم .

وقد قاتل النساء من بعض غزوات النبي ﷺ والخلفاء من بعده ، وإن التاريخ الاسلامي ليفخر بمثل نسيبة بنت كعب المازنية التي دافعت عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد حتى لقد قال فيها : « ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني » وقد شهدت قتال مسيلمة الكذاب باليمامة وجرحت يومئذ اثني عشر جرحاً ، وقطعت يدها ، (الإصابة ج ٨ ص ٢٦١ ، ٢٦٢) .

وكن في غزوة احد قد جئن أربع عشرة امرأة منهن فاطمة عليها السلام يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ، ويداوينهم ومنهن أم سليم بنت ملحان ، وعائشة أم المؤمنين . . . . (أنظر امتاع الاسماع للمقريزي ج ١ ص ١٣٨ ، وكذلك قاتلن في غزوة حنين (المصدر نفسه ص ٤٠٨) .

وفي غزوة الخندق قتلت صفية بنت عبد المطلب اليهودي الذي كان يطيف بالحصن حتى لا يدل على عورة المسلمين (الاصابة ج ٨ ص ١٢٨) ، بل إنهن لم يكتفين بالغزو في البر بل ركبن البحر وغزون فيه ، فهذه أم حرام بنت ملحان تصحب زوجها عبادة بن الصامت مع بنت قرظة امرأة معاوية بن أبي سفيان في أول غزوة بحرية يقوم بها المسلمون (صحيح البخاري باب غزو المرأة في البحر ، فتوح البلدان للبلاذري ص ١٥٩) .

وحمل مسلمة بن عبد الملك حينما غزا « عمورية » نساءه معه ، وحمل

ناس ممن معه نساءهم ، وفي سنة ١٣٩ هـ ، استرد المسلمون « ملطية » وكان في الحملة ثنتان من عمات الخليفة المنصور .

ولقد امتدح « ادوارد جيبون » في كتابه سقوط الدولة الرومانية شجاعة النساء المسلمات في حصار دمشق فقال :

« إن هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب السيف والطعن بالرمح ، والرمى بالنبل هن اللاتي إذا وقعت إحداهن في الأسر تكون قادرة على حفظ عفتها ، وصون دينها من أي انسان تحدثه نفسه بارادتها بسوء » .

المراجع

١ ـ أبو زيد شلبي ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية والفكر الإسلامي ، القاهرة ١٩٦٤م

٢ ـ أنور الرفاعي ، الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والإجتماعية والإقتصادية والفنية ، دمشق ١٩٧٣م.

٣ ـ سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، القاهرة ١٩٣٨م .

٤ ـ القلقشندي ، مج ١١١ الأعشى ، القاهرة ١٩١٣م .

٥ ـ محمد كرد علي ، الإسلام والحضارة العربية ، القاهرة ١٩٣٤م .

ثانيا : البحرية :

١ - تطور القوة البحرية :

كان لاحاطة البحار بشبه الجزيرة العربية من ثلاث جهات أثر في تطور الملاحة على سواحلها قبل الاسلام ، لذلك كانت على اتصال بالبلاد الأخرى بحراً منذ العصور القديمة . وقد ازدهرت التجارة البحرية بين شبه جزيرة العرب ومصر والهند وكان معظمها بيد عرب الجنوب الذين قاموا برحلات تجارية طويلة مع الشرق الأقصى وجلبوا منها البضائع النادرة وتركوا آثار في علم البحار تدل على مدى تقدمهم في الملاحة . كما كان أهل البحرين وعمان يشتغلون بصنع السفن والملاحة ، وكانت لهم موانىء كبيرة أشهرها دارين ، وقد ساهموا في الملاحة في الخليج العربي والمحيط الهندي ، وقد وصف طرفة بن العبد سفنهم في معلقته المشهورة .

يحدثنا التاريخ أن الشاطىء اليمني جنوب الجزيرة العربية كان لفترة طويلة في القرن الأول للميلاد يزدحم بأرباب السفن والملاحين العرب ، وكان يسكن هذا الشاطىء قبيلة « حمير » التي عرف أبناؤ ها في هذا القرن بنشاطهم البحري ، إذ كانوا على اتصال دائم بمدن الصومال وأرتيريا والهند وفارس .

وكذلك يحدثنا التاريخ أن الحبشة أسسها عرب الجنوب الذين حكموا « الصومال » وما جاورها . وأن « زنجبار » كان يحكمها سلطان عربي . وكل هؤلاء قدموا إلى هذه البلاد واستوطنوها مع جاليات ضخمة من العرب عن طريق البحر ، بسبب نشاطهم الملاحي الذي كان سبباً لانتشارهم في أكثر البلاد والمدن الساحلية التي تقع على ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندي وخليج فارس .

ولقد عرف العرب قديماً الأنواء البحرية ومواعيدها ، كما عرفوا الأيام التي تهب فيها الأنواء الموسمية ، وعينوا الأيام الصالحة للملاحة ، حتى أن

« المسعودي » يقول : أن التجار العرب كانوا يستعينون في أسفارهم بدليل بحري سموه « رهماني » وهي كلمة فارسية تعني - دفتر ارشادات الملاحة .

والعرب المسلمون هم أول من استعمل الإبرة المغنطيسية في الأسفار البحرية . وكان ذلك في القرن الحادي عشر للميلاد أو قبله . كما أن البحارة الطليان هم أول من استعمله في أوروبا بعدهم .

ولم يكن العرب بعد الاسلام أقل عناية بالبحر والملاحة منهم قبل الاسلام ، بل لقد زادت هذه العناية ، وتوسعوا في أعمال الملاحة فاتخذوا الأساطيل الحربية إلى جانب السفن التجارية التي كانت تمخر عباب المحيط الهندي والبحر المتوسط بعد اتساع الفتح العربي والقضاء على الإمبراطوريتين الرومية والفارسية .

وصلات العرب بالحبشة عن طريق التجارة البحرية قبل الاسلام وبعده أشهر من أن تعرف ، لا سيما النبي الكريم قد أفاد من هذه الصلات حين أمر المؤمنين بالهجرة إلى الحبشة لما اشتد أذى مشركي قريش لهم . ولقد أحسن « النجاشي » ملك الحبشة استقبالهم في مملكته ، وأمنهم ولم يسلمهم حين طلب إليه كبار قريش من المشركين دفعهم إليهم ، لينتقموا منهم ، وليردوهم إلى دين الوثنية .

والتاريخ يروي لنا أيضاً ، أنه كان للجالية العربية الإسلامية التي سكنت الصين بسبب صلاتها التجارية البحرية معها امتيازات خاصة عند ملك الصين ، إذ منحهم حق احالة خلافاتهم إلى قاضي منهم ، يحكم بينهم بمعزل عن القضاء الصيني .

وعندما بدأ القرن الثامن الميلادي أصبح للعرب ملك واسع الإرجاء ، إذ أنهم في أواخر القرن السابع وفي بداية هذا القرن فتحوا بلاد ما وراء النهر أي بلاد العجم أو فارس وبلاد أفغانستان وبلاد الأندلس ، فامتدت دولتهم من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجبال

القوقاز إلى صحارى أفريقيا . وكان لهذا الاتساع العظيم أثره في اهتمام العرب بالرحلات البحرية .

وهذا الملك الواسع الذي أسسه العرب كانت أنحاؤه المختلفة تتطلب الدراسة والوصف ، مما دفع بعض الخلفاء والحكام المسلمين إلى أن يوفدوا مبعوثهم وسفراءهم إلى البلاد الاسلامية والعربية المختلفة لدراسة أحوالها ومعرفة طبائع سكانها وبيان الطرق والمسالك المؤدية إليها ، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة بين سكانها لتوثيق الروابط بين السلطة المركزية وبين حكام الأقاليم ، وقد اقتصرت هذه الرحلات على الدولة الاسلامية .

وإتسع نطاق التجارة إسلامية فانتشرت قوافل التجار المسلمين في أغلب أجزاء العالم المعروف في ذلك الوقت ، وخاضت سفنهم مختلف البحار والمحيطات وعرفتهم الطرق التجارية المعروفة يومئذ ، ولم تقتصر تلك الرحلات على البلاد العربية بل تجاوزتها إلى الدول المجاورة .

ومن الثابت أن العرب المسلمين ظلوا سادة البحر في المحيط الهندي حتى سنة ١٤٩٨ للميلاد ، وعندما دخل البرتغاليون مياه هذا المحيط واختاروا مرشدهم في هذا البحر تاجراً عربياً مشهوراً هو « أحمد بن ماجد » إذ قاد سفينتهم من « ملندي » - شرق افريقيا إلىٰ « كلكتا ».

ولم يمض على الفتح العربي وإحتلال العرب لبعض شواطىء البحر الأبيض المتوسط زمن طويل حتى شعر الولاة العرب بالحاجة إلى أسطول عظيم يحمي شواطئهم من غارات الأسطول الرومي عليها . فلقد كان الأسطول البيزنطي يغير بين حين وآخر على سواحل سوريا وفلسطين ومصر ، فينال فيها ، ثم يقفل راجعاً .

وفي فترة قصيرة صار للعرب أسطول ضخم يجوب البحر المتوسط دون خوف أو وجل من الأسطول البيزنطي الذي ظل حتى ذلك الوقت سيد البحر الأبيض المتوسط من شرقه إلى غربه .

ولما ظهر الإسلام وبلغت حركة التحرير العربية السواحل المحيطة بالعرب أبدى بعضهم ميلاً إلى ركوب البحر . وكان أول من قام بغارة بحرية من شواطىء شبه الجزيرة هو عثمان بن العاص الثقفي والي البحرين الذي قام بغارة على ساحل الهند أيام الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان حريصاً على العرب ، وقد دفعه حرصه هذا إلى عدم إرتياحه من ركوبهم البحر ؛ وأراد العلاء بن الحضرمي والي البحرين عام ١٧ هـ الذي خلف عثمان بن العاص أن يظهر جرأته فعبر إلى فارس بالسفن غير أن عمر بن الخطاب غضب عليه غضباً شديداً فقرر عزله لأنه لم يستأذنه ولما طلب معاوية بن أبي سفيان والي الشام من عمر أن يأذن له في غزو بلاد الروم بحراً منعه وحذره أن يعرض العرب المسلمين لأخطار البحار .

غير أن الخليفة عثمان بن عفان سمح في سنة ٢٧ هـ لمعاوية في غزو جزيرة قبرص ، وبدأت الحملة من عكا في سنة ٢٨ هـ بمراكب كثيرة والتحق من مصر أسطول آخر وتمت الغزوة بنجاح ، وقد شجع هذا النجاح على تطور البحرية العربية . وكانت سياسة العرب البحرية في هذا الحقبة حذرة ودفاعية واهتموا بالدرجة الأولى بتعزيز الحصون في مدنهم الساحلية .

كانت مصر في مقدمة البلاد التي ساهمت في بناء الأسطول العربي لأن صناعة السفن كانت أكبر صناعات الاسكندرية . وإلى جانب السفن والأسطول التجاري كانت مصر تصنع كذلك السفن الحربية لها وللدولة البيزنطية قبل تحريرها . وكانت السفن الحربية على نوعين ، نوع كبير كالبوارج وتتسع الواحد لألف رجل ، ونوع صغير كالطرادات وكانت الواحدة تتسع لمائة رجل ، وهذه الأخيرة مهمتها السير السريع والالتفاف حول السفن الكبرى ويروى أن الأسطول العربي الذي أرسل لفتح القسطنطينية أيام معاوية تكون من ثلثمائة سفينة كبرى تحمل كل منها ألف رجل وخمسة آلاف طرادة تحمل كل منها مائة رجل مما يدل على سرعة تطور الأسطول العربي وضخامة عدد قطعاته .

كانت السفن الحربية مزودة بآلات القذف من المجانيق ، ومن آلات رمي الحجارة ، وفيها الأبراج العالية تستعمل في تسلق الأسوار المحصنة وذلك بأن يقيموا قنطرة من الألواح على الفضاء القليل الذي يفصل بين البرج والسور يعبرون عليها . وكانت مجهزة بآلات تقذف (النار اليونانية).

وكان للعرب اسطول في البحر الأحمر أيضاً ، وقد استخدموه في نقل الحنطة وغيرها من مصر إلى الحجاز .

وفيوفي سنة ٣٥ هـ استطاع العرب أن ينتصروا على الروم (البيزنطيين) في معركة (ذات الصواري) البحرية والتي سميت بهذا الاسم لكثيرة ساريات السفن التي اشتبكت في القتال . وقد أدى هذا النصر إلى دعم سيادة الأسطول العربي على الشواطيء الشرقية للبحر المتوسط . لذلك عمد معاوية بعدها إلى القيام بمحاولة غزو القسطنطينية عاصمة الروم نفسها . وقد قوى معاوية الثغور البحرية في مصر والشام وشحنها بالجند المدربين على ركوب البحر ووجه إهتماماً كبيراً إلى دور الصناعة التي تصنع السفن الحربية وغيرها من المراكب التي تنقل المؤن والعتاد . وعلى الرغم من أن العرب لم يستطيعوا الاستيلاء على القسطنطينية بعد حرب استمرت سبع سنوات فإنهم أثبتوا للروم أن عاصمتهم أصبحت مهددة بالأسطول العربي .

كانت في العصر الأموي ثلاثة أساطيل مستقلة عن بعضها ، ويعمل كل منها في منطقة معينة هي : أسطول مصر وأسطول سورية ثم أسطول شمال أفريقية هذا علاوة على وحدة بحرية صغيرة تعمل في البحر الأحمر وقد انعقد لواء كل من هذه الأساطيل لأمير من أمراء البحر .

قام الأسطول العربي في العصر العباسي بنشاط واسع في اقريطش (كريت) وقد حاول الروم الحد من هذا النشاط بشن الغارات البحرية على شواطيء مصر غير أن الخليفة المتوكل على الله أمر ببناء حصون على ساحل البحر المتوسط مما عزز الدفاع عن هذه السواحل .

وفي عصر الطولونيين قام أحمد بن طولون منذ توليه مصر في سنة ٢٥٤ هـ بدعم القوة البحرية هناك فاهتم بتجديد بناء (دور الصناعة) التي تقوم بصنع السفن وقام بصنع مائة مركب حربي كبير وعدد من السفن الصغيرة . واهتم ابن طولون أيضاً بالثغور الشامية وحصنها وأخذ الأسطول الطولوني يقوم منها بالهجوم على جزر بحر إيجه وموانىء اليونان . وقد كافأت الخلافة العباسية ابن طولون على نشاطه ضد الروم فولته إمارة أقليم العواصم والثغور علاوة على مصر والشام وحين توفي هذا الأمير ترك أسطولاً بلغ مجموع سفنه الكبيرة والصغيرة وكذلك التجارية منها نحو ألف قطعة .

كذلك عني الأخشيديون بمصر بالأسطول فأنشأوا المراكب الحربية ونقلوا جزءاً من دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلى الفسطاط في دار (صناعة السفن) .

واهتم الفاطميون بصناعة السفن كثيراً في دور الصناعة بمصر والأسكندرية ودمياط . وأخذت الدولة الفاطمية تثبت سلطانها على قواعد بلاد الشام البحرية وتطرد الروم من أطراف الشام الشمالية . وقد أنزل الأسطول العربي في هذه الفترة هزيمة ماحقة بالأسطول البيزنطي في ميناثي صور وطرابلس . وحين ظهر خطر الصليبيين الذين أخذوا يغيرون على سواحل الشام والاستيلاء عليها ابتداء من سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م حاول العرب رد هذا الخطر بإستخدام أساطيلهم الكبيرة لكن ضعف الدولة الفاطمية في هذه الحقبة لم يتح لها إيقاف هذا الخطر الداهم .

وقد خص صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية الأسطول بعناية كبيرة وأنشأ ديواناً سماه (ديوان الأسطول) وفي عهده حقق الأسطول العربي انتصارات باهرة على الصليـين الأوروبيين في عدة مواقع حربية في موانىء الشام غير أن حالة الأسطول إنحطت بعد عهد صلاح الدين .

ولما آلت مصر إلى المماليك عملوا بهمة على إستعادة قوة الأسطول إلى

ما كانت عليه أيام صلاح الدين . وقد بدأ الظاهر بيبرس منذ سنة ١٢٦٠ م بتكوين قوة بحرية ضخمة تستطيع رد خطر المغول الذين كانوا يغيرون على سواحل الشام واستطاع هذا الأسطول القضاء على قوة المغول في سواحل يافا وإنطاكية قضاء مبرماً ثم توجه بيبرس للقضاء على الصليبيين فهزمهم سنة ١٢٩١ م وأخرجهم من آخر معاقلهم في عكا وتم تطهير بلاد الشام من فلولهم ، لكن أمر الأسطول أهمل في آخر عهد المماليك حتى استطاع العثمانيون الاستيلاء على مصر .

٢ ـ أنواع السفن العربية ومعداتها :

قام العرب المسلمون بصنع أنواع عديدة من السفن والشواني وشحنوها بالرجال والسلاح وسموا مجموع السفن أسطولاً وعلى مر الأيام برعوا في صنع السفن وأكثروا منها حتى ملأوا البحار بها ووضعوا لها أسماء بحسب إختلاف أشكالها وتباين حجومها وتستمد السفن العربية أسماءها من شكل الهيكل مثل البغلة والقنجة والسنبوق والجهازي وغيرها .

وقد تكون القسم الأمامي من هيكل السفينة من المقدمة والجؤجؤ وهو صدر السفينة ، والدقل وهو سهم السفينة .، ومن الأجزاء المهمة في مقدمة السفينة (الانجر) وهو مرساتها . وفي القرن الرابع الهجري كانت للسفن عابرة المحيطات أكثر من مرساة قد تبلغ الستة أحياناً . أما المؤخر فهو أجزاء المركب الخلفية ويتكون من السكان أو الخيزرانة أو الكوتل أي الدفة وهي التي تدير السفينة يميناً وشمالاً . وكانت الدفة الجانبية هي النوع الوحيد الذي عرفه العالم القديم والوسيط ، لكن العرب عرفوا دفة المؤخرة . أما القاع فهو جوف السفينة في أسفل أجزائها ، والجمعه الموضع الذي يجتمع فيه الماء الراشح ، والسلوقية مقعد الربان من السفينة .

وكانت هياكل السفن تصنع من خشب أشجار الصنوبر الذي كان يغطي أحياناً بطبقة من خشب البلوط . أما السفن الحربية فكانت تصنع من خشب

البلوط ثم تغطى بطبقة من خشب الزان . ومن الأخشاب المهمة التي استخدمت في صنع السفن خشب أشجار اللبخ والسنط والأرز اللبناني وأخشاب بلاد الأناضول ، وبعد أن تبني السفن تكسى ألواحها من الخارج بالقار أو الشمع أو بكليهما .

ولما كانت طبيعة البحار مختلفة فإن العرب جعلوا لكل بحر أنواعاً مخصصة من الخشب لتقاوم التيارات والأمواج والصخور ، لذلك إستخدموا خشب الساج وهو أنفس أنواع الخشب وأكثرها مقاومة للمؤثرات البحرية والجوية في بناء السفن التي تمخر المحيط الهندي والبحر الأحمر ، وفي هذه السفن لم يستخدم العرب المسامير ، إنما استخدموا الليف في تثبيت الألواح لأن مياه هذا البحار تؤثر في الحديد ، في حين استعملوا المسامير في سفن البحر المتوسط ، وكانوا يعقلون حول المراكب من الخارج الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب وبعض المواد الأخرى لمقاومة أذى النفط .

أما معدات السفن الحربية فكانت الزرد والخوذ والدرق والتراس والرماح والكلاليب والسلاسل ذات الرمانات الحديدية . وكانوا يجعلون في أعلى السارية صندوقاً مفتوحاً من الأعلى يلقي منه الرجال الحجارة أو النار على سفن العدو . ومن الأدوات في السفن اللجام وهو كالفاس في مقدمة السفينة على شكل سنان ورمح بارز يساعد على خرق سفن العدو عند الاصطدام بها . وكانوا إذا اقتربوا من مركب العدو ألقوا عليها الكلاليب وجذبوها إليهم ثم يلقون عليها ألواحاً فيعبرون إليها .

وكان من أجزاء السفن المهمة المجاذيف التي كانت كثيرة توضع في صفوف مناسبة . وتعتبر الصواري والشرع قلب السفينة وهي التي تسيرها وتحركها .

وقد تفنن العرب المسلمون في صنع السفن وزخرفتها حتى صنعوها على شكل الحيوانات كالفيل والأسد والفرس والعقارب .

٣ ـ قيادة الأسطول :

يعرف رئيس الملاحين بالربان . وكانت الوظائف والواجبات التي يقوم بها الربان تتطلب معرفة شاملة . فقد كان عليه تدبير سير الأسطول بالريح أو بالمجاذيف وأن يعرف مسالك البحر ومجاريه بواسطة إطلاعه على إرشادات الملاحة التي تحوي جداول فلكية وخطوط العرض ومعلومات عن الرياح والسواحل والشعاب ، بل كان على معرفة بالمد والجزر وعلوم البحار . هذا فضلاً عن معرفته المسافات والقياس ومطالع النجوم ومغاربها .

يتحدث ابن خلدون (المقدمة ٢٨١) عن الربان وقائد الأسطول فيعتبر قيادة الأساطيل من مراتب الدولة العليا . وكان يطلق على وزير البحر (مقدم الأسطول) في دولة بني الأغلب حيث كان أمر الأسطول يرجع إلى قائد النوتية يدير أمور الحرب والسلام والمقاتلة ، ورئيس يدير تسيير الأسطول بالريح أو المجاذيف ورسوه في المرفأ .

ومن الوظائف المهمة في البحرية التي تلي الربان وظيفة الديدبان وهو الرقيب الذي يقف في مقدمة السفينة يتطلع أحوال البحر في حالة السلم وأخبار العدو في وقت الحرب ، وهناك المنادي ومهمته تبليغ أوامر الربان إلى الملاحين والنوتية . ومن الوظائف الدليل الذي يرشد السفن عند دخولها أو المرور على السواحل الوعرة والمضايق الخطرة ويتولاها عارف بفنون الملاحة ومجاري الرياح والتيارات المائية والحسابات الفلكية . أما في حالة الحرب فكان إلى جانب الربان قائد أو رئيس يتولى قيادة الجنود في المعارك البحرية .

ارتقى فن البحرية العربية كما نرى وعني العرب ببناء دور الصناعة في كثير من الموانيء ولما اتصل الفرنج بالعرب بطريق الأندلس والحروب الصليبية وتأثروا بحضارتهم اقتبسوا منهم فيما اقتبسوا لفظ (دار الصناعة) وهو المكان الذي تصنع فيه السفن فقال الاسبان Darcinah وأخذتها عنهم اللغات

الأوروبية الأخرى فصارت الكلمة Arsenal كما أن لفظ أدميرال Admiral الأوروبي مأخوذ من تعبير (أمير البحر).

إن تعدد أنواع السفن الحربية والتجارية وسفن النزهة الصغيرة يعطيك فكرة عن عظمة البحرية في الدولة العربية الاسلامية وإليك بعض أسماء السفن وهي كثيرة جداً : البوارج وهي السفن الحربية الكبيرة ، البدن وهو زورق يمتاز بمقدمة ومؤخرة مدببة ، والبغلة وهي ذات مؤخرة مربعة الشكل حمولتها أكثر من خمسين طناً ، والبركة من السفن الخفيفة ، والجفن وهي سفينة حربية كبيرة الحجم ، والجهازي وهي سفينة تجارية ضخمة ، والحراقة وهي سفن فيها مرامي نيران ، والحمائم وهي سفن للنزهة ، والسميرية وهي من سفن البحر والنهر الحربية ، والشذا وهي ضرب من السفن في العصر العباسي وكانت صغيرة ، والطراد وهي سفينة صغيرة سريعة الحركة .

٤ - تراث العرب في الملاحة وأثره في الحضارة الانسانية :

هذه صورة مشرقة تدل على أن المسلمين الذين نشأوا في صحراء الجزيرة استطاعوا السيطرة على البحار ، وسجلوا مجداً بحرياً رائعاً .

ولم يدون الملاحون المسلمون في أول الأمر تجارتهم البحرية كعلم قائم بذاته ، بل إكتفوا بتداولها وتوارثها ، وتبادل الانتفاع بها شفاهة ، وقد ورد بعضها فى مناسبات عارضة ، تضمنت مؤلفات الرحالة الجغرافيين .

غير أنه سرعان ما دعت الحاجة إلى دراسة فن الملاحة علماً قائماً بذاته - فألفت فيه كتب اتسمت بطابع الحيوية والتجربة ، دون فيها ربابنة السفن عصارة تجاربهم في كتب بسيطة ذات أسلوب سهل . ولكنها عامرة بالحقائق الصادقة .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الربابنة وتجار البحر « كانوا يحتفظون بكتب يتدارسونها ويعولون عليها ، ويعملون بما فيها ». كما وضع أبو القاسم ابن خرداذبة دليلاً للمسافرين يصف فيه الطريق البحري من مصب الدجلة في

الخليج العربي حتى مواني الصين ، ويشير المسعودي إلى تلك العلوم البحرية التي يتوارثها الملاحون ، ويسترشدون بأحكامها فيقول : « لكن من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها في أوقات هبوبها ، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب ، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً ودلائل وعلامات ، يعلمون بها موعد هيجانه وأحوال ثوراته ».

والمؤرخون العرب الذين كتبوا عن البحر والنشاط العربي فيه فهم كثيرون ، وكتاباتهم جميعاً تدل على أن النشاط البحري العربي في المحيط الهندي ظل يتزايد حتى بلغ الذروة في القرن التاسع الميلادي . وبقي كذلك حتى القرن الرابع عشر حين وضع المرشد البحري المسلم المشهور « أحمد ابن ماجد » دليله البحري الممتاز الذي استند فيه إلى خبرته الشخصية وإلى معلومات من سبقه من البحارة في هذا العلم وأشهرهم « ابن خرداذبة » صاحب كتاب « المسالك والممالك » الذي وضعه سنة ٨٥٠ م . « والمسعودي » صاحب كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الذي وضعه سنة ٩٤٧ م . وكتاب التنبيه والاشراف أيضاً وقد وضعه سنة ١٩٥٥ م .

ونشير في النهاية إلى نهضة الدراسات الجغرافية والملاحية في البرتغال الاسلامية . وكان ذلك ثمرة للعناية التي أولاها المسلمون منذ عهد الامارة الأموية للموانىء الغربية ولما أنشؤوه فيها من دور للصناعات البحرية والحربية . ويسجل التاريخ أن أول محاولة لخوض المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) وإستكشاف ما قد يكون وراءه من يابسة إنما كان منطلقهامن الساحل البرتغالي في ظل المسلمين . ونعني بها تلك الحملة التي قام بها فتى يدعى خشخاش البحري : خاطر بنفسه هو وجملة من فتيان قرطبة في أوائل القرن الثالث الهجري ، فركبوا مراكب توغلوا بها في البحر ، ثم عادوا فأتوا بغنائم واسعة .. وقد ولي خشخاش البحري هذا قيادة الأسطول الأندلسي حينما هاجم النورمنديون (الفايكنج) سواحل الأندلس ، وما زال يقاتلهم حتى استشهد في سنة ٢٤٥هـ (٨٥٩م)

ولم تكن هذه هي المحاولة الأخيرة ، إذ نسمع فيما ساقه « الأدريسي » عن خبر « الفتية المغررين » وكانوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، خرجوا من « الحمة » (الجزء البحري من مدينة الأشبونة وهو لا يزال يحمل اسمه العربي Alfama) ، وابتنوا مركباً أعدوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ثم دخلوا البحر ، فبحروا فيه مدة ثلاثون يوماً ووصلوا إلى جزر كشف البحث عن أنها لا بد أن تكون جزر أزورس ثم جزر كفارياس .

وهكذا فتح هؤلاء المسلمون الطريق أمام البرتغال لكي تصبح طليعة الدول البحرية . فالاستكشافات التي قام بها البرتغاليون بعد ذلك في أواخر القرن الخامس عشر إنما يرجع الفضل فيها إلى ما تعلموه على أيدي هؤلاء البحارة المسلمين .

المراجع

١ - إبراهيم العدوي ، قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط .
٢ - ابن خلدون ، المقدمة .
٣ - أحمد مختار العبادي وآخر ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام .
٤ - أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط .
٥ - حوراني ، البحرية العربية .
٦ - رياض محمود ، العرب والملاحة .
٧ - سعاد ماهر ، البحرية في الإسلام .
٨ - عبد الرحمن العاني ، عمان في العصور الإسلامية الأولى ودور أهلها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي وفي الملاحة والتجارة الإسلامية .
٩ - المسعودي ، مروج الذهب .
١٠ - مصطفى الشهابي ، الجغرافيون العرب .

الفصل الخامس

النظم المالية والإقتصادية

أولاً : النظم المالية

١ ـ موارد الدولة .

٢ ـ نفقات الدولة .

٣ ـ النقود الاسلامية .

ثانياً : النظم الاقتصادية

١ ـ الدور الحضاري للعرب المسلمين في مجال الزراعة والنبات والحيوان .

٢ ـ الصناعة .

٣ ـ التجارة

أولا : النظم المالية:

١ ـ موارد الدولة .

٢ ـ نفقات الدولة .

٣ ـ النقود الاسلامية .

تتطلب مصلحة كل دولة أن يكون لها نظام مالي تسير عليه ، وقد راعت الدولة الاسلامية ذلك ، فأنشأت بيتاً للمالي يقوم على رعاية مصالحها ، وهو يشبه وزارة المالية في وقتنا الحاضر ، والقائم عليه يشبه وزير المالية .

ولبيت المال حقوق وعليه واجبات ، فكل ما يستحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم ؛ فهو حق من حقوق بيت المال ، وكل ما وجب صرفه من مصالح المسلمين فهو حق على بيت المال .

ولكل نظام مالي موارد ونفقات أو مصارف وعملة أو نقود متداولة :

١ ـ موارد الدولة :

كانت موارد الدولة الاسلامية الأولى في عهد الرسول ﷺ هي : ١ ـ الزكاة التي تؤخذ عن أموال المسلمين . ٢ ـ خمس الغنائم التي يحصل عليها

المسلمون في غزواتهم (في حين توزع أربعة أخماس الغنائم بين المحاربين). ٣ ـ ما يؤخذ من أصحاب الأراضي التي فتحها الرسول عنوة أو صلحاً، وكان مقدار ما يدفعه هؤلاء بحسب طريقة الفتح والشروط المتفق عليها مع أهل الأراضي المفتوحة. وكذلك ما يؤخذ من غير المسلمين من النصارى واليهود الذين ظلوا على دينهم.

وكان ما يدفعه غير المسلمين يشمل الخراج والجزية. والخراج هو الضريبة التي كانت تدفع لخزينة الدولة عن الأراضي التي احتلها المسلمون حتى ولو أسلم صاحبها. ويختلف مقدار الخراج بحسب نوعية الأرض وطريقة ريها واستغلالها ونوعية المحصول. وكانت هذه الضريبة عادة تفرض على محاصيل الحبوب والأشجار المثمرة. وكانت تدفع سنوياً بعد الموسم.

أما الجزية فهي ضريبة شخصية عن كل قادر من أهل الذمة أي أهل الكتاب الذين ظلوا على دينهم من النصارى واليهود (ثم الحق بهم المجوس أيضاً). وكان مقدارها يتراوح بحسب قدرة المكلف. وفي أيام الراشدين والأمويين كان المبلغ يتراوح بين ١٢ درهماً و٤٨ درهماً (دينار إلى أربعة دنانير) سنوياً. وهكذا كان أهل الذمة يدفعون ضريبتين: الخراج عن الأرض التي يستغلونها، والجزية عن كل شخص قادر منهم. وأحياناً كانت الضريبتان تعتبران ضريبة واحدة شاملة يدفعها الشخص كل سنة، وغالباً ما كانت الدولة تحدد مبلغاً معيناً يدفعه أهل كل قرية مجتمعين في كل سنة. وكان جمع الضرائب يتبع التقسيمات الادارية.

أما مقدار الخراج فقد اختلف من فترة لأخرى ومن منطقة لأخرى. ففي عصر الخلفاء الراشدين كانت الدولة تتقاضى مقداراً معيناً من المحصول أو مبلغاً من المال عن كل وحدة مساحة أو عن كل كمية محدودة من الغلة. ثم أصبح الخراج يقدر بنسبة معينة من الحاصلات تتراوح بين الربع والنصف.

فالأصل في الجزية والخراج أن يدفعهما الذمي. فإن أسلم تسقط عنه

الجزية ويبقى خراج الأرض عليه . ولا يكلف المسلم بالجزية ، أما الخراج ، فلا يكلف به ما دام غير مالك للأرض الخراجية ، فإن ملكها بقي خراجها في ذمته . ويدفع المسلم الزكاة عن أمواله كل سنة . وإذا كان مالكاً لأرض زراعية فهو يدفع عنها ضريبة تعرف باسم العشر : أي نسبة عشر قيمة المحصول إذا كانت تسقى من ماء السماء ، أما إذا تكلف بسقيها من غير ماء السماء ، ففيها نصف العشر .

وفي أواخر عصر الراشدين وفي العصر الأموي إزداد امتلاك العرب للأراضي ، ومعنى ذلك أن كثيراً من الأراضي التي أسلم أصحابها أو التي امتلكها العرب المسلمون قد تحولت من أراضي خراجية تدفع ضريبة الخراج المرتفعة إلى أراضي عشرية تدفع ضريبة العشر فقط . وقد شعر الأمويون وولاتهم بهذه المشكلة وأرادوا ضمان استمرار الواردات المالية ، بالاستمرار في دفع الجزية والخراج . وقد أراد الحجاج بن يوسف الثقفي والي عبد الملك على العراق معالجة هذه المشكلة ففرض الخراج على كل الأراضي التي كانت خراجية من قبل بصرف النظر عن دخول أصحابها في الاسلام أو انتقال ملكيتها إلى أشخاص مسلمين . كما فرض الجزية والخراج على الذين أسلموا حديثاً . وقد أدى ذلك إلى هجرة الكثيرين من أهل القرى إلى المدن هرباً من دفع الضريبة . فأجبرهم الحجاج على العودة إلى قراهم وحقولهم وقد اتبع الولاة الأخرين خطة الحجاج في عدم رفع الجزية والخراج عمن أسلم .

ولم يستمر الأمر كذلك طويلاً . ففي خلافة عمر بن عبد العزيز وضع هذا الخليفة حلاً موفقاً لهذه الأزمة . بحيث حفظ حقوق المسلمين جميعاً ، وضمن عدم ضعف خزينة الدولة . فاعتبر الجزية ضريبة يدفعها الذمي عن نفسه وتسقط عنه بدخوله في الاسلام . أما الخراج فاعتبره عمر ضريبة على الأرض وهي بمثابة إيجار أو بدل استغلال الأرض . ذلك أن أرض الخراج

كانت ملكاً للأمة الاسلامية جميعاً وعلى المسلم إذا أراد شراء أرض أن يدفع خراجها للدولة . وهكذا استمر دفع الخراج دون اعتبار لأصل مالك الأرض أو دينه . ويقي أهل الذمة وحدهم يدفعون الجزية كضريبة شخصية ، فإذا أسلم أحدهم أعفي منها . وهكذا وفق عمر بن عبد العزيز بين مبادىء الاسلام وحاجات الدولة .

وفي العصر العباسي تطور نظام الضرائب . وزاد الخلفاء من مراقبتهم لأعمال الجباة . وظل مقدار الخراج يختلف بحسب المناطق وطبيعة المحصول . وقد أعاد الخليفة المأمون مسح الأراضي في بلاد الشام لتقدير مساحاتها ومقدار خراجها .

وبالاضافة إلى الجزية التي كان يدفعها أهل الذمة والخراج عن الأراضي الخراجية ، والعشر والزكاة التي كان يدفعها المسلمون كانت هنالك ضرائب أخرى منها : أخماس المعادن ، وهذه تدفع عن الذهب الذي يستثمر من شرق أفريقيا وغيرها : فيؤخذ خُمسُهُ إلى الخزينة ، وكذلك ما يستخرج من البحر من العنبر أو اللؤلؤ . وكانت هنالك ضرائب على الأسواق وضريبة على الطواحين والمصانع (مثل مصانع ماء الورد في جور ببلاد فارس) وهناك ضريبة المكس على السفن التجارية الواردة في البحر إلى الموانىء الاسلامية مثل البصرة والاسكندرية وغيرها . وكذلك وضعت ضرائب على التجارة الخارجية ففرضت نسبة ١/٤٠ على التجار المسلمين الذين يتعاملون مع البلدان الأجنبية مثل الامبراطورية البيزنطية ، والهند والصين . وفرضت نسبة ١/٢٠ على أهل الذمة . كما فرضت ضريبة على التجار الأجانب الذين يدخلون دار الاسلام وكانت تصل إلى العشر ١/١٠ .

٢ ـ نفقات الدولة :

كانت واردات الدولة تودع في « بيت المال » وهو خزينة الدولة . وقد

أصبح في مركز كل ولاية بيت مال خاص بها بالاضافة إلى بيت المال المركزي في مقر الخلافة أو مركز الحكومة .

وكانت النفقات الرئيسية تشمل اعطيات الجنود ، وما يدفع للولاة والموظفين والكتاب ، وكذلك الهبات والمنح وغيرها . بالاضافة الى النفقات الخاصة بقصر الخليفة ورجال البلاط (بعد فترة الخلفاء الراشدين) . وكذلك نفقات بناء الحصون وإعداد الجيوش وتسيير البْريد وغير ذلك من الأمور . ولم تكن الدولة تنفق على كل الخدمات بل كانت الأوقاف الاسلامية وأهل الخير ينفقون على إصلاح الجسور والطرق وأحياناً ينفقون على الجهاد في مناطق الثغور (أي مناطق الحدود المجابهة للعدو).

٣ ـ النقود الاسلامية :

إستعمل المسلمون في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وأوائل العصر الأموي النقود البيزنطية والساسانية التي كانت سائدة قبل الاسلام . وهي الدينار البيزنطي وهو عملة ذهبية (وكلمة دينار مشتقة من اللغة اليونانية) والدرهم الساساني وهو عملة فضية . وفي خلافة عبد الملك بن مروان عندما بدأ تعريب الدواوين بدأ كذلك تعريب النقود . وقد تم ذلك بصورة تدريجية . فاستخدمت الدولة الأموية الدنانير البيزنطية القديمة نفسها مع بعض التعديلات كإضافة عبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله على أحد وجهي الدينار مع إبقاء صورة الامبراطور البيزنطي هرقل على الوجه الآخر . وقد ضرب هذا النوع من العملة في دمشق حوالي عام ٧٢ هـ / ٦٩١ م . ثم حدث تعديل جديد على العملة حيث استبدلت صورة هرقل بصورة الخليفة العربي عبد الملك بن مروان واقفاً يحمل سيفا . وقد بدأ ضرب هذا النمط من الدنانير ابتداء من عام ٧٤ هـ/ ٦٩٣ م . وبعد ذلك بسنوات ضربت النقود دون أن تظهر عليها صورة الخليفة بل نقشت عليها عبارات مثل الشهادتين وآية قرآنية .

وكانت الدنانير والدراهم الاسلامية تضرب أو تسك في مصانع خاصة عرف الواحد منها باسم « دار الضرب أو دار السكة » . وقد استخدم العرب بعد الفتوحات دور الضرب التي كانت موجودة في أيام الساسانيين والبيزنطيين . وفي خلافة عبد الملك بن مروان أنشئت أول دور الضرب الاسلامية في الكوفة وواسط من قبل الحجاج والي عبد الملك على العراق .

وفي العصر العباسي أوجد هارون الرشيد منصباً جديداً للاشراف على سك النقود وهو « ناظر السكة » . وعندما ضعف نفوذ الخلفاء العباسيين وقامت عدة دويلات إسلامية في الأقاليم أقيمت مراكز جديدة لسك النقود . وقد ساعد النشاط التجاري الاسلامي ونشاط الصنائع في المدن الاسلامية على إزدياد دور الضرب .

وكانت ترد إلى دور السكة كميات كبيرة من الذهب والفضة والنحاس . وكان يعمل فيها عدد من الموظفين والعمال منهم السبّاكون الذين يقومون بصهر المعادن وإعدادها ، والضرّابون الذين يضربونها بأحجامها وأوزانها المطلوبة ، ثم النقّاش الذين كانوا يقومون بحفر قوالب النقش والكتابة . وكذلك الكتّاب الذين يختصون بتسجيل فئات النقود وكمياتها وأوزانها في سجلات خاصة .

وقد عرف المسلمون ثلاثة أنواع من العملة : العملة الذهبية ووحدتها الدينار ، والعملة الفضية ووحدتها الدرهم ، والعملة النحاسية ووحدتها الفلس .

أما وزن الدنانير والدراهم والفلوس ونسبة المعادن الرئيسية فيها فقد كانت تتم تحت إشراف الدولة حيث تعرض عادة على القاضي أو قاضي القضاة للتأكد من مطابقتها للمواصفات ، ثم يسمح بعد ذلك بتداولها .

كان شكل الدينار الاسلامي وحجمه لا يختلف كثيراً من فترة لأخرى في سائر أنحاء العالم الاسلامي سواء في دولة العباسيين أو في الأندلس الأموية ،

أو في الدولة الفاطمية أو في الدول الاسلامية الأخرى . وكان النقش عادة يحمل عبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله . وآية قرآنية تتكون عادة من سورة قل هو الله أحد ، ويحوي النقش مكان وتاريخ الضرب وإسم الخليفة أو



نقود عربية من العصر العباسي

الحاكم (أحياناً اسم الخليفة والأمير).

وكانت الدولة تتقاضى إيرادات عالية من دور الضرب وهي عبارة عن نسبة من قيمة المعادن التي ترد إلى دار الضرب. وفي العصور الاسلامية المتأخرة خاصة أيام المماليك أصبح من المعتاد أن تعطى دار الضرب على أساس التعهد أو الالزام لشخص معين مقابل أن يدفع مبلغاً لخزينة الدولة.

وقد كان للسكة أو ضرب النقود أهمية خاصة كوسيلة لاظهار نفوذ الحكام. ولذلك اعتبرت السكة من أهم شارات الخلافة والحكم في الدولة الاسلامية، فإذا ضربت النقود في الأقاليم الاسلامية باسم الحاكم المحلي كان اسمه يوضع مع اسم الخليفة العباسي لبيان نفوذ ذلك الحاكم وسيطرته، مع بقاء ولائه للخليفة. وإذا ضرب أحد الحكام المسلمين نقوداً باسمه دون اسم الخليفة كان ذلك دلالة على استقلاله في الحكم وعدم اعترافه بسيادته الخليفة.

ثانيا: النظم الاقتصادية:

١ - الدور الحضاري للعرب المسلمين في مجال الزراعة والنبات والحيوان:

لقد قدم العرب المسلمون أجل الخدمات للانسانية في مجال الزراعة والنبات والحيوان، ولا شك في أن اهتمامهم بهذه الأمور وتصنيفهم للنبات والفلاحة وأعدادهم المعاجم التي تحصرها ودوائر المعارف التي تنظم امورها، يعتبر من العوامل الأساسية التي نقلت إلينا حضارتهم العظيمة في هذا المجال.

ونستطيع أن نحاول تقديم الدور الحضاري للعرب المسلمين في مجال الزراعة والنبات على الشكل التالي :

أولاً : اهتمام العرب المسلمين بالزراعة .
ثانياً : دراسة مفصلة عن الزراعة .
ثالثاً : نشأة علم النبات عند العرب المسلمين .
رابعاً : تصنيف النبات عند العرب المسلمين .
خامساً : نشأة علم الحيوان عند العرب المسلمين .
سادساً : من اقطاب علماء العرب المسلمين في مجال الزراعة والنبات والحيوان .

أولاً : إهتمام المسلمون بالزراعة :

ينبع هذا الأهتمام من التربية الاسلامية والأيمان المطلق بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ﷺ ، تلك التعاليم الاسلامية التي التزم بها العرب المسلمون في شكل علمائهم دفعتهم إلى إتخاذ كافة التدابير نحو الاهتمام بالزراعة إهتماماً يكفل لهم توسيع مجالات الرزق وتحسين الوضع الاقتصادي في ذلك الزمان ، ومن مظاهر هذا الاهتمام :

١ - إصلاح وسائل الري وتنظيمها ؛ فبنوا السدود ، وشقوا القنوات والأنهار ، وأقاموا عليها الجسور والقناطر ، وبذلوا في سبيل ذلك أموالاً طائلة ، وإستخدموا لها عدداً كبيراً من العمال ، حتى إن عمرو بن العاص استخدم نحو ١٠,٠٠٠ عامل في إصلاح طرق الري في مصر صيفاً وشتاء ، وقد زاد اهتمام العباسيين بذلك ؛ ففي صدر دولتهم جددوا حفر القنوات القديمة ، واستحدثوا قنوات جديدة ، وخصوصاً في العراق ، حتى أصبح ما بين النهرين ، دجلة والفرات أشبه بشبكة من القنوات والأنهار ، وأطلقوا عليها اسم « النواظم » لأنها نظمت توزيع المياه .

وبذلك أعاد العباسيون إلى العراق شهرته القديمة في الخصب والنماء ولا سيما الجزء الجنوبي المعروف بالسواد .

وكان للري تشريعات دقيقة معقدة إستفاد منها الأوروبيون فيما بعد ، حتى إن الجزء الأكبر من تشريعهم الخاص بالماء مقتبس منه ، وكان من واجبات الدولة في العراق أن تسهر على صيانة السدود والمسنيات والبثوق ، وكان ثم لهذا الغرض طائفة قائمة بذاتها من العمال يسمون المهندسين ، وكان في مرو ديوان يسمى « ديوان الماء » وكان صاحبه يرأس عشرة آلاف عامل ، وكان منصبه من أرقى المناصب في تلك المدينة .

وكان الماء يقاس بمقياس مصطلح عليه يسمى البست وكان مقياس ارتفاع النهر عبارة عن لوح مقام على النهر مشقوق شقا طوليا تتحرك عليه شعيرة ، تلك المعلومات أضافها آدم متز في كتابه الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري .

٢ ـ زرعوا كل نوع من النبات في التربة الصالحة له بعد أن درسوا صلاحية كل تربة لأنواع النباتات ، وبذلك أمكن استغلال الأراضي الزراعية أحسن استغلال .

٣ ـ اعتنوا بتسميد الأرض عناية كبيرة بعد أن عرفوا السماد الصالح لكل نوع من النباتات ، فزاد المحصول تبعاً لذلك زيادة واضحة .

٤ ـ عرفوا التلقيح ، فكان أهل فلسطين يلقحون كرومهم وأهل المغرب يلقحون تينهم كما يلقح النخيل بالطلع الذكر ، كذلك عرفوا تطعيم بعض الأشجار من بعض ، واستخرجوا أصناف جديدة .

٥ ـ جلبوا إلى بلادهم أنواعاً كثيرة من الأشجار ، وبرعوا في تنسيق الحدائق ، وعنوا عناية عظيمة بالأزهار ، فزرعوها في مزارع واسعة لتصدير عطورها وادهانها ومياهها ، وراجت من أجل ذلك في شيراز ودمشق

وغيرهما ، صناعة استخراج الادهان العطرية من الورد والنيلوفر والبنفسج وغيرهما .

٦ ـ أدخلوا إلى أوروبا نباتات لم تكن معروفة لهم من قبل كالأرز ، وقصب السكر ، والزيتون ، والمشمش .

٧ ـ زرع الفرس قصب السكر ، وصنعوا منه السكر ، ثم انتقل منها إلى مصر ، وسواحل الشام حيث عرفه الصليبيون فيما بعد ، ونقلوه وصناعة السكر إلى اوروبا كما يحدثنا آدم متز في كتابة الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . وفيما يلي دراسة مفصلة عن الزراعة :

كانت للزراعة اهمية رئيسية في الدولة العربية الاسلامية ، فقد كانت المتوجات الزراعية هي المصدر الأول للمواد الغذائية التي يعتمد عليها الناس في معاشهم ، كما أنها تقدم أهم المواد الأولية في الصناعة ، فالقطن والكتان من أهم المواد في المنسوجات التي يلبسها الناس ، والأخشاب ضرورية للبناء وللوقود ولصنع كثير من الأثاث البيتية كالكراسي والمناضد والخزانات والصناديق وبناء السفن ، والحصران المصنوعة من القصب هي من أهم المفروشات وخاصة في بيوت العامة من أبناء الشعب . ثم أن كثير من الأصباغ والعطور والأدوية تعتمد على المتوجات الزراعية .

والزراعة هي الحرفة الرئيسة التي يشتغل فيها أكبر عدد من سكان البلاد الاسلامية ، وهي مصدر معيشتهم وحياتهم ، ومنبع ثروة الملاكين ؛ وكان اعتماد الدولة الرئيس في مواردها على ما تجبيه من الضرائب على الزراعة ، ولذلك كان توفير وسائل إزدهار الزراعة وتقدمها من واجبات الحكومة ، كما أن ديوان الخراج المسؤول عن تنظيم جباية الضرائب الزراعية من الفلاحين هو أهم دواوين الحكومة وأكثرها تعقيداً .

وسائل الري :

تعتمد الزراعة على الري ، ولما كانت الدولة العربية الاسلامية واسعة جداً ، وتختلف أقاليمها في مناخها وأمطارها وتوفر مياهها . لذلك كانت وسائل الري منوعة . فأما بلاد الشام ، وشمالي العراق فإن الأمطار الغزيرة فيها كانت تكفي للزراعة . أما المناطق الجبلية فتعتمد على المياه الجوفية المتكونة من ذوبان الثلوج .

غير أن الأمطار قليلة في أغلبية البلاد العربية والاسلامية ؛ لذلك كان الاعتماد الأول للزراعة فيها على الآبار والينابيع والأنهار . ومن المعلوم أن المناطق الصحراوية ، وخاصة في جزيرة العرب ، تعتمد على المياه الجوفية والآبار التي يختلف عمقها وكميتها بإختلاف الأماكن . ففي بعض المناطق تكون المياه عميقة وقليلة ولذلك لا تكفي الآبار فيها إلا للشرب وللماشية . غير أنه توجد مناطق قليلة تتوفر فيها كميات من المياه القريبة من سطح الأرض ، وهي تكفي لزراعة أرض واسعة نسبياً . وقد انشئت في بعض المناطق خزانات واسعة يجمع فيها الماء تحت الأرض ، كما كانت تحفر أحياناً قنى تحت الأرض لايصال الماء إلى مناطق بعيدة ، وتبنى أحياناً حول بعض البقع المنخفضة سدود لحصر مياه الأمطار وجمعها والاستفادة منها في الري . وقد كانت مياه بعض الينابيع غزيرة لدرجة تكفي لزراعة أراضي واسعة ، كما هو الحال في الواحات .

ولا ريب أن مياه الأنهار الدائمة هي الوسيلة الرئيسة لدى الأقاليم الغنية وخاصة مصر والعراق . فأما مصر فإنها تعتمد على النيل الذي يخترقها من الجنوب إلى الشمال فيروي الأراضي التي حوله على شكل شريط ضيق تحف به الصحارى من جانبيه ووادي النيل مصبه خصب جداً ، وهو ضيق لا يتجاوز عرضه بضعة كيلو مترات ، ولكنه يتسع بالقرب من مصبه فيكون دلتا واسعة ترويها ترع كثيرة تستمد مياهها من النيل .

الري في ـمعرو .

أما العراق فإنه يعتمد على مياه دجلة والفرات اللذين يجريان في القسم الشمالي منه في أرض متموجة مرتفعة الضفاف ، فلا يستفاد منها في الزراعة إلا على شواطئهما الضيقة . غير أن هذين النهرين عندما يصلان إلى وسط العراق يجريان في أرض منبسطة قليلة الانحدار ، فيستفاد من مياهها للارواء وقد شق العراقيون من هذين النهرين ترعاً كثيرة لارواء الأراضي ، ومن ذلك نهر عيسى ونهر صرصر ونهر الملك ونهر النيل التي تأخذ مياهها من نهر الفرات بين الرمادي والحلة ، وتسقي الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات في وسط العراق ، كما تتشعب من الفرات عدة فروع تروي الأراضي التي في منطقة الكوفة .

أما دجلة فيأخذ منه نهر الدجيل الذي يروي الأراضي الواقعة غربي دجلة في شمال بغداد ، كما يأخذ منه النهروان الذي يروي الأراضي الواقعة في شرقي دجلة بين سامراء والكوت أما في المناطق الجنوبية فتتفرع من دجلة ترع وأنهار كثيرة تسقي تلك الأراضي . وتعتمد منطقة البصرة في الأرواء على الترع الكثيرة التي تأخذ مياهها من شط العرب .

ونظراً لانبساط أراضي القسم الجنوبي من العراق ، ورخاوة تربته ، وخطورة الفيضانات فيه فقد أنشئت في العراق سدود كثيرة لدرء أخطار الفيضان وتنظيم توزيع الماء في الترع والجداول .

استصلاح الأراضي :

وقد بذل العرب المسلمون جهوداً كبيرة في تجفيف البطائح والمستنقعات وكانت الدولة تقوم ببناء السدود الكبيرة والعناية بها ، وتهتم بكري الأنهار وتحويلها إلى أراضي زراعية . وعنوا بأمور الري ، وأنشأوا ديواناً خاصاً للماء والترع الكبيرة وتنظيفها من الرمال التي تترسب فيها فتعرقل جريان الماء .

وكانت الأملاح تهدد بإفساد المزارع وتحويل الأراضي إلى سباخ : لذلك إهتم العرب بمعالجتها ، بقشط الطبقة الملحية من على وجه الأرض ، وجمع الأملاح أو بزراعة بعض النباتات التي تقاوم الملح ، كالجت والشعير وقد يزرعون الأرض سنة ويتركونها سنة أخرى ، ويقومون أحياناً بغسل الأرض من الأملاح وبزل المياه الزائدة .

تنظيم الري في العراق :

وقد اختلت أحوال الري في العراق أواخر العهد الساساني بسبب الفيضانات الكثيرة التي اجتاحت البلاد فكسرت السدود ودمرت الترع وأغرقت كثيراً من الأراضي وحولتها إلى مستنقعات وبطائح ثم اجتاحت البلاد على أثرها الأوبئة والطواعين فأفنت كثيراً من السكان وانقصت الأيدي العاملة فساءت أحوال الريف .

فلما حرر العرب العراق اهتموا بأعمار البلاد وعنوا بالري ، وقد قاموا بحفر عدد كبير من الأنهار لتوفير ماء الشرب لأهل البصرة ، ولأعمار الأراضي التي تقع على ضفاف شط العرب . وفي جنوب العراق ومنطقة واسط جففوا كثيراً من البطائح والمستنقعات وأحيوا أراضي واسعة ، وحفروا عدداً من الأنهار .

وقد تابع العباسيون عنايتهم بشؤون الري في منطقة البصرة وواسط ، كما اهتموا أيضاً بالأنهار الواقعة في وسط العراق ، فحفر أبو جعفر المنصور عدة أنهار في منطقة بغداد لتوفير مياه الشرب لأهلها وحفر هرون الرشيد القسم الأعلى من النهروان في منطقة سامراء كما حفر المتوكل عدداً من الأنهار في سامراء أيضاً . وتابع العباسيون اهتمامهم بصيانة السدود والترع الأخرى .

وقد أدت الاضطرابات التي حدثت في أواخر القرن الثالث الهجري إلى إنحطاط أحوال الري ، وقد حاول العباسيون معالجة الوضع وطهروا عدداً من الأنهار والترع التي جفت في منطقة بغداد ، كما شقوا أنهر في منطقة الكوفة

ولكن هذه المحاولات لم تؤد إلى نتائج كبيرة ، فقد استمر تدهور أحوال الري في وسط العراق وجنوبه ، ثم أصاب النهروان الاهمال ، فجف في القرن السادس الهجري ، وتدمرت بجفافه مئات القرى التي كان أهلها يعتمدون على مائه في الزراعة .

ثانياً : دراسة مفصلة عن الزراعة :

المتوجات الزراعية :

ولما كانت المتوجات الزراعية هي عماد حياة الناس ومعاشهم ، لذلك كان كل أقليم يزرع أصنافاً كثيرة من المزروعات التي يحتاجها أهل ذلك الأقليم ، وخاصة الحنطة والشعير والمخضرات . غير أن بعض الأقاليم اشتهرت بوفرة إنتاجها لمزروعات معينة ، فقد اشتهرت مصر بزراعة الكتان ، وخراسان بالقطن ، والأحواز بقصب السكر ، واليمن بالنباتات الطبية والورس واللبان . وبلاد الشام بالزيتون والكروم ، وأرمينية بأشجار الفواكه . والبحرين واليمامة بالنخيل .

لا شك في أن التنوع الآتي في الحاصلات الزراعية تشير إليه الآية القرآنية في سورة البقرة :

﴿ قالوا ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال اتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم . . . ﴾ واستجاب الله لدعاء سيدنا موسى وكان ما كان من بني اسرائيل .

ومن الحاصلات التي برع في زراعتها العرب المسلمون :

١ ـ الحنطة : وكانت تزرع في كافة البلاد التي يكون فيها الماء موفوراً ، وهي أكثر ما يزرع في العراق ، ولها المكان الأول في بلاد خوزستان .

٢ ـ الذرة : وكانت تزرع في الأجزاء الجافة في جنوب الدولة كجنوب جزيرة العرب ، وبلاد النوبة ، وكرمان ، وجنوب مصر .

٣ ـ السمسم : وهو يزرع في كثير من البلاد .

٤ ـ الأرز : وهو يزرع حيث يكثر الماء ، فكان يزرع في خوزستان ومازندران ، وغيرهما ، وكان خبز الأرز غالباً من طعام أهل مازندران ، وهي بلاد تحيط بها المستنقعات .

٥ ـ الكرم : وهو أكثر ما يزرع من الفواكه ، وكان منتشراً في جميع البلاد ، وله في العراق المقام الأول ، كما أنه يكثر من ارمينية واذربيجان ، واكثر ما تكون أشجاره في اليمن ، وكانت أصنافه كثيرة متنوعة .

٦ ـ البطيخ : وكان أكثر ما يباع من الفاكهة في الأسواق ، ولذلك كان سوق بيع الفاكهة يسمى دار البطيخ ، واشتهر شمالي فارس بنوع خاص لصبخة الفاكهة وجودة البطيخ .

٧ ـ التفاح : وكان أحسن أنواعه تفاح الشام ؛ حتى ضرب المثل به في الحسن ، وجودة الطعم .

٨ ـ الرمان : وكان ذا أهمية ، حتى إن سفناً كثيرة كانت تسير من الفرات محملة به إلى بغداد .

٩ ـ التمر : كانت العراق ، وكرمان ، وشمال افريقية ، وبخاصة مدينة سُجلماسة في جنوبي مراكش أكبر المراكز لانتاج التمور ، والعراقي أجود أنواعه .

١٠ ـ الزيتون : من نباتات إقليم البحر الأبيض المتوسط ، وكانت الشام ، وشمال افريقية تمدان المملكة الاسلامية كلها بالزيت ، وأحسنه ما كان يأتي من الشام ولا سيما مدينة نابلس .

١١ ـ قصب السكر : وكان يزرع في كابل وصور وخوزستان والأندلس ومصر .

١٢ ـ النيلي : وهو مادة أساسية في الصباغة باللون الأزرق ، وزرع في صعيد مصر والواحات وفلسطين وكرمان وكابل .

١٣ ـ الزعفران : وكان يستعمل للتلوين باللون الأصفر ، ولعظم قيمته كان يزرع في كثير من البلاد كالشام ، وجنوبي فارس ، والمغرب ، وكانت طليطلة ، من بلاد المغرب تصدر مقادير كثيرة منه إلى كثير من الجهات .

١٤ ـ الكتان : وكان يزرع بكثرة في مصر ، وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته .

١٥ ـ القطن : وكان يزرع في فارس ، وفيما بين النهرين ، وبلاد ما وراء النهر التي كانت تنتج منه كميات كبيرة ، ثم انتشر في القرن الرابع في شمال افريقية والأندلس .

وكان نتيجة هذا المحصول الهائل والتقدم في الأمور التي تحافظ على زراعته أن أبرع العرب والمسلمون في علوم النبات وأصبح لدينا علماء عباقرة افذاذ .

بيوت الريف :

كان الفلاحون يعيشون في قرى تختلف في سعتها وعدد سكانها ؛ ولكل قرية رئيس من أهلها يساعد على تنظيم الحياة فيها . وبيوت أهل القرية بسيطة مبنية بالطين ، وهي تتكون من غرفة أو غرفتين يسكن فيها الفلاح وأسرته ، ويضع فيها لوازم الزراعة وأدواتها وبعض البذور وفي بيوت الفلاحين عادة فناء مكشوف تربط فيه الحيوانات التي يستخدمها الفلاح في عملة كالبقر والحمير . ويمتلك بعض الفلاحين عدداً من الأغنام يشربون ألبانها ويجنون صوفها .

حياة الفلاح :

وحياة الفلاحين بسيطة فمأكلهم من الحبوب وأحياناً بعض الخضر التي تنتجها أراضيهم ، وما قد يصيدونه من الطيور والأسماك . أما ألبستهم فبسيطة ومعظمها مما يصنعه الفلاح في بيته .

ولكل قرية أرض لرعي الماشية أو لأخذ الحطب منها ، يشترك فيها كل أهل القرية ، ويقوم أهل القرية عادة بكري الترع التي تسقي أراضي قريتهم ، وكذلك إصلاح الجسور الصغيرة .

تنظيم العمل وتوفير الأيدي العاملة :

ويقوم كل فلاح بزراعة قطعة خاصة من أرض القرية ، ويأخذ مقابل عمله حصة من الحاصل ، غير أن بعض الفلاحين كانوا يعملون بأجور يتفقون على مقدارها مع صاحب الأرض ؛ وأغلب هذا الصنف الأخير عملهم موسمي وخاصة في مواسم الحصاد أو عند جني الثمار ، وهم لا يستقرون في مكان ثابت ، بل يتنقلون حيثما يكون العمل ، ويسمون الشكرات .

ولما كانت الزراعة تتطلب توفر الأيدي العاملة فإن الدولة كثيراً ما كانت تتخذ بعض التدابير لالزام الفلاحين على البقاء في قراهم للعمل في الأرض ، فيروى أنه لما حصلت الاضطرابات في العراق ، وكثرت هجرة الفلاحين من الريف وتناقص عدد العمال في الأرض ، أمر الحجاج بن يوسف والي العراق بإرجاع الفلاحين الذين هاجروا إلى الأمصار إلى قراهم ، ومنع هجرة الفلاحين إلى واسط ؛ وكان في مصر موظف خاص يسمى المشد وهو مسؤول عن إلزام الفلاحين على البقاء في قراهم والعمل فيها .

غير أن هذه التدابير لم تنجح في بقاء كافة الفلاحين في أراضيهم ، لذلك كثيراً ما كان الفلاحون يهاجرون من الريف وخاصة عندما تسوء أحوال الري وتنطمر الترع بسبب الفيضانات أو الحروب أو إهمال الحكومة وكذلك

ثقل الضرائب والشدة في جبايتها وسوء الأحوال في الريف ولا ريب أن الازدهار الاقتصادي في المدن كان يجلب إليه كثيراً من أهل الريف الذين يجدون مجالاً للعمل والربح ، كما أن الازدهار الفكري يجلب إليها أيضاً عدداً كبيراً . والواقع أن كثيراً من وزراء الدولة العباسية وكتابها وعلمائها أصلهم من القرى ثم هاجروا إلى المدن واستفادوا من حياتها . .

ملكية الأرض :

وبالنظر لأهمية الزراعة في حياة الناس فقد اعتبرت الدولة الأراضي الزراعة ملكاً عام للدولة ، وأما الفلاحون فإنهم يحوزون الأراضي ويستغلونها مقابل دفع الخراج الذي هو كالاجارة للدولة ، ولما كانت الدولة هي المالكة للأراضي ، فإنها تستطيع إجبار الفلاح على زراعة المنتوجات الضرورية لحياة المجتمع ، كما أن لها أن تفرض الضريبة التي ترتأيها ؛ ولم يكن بمقدورها الاعتماد في معاشها على ما تستورده من مناطق بعيدة ، وذلك نظراً لصعوبة المواصلات في تلك الأزمنة .

غير أنه بالرغم من حق الدولة القانوني في أن تفرض على الفلاح ما تراه في الزراعة والضرائب ، إلا أن مصلحتها كانت تقضي بالعناية بأمور الزراعة وتوفير الوسائل اللازمة لها ، وكذلك في الترفيه عن الفلاح وتمكينه من الانتاج الجيد الوافر ، إذ على مثل هذا الانتاج يتوقف إزدهار المجتمع وغنى الحكومة وقوتها .

كانت الضرائب المفروضة على الزراعة تكون المورد الرئيسي الذي تعتمد عليه مالية الدولة وتختلف هذه الضرائب باختلاف أحوال الري والزراعة وعلاقة أهلها بالاسلام . فأما في الحجاز فإن الرسول ﷺ فرض على اليهود من أهل خيبر وفدك ووادي القرى أن يدفعوا نصف الحاصل ؛ وأما بقية الأراضي الزراعة التي يمتلكها المسلمون في جزيرة العرب ، فقد كانت

الضريبة عليها تختلف باختلاف وسائل الأرواء وهي لا تزيد على عشر الحاصل.

وقد عقد العرب مع بعض البلاد التي حرروها صلحاً قرروا بموجبه الضريبة التي يدفعها أهل البلاد عن أراضيهم ، وتختلف شروط هذا الصلح تبعاً للظروف التي تم فيها عقده .

غير أن أغلبية الأقاليم المحررة اعتبرت « فيئاً » للمسلمين ، تكون ملكية أراضيها للدولة ويقوم المزارعون بزراعتها واستغلالها مقابل دفع ضريبة تسمى الخراج . وقد تم في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) تحرير العراق وبلاد الشام ومصر ، وهي أغنى الأقاليم الزراعية في الدولة العربية الاسلامية . وقد أصر الخليفة عمر على عدم توزيع الأراضي المحررة على العرب المقاتلة لأن توزيع الأرض على العرب يجعلهم ينصرفون عن القتال والفتوح ، فتحرم الدولة من خدماتهم في تلك المجالات التي كانت بأشد الحاجة اليها ، كما أن العرب إذا وزعت عليهم الأرض سينصرفون إلى الزراعة فينافسون الفلاحين الذين كانوا يعملون فيها ، وتتولد بينهم كثير من المشاكل ، ثم أن توزيع الأراضي على المقاتلة الذين شاركوا في التحرير سيؤدي إلى حصر ملكية الأرض بعدد محدود لمن العرب ، ويحرم الباقين منها ولا يخفي أن جعل ملكية الأراضي للدولة يمكنها من القيام بدورها في الادارة والعناية بمشاريع الري وإصلاح الأراضي ، ويمكنها أيضاً من التدخل الفعال في تنظيم العلاقة بين الفلاحين والمقاتلين ، وبذلك يصبح للحكومة دور مهم في تثبيت سلطتها وتعزيز دورها في الادارة .

خراج المساحة :

فرض عمر بن الخطاب الخراج على كل أرض قابلة للزراعة سواء زرعت أم لم تزرع ؛ ومقدار الخراج يختلف تبعاً لقابلية الأرض في الانتاج ، وموقعها من الأسواق ، والمحاصيل التي تنتجها وعلى العموم فإنه فرض على

كل جريب يزرع الحنطة أربعة دراهم والشعير درهمين ومن النخيل ثمانية دراهم ، ومن الكروم عشر دراهم ، ومن قصب السكر ستة دراهم ، ومن القطن والسمسم خمسة دراهم ، كما فرض على الخضر ثلاثة دراهم على كل جريب والمحاصيل المذكورة هي المتوجات الزراعية الرئيسية ، وتبلغ مساحة الجريب الإسلامي ١٣٦٦ متراً مربعاً أي حوالي نصف دونم .

أما الدرهم فكان في صدر الاسلام من الفضة الخالصة ويبلغ وزنه مثقالاً من الفضة النقية ، أي حوالي ٤ غرامات وكان سعر التبادل بين الفضة والذهب حوالي ١٢/١ أي أن الدينار الذهب يساوي إثني عشر درهماً ، مع العلم أن وزنهما واحد وهو مثقال وكانت الدراهم الفضية تسك على الطراز الساساني في مدن كثيرة ، وقد أمر العرب أن تطبع على حافات بعضها كلمات عربية فلما ولي الحجاج العراق والمشرق ، عرب النقود ، أي سكها على طراز عربي وطبع عليها بالعربية آيات قرآنية ؛ كما أنه جعل وزن الدرهم يساوي سبعة أعشار وزنه السابق . وقد عرب المسلمون الدنانير ؛ أي جعلوا الكتابة عليها بالعربية ، ولكنهم أبقوا وزن الدينار مثقالاً ، وكان الدينار يسك من الذهب الخالص ، والدرهم من الفضة الخالصة ، وكان الدينار في زمن هرون الرشيد يساوي ٢٢ درهماً ، ثم أصبح بعده يساوي ٢٥ درهماً ؛ وكانت جباية الخراج في العراق والمشرق بالدرهم ، أما في بلاد الشام ومصر واليمن فكانت بالدنانير .

أهمية خراج المساحة :

إن تقدير الخراج تبعاً لمساحة الأرض يسمى خراج المساحة ومن فوائد هذا النظام أنه يؤمن للدولة موارد ثابتة لا تتأثر بتقلبات الأحوال الزراعية ، لأنه يعتمد على مساحة الأرض وهي ثابتة ، أنه يشجع الفلاحين على تحسين الانتاج وزيادته ، إذا ما دام مقدار الضريبة ثابتاً فإن زيادة الحاصل والفائدة من تحسينه تذهب إلى الفلاح ، كما أن نقص الحاصل ورداءة نوعيته يقع عبؤه على الفلاح .

جباية الخراج :

أما جباية الخراج فتتم بدراسة مساحة أرض كل قرية ومتوجاتها ، ثم يقدر ما عليها من الخراج بعد تطبيق الأسس التي ذكرناها ، فيجبى الخراج من القرية أو المقاطعة وتقوم الدولة بين فترة وأخرى بإعادة مسح الأراضي وفحص متوجاتها . ويعاد تقدير الضريبة على أساسها . وكثيراً ما يقوم بالجباية « متقبلون » أي متعهدون يقومون بالجباية ويسلمونها إلى الدولة مقابل بعض الأرباح .

تطور أحوال الخراج في العصر الأموي :

إن خراج المساحة يتطلب نجاحه أن تكون أحوال الري والزراعة والأيدي العاملة والأسعار ثابتة مستقرة .

وقد قام العرب في العهدين الراشدي والأموي بإستصلاح مساحات واسعة من الأراضي بتجفيف المستنقعات والبطائح ، وبشق الترع وإزالة ملوحتها . كما أن بعضهم أخذ يمتلك أراضي زراعية واسعة وكانوا يدفعون عن كل هذه الأراضي عشراً ، وهو أقل من الخراج .

الهجرة من الريف : أسبابها وأثرها :

وكان الاقطاعيون في زمن الساسانيين يهيمنون على الزراعة ويجبرون الفلاحين على البقاء في أراضيهم ، فلما حرر العرب المسلمون العراق تشتت معظم الملاكين الاقطاعيين الساسانيين وتخلص منهم الفلاحون فأصبح بإمكانهم ترك أراضيهم وخاصة بعد أن خربت بعض الأراضي الزراعية نتيجة الحروب وتكسر بعض السدود ولم يقيد العرب الفلاحين فهاجر كثير منهم إلى الأمصار الاسلامية التي تزايدت أهميتها الاقتصادية والفكرية . كما أن بعض الفلاحين انتقلوا إلى الأراضي التي أحياها العرب وامتلكوها ، مستفيدين من الحماية التي يوفرها لهم العرب وهكذا تناقصت الأيدي العاملة في الأراضي

الخراجية . ولما كان مقدار الخراج ثابتا على كل قرية مهما كان عدد فلاحيها لذلك فإن من بقي في أرضه يكون مسؤولاً عن دفع الخراج عن أرض من يغادرها ، وهكذا زاد العبء على من بقي من الفلاحين في أرضه .

وكان أكثر الخراج تجبيه الدولة بالدراهم التي تدفعها لعطاء المقاتلة المقيمين في الأمصار : وقد أدى هذا إلى استقرار انتقال الدراهم من الريف إلى الأمصار ؛ ثم أن الدولة كانت تأخذ من الفلاح أيضاً بعض محاصيل مزارعه ، وخاصة من الحنطة وتوزيعها على المقاتلة في الأمصار . وقد أدى هذا إلى أن الدراهم أخذت تتراكم في الأمصار وساعدت على ازدهار الحياة الاقتصادية فيها ، أما الريف فقد تناقصت فيه وأصبح على الفلاحين إيجاد النقود لدفع الخراج . ثم أن الأمويين ظلوا يجبون الخراج بالدراهم التي وزنها مثقال حتى بعد أن سكوا الدراهم الخفيفة .

وقد فرض الأمويون على الفلاحين ضرائب إضافية ، منها هدايا الأعياد وهي مبالغ كانت تؤخذ من المزارعين وتدفع هدايا لكسرى في هذين العيدين وقد ألغاها عمر بن الخطاب (رض) ثم أعادها الأمويون ، وكان يبلغ ما يجبى منها في كل سنة عشرة ملايين درهم .

ومن الضرائب الاضافية أيضاً أجور الفيوج وهم الذين كانوا يرافقون الجباة ، وكذلك نفقة إقامة الجباة وحاشيتهم في القرية ، وأثمان القراطيس التي تستعمل لتسجيل الجباية .

وقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز أن تلغى هذه الضرائب الاضافية ، ولا تستعمل الشدة في الجباية . ولكن أوامره الغيت بعد وفاته .

خراج المقاسمة في العهد العباسي :

ولما ولي العباسيون الخلافة اهتموا بأمر الخراج ومعالجة مشاكله فأمر أبو جعفر المنصور بإعادة مسح السواد وضبط الأراضي المزروعة وتمييزها عن

الخراب ؛ أما المهدي فقد أمر بإبطال خراج المساحة ، وأحل محله خراج المقاسمة الذي تأخذ الدولة بموجبه نسبة معينة من الحاصل تبعاً لطريقة ري الأرض ؛ ففرض على الأرض التي تسقي سيحاً نصف الحاصل وعلى الأرض التي تسقي بالدوالي ثلث الحاصل وعلى التي تسقى بالدواليب الربع . غير أن هذه الضريبة زيدت فيما بعد ، فأصبح يؤخذ من أرض السيح ثلاثة أخماس ثم أرجعها الرشيد إلى النصف ، وأنقصها المأمون بعدئذ فجعلها خمسين ، أي أربعين بالمائة من الحاصل .

الصوافي :

وكان الملوك الساسانيون وأبناء أسرتهم والنبلاء الفرس يمتلكون إقطاعيات واسعة ، كما كانت في زمنهم أراضي واسعة موقوفة على بيوت النيرات والمعابد ، أو مخصصة لرعي خيول الجيش والبريد . وهي خصبة واسعة ، فلما حرر العرب العراق وضعوا أيديهم على تلك الأراضي واعتبروها صوافي ، فكانت جبايتها في العراق تبلغ حوالي خمسة ملايين درهم سنوياً . ولما ولي معاوية الخلافة اعتبر هذه الصوافي ملكاً للخليفة وأخذ لنفسه جبايتها وبذلك صارت الصوافي للخلفاء الأمويين ؛ فلما جاء العباسيون إلى الخلافة صادروا الأراضي التي امتلكها الخلفاء الأمويون واعتبروها ضياعاً سلطانية .

الأراضي العشرية وظهور الملكيات الزراعية :

ذكرنا أن الاضطرابات التي حدثت في أواخر الحكم الساساني أدت إلى تدمير كثير من مشاريع الري وخراب كثير من الأراضي الزراعية في العراق فلما حرر العرب المسلمون البلاد واستقروا فيها عنوا بشؤون الري والزراعة ؛ واهتموا بأحياء الأراضي وإصلاحها وشجعوا الناس على ذلك ؛ فكانوا يملكون الأرض لمن يحييها ويصلحها ويأخذون عنها العشر فأقبل الناس على إصلاح الأراضي وتملكها ؛ واستطاع بعض المتنفذين إمتلاك مساحات واسعة من الأراضي الزراعية . ثم أن عدداً من العرب أخذوا يشترون أراضي الخراج

ويدفعون عنها العشر كما أن بعض الخراج الذين شعروا بثقل الخراج وأساليب الشدة في جبايته ، أخذوا يلجؤون من أراضيهم ، أي يعطونها للمتنفذين من العرب مقابل حماية هؤلاء المتنفذين لأهل الأرض ؛ وكانوا يدفعون عن هذه الأراضي العشر أيضاً ؛ وقد أدى كل هذا إلى ازدياد الأراضي العشرية وتناقص الأراضي الخراجية . وكان له تأثير كبير في تناقص مقدار الخراج الذي تجبيه الدولة .

وقد حاول الخليفة عمر بن العزيز وضع حد لتحويل الأراضي الخراجية إلى أراضي عشرية ، فقرر أن الخراج هو ضريبة على الأرض ، وينبغي أن يدفع حتى لو تملكها العرب . وقد أمر أيضاً أن تلغى الضرائب الاستثنائية ، وأن يعامل الفلاح بالحسنى ، غير أن قراره لم يستمر بعد وفاته ، فاستمر العرب يقتنون الأراضي ويدفعون عنها العشر .

ولما جاء العباسيون إلى الخلافة ، استمر العرب بالاهتمام بإقتناء الأرض الزراعية ، وكان أغلب الملاكين يقيمون في بغداد والمدن الرئيسة ويديرون أملاكهم بواسطة وكلاء عنهم همهم بالدرجة الأولى الحصول على الأرباح التي تجني من الزراعة وإستغلال الأرض . وقد أدى عدم إقامة الملاكين في الريف إلى بقاء الريف مهملاً ، فلم يكن بين الفلاحين والملاكين إتصال مباشر ، وقل إطلاع أهل المدن على المساوىء التي كانت تسود الريف فزادت الهوة بين الريف والمدن .

وقد حاول بعض الخلفاء العباسيين معالجة أحوال الريف ، وتحسين أحوال الفلاحين .

جباية الخراج :

وكانت جباية الخراج تتم إما مباشرة بواسطة عمال جباية ، أو بواسطة « متقبلين » أو متعهدين يقوم كل منهم بجباية الخراج في منطقة معينة ، وكثيراً

ما كان هؤلاء المتقبلون يحاولون أن يجمعوا من الفلاحين أكثر مما هو مقرر عليهم ويختلقون لذلك إعذاراً .

تدهور أحوال الريف :

وقد أدى كل هذا إلى تناقص النقود في الريف وإلى عجز الفلاحين عن دفع الخراج المقرر عليهم ، فتناقصت الجباية في العراق ، كما أن الاضطرابات التي حدثت في الأقاليم واستقلال بعضها أدى إلى تناقص ما يصل العاصمة العباسية من موارد ، وقد حاول بعض وزراء الدولة العباسية معالجة هذه الأوضاع لتأمين حصول الدولة على الموارد الكافية الضرورية لمواجهة نفقات البلاد والجيش والادارة وخاصة في العصر العباسي الثاني عندما ازداد سلطان قواد والجيش وزادت حاجتهم إلى الأموال لدفع رواتب الجند .

وكان الخلفاء العباسيون الأولون قد خصصوا موارد بعض المناطق لسد نفقات معينة . فقد حفر الخليفة المهدي نهر الصلة في منطقة واسط وجعل ما يجبى منه لأهل الحرمين ، وحفر الرشيد نهر القاطول الذي يأخذ ماءه من دجلة في شمالي سامراء وسماه أبا الجند لأنه كان يعطي من موارده رواتب الجند .

ثم أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يعطون بعض أنصارهم أو المقربين إليهم أراضي لاستغلالها والاستفادة منها أو يعفونهم عن دفع الضرائب عنها ، أو يأخذون منهم عنها مبلغاً مقطوعاً من المال ، وهو عادة مبلغ غير كبير .

وقد منح الخلفاء بعض الوزراء وكبار الموظفين طيلة بقاء هؤلاء في مناصبهم ، غلة بعض المزارع ، وذلك لسد نفقاتهم ، وقد سميت هذه المنح « إقطاعات » وهي تبقى لصاحبها ما دام يشغل منصبه ، ثم تسترد منه بعد عزله .

ظهور الاقطاع العسكري :

ولما استولى البويهيون على الحكم في العراق في سنة ٣٣٤ هـ كانت السدود مخربة ، وأحوال الري متردية ، والزراعة منحطة والجبايات قليلة . وظلت جباية الأموال أقل من أن تكفي لسد نفقات الجند . لذلك قرر هؤلاء الحكام أن يقطعوا القواد والجند إقطاعات من الأراضي الزراعية يأخذون مواردها لهم بدل الرواتب . وكانت هذه الاقطاعات من أراضي الضياع السلطانية واملاك بعض الملاكين من أراضي بيت المال .

وقد أدت هذه الاجراءات إلى نتائج خطيرة ، منها أن توزيع الاقطاعات لم يكن منتظماً ، فقد نال البعض أراضي غنية بمزروعاتها ، بينما أصاب الآخرون أراضي فقيرة ، فعمل هؤلاء على رد إقطاعاتهم واستبدالها بغيرها ، أو قام بعضهم بتخريب إقطاعاتهم لتبرير إستبدالها فأدى هذا بدوره إلى تدني أحوال الزراعة وإلى ارتفاع الأسعار ، كما أن موظفي الري والجباية لم يعودوا يستطيعون القيام بواجباتهم بسبب تدخل القواد والجند في الجباية ، فضعف إشراف السلطة المركزية على أحوال الريف ، وأدى تدخل الجند إلى إزدياد سوء الأحوال وزيادة العسف على الفلاحين .

وقد حاول عضد الدولة البويهي إصلاح الأحوال لتأمين بقاء حكمه ، فعنى بالري وأصلح السدود ، وطهر بعض الأنهار ، وأعاد الأساليب القديمة في الجباية ، وحاول تحسين حال الفلاحين ، ولكنه لم يعمر طويلاً فلما توفى إزدادت الأحوال سوءاً لا في الريف فقط ، بل في المدن أيضاً حيث أدت الفتن واضطراب الأمن إلى تعرقل التجارة وركود الصناعة وكثرة البطالة واضطراب الأحوال الاقتصادية .

ثم سيطر السلاجقة وكان سلطانهم يمتد من خراسان شرقاً إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى غرباً ، واستطاعوا أن يعيدوا الاستقرار والنظام إلى هذه الأقاليم غير أنهم لم يستطيعوا الحصول على الأموال الكافية لدفع الرواتب

والنفقات للجند ، ولذلك أخذوا يمنحون الجند إقطاعات من الأراضي ، كما فعل البويهيون غير أن السلاجقة كانوا يوزعون إقطاعات القواد ، فيجعلون إقطاع كل قائد في مكانين متباعدين كأن يقطع القائد أرضاً في آسيا الصغرى وأخرى في خراسان . وقد اشترط السلاجقة على من يأخذ الاقطاع أن يعلن ولاءه للسلطان السلجوقي وأن يقوم بالخدمة العسكرية متى طلب السلطان منه ذلك . وكانت الاقطاعات تختلف في حجمها ، فبعضها يقتصر على رقعة صغيرة من الأرض وبعض الاقطاعات تشمل إقليماً بكامله . وعلى الذي يأخذ الاقطاع أن يعد بدفع نفقاته من الاقطاع . وتتوقف سعة الاقطاع في الغالب على عدد الجند التي للأمير المقطع . والاقطاع غير ثابت ولا وراثي ، فقد يسحب من صاحبه ويعطي لغيره ، والغالب أنه لا ينتقل إلى ورثته بعد وفاته .

الاقطاع في مصر :

وقد عم هذا النظام في الأقاليم الخاضعة للسلاجقة كافة ثم ورثه الاتابكة والايوبيون وطبقوه في مصر أيضاً . وأصبح يعطي لأبناء الأسرة الحاكمة وقوادها وأمرائها ، وكذلك إلى القبائل العربية التي تقاتل في صفوفها .

وبعد استيلاء المغول على المشرق ، وزوال الدولة الأيوبية ، سيطرت دولة المماليك على مصر وبلاد الشام ، فاستمروا في تطبيق نظام الاقطاع العسكري ، وجعلوه يشمل بقية موارد الدولة أيضاً . فقد اقطع بعض المماليك المكوس وموارد الزكاة والمعادن والعشر ، ولم تكن الاقطاعات ثابتة أو وراثية ، فكان يعاد توزيعها بين آونة وأخرى ، وخاصة على أثر الثورات أو عند اعتلاء امير جديد الحكم ، فيعاد التوزيع ليصيب جماعته وأنصاره بالنصيب الأوفى ويحرم خصومه أو تنقص إقطاعاتهم . وعلى المقطع أن يؤدي يمين الولاء للسلطان ، وأن يؤدي الخدمة الحربية ، ويقوم بحفظ الأمن ، ويسهم في تسهيل وسائل الاتصال بين أطراف المملكة بتقديم خيول البريد . وهو

يحصل مقابل هذا على ألقاب معينة ، ومخصصات ومنح يرسلها له السلطان في المناسبات . وعلى كل مقطع أن يكون له عدد من الجند وعليه أن يدفع أيضاً خراجاً من إقطاعاته إلى بيت المال .

ويطبق المقطع القوانين المقررة على الفلاحين ، بإشراف السلطان ، والعادة أن يأخذ الفلاح حوالي ثلث الحاصل ، وعليه أن يقوم ببعض الالتزامات كضيافة من يمر بأرضه من رجال الدولة وتقديم بعض الهدايا ، وإصلاح الطرق والجسور الصغيرة ، ولم يكون يسمح للفلاح بمغادرة أرضه .

ثالثاً : نشأة علم النبات عند العرب :

لعلنا الآن نعرض لعُلم النبات عند العرب فقد حظي باهتمامهم الشديد عندما بدؤ وا جمع أسماء النباتات وقت أن اختلطوا بالأعاجم نتيجة اتساع فتوحاتهم ، فانتشرت المذاهب واختلفت الأراء ، وبدأ الفساد يتطرق إلى اللغة . وكان على فصحاء البادية أن يفدوا على الأمصار لتصحيح اللغة وتعليمها وكان على الأمصار أنفسهم أن يطوفوا البادية لارتشاف اللغة من مناهلها والتحقق منها قبل تدوينها .

وهكذا بدأ الاهتمام بالنبات باعتباره جزءاً من اللغة واجب التحقيق ، وليس كعلم نبات له ذاتيته . وكان من الطبيعي أن تكون الزيادة للفقهاء والشعراء واللغويين والنحاة .

ولقد أدى اهتمام العرب بجمع شتات اللغة والتحقق من الفاظها باعتبارها المدخل الصحيح إلى فهم القرآن والحديث ـ أدى إلى ممارستهم التدوين والتصنيف في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة . وقيل إن أول المصنفين هو الامام عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصري المتوفى سنة ١٥٥ هـ ، وقيل أبو النصر سعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦ هـ ، وقيل ربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٠ هـ . وتلاهم غيرهم في التصنيف في اليمن والمدينة والكوفة ومصر وخراسان ، واعتبروا الزرع والشجر والكرْم والبقل

والنخل والنجم والنبت وغيرها مثل باقي حروف اللغة واجبة التدوين والتصنيف . وكانت البصرة والكوفة والحيرة وبغداد مقراً لعلماء اللغة ومهبطاً لفقهاء البادية حاملين إليها الصحيح الفصيح . وكان ممن وفدوا على الأمصار من أعراب جزيرة العرب يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، وأبو زياد الكلابي الذي قدم بغداد أيام المهدي (١٥٨ هـ ـ ١٦٩) ، وأبو العميثل المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، وغيرهم كثيرون . وكان علماء الأمصار يتجهون إلى البادية لمزيد من التحقيق كما يستدل من (لسان العرب) عن كيفية تحقيقهم لأسماء النباتات مثل ما ورد عن العتر والعفار والقِلَّاري ، والسُّيكران والرُّشاء ، والكشْمخة ، والمصَّاح ، والمَرْخ وغير ذلك من نباتات شتى

● أشهر اللغويين النباتيين العرب . .

لعلنا نسرد الآن أشهر علماء اللغة الذين جمعوا أسماء النباتات وتحققوا منها ثم دونوها وصنفوها ، وهم :

* الخليل بن أحمد ـ المتوفى سنة ١٨٠ هـ . .

كان نحوياً فذاً في تصحيح القياس والتعليل ، وهو أول من استخرج العروض وضبط اللغة ، وأخذ عنه الأصمعي وسيبويه وغيرهما . من مؤلفاته اللغوية التي حوت أسماء النبات والشجر (كتاب العين) .

* النضر بن شميل ـ المتوفى سنة ٢٠٤ هـ . .

هو النضر بن شميل بن خَرَشة بن يزيد بن كلثوم التميمي النحوي الأديب اللغوي . ولد بمرو ونشأ بالبصرة ، وأخذ عن الخليل بن أحمد ، وهو ممن احتجوا به في الصحاح ولقد تناول الزرع والكرم وأسماء البقول والأشجار في الجزء الخامس من كتابه (كتاب الصفات في اللغة) .

* أبو عبيدة البصري ـ المتوفى سنة ٢٠٨ ـ ٢١٣ هـ

أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى التَّيمي من رهط أبي بكر الصديق . كان أعلم

الناس باللغة وقاربت تصانيفه المائتين منها (كتاب الزرع) .

* الأصمعي - المتوفى سنة ٢١٦ هـ . .

أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع . كان لغوياً نحوياً من أهل البصرة وقدم بغداد زمن الرشيد ، ومن مصنفاته (كتاب النبات والشجر) الذي طبع في بيروت سنة ١٩٠٨ م ، وتناول منه أسماء الأرض في حالاتها المختلفة من حيث قبولها للزرع والنبات ، وأسماء النبات في حالات نموه وأزهاره . النباتات إلى حمض مالح وخلة غير مالحة . وذكر ما ينبت في السهل وما ينبت في الرمل . ويلغ عدد أسماء النباتات التي ذكرها نحو ٢٨٠ اسماً .

* أبو عُبَيْد القاسم - المتوفى سنة ٢٢٣ هـ . .

وقد تولى قضاء طرسوس أيام ثابت بن مالك ، وتوفي بمكة أيام المعتصم . ولقد ألف (كتاب غريب المصنف) الذي احتوى أبواباً خاصة بالنبات ، منها باب في أشجار الجبال ، وآخر فيما ينبت في السهل وما ينبت في الرمل ، وباب الحمص والخلة ، وباب أثمار الشجر ، والشجر المر ، والحنظل والكَمَاة .

* أحمد بن حاتم - المتوفى سنة ٢٣١ هـ . .

يُكنَى أبا نصر الباهلي صاحب الأصمعي وله (كتاب الشجر والنبات) و (كتاب الزرع والنخل) .

* ابن الاعرابي - المتوفى سنة ٢٣١ هـ . .

أبو عبدالله محمد بن زياد المعروف بابن الاعرابي الكوفي . من تصانيفه (كتاب صفة النخل) و (كتاب صفة الزرع) و (كتاب النبت والبقل) و (كتاب النبات) ، وتوفي في خلافة الواثق بن المعتصم .

* ابن السكيت ـ المتوفى سنة ٢٤٣ هـ . .

أبو يوسف يعقوب بن اسحق بن السكيت تعلم النحو من البصريين والكوفيين ، وروى عن الأصمعي وغيره . ولقد صنف كتباً كثيرة منها (كتاب الوحوش) و (كتاب الإبل) و (كتاب الحشرات) و (كتاب النبات والشجر) .

* السِّجِسْتَاني ـ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ . .

أبو حاتم سهل بن محمد بن يزيد السجستاني نزيل البصرة وعالمها . من تصانيفه (كتاب النخلة) و (كتاب الزرع) و (كتاب الكرم) و (كتاب العشب) و (كتاب النبات) و (كتاب الخصب والقحط) .

* السكري ـ المتوفى سنة ٢٧٥ هـ . .

الحسن بن الحسين بن العلاء بن أبي صُفْرَة المعروف بالسكري الذي انتشر عنه من كتب الأدب ما لم ينتشر لأحد من نظرائه . توفي في خلافة المعتمد ، ومن كتبه (كتاب النبات) .

* الدِّينَوَرِي ـ المتوفى سنة ٢٨٢ هـ . .

أحمد بن داود أبو حنيفة الدنيوري ، نسب إلى دنيور في العراق العجمي . يعتبره الغربيون شيخ النباتيين العرب . أما كتابه (كتاب النبات) فهو أحد ثلاثة كتب اشتهر بها ، ولم يصنف مثله في اللغة العربية حتى عصره ، وقد عنى فيه بما قاله العرب شعراً أو نثراً في وصف النباتات أو أي جزء من أجزائه ، واستشهد بأقوالهم عن استعمالاته ومواطن نموه وازدهاره . ووصف فئات النباتات مثل الاراك والاس والاقحوان والدباء وغيرها . واعتمد في رواياته على المصادر العربية فقط دون غيرها . ولم يعر الناحية الطبية كثيراً من العناية ، ولذلك هو نباتي فحسب ، وظل مرجعاً لمن جاء بعده من علماء اللغة الذين نقلوا عنه في أشهر مؤلفاتهم ، مثلما فعل ابن دريد في الجمهرة ، وابن خالويه في كتابه (كتاب النبات والشجر) والجوهري في (صحاحه)

وابن سيده في (المحكم والمخصص)، والصاغاني في (العباب)، وابن منظور في (لسانه) ، والفيروزآبادي في (محيطه) ، والمرتضى الزبيدي في (تاجه) . ولم يقتصر الأخذ عن أبي حنيفة على كتب اللغة ، بل نقلت عنه أكثر كتب المفردات الطبية ككتاب الجامع لمفردات الأدوية لابن البيطار . والحقيقة أن كتاب أبي حنيفة لم يكن مرجعاً أولاً للغويين فقط ، بل كان أيضاً هدف الأطباء والعشابين ، فلا يتخرج طبيب أو يبرز عشاب إلا بعد أن يستوعبه ، ويؤدي امتحاناً في مواده . وقد ظل الكتاب لفترة طويلة يلتقفه الخلف عن السلف إلى أن فقد تماماً . وآخر العهد بهذا الكتاب أنه كان من مصادر عبد القادر بن عمر البغدادي صاحب كتاب خزانة الأدب الذي فرغ من تأليفه في القاهرة سنة ١٠٧٩ هـ .

* ابن دريد ـ المتوفى سنة ٣٢١ هـ . .

محمد بن الحسن بن دريد بن العتاهية اللغوي البصري . ولد في خلافة المعتصم ، ووصف بأنه أحفظ اللغويين لدواوين العرب . وفي مصنفه (كتاب جمهرة اللغة) ذكر كثيراً من أسماء النبات نقلاً عن ما تقدمه من اللغويين .

* ابن خالويه ـ المتوفى سنة ٣٧٠ هـ . .

أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه من كبار أهل اللغة . عاصر المتنبي وسيف الدولة . وجدت نسخ مخطوطه من (كتاب الشجر) نسبت إليه وطبعت في المانيا سنة ١٩٠٩ م . تناول القسم الأول من الكتاب اصطلاحات تشرح تسمية الأشجار . ثم أسماء أجزاء النبات ، وأورد فيه نحو ٢٣٠ اسماً .

* الجوهري ـ المتوفى سنة ٣٩٣ هـ . .

اسماعيل بن حماد الجوهري صاحب (الصحاح) الذي اشتمل على كثير من أسماء النباتات .

* ابن سِيدَه ـ المتوفى سنة ٤٥٨ هـ . .

الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده المرسي . ألف كتاب (المخصص) الذي طبع في القاهرة سنة ١٣١٦ هـ وهو كتاب موسوعي في سبعة عشر جزءاً . تناول الجزء الحادي عشر وبعض الثاني عشر النباتات وأوصافها ومرادفاتها . وتميزت المعلومات النباتية الواردة فيه بالدقة والاصالة والتوثيق في التحليل والمقارنة وهو كتاب لغوي بالدرجة الأولى ويفيد الدارسين لعلم الشكل والسلوك ، وقد نقل فيه الكثير من أبي حنيفة الدينوري .

* الصَّغَاني ـ المتوفى سنة ٦٥٠ هـ . .

الحسن بن محمد بن الحسن الصغاني ، ولد بلاهور سنة ٥٧٧ هـ وهبط ببغداد سنة ٦١٥ هـ . أشهر كتبه (العباب الزاخر واللباب الفاخر) الذي حوى معلومات كثيرة عن النبات والشجر .

* ابن منظور ـ المتوفى سنة ٧١١ هـ . .

محمد بن مُكَرَّم وقيل رضوان بن أحمد بن أبي القاسم منظور الأنصاري الافريقي المصري ، ولد في محرم سنة ٦٣٠ هـ وولى قضاء طرابلس ، وهو صاحب (لسان العرب) أجمع مصنف في اللغة العربية . ضمنه جميع ما صنف في النبات في كتب الأقدمين .

* الفيروزآبادي ـ المتوفى سنة ٨١٧ هـ . .

أبو طاهر محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن عمر بن أبي بكر قاضي القضاة مجد الدين الفيروزآبادي الشيرازي . ولد بفارس سنة ٧٢٩ هـ . وفي كتابه (القاموس المحيط) جمع الكثير من أسماء النبات . وقد تميز عن غيره من كتب بنقله أسماء النباتات المعربة عن اليونانية أو غيرها .

* الزبيدي - المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ . .

مجد الدين أبو الفيض الشهير بمرتضى الحسيني الزبيدي نزيل مصر . ولد سنة ١١٤٥ هـ ونشأ باليمن وهبط مصر سنة ١١٦٧ هـ . صاحب (تاج العروس) في أربعة عشر مجلداً استوعب فيه كثيراً من كتب اللغة وتذكرة الحكيم داود الانطاكي والمنهاج والتبين وكتاب النبات للدينوري وغير ذلك من كتب النبات .

* * *

هكذا نشأ علم النبات عند العرب كجزء من اللغة ، ولقد أشرنا مجملاً لأشهر اللغويين النباتيين الذين قدحوا (الزناد) لضروب أخرى تهدف إلى دراسة النبات كعلم بذاته ولقد تم للعرب ذلك عندما تناولوه من نواحيه العلمية البحتة إلى جانب تناولهم اياه من النواحي الطبية والزراعية والجغرافية . وكان علم التصنيف هو أحد ارهاصاتهم الفكرية .

رابعاً : تصنيف النبات عند العرب المسلمين :

وكان العرب هم المهرة في ميدان علم تصنيف النبات ، فوضعوا تصنيفاتهم الخاصة لأهم نباتات ديارهم ووديانهم ، ونجوعهم ، وأوجدوا مجموعات نباتية تقابل بعض الفصائل النباتية الحديثة مثل مجموعة الحموض وغيرها كما سيرد عند عرضنا لتصنيفهم .

ولقد ذكرنا أن عملية التسمية تمثل ركناً من أركان علم التصنيف ، وتتلخص في اختيار اسم مناسب للنبات وفق قواعد معينة . ورغماً عن عدم وجود مثل هذه القواعد في أزمانهم إلا أن العرب قد توصلوا إلى نظام للتسمية يشبه ما عرف في عصور لاحقة بـ (التسمية الثنائية) التي بلورها العالم السويدي Binomial Nomenclature لينيس Linnaeus واستعملها بثبات في مؤلفة الأشهر (الأنواع النباتية) Species Plantarum الذي نشر في سنة

١٧٥٣ م . فقد أسموا كل نبات بكلمتين تدل أحدهما على صفة مثل نبات (المرار القيصوم) ونبات (حمص الخذراف) ونبات (حمص الرونا) وكانت التسميات من الدقة بحيث حفزت العلماء الأوروبيين إلى استخدامها ـ أي استخدام الاسم العربي نفسه ـ بعد اخضاعه للأجرومية اللاتينية ليصبح اسماً ثابتاً ذا دلالة تستعمله جميع البلدان . ذلك لأن التسميات العلمية النباتية هي في جوهرها تمثل انعكاسات صادقة لأهم صفة في المسمى ، فهي أسماء وصفية وكان العرب يتقون أحياناً صيغة جامعة لعدة أنواع . وهم على العموم توصلوا إلى صفات كثيرة استعملوها في التسمية مثل ظاهرة التعمير ، وصفة اللون ، وأشكال الثمار والأوراق ، وطبيعة الجذور والأعضاء المتحولة ، ومظهر النبات وملمسه ، وطعمه ، ورائحته ، واستجابة الحيوان له ، وخصائصه العلاجية ، وخصائص موطنه وبيئته وغير ذلك من صفات .

ولعله من الطريف أن نسوق أمثلة لبعض التسميات العربية التي اقتبسها علماء الغرب واستعملوها اسماً علمياً لاتينياً .

الصلّة الشوكية Zilla spinosa .

الرَّتم Retama raetam .

واستعمل علماء الغرب الاسم العربي أحياناً كدالة نوعية للجنس مثل نبات (السيال) الذي أضحى اسمه العلمي Acacia seyal وهو ما يعرف في مصر باسم السنط ، وأيضاً اسم (الحارة) لتدل على أحد أنواع جنس Diplotaxix كما في النوع Diplo axis harra واسم (الحرْمل في الاسم العلمي للنوع Peganum harmala) .

هذا وقد استعملت بعض التسميات العربية كأسماء أجناس مثل :

جنس Alhagi وأسماه العرب (الحاج)

جنس Capparis أسماه العرب (الكبَّار)

جنس Suaeda أسماء العرب (السواده)
جنس Maerua أسماء العرب (المر)
جنس Catha أسماء العرب (القات)

أما أهم المجموعات النباتية التي صنفها العرب فهي :

١ ـ مجموعة الحمض :

تقابل الفصيلة الرمرامية Family Chenopodiacaea وتتوطن المناطق الجافة والأراضي الملحية والأراضي المهملة ، ولها طعم حامض ومالح ، وتمثلها النباتات الآتية :

الرمث	Haloxylon salicornicum
الرغل	Atriplex leucoclada
القطف	Atriplex halimus
الروثا	Salsola vermiculata

٢ ـ مجموعة المرار :

ويقابل كثير من نباتاتها الفصيلة المركبة .

Family Compositae

الشيح	Artemisia herb-alba
القيصوم	Achillaea frafratissima
الجثجات	Francoeria crispa
الحوّة	Launaea capitata

٣ ـ مجموعة الكحليات :

وتقابل الفصيلة البوراجينية Family Boraginaceae أما سبب التسمية فلان جذورها تحتوي على مواد صابغة حمراء داكنة ، فيبدو جذر النبات كقضيب المكحلة في شكله ولونه :

المِلْيح	Arnebia hispidissima
كحالة	Echiochilon kotschi
الرُّمْس	Gstroc tyle hispida

٤ ـ مجموعة الحرف :

تقابل نباتاتها الفصيلة الصليبية Family Cruciferae ولها طعم لاذع حرف . ولقد تعرفنا حديثاً أن الحرافة ترجع في هذه الفصيلة إلى وجود مركبات كبريتية بانسجتها ، ومن أمثلة هذه المجموعة :

الرُّويد (الفجل)	Raphanus sativus
الجِرْجير	Savignya Parviflora
الحارَّة	Diplotaxis harra

٥ ـ مجموعة الدهامين :

وتقابل الفصيلة الجارونية Family Genaniaceae ومنها نبات الدهماء Monsonia nivea .

٦ ـ مجموعة البقل :

وتضم نباتات الفصيلة القرنية Family Leguminosae ومن أمثلتها :

الجِتْ (البرسيم الحجازي)	Medicago sativa
السَّلْم	Acacia ehrenbergiana
العاقول	Alhagi maurorum
العِشْرِج	Cassia italic
الحندقوق	Melilotus indicus
النَّفَل	Medicago laciniata

٧ ـ مجموعة الخلة :

وتضم نباتات من الفصيلة النجيلية Family Graminaea ومن أمثلتها :

الثِمام	Panicum turgidum
الأَمَنجرْ	Cymbopogon parkeri
الضَعَةْ	Lasiurus hirsutus

٨ ـ مجموعة النباتات السامة :

ميز العرب بعض النباتات السامة وصنفوها مثل :

العُشار	Calotropis procera
الحنظل	Colynithus vulgeria
الحرْمل	Peganum harmala
الدامْيه	Daemia cordata

* * *

ولقد كرم الغربيون بعض علمائنا العرب عندما أطلقوا أسمائهم على بعض الأجناس اعترافاً بعلمهم وفضلهم كما في جنس Avicennia نسبة إلى ابن سينا ، ويوجد أحد أنواع هذا الجنس وهو النوع Avicennia marina يوجد منتشراً في السبخات الساحلية بقطرِ شمال مدينة الخور وجنوب أم سعيد واسمه المحلى (الجِرْم) ، .وأيضاً جنس .

Rhazya نسبة إلى أبي بكر الرازي ، وينتشر هذا الجنس بوفرة في صحراء السعودية .

* * *

وفي نهاية حديثنا نود أن نستخلص أن علماءنا العرب قد أسهموا في نمو علم التصنيف عامة حينما استطاعوا ـ كما بينا ـ تمييز النباتات وتسميتها وتجميعها . ويؤكد هذا على أمرين ، الأول أن العرب قد أوتوا عقلاً

تصنيفياً ، والأمر الثاني أن عقلهم التصنيفي قد اتسع ليمارس علم التصنيف العقلي .

وفي النهاية لعلنا نكون بهذا المجمل قد استطعنا التأكيد مرة أخرى على دور العرب في تاريخ فرع من فروع علم النبات وهو علم التصنيف .

خامساً : نشأة علم الحيوان :

مس المسلمون في دراساتهم لعلم الحيوان كثيراً من الجانب ولكنهم لم يتعمقوها ، فدرسوا الشكل والتشريح والخلية والأجنة ، والبيئة ، وسلوك الحيوان والفقريات ، والطيور والحشرات ؛ وكان دافعهم في ذلك التعاليم الاسلامية ، فقد ورد في كتاب الله في سورة الأنعام الآية ٣٨ ، ﴿ وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه ، إلا أمم أمثالكم ﴾ وقال تعالى في سورة النور ، الآية ٤٥ ، ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجليه ، ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير .. ﴾ .

سادساً : من أقطاب علماء العرب والمسلمون في مجال الزراعة والنبات والحيوان :

١ ـ ابن العوام من علماء الزراعة في الأندلس :

إن معظم علماء النبات والزراعة المسلمين قد نبغوا في الأندلس ، وكان لهم دور حضاري كبيري في نقل الزراعة إلى البلاد الأوروبية .

ومن هؤلاء الرواد ابن العوام وهو أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام الأشبيلي ، ولكننا لا نعرف سوى القليل عن حياته ونشأته ، بل لا نعرف متى عاش بالضبط ، وكل ما نعرفه أنه عاش في اشبيلية في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، في ذلك العصر الذي مالت فيه شمس الأندلس إلى

الغروب ، بعد أن بلغت ذروة التقدم الفكري والحضاري وكانت الفنون الزراعية تزدهر بنوع خاص في هذه المنطقة ، منطقة الوادي الكبير ، ودرس ابن العوام الفنون الزراعية ووضع كتابه (الفلاحة) .

وابن العوام يقدم الينا في مؤلفه « كتاب الفلاحة » عرضاً مستفيضاً للفنون الزراعية مشتقاً من عيون الكتب المتقدمة ، وهو يعتبر الزراعة فناً ، ويقول لنا أن من يريد أن يتخذ هذا الفن صنعة يصل بها إلى معاشه ، ويستعين بها على قوته وقوت عياله وأهله ، فإنه يجد في كتابه حاجته .

ومعنى فلاحة الأرض عند ابن العوام هو اصلاحها ، وغراسة الأشجار فيها وتركيب ما يصلحه التركيب منها ، وزراعة الحبوب المعتاد زراعتها فيها ، واصلاح ذلك وامداده بما ينفعه ويجود ، وعلاج ذلك بما يدفع الآفات عنه ، ومعرفة جيد الأرض ووسطها والرديء منها ، ومعرفة ما يصلح أن يزرع أو يغرس من الشجر والحبوب والخضروات ، واختيار النوع الجيد من ذلك ، ومعرفة الموعد المناسب لزراعة كل صنف فيها ، وكيف يتعهده بالعناية والرعاية .

ويقسم ابن العوام مؤلفه إلى قسمين كبيرين ، يشتملان على خمسة وثلاثين باباً ، ويتناول الباب الأول معرفة اختيار الأراضي والأسمدة والمياه ، وصفة العمل ، في الغراسة والتركيب ، وما يتصل بذلك . والثاني يتضمن الزراعة وما إليها ، وفلاحة الحيوان ، أو ما يتعلق بتربية الماشية وعلاجها .

وينطوي تحت القسم الأول ، عدد من المسائل الزراعية العامة مثل دراسة تربة الأرض ، والوقوف على معدنها ، واختيار ما يصلح أن يزرع في كل نوع منها ، مع شرح للأسمدة وطرق تجهيزها ، وبيان منافعها للأرض والشجر ، وسقي الأشجار والخضر ، ثم انشاء البساتين ، واختيار الأشجار وأنواع الثمار وأوقات غرسها ، وتطعيم الأشجار وتلقيحها ، ثم علاجها من

الأفات ، واختزان الحبوب والفواكه الغضة واليابسة وغير ذلك من أمور زراعية .

ويتناول القسم الثاني من مؤلف ابن العوام تربية الماشية وعلاجها ودراسة صفاتها التشريحية ، ومعالجة كل عضو من أعضائها ، وكل مرض من أمراضها ويخصص خلال هذه الدراسة فصلاً عن الخيل وصفاتها وكيفية تربيتها ، وكيفية ركوبها ، بسلاح أو بغير ؛ ثم يتحدث بعد ذلك عن الدواجن وتربيتها والعناية بها ، ثم عن النحل والمناحل والخلايا ويبدي في ذلك كله كثيراً من الاستيعاب والدقة والوضوح .

وقد نشر هذا الكتاب أخيراً في عام ١٨٠٢ م بمدينة مدريد نقلاً عن نسخته المخطوطة أو المحفوظة بمكتبة الاسكوريال . وكان ابن العوام شأنه شأن علماء المسلمين يعتمدون في علمهم على التعاليم الاسلامية والتي من أهمها القرآن والسنة النبوية ، فقد ذكر في كتابه بعض الأحاديث النبوية الشريعة مثل :

« اطلبوا الرزق في حنايا الأرض » ، « من غرس غرساً أو زرع زرعاً فأكل منه انسان أو طائر أو سبع كان له صدقة » ، « من غرس غرساً فأثمر ، اعطاه الله من الاجر بقدر ما يخرج من الثمر » .

٢ ـ ابن البيطار والنبات :

هو ضياء الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد الأندلسي ولد في مدينة مالقة سنة ٥٧٥ هـ ، وسكن اشبيلية وتوفي في دمشق عام ٦٤٦ هـ .

ويعتبر ابن البيطار أعظم نباتي ظهر في القرون الوسطى ، وقد قام برحلات متعددة إلى مختلف بقاع العالم درس خلالها النبات ، ودون ملاحظاته التي جعلت لهذا العلم قيمة كبرى ، ودفعت به في طريق التطور .

وكتابه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) يعد ثروة كبيرة في تراثنا العلمي .

وقد اعتمد في كتابه على المشاهدة والنظر والتجربة والاختبار مخالفا طريق الخبر ، ونبذ ما ثبت فساده ، وعدم صلاحيته ، كما فحص الأدوية التي سبق وقوع وهم أو غلط فيها .

رتب كتابه على حروف المعجم ليسهل تناوله ، وقد امتاز في كتابه ايضاً بسرد اسماء الأدوية بسائر اللغات المختلفة بالاضافة إلى منابت الدواء ومنافعه ، وكان يقيد الأسماء تقييداً صحيحاً ، ويتثبت منه ، ويضيف إليه النقط والشكل والتعليق ، حتى يسلم من التصحيف والتحريف ، وهكذا يضرب ابن البيطار مثلاً أعلى للعالم العربي المدقق ، الناقد ، الذي يعتمد على البحث والتجريب والمشاهدة ، مما جعله في مقدمة علماء المشرق والمغرب .

٣ ـ ومن علماء العرب والمسلمين في مجال النبات كذلك :

ابن سينا ، الذي وصف كثيراً من النباتات ، وخاصة الطبية ، في كتابه القانون ، كما كتب فصلاً ممتعاً عن حياة النبات في كتاب الشفاء ، وكتب أبو بكر محمد الرازي رسالتين عن النباتات العطرية والفاكهة ، كما وصف ابن البيطار نحو ألف وأربعمائة من النباتات ، ومنهم الدينوري ، والإدريسي ، والبغدادي ، والقزويني ، والغافقي وغيرهم من أطباء العرب ، وكانوا يعرفون بالعشابين ، لأنهم يعرفون خصائصها الطبية ، فكان النباتي هو الطبيب ، والطبيب هو النباتي ، كذلك من الرحالة العرب ، ابن بطوطة ، ممن دون مشاهداتهم في بقاع مختلفة من الأرض ، وسجلوا في مذكراتهم وصف كثير من النباتات ، ولا ننسى البيروني الذي كان بجانب تفوقه في علوم الفلك والجغرافيا والرياضيات ، والتاريخ كان متفوقاً كذلك في علوم النبات والوراثة ، حيث اشتغل في أول حياته صبيا لأحد علماء النبات وقد ساعده ذلك على دراسة الأعشاب الطبية فألف كتابه العظيم المعروف باسم

(الصيدلة) فيه استقصى معرفة تراكيب الأدوية ومعرفة أسمائها واختلاف آراء المتقدمين فيها ، وقد رتبه على حروف المعجم ، وما يزال هذا الكتاب حتى يومنا هذا مرجعاً في علم طب الأعشاب والمسمى بالطب الاسلامي في بلاد الهند .

وبفضل دقته وقوة ملاحظته اكتشف البيروني أثناء عمله في النباتات أن في الطبيعة أزهار بعضها ذو بتلات ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ١٨ ولكن ليس فيها ما له سبع أو تسع بتلات فسجل ذلك في كتبه ، وكان هذا الكشف أول خيط في نظرية الوراثة في الأزهار التي أعلنها مندل بعده بعدة قرون .

٤ - الجاحظ والحيوان ١٥٩ - ٢٥٥ هـ .

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني نسبة إلى بني كنانة العرب الفصحاء ، ومهما كانت عروبة الجاحظ أو عدم عروبته ، فإن الجاحظ نشأ نشأة علمية من لقاء العلماء ومناقشتهم والارتحال من أجل تحصيل العلم واتصل بعظماء الدولة في بغداد وسر من رأى ، وكان من مدرسة المعتزلة التي تعتمد في أبحاثها على البرهان العقلي والحجة والمنطق .

وكتاب الحيوان أهل علينا في مقدمته أغراض تأليفه له ومن ذلك :

أ - الاستدلال على عظمة الحق سبحانه من مخلوقاته .

ب - اشاعة جوانب المعرفة بين الناس .

جـ - الانتصار للمعتزلة الذين تناولوا الحيوان بالكلام ونظموا فيه بعض القصائد .

د - الانتصار للأرومة العربية - حين استثارتها الشعوبية - وذلك بتقبيح بعض الحيوانات واستقزازها ، ورمي العرب بها كالضب .

وكان منهج الجاحظ في التأليف المنهج الاستقرائي ، وهو المنهج الذي

يتم بدراسة الظواهر المختلفة ، ويسير الباحث في هذا المنهج على درب من الخطوات التي تعتمد الملاحظة والتجربة والفرض والقانون .

وقد حدد الجاحظ في صدر كتابه وسائل منهجه في الموضوعات التالية : السماع ، التجربة ، الكتاب والسنة ، الغريزة ، المعاينة ، العقل ، الشك .

ومن مصادر الكتاب : الكتاب والسنة وديوان العرب والكتب الأجنبية ، وأبحاث المتكلمين والنقد العلمي .

٥ ـ القزويني والحيوان والنبات ٦٠٠ ـ ٦٨٢ هـ .

هو أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمود القزويني ولد في قزوين قبل سقوط بغداد بأيدي التتار بنحو خمس وخمسين سنة وهو عربي الأرومة ويرجع نسبة إلى الامام مالك (رض) . واستقر في العراق وشغل منصب القضاء في مدينتي واسط والحلة وكتابه :

« عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات وآثار البلاد ، وأخبار العباد » .

يعد دائرة معارف وكما يفهم من العنوان ، وصف فيه عجائب مخلوقات الله ، وغرائب الكائنات ، وقد قسم إلى قسمين أساسين : قسم يتناول الكائنات العلوية ، من فلك وهيئة ، وفيه عرض للشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وحركاتها ، وقسم تناول فيه الكائنات السفلية من طبيعة ومناخ وبحار وجزر وحيوانات وحجار ومعادن ونبات وقد رتب كل ذلك بحسب حروف المعجم وطبع وترجم اكثر من مرة ، وكتابته ممزوجة بالقرآن والحديث والبعد عن الوهم والخيال .

المراجع

من أهم المراجع بعد كتاب الله وسنة نبيه ﷺ :

١ ـ البيروني / محمد جمال الفندي ، إمام إبراهيم ، سلسلة اعلام العرب .

٢ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي / أبو زيد شلبي ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٦٤م .

٣ ـ تطور الفكر العلمي عند المسلمين / محمد الصادق عفيفي ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٧٧م

٤ ـ الحضارة الاسلامية في الأندلس : أسسها ، ميادينها ، تأثيرها على الحضارة الأوروبية / عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت : دار الارشاد ، ١٩٦٩م .

٥ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري / تأليف آدم متز ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة .

٦ ـ دور العرب في نمو علم النبات : ١ ـ العقل العربي التصنيفي .. وعلم التصنيف العقلي / اعداد عبد السلام النويهي . التربية (قطر) ، العدد ٦٠ ، اغسطس ١٩٨٣ ص ٩٤ ـ ٩٩ .

٧ ـ العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي / تأليف الدوميلي ، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى ، القاهرة : دار القلم ، ١٩٦٢ م .

٨ ـ فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية / عز الدين فراج ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٨م .

٩ ـ A History of the sciences / By Stephen F. Mason., New York: 1973.

٢ ـ الصناعة

تقدمت الصناعات لدى العرب المسلمين إلى درجة كبيرة وأصبحنا نجد أنواعاً من الصناعات وحرفاً متعددة ، والأكثر من هذا وجدنا تنظيم حرفي ونقابات للعمال والحرفيين مما يدل على نهضتهم العالية في هذه المجالات الاقتصادية :

١ ـ أنواع الصناعات :

أحسن المسلمون الاستفادة من ثرواتهم المعدنية ، والطبيعية المختلفة ، وأتقنوا الكثير من الصناعات واشتهروا بها ، ومن ذلك :

١ ـ الحديد : ويوجد في كرمان ، وكابل ، وفارس ، وإفريقية ، وكانت الوطن الأول[1] ، وصقلية ، وفرغانة التي برع أهلها في صناعته وتفتقت لهم الخواطر بغرائب اتخذوها منه ، وكانت فارس أكبر إقليم لاستخراج الحديد وصناعته .

٢ ـ النحاس الأصفر : وكان معدنه في أصفهان وبخاري ، ونحاس بخاري كان يستعمل في طلاء أعلى المنائر .

٣ ـ الذهب والفضة : كانت أجزاء المملكة الإسلامية يكمل بعضها بعضاً من هذين المعدنين النفيسين على نحو جميل ، فكان المشرق يهيء الفضة والمغرب يأتي بالذهب ، وكانت معادن التبر[2] في شرقي النيل بين أسوان وعيذاب ، وكان أكبر معدنين للذهب في العلاقي على مسيرة خمسة

---

(١) وبخاصة المنطقة التي تعرف الآن باسم « بنلوف » فيها أغنى مناجم الحديد في العالم كما أفصحت عن ذلك الصحف حينما وقع الاشتباك بين المغرب والجزائر .

(٢) التبر بالكسر الذهب والفضة أو فتاتهما قبل أن يصاغا .. القاموس .

عشر مرحلة من أسوان[١] ، وكان المعدن الثاني في السودان ، وأكبر معدن للفضة كان في الشرق بمدينة بنجهير[٢] في بلاد هند كوش[٣] .

٤ ـ السكر : كانت صناعته قائمة في خوزستان ، وإقليم البصرة ، والأندلس ، وكان أكبر مركز لصناعته إقليم خوزستان ، وخصوصاً مدينة جنديسابور ، حتى قيل إن عامة سكر خراسان منها ، كما أن إقليم البصرة أشهر مكان لصناعته في العراق[٤] .

٥ ـ الحرير : كان يوجد في خوزستان ، وطبرستان ، وكانت أنواع الحرير من ديباج وخز تصنع في إقليم خوزستان التي كان بها أكبر مصانع لنسج الحرير ، أما صناعة الإبريسم فكانت متركزة بمدينة مرو « من إقليم طبرستان » ، ومنها كانت تصدر إلى جميع الإفاق .

٦ ـ القطن : كان يزرع في فارس ، وفيما بين النهرين ، وكرمان .

وكانت المراكز الكبرى لصناعة القطن في مرو ، ونيسابور ؛ (شرقي فارس) ؛ « ويم » (شرقي كرمان) .

وكانت كابل تصدر ثياباً من القطن مشهورة بحسنها إلى الصين ، وخراسان ، وكان يصنع في مرو القطن الذي يبلغ الغاية في اللين كما عرفت

---

(١) كانوا يتجولون في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر ، ويعلمون على المواضع التي يرون فيها شيئاً مضيئاً ؛ فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمال التي عليها . ومضوا بها إلى آبار هناك ، فغسلوها بالماء ، واستخرجوا التبر ـ الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز ج ٢ ص ٣١٤ .

(٢) كانوا يتبعون عروقاً يجدونها تدلهم على الجوهر ، وكان جبل المدينة وسوقها كالغربال من كثرة الحفر ـ المصدر السابق ص ٣١٦ .

(٣) قال ياقوت في معجمه : بنجهير مدينة بنواحي بلخ بها جبل الفضة ، وهو يشرف على المدينة .

(٤) الحضارة الاسلامية للاستاذ آدم متز ج ٢ ص ٣٠٥ .

« بم » بالثياب القطنية الفاخرة ، وكان من طرائف ما يصنع بها الطيالسة .

٧ ـ الكتان : الكتان هو النسيج الذي اختصت به مصر ، وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته ، وكان يصدر إلى كثير من النواحي ، وربما وصل إلى فارس ، وكانت الأجساد المحنطة تلف دائماً بنسيج من الكتان .

وكان المركزان الكبيران لصناعة نسيج الكتان هما : الفيوم ، وبحيرة تنيس بنواحيها ، وهي : مدينة تنيس ، ودمياط ، وشطا ، ودبيق ، التي كانت أكبر المدن التي تصنع النسيج ، وإليها كان ينسب أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقي .

ونبغ أهل تنيس في صناعة ثياب فخمة تسمى البدنة ، وكانت تصنع للخليفة ولا يدخل فيها من الغزل ـ سدى ولحمة ـ غير أوقيتين ، وباقيها بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة ، وتبلغ قيمة الثوب ألف دينار ، كما كانت تصدر للعراق وحدها من الأقمشة ما قيمته عشرين أو ثلاثين ألفاً ، وكان يصنع بالفيوم الستور الثمينة التي يبلغ طول الستر منها ٣٠ ذراعاً ، أو أكثر ، وقيمة الزوج منها ٣٠٠ دينار .

وكان في الاسكندرية نوع من ثياب الكتان يسمى الشرب يباع كل وزن درهم منه بدرهم من الفضة .

وبالجملة قد ارتقت صناعة النسيج ، حتى أمكن صنع بعض الأقمشة الصوفية أيضاً ، فكانت تصنع بمدينة طحا بشمالي الصعيد ثياب الصوف الرفيعة .

٨ ـ العطور : قامت صناعة العطور بفارس والعراق ، وقد ازدهرت بأقليم سابور من أعمال فارس ، وصار هذا الإقليم يشبه الريفييرا الفرنسية وكانت الزيوت العطرة تتخذ في ذلك الوقت من البنفسج ، والنيلوفر ،

والنرجس ، والكاردة ، والسوسن ، والزنبق ، والمرسين ، والمرزنجوش والبادرنك والنارنج .

كذلك اشتهرت مدينة « جور » في جنوب فارس بصناعة العطور ، ولكن كانت تتخذها من زهور غير الزهور المتقدمة مثل الورد ، والطلع ، والقيسوم ، والزعفران ، والخلاف ، وكان ماء الورد ينقل من « جور » إلى سائر البلدان ؛ فكان يحمل إلى الغرب ، والأندلس ، ومصر ، واليمن ، والهند ، والصين .

وإستحدثت الكوفة دهان الخيري ، وكانت تفوق سابور في الخيري والبنفسج .

٩ - معقدات الفاكهة (المربى) : كان لأهل اليمن افتنان في صناعة معقدات الفاكهة من إترج ، وجزر ، وقرع ، وخوخ ، ونحوها ، مما إذا شرع الجاهل في أكله قضم بعض أنامله ، كما كان لهم الشهد الجامد الذي يقطع السكاكين ، وكان يهدي إلى العراق ، ومكة ، وغيرهما ، ولهم في عمله طريقة خاصة .

١٠ - الورق : حدث انقلاب عظيم في صناعة الورق في القرنين الثالث والرابع الهجري ، وعطلت كواغيد سمرقند قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها ؛ لأنها أحسن وأنعم وأوفق .

وأول من أشار بصنعه الفضل بن يحيى حينما طما بحر التأليف والتدوين ، وكثر ترسيل السلطان ، وصكوكه ، وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت[1] .

وقد نقلت صناعة الكاغد عن الصين ، وهو أجود أنواع الورق في ذلك العهد ، وقد ناله على أيدي المسلمين تغيير هام يعتبر حادثاً في تاريخ العالم ؛ فإن المسلمين نقوه مما كان يستعمل في صناعته من ورق التوب ، ومن الغاب الهندي .

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٩٦٢ .

وكان في القرن الثالث الهجري يصنع ببلاد ما وراء النهر فقط ، أما في القرن الرابع ، فقد انتشرت صناعته ، وصارت له مصانع في دمشق ، وطبرية ، وطرابلس الشام ، ولكن سمرقند ظلت أكبر مركز لصناعته .

١١ ـ الآلات الرياضية :

إشتهرت مدينة حران[١] ـ لمركزها الديني باعتبارها آخر مأوى لعبادة الكواكب ـ بصنع آلات القياس مثل الاسطرلابات ، وغيرها من الآلات الرياضية الدقيقة ، وكانت موازين حران مضرب الأمثال في الدقة .

١٢ ـ تجفيف السمك :

كان يصاد من بحيرة « وان » (شمالي فارس) سمك صغير يعرف بالطريخ يملح . ويحمل إلى الجزيرة ، والموصل ، وحلب ، وبلخ ، وسائر الثغور .

أما في المغرب ، فكان يقوم مقامه السمك المسمى بالبن ويصاد من شواطىء الأندلس ، وأفريقية ، خصوصاً سبته .

١٣ ـ طحن الحبوب :

كانت الحبوب تطحن في مطاحن مائية ، أو هوائية ، وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة في تكريت ، والحديثة ، وعكبرا ، والبردان ، وبغداد ، والموصل ، وكانت تصنع من الخشب والحديد ، وتسمى عربة ، وبكل عربة حجران أو أكثر يطحن كل حجر منها خمسين وقراً في كل يوم ، وكانت رحى البطريق في بغداد أكبر رحى ؛ فقد كانت مائة حجر تغل في كل سنة مائة ألف ألف درهم .

---

(١) حران قصبة ديار مضر وهي مدينة عظيمة على طريق الموصل قريبة من الرها والرقة . وكانت منازل الصابئة . معجم البلدان لياقوت .

والأرحاء الهوائية كانت تسير بالهواء ، ولها ثمانية أجنحة ، وتكون بين عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسهم ، والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودي أيضاً طرفه الأسفل يحرك حجراً ، فيدور هذا الحجر على حجر آخر ، وكان من الممكن تنظيم سرعتها بواسطة منافس تغلق ، وتفتح حسب الحاجة .

١٤ ـ الأخشاب :

كانت الأخشاب كثيرة ، وصناعاتها متنوعة ؛ في خراسان خشب العرعر ، وهو نوع جيد من الأخشاب إستعمله أغنياء المسلمين في بناء بيوتهم في صدر الإسلام ، وخشب الساج الهندي وهو أحسن ما يستعمل في بناء البيوت في المشرق كله ، وكانت تصنع منه أدوات البيوت للسادة والكبراء .

وكانت أثاثات المنازل تصنع من خشب الخلنج ، وهو خشب أبيض مائل إلى الحمرة ، وكانت مدينة « قم » (بين أصبهان وسادة) تصدر الكراسي الجيدة .

١٥ ـ البسط والسجاجيد :

كان جمال المسكن في الماضي يتلخص في أن تكون حيطانه معلقاً عليها الستور الجميلة ، وأن تكون أرضه مفروشة بالبسط .

ولهذا كانت صناعة البسط والسجاجيد منتشرة في جميع البلاد .

واشتهرت فارس ، وبخاري ، وأرمينية بالفرش الصوفية ، وكانت البسط الأرمينية مقدمة على غيرها ، ومنها انتقلت إلى ازمير التي اشتهرت بصنع البسط فيما بعد .

وقد قال ماركو بولو : إن الفرش الأرمينية أجمل الفرش وأحسنها صناعة .

وكانت تصنع في أسيوط ـ بصعيد مصر ـ فرش قرمزية تشبه الأرميني .

٢ ـ دراسة مفصلة لصناعتي الورق والسكر :

١ ـ صناعة الورق :

كان اختراع الورق وإستعماله في الأغراض الأدبية من أهم وأسعد الأحداث ولا شك في تاريخ الحضارة ، ذلك أنه نشر العلم والمعرفة بطريقة لم تكن ميسرة من قبل ، فذاعت المعارف في كل مكان وبأرخص الأسعار ، فأصبحت في متناول الجميع . والحق أن الاختراع ليس عربياً ، وإنما تحسينه التحسين اللائق . وإستعماله في الأغراض الأدبية ، ونشره على نطاق عالمي ، مأثرة عظيمة من مآثر العرب . ذلك أنه بالرغم من أن نوعاً من الورق كان معروفاً في الصين ، فإننا لا نجد أثراً أيا كان لاستعمال الورق في الأغراض الأدبية قبل العرب . ولا نعرف فعلاً ما إذا كان هذا النوع من الورق الصيني صالحاً لهذا الغرض أم لا ؟ . وإذا كان صالحاً ، فلماذا لا توجد كتب صينية مكتوبة عليه ؟ ولماذا لم يتخذه العرب وكانوا يتاجرون مع الشرق منذ قرون موغلة في القدم مادة لتجارة رابحة مع العالم المتحضر ؟ ويلوح بأن الورق الصيني لم يكن جيداً على الاطلاق ، فقد كانوا يصنعونه من الحشيش والكلأ كما يقول القلقشندي في كتابه صبح الأعشي .

على أية حال ، نحن لا نملك إلا الاعتراف بأن أصل هذه الصناعة صيني ، ويقال أنه استعمل في الصين منذ سنة ١٠٥ م . غير أن تحسين نوعه والبلوغ به نحو الكمال وإدخاله عالم الحضارة واستعماله بطريقة شائعة في جميع مناطق الحضارة الإسلامية واللاتينية ، عمل عربي ومأثرة عربية من المآثر التي يجب أن تفخر بها الحضارة الإسلامية . فقد بدّل المسلمون الطرق البدائية التي استحدثها الصينيون وأحلوا محلها طرقاً جديدة ، فاخترعوا الورق المصنوع من الخرق ، وهو نوع من الورق تحتاج صناعته إلى مهارة حرفية بالغة .

استولى المسلمون على سمرقند في سنة ٧١٢ م ، وفي سنة ٧٥٠ م حاول الصينيون تحرير أنفسهم ، ولكن استطاع الحاكم العربي كبح الثورة ، ويقال إنه في أثناء تعقبهم أسر العرب بعض الصينيين الذين كانوا يعرفون طريقة صناعة الورق ، والذين أفضوا بها إلى العرب . وفي سنة ٧٩٤ م أسس الفضل ابن يحيى في عصر الرشيد أول صناعة للورق في بغداد ، ومن ثم انتشرت الصناعة بسرعة فائقة في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، فدخلت سوريا ومصر وشمالي إفريقية وإسبانيا . وكان الناس يكتبون حتى ذلك الحين في العُسُب واللِّخاف والرّق إلى أن ولي الرشيد الخلافة وكثر الورق وفشا عمله بين الناس ، فأمر الرشيد ألا يكتب الناس إلا في الكاغَدْ (الورق) كما يقول القلقشندي . وتحسنت الصناعة تحسناً ملموساً بسرعة كبيرة وأنتجت المصانع الإسلامية نوعاً ممتازاً من الورق . وهذا أمر أدى إلى تسهيل إنتاج الكتب بطريقة خيالية عما كان عليه الأمر في أي وقت مضى . ففي أقل من قرن من الزمان ، إنتشرت مئات الآلاف من نسخ الكتب العلمية والفنية والأدبية في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، من قرطبة في الأندلس إلى سمرقند في الصين . أي سحر هذا وأي تقدم مقيساً بما سبق من عصور ، مهد لانتشار الحضارة على أوسع المستويات . ويكفي هنا أن نتأمل قليلاً مقولة جوستاف لوبون[1] المعبرة : « ظل الأوروبيون في القرون الوسطى زمناً طويلاً لا يكتبون إلا على رقوق (من جلد الحيوان) ، وكان ثمنها المرتفع عائقاً كبيراً وقف أمام إنتشار المؤلفات المكتوبة ، وسرعان ما أصبحت هذه الرقوق نادرة الوجود ، حتى لقد اعتاد الرهبان على حك مؤلفات عظماء اليونان والرومان ليستبدلوا بها مواعظهم الدينية ، ولولا العرب لضاعت معظم المؤلفات الفريدة للأعصر القديمة ، تلك المؤلفات التي ادعى الرهبان لنا أنهم حفظوها بعناية داخل الأديرة » .

وإن نظرة إلى هذه المأساة ، ثم نظرة إلى فضل العرب في هذا الميدان

(١) G. Le Bon: La Civilisation des Arabes p. 518

لكافية . يقول ول ديورانت[1] : « وكان إدخال هذا الاختراع سبباً في إنتشار الكتب في كل مكان ، ويدلنا اليعقوبي أنه كان في زمانه (٨٩١ م). أكثر من مائة بائع للكتب (وراق) في بغداد ، وأن محلاتهم كانت مراكز للنسخ وللخطاطين والمنتديات الأدبية ، وكان كثير من طلاب العلم يكسبون عيشهم عن طريق نسخ المخطوطات وبيعها للوراقين (تجار الورق) . والحق بأغلب الجوامع مكتبات عامة ، وكان يوجد في بعض المدن مكتبات تضم كتباً قيمة ، يباح الاطلاع عليها للجميع . وحوالي سنة ٩٥٠ م . أسس بعض محبي الخير مكتبة في الموصل ، كان الطلبة يتزودون فيها بالورق والكتب . وكانت الكتب التي توجد في مكتبة الرّي العمومية مسجلة في عشرة أجزاء من الفهارس . أما مكتبة البصرة فكانت تمنح معاشات شهرية للعلماء المشتغلين فيها . وقضى ياقوت الجغرافي ثلاث سنوات في مكتبتي مَرْو وخُوارزم يجمع معلومات لقاموسه الجغرافي . ولما قوض المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة . أما المكتبات الخاصة فكانت لا تحصى . ولقد رفض أحد الأطباء دعوة سلطان بخاري للإقامة ببلاطه . لأنه يحتاج إلى اربعمائة بعير لنقل مكتبته . وربما ملك الصاحبُ بن عُبّاد في القرن العاشر كمية من الكتب تقدر بما كان في مكتبات أوروبا مجتمعة . وبلغ الإسلام في ذلك الوقت أوج حياته الثقافية ، وكنت تجد في ألف مسجد منتشرة من قرطبة إلى سمرقند ، علماء لا يحصيهم العد ، دوت أركانها بفصاحتهم ».

فضل على الحضارة وأي فضل . كتب في كل مكان ، وبعشرات الآلاف ، وعلم وأدب وفن وفلسفة أصبحت لأول مرة في تاريخ الحضارة في متناول الجميع وعلى نطاق دوليّ .

كان ظهور نوع من الورق الرخيص الجيد تجديداً ولا شك لعصر جديد في تاريخ الحضارة . إنتشر التعليم إنتشاراً واسعاً ، وكثر طلاب الكتب تبعاً

(1) W. Durant: The Story of Civilization Vol IV. p. 253

لذلك ، وتحسنت بطبيعة الحال صناعة الورق تبعاً لرواج تجارته . وربما كانت بغداد أول مدينة في التاريخ تأسس فيها ست وثلاثون مكتبة عامة .

كتبت أقدم مخطوطات على ورق بالعربية في القرن التاسع . وربما يكون كتاب « غريب الحديث » المنسوخ في سنة ٨٦٦ م . أحد أقدم هذه الكتب ، وهو الآن محفوظ بمكتبة ليدن . وأما أول وثائق أوروبية مكتوبة على ورق (مستورد بطبيعة الحال من الشرق الإسلامي) فعقد للملك روجر الصقلي في سنة ١١٠٢ م . وأمر كتبه زوجته باليونانية والعربية معاً في سنة ١١٠٩ م .

كانت أوروبا قبل أن يؤسس العرب مصانع الورق في إسبانيا تستورد ما يلزمها منه من الشرق العربي . على أن العرب أدخلوا في منتصف القرن الثاني عشر صناعته إلى إسبانيا حيث كانت المراكز الأولى لصناعته في بلنسية وشاطبة وطُلَيطلة . ويخبرنا القلقشندي[1] صاحب صبح الأعشى عن حالة الورق في عصره يقول : « وأحسن الورق ما كان ناصع البياض غرفاً صقيلاً متناسب الأطراف صبوراً على الزمان . وأعلى أجناس الورق فيما رأينا : البغدادي ، وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء ، وقطعه وافر جداً . ودونه الشامي ، ودونهما المصري . ودون ذلك ورق أهل الغرب ، والفرنجة ، فهو رديء جداً سريع البلى ، قليل المكث . » .

وجاء في الموسوعة البريطانية[2] في طبعتها الحادية عشرة : « لما سقطت دولة العرب في إسبانيا وانتقلت صناعة الورق من أيديهم إلى النصارى الأقل كفاءة منهم ، انحطت الصناعة وانحط الصنف . وليس من شك في أن صناعة الورق دخلت إيطاليا فتأسست بفبريانو سنة ١٢٧٦ ، وبدأت تصبح صناعة ذات شأن بعد انحطاط صناعة الورق في إسبانيا . وفي سنة ١٣٤٠ م

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى جزء ٢ ص ٤٧٥ .
(٢) الموسوعة البريطانية ، الطبعة الحادية عشرة مادة Paper .

تأسس مصنع آخر في بادوا . وبعد ذلك بقليل قامت صناعات أخرى في تريفير وتبعتها فلورنسا وبولونيا وبارما وميلانو والبندقية . وكانت هذه المصانع تزود ألمانيا بالورق حتى نهاية القرن الرابع عشر . أما أول صناعة للورق أنشئت في ألمانيا فكانت في سنة ١٣٢٠ بمايتز ، وفي سنة ١٣٩٠ أسس أولمان سترومر بنورمبرج مصنعاً للورق بمساعدة الإيطاليين .

ويقال بأن ألمانيا وهولندا وإنجلترا ، كانت تستورد ما تحتاج إليه من ورق في بادىء الأمر من فرنسا وبرجندي عن طريق أسواق بروج وأنتورب وكولونيا . وتدين فرنسا بأول مصانع للورق أنشئت فيها لإسبانيا (العربية طبعاً) التي ذكرنا آنفاً أنها كانت أول دولة أدخلت إليها هذه الصناعة في أوروبا . وفي منتصف القرن الرابع عشر أصبح استعمال الورق للأغراض الأدبية قائماً على أسس ثابتة في أوروبا الغربية . وفي خلال القرن الخامس عشر حل الورق محل رقوق الكتابة شيئاً فشيئاً . وليس من المستغرب أن نجد في هذا العصر الأخير مؤلفات كتبت على خليط من ورق ورقوق . أما فيما يتعلق بتاريخ صنعة الورق في إنجلترا ، فإن ما لدينا من معلومات قليل جداً ، وعلى أية حال فإن أول صانع للورق نعرف إسمه هو جون تات . ويقال بأنه أنشأ مصنعاً للورق في هرتفورد في أوائل القرن السادس عشر . كما أنشأ السير جون سبلمان جوهري الملكة اليزابث مصنعاً للورق في دارتفورد سنة ١٥٨٩ . ولكننا لا نملك التسليم بأن صناعة الورق لم تنشأ في إنجلترا قبل هذا العصر . ذلك بأن الأسعار التي كان يباع بها الورق في المدن الداخلية كانت رخيصة نسبياً مما يجعلنا نفترض أنه كان هناك صناعة وطنية لهذه السلعة قبل ذلك الزمن » .

هذه قصة صناعة الورق وانتشاره وتعميمه . وهي قبل كل شيء مبادرة ومأثرة عربية . وما على هؤلاء الذين يريدون انتقاص شأن حضارة الإسلام إلا أن يفكروا لحظة واحدة في آثار ونتائج هذه المأثرة الواحدة .

٢ - تكرير السكر :

كان السكر الذي يعرف باسمه العربي في لغات العلم : Sugar في الإنجليزية ، Sucre في الفرنسية ، مأثرة أخرى من مآثر المسلمين على دنيا الحضارة . ومع أنه ليس اختراعاً عربياً ، إلا أن أياديهم البيضاء في تطوير صناعته ونشره لا يمكن أن تنكر . عرفت الهند منذ قديم الزمان السكر أو الملح الهندي كما كان يطلق عليه . وبالرغم من أن اليونان في عصر الإسكندر الأكبر عند غزوهم للهند عرفوه وأشاروا إليه وللنبات الذي ينتج منه بقولهم : « ضرب من القصب المدهش ينتج نوعاً من العسل بدون تدخل النحل » ، فإنهم لم يدخلوه إلى مناطق البحر المتوسط ، ولم يهتموا بنقله ، وظل مجهولاً لهذا الجزء من عالم الحضارة حتى مقدم العرب ، الذين جعلوا منه تجارة عالمية ونشروا زراعته في جميع أنحاء دنياهم .

ولنا أن نفترض فرضاً معقولاً ؛ هو أن نوع هذا السكر الذي كان يصنع في الهند لم يكن ليتحمل السفريات الطويلة الشاقة ، وإلا لما تواني العرب - وهم الذين كانوا يتاجرون مع الهند منذ أقدم الأزمان ويحملون لعالم البحر المتوسط منتجاتها ، حتى قبل عصر الإسكندر - عن نقله في جملة البضائع التي كانوا يتاجرون فيها ، ولكانوا جعلوا منه تجارة مربحة جداً . ولكن الأرجح أنه لم يكن يتحمل السفر .

نجح الفرس في حوالي سنة ٥٠٠ م في زراعة قصب السكر في سهول العراق الخصبة ، وأنشأوا معامل تكرير فعلاً في جُنديسابور ، ومما يجدر ذكره أن البيزنطيين الذين هزموا الفرس في سنة ٦٢٧ م ؛ وأخذوا منهم غنائم وأسلاب حرب ، ذكروا السكر من بين الغنائم الثمينة التي استولوا عليها من الملك الفارسي . هذا هو مفهوم الأوروبيين ، أو قل علمهم بالسكر عندما بدأ العرب ينشرون زراعته وصناعته .

ثم إن العرب لم يتوانوا عن نشر زراعة قصب السكر في جميع أنحاء

إمبراطوريتهم . فأسسوا معامل تكرير في سوريا وفلسطين وقبرص وجزر وبحر قزوين ومصر وشمالي إفريقية وصقلية وإسبانيا . كل هذا في حدود القرن الثامن الميلادي . غير أن مصر بزت جميع تلك المناطق ، وفيها تحققت أعظم التحسينات التي أدخلت على صناعة التكرير . وفي سنة ٧٥٠ كانت زراعة قصب السكر في مصر قد أصبحت من أنجح الأعمال في جميع أنحاء دلتا النيل . واخترع المصريون نوعاً من الحلوى أيضاً سُمّي « قندة » وهو الاسم الذي انتقل إلى اللغات الأوروبية بنطقه العربي ، ويعرف حتى الآن نوع من الحلوى في أوروبا ، وأمريكا على الأخص باسم Candy أي قندة . ومنذ ذلك العصر بدأت مصر تنتج قوالب السكر المتبلر الممتاز ، وأنواع القندة الممتازة أيضاً وتصدرها لأول مرة إلى مسافات بعيدة ، بحيث تتحمل مشاق السفر بالبحر والبر .

ولقد اعتمد استهلاك السكر في العالم الإسلامي وأوروبا مدة طويلة على صناعته في سوريا وقبرص ومصر وصقلية والأندلس . وكانت المناطق الأساسية لإنتاج السكر في العالم في ذلك الوقت كلها عربية بطبيعة الحال . وظل هذا الوضع قائماً حتى القرن السادس عشر ، عندما سيطر الأتراك على العالم العربي ، وراحوا يخربونه ، فتخربت هذه الصناعة مع غيرها من الصناعات والحرف الأخرى التي لم يقم لها قائمة بعد هذا العهد . وأما في صقلية والأندلس فقد بدأت صناعته في التخلف أيضاً عندما بدأ إنتاج السكر في العالم الجديد (أمريكا) .

وفي حوالي أوائل القرن الخامس عشر (١٤٢٠) نقل دون إنريك (١٣٩٤ - ١٤٦٠) الملقب بالملاح زراعة السكر من صقلية إلى ماديرا ، ومن ثم انتقلت إلى جزر الكنار في سنة ١٥٥٣ ، ونقل كرستوفر كولمبس القصب إلى أمريكا في رحلته الثانية في سنة ١٤٩٣ ، عندما أدخل زراعته إلى جزر الدومنكان . ثم انتشرت زراعته في خلال القرن التالي وبعد ذلك في جميع

أنحاء وسط وجنوبي أمريكا ، التي أصبحت أهم مناطق تموين أوروبا بالسكر .

هذه هي قصة مأثرة المسلمين العظمى في نشر زراعة السكر وصناعته ، الأمر الذي لم يفطن له اليونان ولم يهتموا به . فها نحن نراهم وقد تسلموا هذه الزراعة وهذه الصناعة من مجرد عمل إقليمي محدود بدائي ، فنشروا زراعة النبات بسرعة وهمة ونشاط بالغ كعادتهم المعروفة ، في جميع أنحاء العالم المعروف . وأسسوا معامل التكرير في كل مكان ، وحسنوا طرق صناعته ، حتى لقد أصبح نقل السكر لأول مرة ، وبمجهوداتهم وعلمهم ، ممكناً عبر الصحارى والبحار وإلى أبعد الأمكنة . وأصبح تجارة دولية رائجة .

غير أن أوروبا لم تعرف السكر قبل القرن العاشر ، وتقرر الوثائق التاريخية أن أول شحنة هامة من السكر وصلت إلى ميناء البندقية في سنة ٩٩٦ م . ولقد ظلت هذه التجارة محدودة في حدود ضيقة حتى الحرب الصليبية الأولى .

وكان الصليبيون الذين استحسنوا هذا السكر الصلب ـ ذلك أن معظمهم لم يعرف غير العسل ـ أهم العوامل على نشره في أوروبا . وأصبح السكر في حوالي منتصف القرن الثاني عشر في جنوبي فرنسا وإيطاليا مادة تجارية هامة . وكان قد دخل فعلاً ألمانيا في حوالي نفس الوقت ، وسجلت القصائد الشعرية الألمانية لهذا العصر النبأ السعيد . وأما البندقية فكانت قد باشرت فعلاً في حدود القرن الرابع عشر علاقات وثيقة مع هولندا وإنجلترا ، وكانت تصدر إليهما السكر المستورد من الشرق العربي .

ولم تؤسس أوروبا أول معامل تكريرها للسكر إلا في أواخر القرن السادس عشر في أوجسبرج في سنة ١٥٧٣ م ؛ وفي درسدن في سنة ١٥٩٧ م .

وأما أول مؤلف أوروبي وصف طريقة تكرير السكر فأنجليس سالا في

القرن السابع عشر ، في مبحثه في السكر ، ثم تبعه غيره في نفس العصر لا قبل ذلك . ولقد استقى هذا الكاتب معلوماته في غالب الظن من المؤلفات العربية ، ذلك أن طرق زراعة قصب السكر وطرق التكرير ، كانت شائعة ومشروحة بتوسع في عدد غفير من المؤلفات العربية ابتداء من القرن الثامن الميلادي .

٣ ـ أصحاب الحرف :

وقد مارس عدد كبير من الناس الحرف والمهن المختلفة التي احتاج إليها أهل المدن فنجد الوراقين والفصادين والحجامين والأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين والبياطرة والمنجمين ومؤدبي الصبيان والمؤذنين وأصحاب الحمامات . وهذه الحرف والمهن تحتاج إلى مهارة خاصة وحذق ، وفيها مهن علمية تتطلب المعرفة والموهبة كمهنة الأطباء والجراحين والكحالين (أي أطباء العيون) .

أما الوراقون فقد قصدوا الأمصار العظيمة طلباً للرزق لأنهم عاشوا كما يعيش أصحاب المطابع اليوم عن طريق نشر الكتب فكانوا يقومون بالنسخ والتصحيح والتجليد والتذهيب . وكانت مهنة الوراقة رائجة فقد عمد الخلفاء والوجهاء إلى الاحتفاظ بعدة نسخ من الكتاب الواحد غير أن الثقة لم تكن متوفرة دائماً في الوراقين لأنهم لم يكونوا في الغالب علماء أو من أهل الرواية ، وانما كانوا أهل حرفة لذلك كثر الطعن فيهم . وقد وصف كثير من الوراقين بحسن الخط وجودة الصنعة وسرعة الكتابة ، حتى راجت مهنتهم وجنوا من ورائها ربحاً لا بأس به واتخذهم الكبراء والوجهاء موظفين لديهم ، في حين جلس الآخرون في سوق الكتب ببغداد أو غيرها طلباً للرزق . ويذكر أن أحد قضاة قرطبة كان له ستة وراقين ينسخون له دائماً ، وكان بعض كبار الأدباء والعلماء يتخذون لهم وراقاً يختص بهم ، فقد كان لأبي العلاء المعري وراقاً نسخ له كتبه بدون أجرة ، وكان للجاحظ أكثر من وراق وهكذا .

كانت مهنة الطب وما يتفرع عنها مهنة كثيرة الرواج لحاجة المجتمع لها . وقد عاش كثير من الأطباء عيشة رغيدة إذ قدر لهم أن يعملوا في قصور الخلفاء والوجهاء فقد كان جبرائيل بن بختيشوع طبيب الرشيد يعتبر في مصاف كبار الأثرياء بسبب ما كان ينال من الرواتب السخية والمنح ، وقد راجت مهنة الحجامة والفصادة وكثر الحجامون والفصادون الذين كانوا يقومون باخراج الدم الفاسد من جسم المريض .

وفي مجتمع اهتم بالنظافة اهتماماً كبيراً باعتبارها من لوازم الدين . كثرت الحمامات في المدن وبخاصة في بغداد ، وقد كون أصحاب الحمامات فئة مهمة بين أصحاب المهن ، وقد كان في كل حمام (معلم) ـ وهو صاحبه ـ يجلس عادة في غرفة بعد المدخل على مصطبة مغطاة بالمفارش أو السجاجيد وكان تحت إمرة المعلم خدم ومدلكون لخدمة الزبائن . ونحن نجد كثيراً من التفاصيل عن هذه الحمامات في كتب الأدب ودواوين الشعراء ومؤلفات الرحالة الذين طالما أبدوا دهشتهم من كثرة الحمامات وكثرة العاملين فيها .

٤ ـ الصناع والعمال :

احتل الصناع والعمال مركزهم المهم في المجتمع العربي الاسلامي نتيجة التطور الاقتصادي ونمو الصناعة في المدن ، وبسبب تحسن النظرة الاجتماعية إلى العمل اليدوي . وقد نظر المجتمع إلى الصناع نظرة تقدير عالية جداً ويرى الغزالي أن حصول الانسان على معاشه في هذه الدنيا أمر لا بد منه للحصول على الحياة السرمدية في الدار الآخرة ويقول : إن الأسواق موائد الله وكل من زارها أصاب منها ، ولا يعفي من واجب اكتساب الرزق بكد اليدين أو من طريق التجارة إلا الزاهد والصوفي والعالم والموظف .

وكان العمال قد احترفوا مهناً وصنائع مختلفة كانوا يختارونها بأنفسهم وكثيراً ما كان الأبناء يحترفون حرفة آبائهم . وكان العمال يشتغلون بأجور يومية

أو في محلات خاصة والغالب أنهم كانوا يجعلون من بيوتهم محلات للعمل . ويبدو أن الأجور كانت تحدد بالاتفاق بين صاحب العمل والعامل وكان المحتسب مسؤولاً عن تنظيم العلاقة بين رب العمل وعماله وحل الخلافات التي تقوم بينهما .

وكان الصناع يتدرجون في الحرفة فكل صانع له أستاذ يتعلم منه صنعته ، كما أن الأستاذ تعلم من قبل على يد أستاذ آخر . وكان أول السلم في حرفة الصناع « المبتدىء » الذي يتعلم الصنعة ، ثم « الخليفة » الذي تكون مرتبته دون مرتبة الأستاذ ، وفوق هؤلاء جميعاً رئيس الصنعة أو « شيخ الصنف » .

كانت أجور العمال مختلفة ، فقد تقاضى عامل في حانوت نصف درهم في اليوم بالاضافة إلى كسوته وغذائه ، غير أن هذه الأجرة كانت تزيد حسب رغبة صاحب العمل . وكانت أجرة عامل الحفر ثلاثة دراهم في اليوم ، وأجرة الحداد خمسة دراهم يومياً وأجرة عامل حمام خمسة دراهم يومياً كذلك .

والعمال طائفتان الأولى الاجراء الذين يعملون لحساب غيرهم لقاء أجور يومية أو عن القطعة . وهؤلاء قد يعملون في دكاكين أو يعملون في بيوتهم ، مستخدمين أدوات عمل يمتلكونها هم ومواد أولية يشترونها أو يزودهم بها رب العمل الذي يستأجرهم ، وقد ذكر أن يومية الزجاج في نهاية القرن الثالث الهجري كانت درهماً ودانقين (الدانق سدس الدرهم) أو درهماً ونصف .

أما الطائفة الأخرى فهم الصناع المستقلون الذين يعملون لحسابهم الخاص وهؤلاء يعملون في دكاكين أو في بيوتهم يساعدهم أولادهم الذين يرثون الحرفة منهم وكان هؤلاء أحسن حالاً من ناحية الدخل لأنهم مستقلون ويمتلكون أدوات العمل ورأس المال الذي قد ينمو على مر الأيام إذا حالفهم الحظ وكانوا ذوي كفاءة .

وفيما يلي نذكر أهم طوائف العمال والصناع في المجتمع العربي الاسلامي .

١ ـ البناؤون ، ويعرف ابن خلدون (المقدمة ٤٠٦) صناع البناء بأنهم أول صناع العمران الحضاري واقدمهم وصناعة البناء هي العمل في انجاز البيوت والمنازل للسكن في المدن والأسواق والمساجد . وكانت مواد البناء الحجارة والكلس والجص والطين والخشب . كان صناع البناء مهرة لا بد لهم من معرفة الهندسة . وكان يعاون اساتذة البناء (المعماريين) عمال غير مهرة ، ونجارون وغيرهم .

٢ ـ النجارون : وحرفتهم تحتاج إلى المهارة أيضاً ومادتها الخشب وكان النجارون يقومون بصنع السقوف والأبواب والكراسي ، والمراكب .

٣ ـ الحاكة والخياطون ويعتبر ابن خلدون (المقدمة ٤١١) حرفتهم ضرورية للعمران وكان الحاكة ينسجون الغزل من الصوف والكتان والقطن . أما الخياطون فيصنعون الأكسية ومنها ثياب القطن والكتان والحرير . وكان هؤلاء يستعينون بعمل أو أكثر يعملون تحت اشراف الأستاذ لقاء أجور فكان العامل يحصل على درهمين لقاء خياطة القميص .

٤ ـ الطحانون : الذين يعملون في المطاحن الكثيرة في مختلف المدن العربية الاسلامية أو في البيوت حيث استخدمت الرحي التي كانت تصنع من حجر خاص غالي الثمن حتى بلغ سعر الحجر الواحد المجلوب من (آمد) خمسين ديناراً في العراق .

٥ ـ السقاؤون : وهم فئة ضخمة كان عملهم يقوم على حمل الماء النقي الصالح للشرب من الأنهار لاستعماله في البيوت وكان السقاؤون يحملون الماء بالقرب أو الروايا (ثلاثة جلود يحمل فيها الماء) على البغال .

٥ ـ الأصناف والنقابات :

ظهرت الأصناف نتيجة التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي رافقت نمو المدن العربية الاسلامية في العصر العباسي منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . وقد قامت هذه الأصناف ـ أو النقابات في المدن الرئيسة في العراق والشام ومصر وولايات المشرق والأندلس .

إن التقدم الاقتصادي منذ القرن الثالث صاحبه تكدس رأس المال وتجمع العمل . وكان الفضل في تكدس رأس المال وتركزه يرجع إلى ارتقاء النظام الصيرفي العربي الاسلامي وكثرة العملة الذهبية والفضة مما ساعد على نشاط التبادل الاقتصادي .

مثلث الأصناف والنقابات في المجتمع العربي الاسلامي منذ نشأتها ملامح اجتماعية جديدة . والواقع هو أن الأصناف والنقابات ظهرت في المجتمع العربي الاسلامي كرد فعل للأحوال الاقتصادية الجديدة ، وكمحاولة أهل الحرف والعمال لتحسين مستواهم المعيشي .

لقد اعترفت الدولة العربية الاسلامية بشرعية الأصناف والنقابات حتى نجد أنها كانت ذات استقلال في القاهرة تحت حكم الفاطميين مثلاً .

إن نقابات الحرف في المجتمع العربي الاسلامي انبثقت حرة وشعبية وظلت تحمل الطابع الديمقراطي في تنظيمها في عصور ازدهارها بعكس ما كان الأمر في الغرب في العصور الوسطى حيث كانت النقابات طبقية ، بحيث أن العضوية حصرت في فئات معينة من السكان .

وقد استحدثت عدة مصطلحات مختلفة للدلالة على النقابة العربية الاسلامية أشهرها اصطلاح « صنف » وكان واجب النقابة أو الصنف تنظيم الحرفة ورعاية مصالح أعضائها والمحافظة على أسرار الحرفة وتحديد الأسعار والحفاظ على مستويات الصنعة .

وكانت كل نقابة ـ أو صنف ـ تتكون من رئيس يدعى « المعلم » وخلفاء

وعمال (صناع) ومبتدئين . وعندما يرتقي المتبلؤون ليصبحوا معلمين يجري لهم احتفال خاص ترافقه شعائر وطقوس معينة يتلوها أداء القسم ثم وليمة خاصة . أما النقيب (أو الأمين ، العريف) فكان يختار من بين أعضاء النقابة برضي المحتسب وموافقته . وقد يقوم المحتسب بتعيين هذا النقيب . وكان النقيب يتمتع بصلاحية واسعة وسلطة على الأعضاء ؛ أما في المسائل المهمة كتحديد الأسعار فكان عليه أن يستشير المحتسب . كان النقيب رئيس النقابة ، يعمل كممثل لها في جميع الشؤون العامة ، كما أنه يعتبر حكماً في الخلافات بين الأعضاء . غير أن الخلافات بين نقابتين كانت من مهمات القاضي .

كان لكل نقابة تعليمات مكتوبة تنظمها ، وصار لكل حرفة شعارات ومراسيم يتمسك بها أفراد النقابة ويطيعونها . واعتز أبناء كل صنف بالنقباء العرب المسلمين الأول . واعتبروهم حماة ورعاة لهم . وكان من الأمور المستحبة انتقال الحرفة من الآباء إلى الأبناء .

وعلى الرغم من أن النقابات العربية الاسلامية لم تكن ذات نفوذ سياسي فإن بعضها كانت عناصر سياسية نشيطة ولها محاكم خاصة بها مثل نقابة (جهابذة الحضرة) التي لعبت دوراً كبيراً في الأحداث السياسية بين سني ٢٩٦ ـ ٣٢٩ هـ (٩٠٨ ـ ٩٤٠ م) . وفي القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) تبنت هذه النقابات اخلاقيات ومراسيم جمعيات الفتيان (الفتوة) والتي اتبعت في عضويتها نظام انتماء وتدرج دقيق .

٣ ـ التجارة

١ ـ تطور التجارة في الاسلام :

كان للعرب قبل الإسلام معرفة بالتجارة ، وخبرة بها ؛ ولها عندهم منزلة مرموقة ، ولما جاء الإسلام ، واتسعت الفتوحات . وارتقت الزراعة ،

والصناعة نشطت التجارة ، واتسعت حتى أصبح للمسلمين صلات تجارية مع معظم بلاد العالم ، وامتدت تجارتهم إلى الشرق حتى وصلت إلى الفلبيين والصين ، وإلى الغرب حتى وصلت إلى بلاد الفرنجة ، وإلى الجنوب حتى وصلت إلى نيجيريا ، والحبشة ، وساحل أفريقيا ، وإلى الشمال حتى وصلت إلى بلاد الروس التي ظلت إلى ما بعد الحروب الصليبية ، هي الطريق بين شمالي أوروبا والشرق .

وسرعان ما أصبح كثير من المدن الإسلامية مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجاري البري والبحري ، ومن أهم هذه المدن ، بغداد ، والبصرة والقاهرة ، والاسكندرية ، وسيراف ، وأصفهان[1] . ومرافىء الشام كطرابلس ، وصيدا ، وبيروت .

وكانت الاسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكمالية على الأقل[2] .

ومما ساعد العرب في رحلاتهم البحرية مهارتهم في ركوب البحر ، ومعرفتهم بالبوصلة ، والانتفاع بها فتمكنوا « من ارتياد البحار في جرأة ومهارة فائقة حتى ملكوا في أيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب »[3] وحملت سفنهم ، وقوافلهم المنسوجات والأطياب والبخور ، والسكر والقطن وآنية الزجاج إلى أقاصي آسيا وإفريقية ، وعادت منها محملة بالتوابل ، والكافور ، والحرير ، من أقاصي القارة الأسيوية ، والعاج ، والأبنوس ، والرقيق الأسود من القارة الإفريقية .

---

(١) بلغ من ازدهار المبادلات المالية والتجارية بها أنه كان بها مائتا صراف يجلسون جميعاً في سوق يسمى سوق الصرافين ـ آدم متز ج ٢ ص ٣٧٥.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٥.

(٣) المجتمع العربي (نصيب العرب في تقدم العلم والحضارة) ص ٤٧٤ للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

٢ ـ أثـر التجـارة :

أدى نشاط المسلمين التجاري إلى ابتكار بعض النظم المالية والتجارية التي عرفتها أوروبا عنهم ، وقد أثبت العالم جرسهوب أن أول من عرف نظام الحوالات المالية هم العرب ، وعنهم أخذتها أوروبا في القرن العاشر عن طريق أسبانيا وإيطاليا[١] . وقال المستر كراندال : « وفي التجارة كان الإسلام رائد العالم الحديث في إنشاء الاتحادات التجارية ، وإستعمال الشيكات ، وخطابات الاعتماد ، والإيصالات ووثائق الشحن »[٢] .

وفي العصر الذهبي للدولة العباسية « أنشأ التجار لأول مرة نقابة مسؤولة عن راقبة المعاملات التجارية ، ومنع التدليس ، وكان رئيسها ينتخب من بين الأعضاء الممتازين ويسمى « رئيس التجار » ، كما كان يسمى أعضاء النقابة « الأمناء »[٣] .

وقد استفاد المسلمون من تجارتهم ـ فضلاً عن الغنى والثروة المالية ـ خبرة بشؤون الحياة ، ومعرفة بأخلاق الناس ؛ وأصبحت التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام وحضارته ، ولها السيادة في البلاد ، وغدت سفن المسلمين ، وقوافلهم تجوب كل البحار ، واحتلت المكان الأول للتجارة العالمية[٤] .

وبذلك اضمحلت المكانة العالمية للتجارة اليهودية ، وقد كانت تستأثر بأهم ما كانت تصدره أوروبا ، وخصوصاً الغلمان والجواري .

ونشأ عن هذا التقدم التجاري إزدهار الجاليات الإسلامية في كثير من

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧٥.
(٢) راجع اثر الاسلام في المسيحية نشرة أصدقاء الشرق الأوسط الاميركية بنيويورك .
(٣) مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي للسيد أمير علي ص ٣٦١.
(٤) آدم ميتز ج ٢ ص ٣٦٥.

الأطراف التي تغلب عليها غير المسلمين ، فكان يرأسهم مسلم ، ولا يقبلون حكم غير المسلمين فيهم .... ومن هذه الجاليات ما كان في بلاد الخزر ، والسرير ، واللان ، وغانة ، وكوغة ، والهند ، والصين . بل وكوريا أيضاً[1] .

يقول السيد أمير علي : « اخترع العرب البوصلة البحرية التي ساعدتهم على القيام برحلات إلى جميع أنحاء العالم ، طلباً للعلم أو الأتجار ، فأسسوا المستعمرات من شاطىء إفريقيا حتى جزائر الأرخبيل الهندي ، وعلى سواحل الهند ، وجزيرة مالايا ، وتوغلوا في بلاد الصين ؛ وغدت البصرة ثغراً تجارياً هاماً تتجر مع الهند ، وكاتاي ، واخترقت قوافلهم شمالي إفريقيا ، وصحراءها عن طريق المغرب ، ونقلوا البضائع من ثغور البحر الأبيض المتوسط إلى أسبانيا ، وصقلية ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وأصبحت طرابزون حلقة التجارة مع الدولة البيزنطية ، ونشطت قوافل بغداد إلى أواسط آسيا ، وشمال الهند بحذاء الخليج الفارسي ، وإمتدت تجارتهم إلى بحر قزوين ، والبحر الأسود ، وتغلغلوا في روسيا حتى وصلت النقود العباسية إلى شواطىء البلطيق وداخل السويد[2] .



دينار عباسي



درهم عباسي

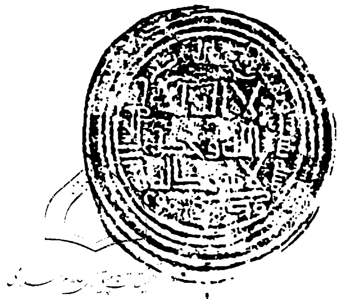
(١) المصادر السابق ص ٣٦٨.
(٢) مختصر تاريخ العرب التمدن الاسلامي ص / ٣٨٤ .



درهم سلجوقي



درهم سلجوقي



درهم أموي



دينار أموي



درهم أموي (ضرب واسط)



دينار عباسي



درهم عباسي

نماذج للدراهم والدنانير المتداولة في التجارة

٣ ـ طرق المواصلات النهرية :

فأما الطرق النهرية فهي التي تسلك دجلة أو الفرات ، ومن المعلوم أن بغداد تقع على نهر دجلة ، وكانت تأتيها به كثير من بضائع الجزيرة والموصل والمدن الواقعة في شماله ، وتأتيها أيضاً بضائع البصرة وواسط والمدن الواقعة في جنوبه . أما الفرات فكان يرتبط بدجلة بنهر عيسى الذي تنقل فيه السلع من أعالي الفرات ومن منطقة الكوفة . أما المجاري الجنوبية من هذين النهرين فكانت تعرقلها السدود والأهوار والفروع الصغيرة التي تعترض هذين النهرين في أطرافها السفلى .

٤ ـ الطرق البرية :

أما الطرق البرية فأهمها الطريق الذي يربط بغداد بالمدن المقدسة في الحجاز ، وهو يمر بالكوفة ويخترق صحراء جزيرة العرب ماراً بكثير من المحطات التي تتوفر فيها المياه . وهذا الطريق يسلكه الحجاج الذين يؤم منهم البيت الحرام سنوياً عدد كبير . ويستخدم هذا الطريق لأغراض عسكرية وإدارية وتجارية ، وبالنظر لما لهذا الطريق من أهمية كبيرة فقد عنت به

الدولة . فعبدت العقبات فيه ، وحفرت عليه الآبار ، وعنت بتوفير المياه في محطاته . ووضعت عليه إشارات الأميال والمنار . وولت قوافل الحجاج عناية كبيرة . فكانت تعين عليها أميراً تختاره من كبار رجال الأسرة العباسية ، وترفق هذه القوافل بقوات عسكرية لحمايتها ومنع القبائل من الاعتداء عليها .

وتتفرع من بغداد طرق تربطها بواسطة البصرة والأحواز في الجنوب . وطرق أخرى تربطها بالموصل ، أو بشمال بلاد الشام ، وتسير هذهالطرق موازية لنهري دجلة والفرات .

غير أن الطريق الرئيسي هو الذي يربط بغداد بالمشرق ، وهو يمر شرقاً بالمدن الواقعة على نهر ديالي ، ثم يسير إلى همدان فالري فنيسابور فمرو ، ويسير هذا الطريق إلى بخاري وسمرقند . وتتفرع من هذا الطريق طرق أخرى تربطه بالمدن التي تقع على مسافة منه . إن لهذا الطريق أهمية كبيرة منذ العصور القديمة فقد كانت تسلكه تجارة الصين البرية ، وكان يسمى في القديم « الطريق السلطاني » وقد ازدادت أهيمته في العصور العربية الاسلامية لأنه يربط بغداد بالهضبة الايرانية وخراسان وبلاد التركستان ؛ وتقع عليه مدن كانت لها أهمية كبيرة في الدولة العربية الاسلامية .

٥ ـ التجارة الخارجية :

إن الدولة العربية الاسلامية كانت أراضيها واسعة وخيراتها كثيرة ومنتوجاتها وفيرة ، ومع هذا فقد كانت تعوزها بعض السلع المتوفرة في الأقاليم البعيدة ، وكان لا بد أن تستوردها من تلك البلاد ، الأمر الذي أدى إلى إزدهار التجارة معها . وأهم الأقاليم الخارجية التي كانت تتاجر مع البلاد العربية الاسلامية الصين ، والهند وجزر الهند الشرقية ، وافريقية وأوروبا .

(أ) التجارة مع الصين :

وبلاد الصين واسعة تمتد من أواسط آسيا حتى المحيط الهادي ، وقد

عرفت منذ أقدم الأزمنة بإنتاجها للسلع الكمالية التي تتطلب مهارة في الصنع . كالحرير والمرايا ، والأدوات الخزفية والخشب المحفور ، وكانت تجارة الصين تسلك الطريق البري الذي يخترق أواسط آسيا ثم يمر بخراسان سالكاً « الطريق السلطاني » الذي ذكرناه آنفاً . غير أن بعض تجارة الصين كانت تنقل بحراً عن طريق ارخبيل الملايو والمحيط الهندي فالخليج العربي .

(ب) التجارة مع الهند :

أما الهند وجنوبي شرقي آسيا فإن العرب كانوا يستوردون منها منذ أقدم الأزمنة التوابل والبهارات ، والأحجار الثمينة ، والأخشاب الصلبة وخاصة الساج . وهم يستوردون من أفريقية الذهب والعاج والتوابل وكان أهل اليمن يحتكرون الملاحة في المحيط الهندي حتى القرن الأول الميلادي ، وظلوا يقومون بأكبر قسط من تجارته بعد ذلك غير أنه في العصور الاسلامية كانت معظم التجارة البحرية مع الهند تسلك الخليج العربي ، وكانت تسير موازية للشواطىء الغربية ، لأن الشواطىء الشرقية وعرة وقليلة المياه . وقد ساعد هذا على ازدهار المدن في عمان والبحرين . وكانت السفن التي تسير في هذا البحر تصنع من الخشب وتربط بالألياف ولا تستعمل فيها المسامير . وتتعرض الملاحة البحرية إلى كثير من الأخطار الناجمة من اعتماد الملاحين في معرفة سيرهم على الشمس أو النجوم التي لا تظهر عند حدوث الغيوم . وقد أدت هذه الأخطار إلى ارتفاع أسعار السلع التي تستورد في البحر وكان التجار يفضلون سلوك الطرق البرية كلما أمكن ذلك .

(ج) التجارة مع اوروبا :

أما مع أوروبا ، فإن العرب كانوا يستوردون من روسيا وبلاد البلطيق الفراء والكهرب والصفيح ، وكانوا يذهبون إلى روسيا بطريق بحر قزوين ونهر الفولجا . وقد وصلت تجارتهم إلى بلاد البلطيق .

لقد كان العرب المسلمون هم الذين يقومون بالتجارة ، ولذلك كونوا

لهم جاليات في خانقو (كانتون) بالصين ، وكذلك في الملايو وسومطرة وعلى سواحل الهند وأفريقية . كما وصلتنا أخبار عن رحلاتهم إلى روسيا وبلاد البلطيق وأوروبا الشرقية . وقد وجدت في هذه البلاد كميات غير قليلة من النقود العربية الاسلامية التي كانوا يشترون بها هذه السلع .

(د) التجارة في البحر المتوسط :

أما في البحر المتوسط فإن العرب المسلمون أنشأوا لهم أساطيل تمكنوا فيها من فتح كثير من الجزر مثل قبرص وكريت وصقلية ، وقاموا بمهاجمة شواطىء ايطاليا وفرنسا . وكانت سفنهم التجارية تنقل السلع بين الأقاليم الاسلامية الواقعة على هذا البحر . ولم تكن تجارتهم واسعة مع أوروبا التي ظلت في القرون الأولى التي أعقبت حركة التحرير العربية تعاني من تأخر في الحياة الاقتصادية وفقر في السكان والثروة ثم بدأت الأقاليم الأوروبية تنتعش منذ القرن الرابع الهجري ، فبدأت التجارة تنمو بينها وبين بلاد العرب ، وأخذت أوروبا تستورد المصنوعات القطنية والمعدنية وكذلك المعادن الثمينة والتوابل من البلاد العربية والاسلامية وتصدر إليها الأخشاب ، وقد ساعد إزدهار التجارة على نمو بعض الموانيء الايطالية وخاصة البندقية وجنوا التي أنشأت كل منهما سفناً للتجارة ، واستطاع تجار هاتين المدينتين بمرور الزمن السيطرة على الملاحة التجارية في البحر المتوسط . وقد ظلت تجارة اوروبا مع العالم الاسلامي تتدرج في النشاط والنمو إلى أن اكتشفت امريكا في سنة ١٤٩٢ فحول الأوروبيون أنظارهم إلى القارة الجديدة ، وبدأت أوروبا الغربية تنمو فتدهورت التجارة في البحر المتوسط .

مراجع الصناعة والتجارة

١ ـ الادارة العربية في عز الإسلام / محمد كرد علي

٢ ـ الاسلام حضارته ونظمه / أنور الرفاعي

٣ ـ الاشارة الى محاسن التجارة / الدمشقي

٤ ـ بحوث في التاريخ الإقتصادي / ترجمة توفيق اسكندر

٥ ـ بغداد / مصطفى جواد

٦ ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية / لي سترانج

٧ ـ التبصر بالتجارة / الجاحظ

٨ ـ تراث الاسلام (فصل التجارة والجغرافية)/ توماس ارنولد وجماعته ترجمة جرجيس فتح الله.

٩ ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة / صالح احمد العلي

١٠ ـ الخطط المقريزية / المقريزي

١١ ـ صور الأرض / ابن حوقل

١٢ ـ عمان في العهود الاسلامية الاولى / عبد الرحمن العاني

١٣ ـ القاهرة /عبد الرحمن زكي

١٤ ـ كتاب البلدان / اليعقوبي

١٥ ـ لطائف المعارف / الثعالبي

١٦ ـ المجتمعات الاسلامية وحركة الفتح / شكري فيصل

١٧ ـ الملاحة العربية في المحيط الهندي / جورج حوراني

الفصل السادس

العلوم الدينية

أولاً : علوم القرآن

ثانياً : علوم الحديث

ثالثاً : الفقه

أولا : علوم القرآن :

كان الدين الاسلامي الباعث الأول على ازدهار الحركة العلمية ، لهذا كان من الطبيعي أن تكون علوم القرآن هي أول العلوم التي اعتنى بها العرب والمسلمون ، وأهم علوم القرآن هي : علم أسباب النزول ، وعلم المحكم والمتشابه وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم اعجاز القرآن وإعراب القرآن ، والقراءات ، وفضائل القرآن ، ومجاز القرآن ، وتفسير القرآن ، وكل علم من هذه العلوم يتناول ناحية من نواحي القرآن ، وقد اختصر العلماء هذه العلوم في علم موحد سموه « علوم القرآن » والفوا في ذلك الكتب الكثيرة ، ومن اهمها « الاتقان في علوم القرآن » للسيوطي .

١ ـ علم أسباب النزول :

كانت آيات الأحكام ، أي الآيات المتعلقة بالتشريع ، تنزل في الغالب جواباً لحوادث تقع في المجتمع ، أو جواباً عن أسئلة يسألها المؤمنون ، ومعرفة هذه الحوادث والأسئلة ، والأشخاص الذين سألوها ، والظروف التي أحاطت بنزول الآية فيها ، هي العلم الذي يسمى بأسباب النزول ، ومعرفة

أسباب النزول ضرورية في تفسير آيات أحكام العبادات والمعاملات والحلال والحرام والغزو والجهاد والاحوال الشخصية والحقوق المدنية .

فلا تفهم هذه الآيات على وجهها الصحيح إلا إذا عرفت الظروف التي نزلت فيها فالعلم بالسبب يساعد على معرفة المسبب .

ويفيد هذا العلم في معرفة وجه الحكمة عن تشريع الحكم ، فقد يكون اللفظ عاماً فيفيدنا علم النزول بمعرفة الدليل على أن المراد به التخصيص، أي أن المراد به شخص معين ، أو حادثة معينة ، لا أنه علم مطلق .

ومن أهم الكتب في هذا العلم « لباب النقول في أسباب النزول » لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م.

٢ ـ علم الناسخ والمنسوخ :

لقد نزلت آيات القرآن الكريم تدريجياً خلال أكثر من عشرين سنة ، وقد تدرجت فيها الأحكام ، فكانت تنزل آية في حكم من الأحكام . وبعد فترة تنزل آية أخرى فتزيل حكم الآية الأولى أو تعدله ، أو تلغيه .

وهذا ما يسمى بالناسخ والمنسوخ وهذا العلم ضروري لفهم التدريج في أحكام القرآن والسنة ، ومعرفة المراحل التي مر بها التشريع القرآني ومن أهم الكتب في هذا الموضوع : « كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم » تأليف أبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ .

٣ ـ إعجاز القرآن :

يقول الله تعالى مبيناً اعجاز القرآن ومتحدياً العرب أن يأتوا بمثله : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ البقرة : ٢٣ ـ ٢٤.

﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ الاسراء : ٨٨ .

وعجز العرب أصحاب البلاغة والفصاحة أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل آية من آياته ، ورضخوا أمام التحدي القرآني الذي أذل رقابهم ، وجعلهم يحسون مرارة الهزيمة في معركة ما عرفوا الهزيمة فيها أبداً ، الا وهي معركة البيان .

وإذا كان الاعجاز القرآني ثابتاً لا مجال للشك فيه ، فإن العلماء قد شمروا عن سواعدهم ليبرزوا جوانب الاعجاز في القرآن ، وظهرت مؤلفات كثيرة تناولت موضوع « الاعجاز القرآني » من هذه المؤلفات التي يعود تاريخها إلى عصر النهضة العلمية خلال القرون الهجرية الأولى : « الجاحظ في كتابه « نظم القرآن » ، .والواسطي في كتابه « اعجاز القرآن » والرماني والباقلاني في كتابيهما « اعجاز القرآن » والجرجاني في كتابه « دلائل الاعجاز » .

ويؤخذ على المؤلفين القدماء أنهم عندما تعرضوا لمظاهر الاعجاز القرآني بحثوا فيه من خلال القواعد البلاغية والمباحث الكلامية التي قد تبعد في كثير من الأحيان عن إبراز جوانب المجال الفني ، والتناسق البياني في القرآن ، ويعود سبب ذلك إلى طبيعة المرحلة التي كانوا يعيشون فيها ، ولذلك كانوا يبحثون في مجال الاعجاز عن التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية والايجاز والاطناب .

أما العلماء المحدثون الذين بحثوا عن مظاهر الاعجاز القرآني فقد ابتعدوا عن المباحث الكلامية والصور البلاغية ، وحاولوا إبراز الاعجاز من خلال الخصائص الفنية العامة التي يمكن استلهامها من النص القرآني ، والتي تتمثل في تلمس العناصر الجمالية التي اختص بها أسلوب القرآن من حيث التصوير الفني والتناسق الموسيقي والتعبير البليغ وتخير الألفاظ التي تعبر

أحسن تعبير عن الحالة النفسية التي يراد وصفها ، بحيث يحس الانسان أنه أمام مشهد حي يراه ماثلاً أمامه .

ومن العلماء المحدثين الذين بحثوا عن جوانب الاعجاز القرآني الاستاذ مصطفى صادق الرافعي ، في كتابه « تاريخ آداب العرب » ، والاستاذ سيد قطب ، في كتابه « التصوير الفني في القرآن ».

ومن جوانب الاعجاز القرآني :

(أ) الاعجاز البياني واللغوي :

وهذا هو الجانب الذي وقع التحدي به ، في وقت وصلت اللغة العربية فيه إلى أزهى عصورها ، حيث كانت أسواق الأدب واللغة تقام في كل مكان ، ويقف على منابرها الأدباء والشعراء فيعرضون أنفس ما جاءت به قريحتهم من بضاعة الكلام وصناعة الشعر في جو صاخب محموم من المنافسة والمفاخرة .

وفي أشد حالات المفاخرة والاعجاب بالذات جاء القرآن ليتحداهم ويستفزهم ، ويلهب ظهورهم بالتقريع ، ويضيف قادة البيان منهم بالعجز . ليستثير حفيظتهم ، ويدفعهم إلى الاتيان بمثل القرآن أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة واحدة فقط ، ثم يعقب على ذلك ساخراً منددأ بعجزهم :

﴿ قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ الأسراء : ٨٨ .

(ب) الاعجاز العلمي :

يذكر كثير من العلماء المعاصرين جوانب الاعجاز العلمي في القرآن ، ويأتون لذلك بأدلة علمية واضحة تبين أن القرآن قد عرض لكثير من المعارف

المتعلقة بالانسان والكون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وكانت هذه المعارف غير معروفة وغير مكتشفة في عصر نزول القرآن ، ثم اكتشفت في العصور التي تلت ذلك .

(حـ) الاعجاز الغيبي :

ونلاحظ هذا بالجانب من جوانب الاعجاز من خلال ما عرض له القرآن من أخبار غيبية مما يخرج عن طاقة البشر ، منها ما هو متعلق بقضايا تاريخية ماضية عن أمم بائدة ، أو قصص متعلقة بالأنبياء والمرسلين مما لم يكن معروفاً من أحد من الناس ، ولا مدونا من أي كتاب من الكتب الماضية ، ولم يعرف من حياة الرسول التي نقلت إلينا بكل تفاصيلها ودقائقها أنه قد تلقى علماً عن أحد أو قرأ كتب الأولين واختلف إلى من كان عالماً بها .

ومنها أن القرآن قد اخبر عن قضايا غيبية ستحدث في المستقبل مما لا يمكن لبشر أن يعرف عنها أو يتنبأ بها . . . كقوله تعالى في أهل بدر : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ .

وكقوله تعالى مبشراً رسوله أنه سيظهر دينه على الأديان : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ﴾ التوبة : ٣٣ ، وكقوله تعالى مخبراً أصحابه بنصر الروم بعد هزيمتهم ﴿ ألم ، غلبت الروم في ادنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون ﴾ القصص : ٤٤ ـ ٤٥ .

(د) الاعجاز التشريعي :

ويظهر هذا الاعجاز من خلال تتبعنا للأحكام التشريعية التي اشتمل عليها القرآن والتي تمثل الدستور الثابت للمسلمين ، ينظم لهم حياتهم في

جميع المجالات سواء منها ما تعلق بالأسرة والأولاد ، أو ما ارتبط بالمعاملات المالية والمدنية ، أو ما كان منظماً للعلاقات الثابتة التي يجب أن تمثل القواعد الانسانية للتعامل بين العلاقات الثابتة التي يجب أن تمثل القواعد الانسانية للتعامل بين الأفراد والجماعات والدول ، وقد اتصفت هذه الأحكام بالتكامل والترابط والثبات والمرونة ، واليسر ودفع الحرج ، مما يجعلها قادرة على أن يقيم المجتمع الاسلامي على أساس صحيح ومتين .

علم التفسير :

المقصود بالتفسير هو بيان معاني آيات القرآن الكريم ، وتوضيحها ، وكشف المراد منها ، نزل القرآن بلغة عربية مبينة ، وكان الرسول ﷺ يتلوه على العرب فيفهمون معانيه يدركون مراميه ، ولكنهم لم يكونوا ليفهموا القرآن بدرجة واحدة من الوضوح ، بل كانوا يفهمونه فهماً متفاوتاً بحسب مستواهم العقلي ، واستعدادهم اللغوي ، وثقافتهم العامة .

فقد كان بعضهم شديدي الاتصال بالرسول ﷺ ، طويلي الملازمة له ، فأفادهم قربهم منه فهماً للقرآن ، وتعمقاً في إدراك معانيه .

وكان بعض الصحابة ملمين بآداب الجاهلية ، عالمين بلغتها وأخبارها وعاداتها أكثر من غيرهم ، والقرآن يحتوي على أحكام فقهية وعقائد . ولا يكفي فهم اللغة العربية وحدها لادراك هذه الأمور ، ولهذا كان الناس في عصر الرسول ﷺ بحاجة الى من يفسر لهم بعض ألفاظ القرآن وإشاراته :

التفسير بالمأثور :

وكان الرسول ﷺ هو الذي يفسره لهم ، ويبين معنى ما غمض منه عليهم ، فلما توفى الرسول ﷺ ، وتمت حركة التحرير والفتوحات ، ودخل الاسلام الكثير من الناس ، ومنهم من لم يكونوا عرباً ، إزدادت الحاجة إلى تفسير القرآن .

وقد قام علماء الصحابة بهذا التفسير استناداً إلى ما تعلموه من النبي وما فهموه منه بحسب علمهم واجتهادهم ، وأشهر المفسرين من الصحابة الخلفاء الراشدون الأربعة ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت ، ومن هؤلاء الصحابة وغيرهم أخذ التفسير جماعة من التابعين .

وجاء العلماء فجمعوا تفسير الرسول ﷺ والصحابة والتابعين والفوا في ذلك الكتب ، وقد سمى هذا النوع من التفسير (التفسير بالمأثور) ، أي ما أثر عن الرسول ﷺ وأصحابه ، أو (التفسير بالمنقول) أي ما نقل عنهم .

ومن أهم الكتب في هذا الموضوع تفسير الطبري (ت ٣١٠ هـ) المسمى « جامع البيان في تفسير القرآن » وهو يقع في ثلاثين جزءاً بعدد أجزاء القرآن .

وقد سار على نهج الطبري عدد من المفسرين أشهرهم ابن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ، وعنوانه « تفسير القرآن العظيم » ويمتاز بالدقة في الاسناد ، وبساطة العبارة ، ووضوح الفكرة ، والايجاز .

التفسير بالرأي :

وقد تعددت تفاسير القرآن الكريم وتنوعت ، وكان يظهر في كل عصر من العصور تفاسير جديدة ، تعتمد في التفسير على الرأي والاجتهاد ، وسبب ذلك أن القرآن هو دستور المسلمين في دينهم ودنياهم ، وكلما تطورت الحياة الاجتماعية والاقتصادية رجعوا اليه ليروا فيه حلا لما يستجد من الأمور والمشاكل .

وكلما تطورت الحياة العقلية نظر العلماء إلى القرآن من وجهة نظر جديدة وقرأوا فيه معاني لم تكن لتخطر على بال من تقدمهم ، وقد أصبح تفسير القرآن في أي عصر من العصور يحمل طابع الحياة العقلية والاجتماعية والدينية لذلك العصر ، لأن المفسر عادة يساير أفكار الناس ، ويقصد الى حل

المشاكل التي تواجههم ، ويشرح لهم ألفاظ القرآن بالطرق المألوفة لديهم وبالأساليب المعروفة عندهم ، ومن هنا فإن دراسة تفاسير القرآن ذات قيمة كبيرة في فهم الحركة العلمية في الاسلام ومعرفة المستوى العقلي للمسلمين في أي عصر من العصور .

وقد اشترط العلماء في المفسر المؤهل لتفسير القرآن شروطاً عديدة شديدة لا تتوافر إلا في أكابر العلماء ، فقد اشترطوا أن يكون المفسر حسن المعرفة بقواعد اللغة العربية واصولها في الحقيقة والمجاز ومعاني الفاظها وأسباب النزول ، وأن يكون عليماً بالشريعة الاسلامية ، جيد الاطلاع على أحكامها ، ملماً بما نقل في التفسير مروياً عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين .

ومن أشهر التفاسير بالرأي « مفاتيح الغيب » لفخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وهو يسلك طريقة الفلاسفة في الاستدلال وتفسير البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ المسمى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » وهو من أشهر التفاسير عند جمهور المسلمين .

وقد حاول بعض علماء الفرق الاسلامية تفسير القرآن بما يؤيد مذاهبهم وآرائهم ، ومن ذلك تفاسير المعتزلة والصوفية ، وتمتاز تفاسير المعتزلة باتباعها الأسلوب العقلي في الاستدلال وقلة اعتمادها على المأثور من التفسير ومن أشهرها : « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل » لجار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ هـ ، وهو موجز العبادة شديد العناية بتوضيح وجوه البلاغة والاعجاز في القرآن .

أما تفاسير الصوفية فيغلب عليها الغموض ، والمصطلحات الخاصة ، والمعاني التي لا يفهمها إلا المطلع على آداب المتصوفة الخبير بطرقهم في

التفكير وأساليبهم في الكلام ومن أشهر هذه التفاسير التفسير المنسوب إلى محي الدين بن العربي المتوفي سنة ٦٣٨ هـ .

التفسير بالمأثور والرأي :

وكثير من التفاسير تجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي ومن أشهرها « مجمع البيان» في تفسير القرآن » لأبي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ، ويقع هذا التفسير في عشرة أجزاء كبيرة وقد رتبه المؤلف ترتيباً جيداً يسهل الافادة منه ، فهو يبدأ بذكر اسم السورة ويبين فضلها ويذكر الآية ويعقبها بذكر ما فيها من الاعراب والقراءات ويبين معانيها اللغوية ، ثم يذكر ما ورد فيها من التفاسير المأثورة ويبين فيها رأيه واجتهاده أحياناً .

تفاسير العصر الحديث :

وقد ظهر في العصر الحديث عدد كبير من التفاسير حاولت أن تفسر القرآن بلغة العصر وبالأسلوب الذي يفهمه الناس اليوم وحاولت أن تبين معاني القرآن في ضوء الحركات الاجتماعية والاقتصادية والاكتشافات العلمية .

ومن أشهر هذه التفاسير تفسير محمد عبده الذي اكمله تلميذه محمد رشيد رضا والذي يعرف بتفسير المنار ويحاول هذا التفسير أن يوفق بين ما ورد في القرآن من اشارات إلى الظواهر الكونية والنظريات العلمية الحديثة .

المراجع

كتب التفسير بالمأثور :

١ ـ جامع البيان . في تفسير القرآن : ابن جرير الطبري ، الأميرية ١٣٢٣ هـ.

٢ ـ بحر العلوم : أبو الليث السمرقندي ، بعض نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٣) .

٣ ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن : أبو إسحق الثعلبي ، بعض نسخه مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٣٦) ٥٥٦١ .

٤ ـ معالم التنزيل : الحسين بن مسعود البغدادي ، المنار ١٣٤٥ هـ.

٥ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ابن عطية الأندلسي ، بعض نسخه مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٠ و٣٥٦ .

٦ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير : للحافظ عماد الدين ابن كثير ، التجارية (مصطفى محمد) ١٣٥٦ هـ .

٧ ـ الجواهر الحسان : عبد الرحمن الثعالبي ، طبع الجزائر ١٣٢٣ هـ.

٨ ـ الدر المنثور : جلال الدين السيوطي ، الميمنية ١٣١٤ هـ.

٩ ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : أبو طاهر الفيروز ابادي الأزهرية ١٣٤٤ هـ .

كتب التفسير بالرأي المحمود :

١ ـ مفاتيح الغيب : الفخر الرازي ، الأميرية ١٢٨٩ هـ.

٢ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل : البيضاوي ، دار الكتب العربية ١٣٣٠ هـ.

٣ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل : النسفي ، السعادة ١٣٢٦ هـ.

٤ ـ الباب التأويل في معاني التنزيل : الخازن ، التقدم ١٣٢١ هـ.

٥ ـ البحر المحيط : أبو حيان ، السعادة ١٣٢٨ هـ.

٦ ـ تفسير الجن : الجلال المحلي والجلال السيوطي ، دار إحياء الكتب ١٣٤٥ هـ.

٧ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان : النيسابوري ، الأميرية ١٣٢٣ هـ.

٨ ـ السراج المنير : الخطيب الشربيني ، الأميرية ١٢٩٩ هـ.

٩ ـ إرشاد العقل السليم : أبو السعود ، المصرية ١٣٤٧ هـ.

١٠ ـ روح المعاني : الألوسي ، إدارة الطباعة المنيرية الطبعة الأخيرة .

كتب تفسير المعتزلة :

١ ـ تنزيه القرآن عن المطاعن : القاضي عبد الجبار . الجمالية ١٣٣٩ هـ.

٢ ـ أمالي الشريف المرتضى : الشريف المرتضى ، السعادة ١٣٢٥ هـ.

٣ ـ الكشاف : الزمخشري ، مطبعة محمد مصطفى ١٣٠٨ هـ.

كتب تفسير الإمامية الأثني عشرية :

١ ـ مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار : عبد اللطيف الكازراني ، طبع العجم ١٣٠٣ هـ.

٢ ـ تفسير العسكري : الحسن العسكري ، طبع تبريز ١٣١٤ هـ.

٣ ـ مجمع البيان : أبو علي الطبرسي ، طبع طهران ١٣١٤ هـ.

٤ ـ الصافي : ملا محسن الكاشي ، طبع فارس ١٢٤٤ هـ.

٥ ـ تفسير القرآن : السيد عبد الله العلوي ، طبع طهران ١٣٥٣ هـ.

٦ ـ بيان السعادة : سلطان الخراساني ، طبع طهران ١٣١٤ هـ.

كتب تفسير الزيدية :

١ ـ فتح القدير : الشوكاني ، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٤٩ هـ.

كتب تفسير الخوارج :

١ ـ هميان الزاد إلى دار المعاد : محمد إسفيش ، طبع زنجبار ١٣١٤ هـ.

تفاسير الصوفية :

١ ـ تفسير القرآن الكريم : سهل التستري ، السعادة ١٩٠٨ هـ.

٢ ـ حقائق التفسير : أبو عبد الرحمن السلمى ، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٠٩٣).

٣ ـ عرائس البيان في حقائق القرآن : أبو محمد روزبهان ، طبع الهند ١٣١٥ هـ.

٤ ـ التأويلات النجمية : نجم الدين داية وعلاء الدولة البيانانكي ، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٦ م.

٥ ـ تفسير ابن عربي (تأويلات القاشاني) : عبد الرزاق القاشاني ، الأميرية ١٢٨٣ هـ .

تفاسير الفقهاء :

١ ـ أحكام القرآن (حنفي) : الجصاص ، البهية المصرية ١٣٤٧ هـ.

٢ ـ أحكام القرآن (شافعي) : الكيا الهراسي ، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (٣٩٨) ٧٨٦٦ .

٣ ـ الإكليل في إستنباط التنزيل (شافعي) : الجلال السيوطي ، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٧٨٥) بخيت .

٤ ـ أحكام القرآن (مالكي): أبو بكر بن العربي ، السعادة ١٣٣١ هـ.

٥ ـ الجامع لأحكام القرآن (مالكي): القرطبي ، دار الكتب ١٩٣٥ ـ ١٩٤٥ م.

٦ ـ كنز العرفان في فقه القرآن (إثنا عشرى) : مقداد السيوري ، طبع تبريز ١٣١٤ هـ.

٧ ـ الثمرات اليانعة (زيدي) : الفقيه يوسف الثلاثي ، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٤١) م .

كتب التفسير في العصر الحديث :

١ ـ الجواهر في تفسير القرآن الحكيم : طنطاوي جوهري ، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٤٠ ـ ١٣٥١ هـ.

٢ ـ الهداية والعرفان : أبو زيد الدمنهوري ، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٤٩ هـ.

٣ ـ تفسير جزء (عم): الشيخ محمد عبده ، مطبعة مصر ١٣٤١ هـ.

٤ ـ تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن : الشيخ محمد عبده ، والشيخ رشيد رضا ، المنار ١٣٥٣ هـ .

٥ ـ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) : السيد محمد رشيد رضا ، المنار ١٣٤٦ هـ .

٦ ـ الدروس الدينية : الشيخ محمد مصطفى المراغي ، مطبعة الأزهر ١٣٥٦ ـ ١٣٦٤ هـ .

علوم القرآن :

١ ـ مقدمة التفسير : الراغب الأصفهاني ، الجمالية ١٣٢٩ هـ.

٢ ـ مقدمة في أصول التفسير : ابن تيمية ، الترقي بدمشق ١٩٣٩ م.

٣ ـ جواهر القرآن : الغزالي ، كردستان العلمية ١٣٢٩ م.

٤ ـ الإتقان : الجلال السيوطي ، مطبعة مصطفى الحلبي ١٩٣٥ م.

٥ ـ الفوز الكبير في أصول التفسير : ولي الله الدهلوي ، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٦ هـ .

٦ ـ مبادىء التفسير : محمد الخضري الدمياطي ، النيل ١٣٢١ هـ.
٧ ـ المدخل المنير : محمد حسنين مخلوف العدوى ، مطبعة المعاهد ١٣٥١ هـ .
٨ ـ التفصيل في الفرق بين التفسير والتأويل : حامد العمادي ، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٣٤٤٤ مجاميع .
٩ ـ التفسير ـ معالم حياته ـ منهجه اليوم : أمين الخولي ، دار المعلمين للطبع والنشر ١٩٤٤ م.
١٠ ـ المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن الكريم (جزء أول) : جولدزيهر تعريب على حسن عبد القادر ، العلوم ١٩٤٤ م .
١١ ـ إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعي ، الاستقامة ١٩٤٠ م .
١٢ ـ منهج الفرقان : محمد أبو سلامة ، مطبعة شبرا ١٩٣٨ م.
١٣ ـ مناهل العرفان : عبد العظيم الزرقاني ، مطبعة شبرا ١٣٥٩ هـ.
١٤ ـ التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٦

كتب الحديث وعلومه :

١ ـ صحيح البخاري : أبو عبد الله البخاري ، الخيرية ١٣٢٠ هـ .
٢ ـ صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج ، الأميرية ١٣٣٥ هـ.
٣ ـ سنن الترمذي : أبو عيسى الترمذي ، الأميرية ١٢٩٢ هـ.
٤ ـ مسند الإمام أحمد : الامام أحمد بن حنبل ، الميمنية ١٣١٣ هـ.
٥ ـ نيل الأوطار . الشوكاني ، العثماني ١٣٥٧ هـ.
٦ ـ فتح الباري شرح البخاري : ابن حجر العسقلاني ، الخيرية ١٣١٩ هـ.

٧ ـ إرشاد الساري شرح البخاري : القسطلاني ، الأميرية ١٣٢٥ هـ.
٨ ـ شرح صحيح مسلم : محي الدين النووي ، الأميرية ١٣٢٥ هـ .
٩ ـ تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة ، كردستان ١٣٣٦ هـ.
١٠ ـ منهاج السنة : ابن تيمية ، الأميرية ١٣٢٢ هـ.
١١ ـ معرفة علوم الحديث : الحاكم النيسابوري ، دار الكتب المصرية ١٩٣٧ هـ.
١٢ ـ مقدمة ابن الصلاح : أبو عمر بن الصلاح ، طبع الهند ١٣٥٧ هـ.
١٣ ـ تدريب الراوي : الجلال السيوطي ، الخيرية ١٣٠٧ هـ.
١٤ ـ هدى الساري مقدمة فتح الباري : ابن حجر العسقلاني ، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٧ هـ.
١٥ ـ الأسلوب الحديث : أمين الشيخ ، مطبعة شبرا ١٩٤٠ م.

كتب اللغة :

١ ـ القاموس المحيط : مجد الدين الفيروز ابادي ، المصرية ١٩٣٥ م .
٢ ـ تاج العروس شرح القاموس : السيد مرتضى الزبيدي ، الخيرية ١٣٠٦ هـ.
٣ ـ لسان العرب : ابن منظور ، الأميرية ١٣٠٢ هـ.
٤ ـ أساس البلاغة : الزمخشري ، الأميرية ١٣٢٧ هـ.

كتب الفقه والأصول :

١ ـ فتاوي ابن تيمية : ابن تيمية ، كردستان العلمية ١٣٢٩ هـ.
٢ ـ أعلام الموقعين : ابن القيم ، مطبعة فرج الله الكردي ١٣٢٥ هـ.

٣ ـ الموافقات : أبو اسحق الشاطبي ، مطبعة المكتبة التجارية الطبعة الأخيرة .

٤ ـ المستصفى : أبو حامد الغزالي ، الأميرية ١٣٢٤ هـ.

٥ ـ مسلم الثبوت وشرحه : محب الله عبد الشكور وعبد العلي الأنصاري ، الأميرية ١٣٢٤ هـ.

٦ ـ شرح التلويح : سعد الدين التفتازاني ، دار الكتب العربية ١٣٢٧ هـ.

٧ ـ جمع الجوامع وشرحه : ابن السبكي ، والجلال المحلي ، الأزهرية ١٢٣١ هـ .

كتب التاريخ والرجال :

١ ـ الإصابة في تمييز الصحابة : أحمد بن علي العسقلاني ، الشرفية ١٩٠٧ م .

٢ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة : ابن الأثير الجزري ، الوهبية ١٢٨٠ هـ .

٣ ـ تهذيب التهذيب : ابن حجر العسقلاني طبع الهند ١٣٢٥ هـ.

٤ ـ ميزان الاعتدال : الحافظ الذهبي ، السعادة ١٣٢٥ هـ .

٥ ـ لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني ، طبع الهند ١٣٣١ هـ.

٦ ـ خلاصة تذهيب الكمال : صفي الدين الخزرجي ، الخيرية ١٣٢٢ هـ.

٧ ـ طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكي ، الحسينية الطبعة الأولى .

٨ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب : ابن فرحون السعادة ١٣٢٩ هـ.

٩ ـ نيل الابتهاج : أحمد بابا التبنكي السعادة ١٣٢٩ هـ.

١٠ ـ الفوائد البهية في تراجم الحنفية : محمد اللكنوي ، السعادة ١٣٢٤ هـ.

١١ ـ الفهرست : ابن النديم ، الرحمانية ١٣٤٨ هـ .

١٢ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : شمس الدين السخاوي ، مطبعة القدسي ١٣٥٥ هـ.

١٣ ـ شذرات الذهب : عبد الحي بن العماد ، مطبعة القدسي ، ١٣٥٠ هـ .

١٤ ـ مروج الذهب : أبو الحسن المسعودي ، البهية ١٣٤٦ هـ .

١٥ ـ مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ، الشرفية ١٣٢٧ هـ.

١٦ ـ طبقات المفسرين : الجلال السيوطي ، طبع ليدن ١٨٣٩ م .

١٧ ـ طبقات المفسرين : الداودي ، نسخة مخطوطة بدار الكتب نمرة ١٦٨ .

١٨ ـ تهذيب الأسماء واللغات : محيي الدين النووي ، إدارة الطباعة المنيرية الطبعة الأخيرة .

١٩ ـ وفيات الأعيان : ابن خلكان ، الأميرية ١٢٩٩ هـ.

٢٠ ـ فوات الوفيات : محمد بن شاكر الكتبي ، الأميرية ١٢٨٣ هـ.

٢١ ـ العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم : علي بن لالي بالي ، الميمنية . ١٣١٠ هـ.

٢٢ ـ معجم الأدباء : ياقوت الحموي ، مطبعة عيسى الحلبي ١٩٣٦ م.

٢٣ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : ابن حجر العسقلاني ، طبع الهند ١٣٤٨ هـ.

٢٤ ـ روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات : محمد باقر الموسوي ، طبع فارس ١٣٠٧ هـ .

٢٥ ـ بغية الوعاة في طبقات النحاة : الجلال السيوطي ، السعادة ١٣٢٦ هـ.

٢٦ ـ أعيان الشيعة : السيد محمد الأمين الحسيني ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٣٥٣ هـ.

٢٧ ـ ترجمة الرجال المذكورة في شرح الأزهار : أحمد بن عبد الله الجنداري التمدن ١٣٣٢ هـ.

٢٨ ـ تاريخ التشريع الإسلامي : محمد (بك) الخضري مطبعة عيسى الحلبي ١٩٣٠ م.

٢٩ ـ مذكرة تاريخ التشريع الإسلامي : السبكي ، السايس ، البربري ، وادي الملوك ١٩٣٦ م.

٣٠ ـ نظرة عامة في تاريخ التشريع الإسلامي : علي حسن عبد القادر ، دار العلوم ١٩٤٢م .

٣١ ـ تاريخ الجدل : محمد أبو زهرة ، دار العلوم ١٩٣٤م .

كتب التوحيد والملل والنحل :

١ ـ الفرق بين الفرق : أبو منصور البغدادي ، المعارف ١٣٢٨ هـ.

٢ ـ التبصير في الدين : أبو المظفر الإسفراييني ، الأنوار ١٩٤٠ م .

٣ ـ شرح المواقف : السيد الشريف ، السعادة ١٩٠٧ م.

٤ ـ تبيين كذب المفتري : ابن عساكر ، مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧ هـ .

٥ ـ إيثار الحق على الخلق : أبو عبد الله اليماني ، الآداب ١٣١٨ هـ.

٦ ـ شرح العقائد النسفية : سعد الدين التفتازاني ، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٢١ هـ.

٧ ـ الإكليل في المتشابه والتنزيل ضمن مجموعة الرسائل الكبرى : ابن تيمية العامرة الشرفية ١٣٢٣ هـ.

٨ ـ الفصل : علي بن حزم ، الأدبية ١٣٢٠ هـ.
٩ ـ الملل والنحل : محمد الشهرستاني ، الأدبية ١٣٢٠ هـ.
١٠ ـ كشف أسرار الباطنية : محمد بن مالك اليماني ، الأنوار ١٣٥٧ هـ.
١١ ـ فضائح الباطنية : أبو حامد الغزالي ، طبع ليدن ١٩١٦ م .
١٢ ـ تعويف الشيعة : عبد الرزاق الحسنى ، العرفان ١٣٥٢ هـ .
١٣ ـ الوشيعة في نقد عقائد الشيعة : موسى جاد الله ، الشرق ١٣٥٥ هـ.
١٤ ـ كتاب بهاء الله : بهاء الله ، السعادة ١٩٢٠ م.
١٥ ـ رسائل أبي الفضائل : أبو الفضائل الإيراني ، السعادة ١٩٢٠ م .
١٦ ـ مفتاح باب الأبواب : ميرزا محمد مهدي خان المنار ١٣٢١ هـ.
١٧ ـ خطابات ومحادثات عبد البهاء : عبد البهاء عباس جمع ع ج س ، السعادة ١٩٢٠ م .
١٨ ـ المبادىء البهائية : معرب عن مجلة كوكب الغرب الأمريكية رعمسيس ١٩٢١ م.
١٩ ـ الحجج البهية : أبو الفضائل الايراني ، السعادة ١٩٢٥ م .
٢٠ ـ محاضرة عن البهائية : عبد العزيز نصحي ، السلفية ١٣٥٢ هـ.

كتب التصوف :

١ ـ الفتوحات المكية : ابن عربي ، دار الكتب العربية ١٣٢٩ هـ.
٢ ـ الفصوص : ابن عربي ، الزمان ١٣٠٤ هـ.
٣ ـ إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي ، مطبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية ١٣٥٦ هـ.

٤ ـ تلبيس إبليس : ابن الجوزي ، النهضة ١٩٢٨ م .

كتب الفلسفة :

١ ـ رسائل إخوان الصفا : إخوان الصفا ، الآداب ١٣٠٦ هـ.

٢ ـ فصوص الحكم : الفارابي ، السعادة ١٩٠٧ م.

٣ ـ رسائل ابن سينا : أبو علي بن سينا ، مطبعة هندية ١٩٠٨ م .

٤ ـ جامع البدائع : ابن سينا ، السعادة ١٩١٧ م.

٥ ـ تاريخ الفلسفة : الدكتور مدكور ـ يوسف كرم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ م.

كتب المعلومات العامة :

١ ـ الكتاب المقدس : المطبعة الأمريكانية ببيروت ١٩٣٠ م.

٢ ـ شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد ، دار الكتب العربية ١٣٢٩ هـ.

٣ ـ الحيوان : الجاحظ ، السعادة ١٣٢٥ هـ.

٤ ـ الكامل : المبرد ، الخيرية ١٣٠٨ هـ.

٥ ـ كشف الظنون : ملا كاتب جلبي ، دار الطباعة المصرية ١٢٧٤ هـ.

٦ ـ فجر الاسلام : أحمد (بك) أمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥ م .

٧ ـ ضحى الإسلام : أحمد (بك) أمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٣ هـ.

٨ ـ رسائل الإصلاح محمد الخضر حسين ، مطبعة القدسي ١٣٥٨ هـ.

٩ ـ القول الفصل : شيخ الإسلام صبري ، مطبعة عيسى الحلبي ١٣٦١ هـ.

١٠ ـ الرسالة المستطرفة : محمد الكناني ، طبع بيروت ١٣٢٢ هـ.

١١ ـ طبائع الاستبداد ، ومصارع الاستعباد : عبد الرحمن الكواكبي الجمالية .

١٢ ـ اللؤلؤ المنظوم في مبادىء العلوم . أبو عليان ، الحسينية ١٣٢٥ هـ.

١٣ ـ المبادىء النصرية : نصر الحويجي ، الخيرية ١٣٢٠ هـ.

١٤ ـ محمد عبده : عثمان أمين ، مطبعة عيسى الحلبي ١٩٤٤ م .

١٥ ـ الإسلام والطب الحديث : عبد العزيز إسماعيل باشا ، الاعتماد ١٣٥٧ هـ.

١٦ ـ النماذج الخيرية : منير الدمشقي ، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٩ هـ.

١٧ ـ دائرة المعارف الإسلامية : أحمد الشنتناوي وشركاه ، مطبعة لجنة الترجمة ١٩٣٣ م .

١٨ ـ دائرة المعارف للبستاني : المعلم بطرس البستاني ، طبع بيروت ١٨٧٦ م.

١٩ ـ مجلة الإيمان : علماء الوعظ والإرشاد .

٢٠ ـ مجلة نور الإسلام : علماء الوعظ والإرشاد .

٢١ ـ مجلة نور الإسلام (الأزهر) : الأزهر الشريف .

٢٢ ـ مجلة الهداية الإسلامية : جمعية الهداية الإسلامية .

٢٣ ـ مجلة المقتطف : دار المقطم .

٢٤ ـ مجلة السياسة الأسبوعية : محمد حسين هيكل (باشا).

ثانيا : علوم الحديث :

١ - أهمية الحديث :

يقصد بالحديث أو السنة كل ما قاله الرسول عليه السلام أو فعله أو رآه فأقره ولم ينكره والحديث يلي القرآن في أهميته الكبرى . وذلك أنه يفصل ما أجمله القرآن ويفسر ما يصعب على الناس فهمه منه ، وكثير من آيات القرآن مجملة ، أو مطلقة ، أو عامة . والحديث يفصلها أو يقيدها أو يخصصها ، فالقرآن ، مثلاً ، أمر بالصلاة على وجه الاجمال ، أما الحديث فقد بين عددها وحدد أوقاتها ووصف كيفية أدائها .

وكان الرسول يحل مشاكل المسلمين ، ويجيب عن أسئلتهم ، ويفتي لهم من قضاياهم المختلفة ، وعلى هذا فقد أصبح الحديث أساساً مهماً من أسس التشريع في العبادات والمسائل الدينية والجزائية ، وكان للحديث أعظم الأثر في نشر الثقافة في العالم الاسلامي ، فقد أقبل الناس على دراسته ، ورحلوا في سبيل جمعه وتعلمه ، فكان من ذلك تبادل الآراء العلمية ، واطلاع علماء بلد على ما في البلد الآخر من علوم ومعرفة ، وبهذا كان الحديث من العوامل المهمة في توحيد الثقافة في العالم العربي والاسلامي .

٢ - نقد الحديث وتدوينه :

لم يدون الحديث تدويناً شاملاً منظماً في عهد الرسول ﷺ وفي صدر الاسلام . وإنما كان الناس يتناقلون الأحاديث المتفرقة عن طريق الرواية الشفهية ، وقد نشأ عن عدم تدوين الحديث في حياة الرسول ﷺ ، وإكتفاء الصحابة والتابعين الاعتماد على الذاكرة ، وصعوبة حصر ما قاله الرسول أو فعله في مدة ثلاث وعشرين سنة من بدء الوحي إلى وفاته ﷺ ، أن بعض الناس أخذوا يضعون الأحاديث وينسبونها للنبي .

وهذا ما يسمى بالحديث الموضوع، ومن أسباب وضع الحديث: الخصومات السياسية، والخلافات الفقهية والعنصرية. ومما زاد في ذلك تساهل قبول العلماء للأحاديث الموضوعة في الترغيب والترهيب مما لا يترتب عليه تحليل حرام أو تحريم حلال.

ولم يغفل العلماء عن تمييز الحديث الصحيح من الموضوع، بل أعاروا ذلك عظيم اهتمامهم، وكرسوا جهودهم لتنقيته مما دخل عليه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة، وقد اشترطوا إسناد الحديث، أي بيان سلسلة الرواة الذين نقلوا الحديث عن النبي ﷺ وهذا ما يعرف بالسند، أما نص الحديث فيسمى المتن.

ومن نقد رواة الحديث وتقصي أحوالهم تعرف قيمتهم من حيث الصدق، ويعرف أيضاً ما إذا كانوا منحازين إلى حزب سياسي أو فلسفي ليؤخذ ذلك بنظر الاعتبار.

ويسمى نقد الرواة بعلم الجرح والتعديل، والجرح هو إكتشاف معايب الراوي، أما التعديل فهو التوصل إلى أن الراوي عادل أو عدل فيما يروي، وقد وضع العلماء للجرح والتعديل قواعد.

صنف العلماء الحديث بحسب قوة السند وصحته إلى أصناف منها المتواتر والآحاد، والمتواتر ما رواه جماعة موثوقون لا يتواطئون على الكذب عن جماعة مثلهم إلى الرسول ﷺ.

وهذا النوع من الحديث يفيد العلم. أما الأحاديث غير المتواترة فتسمى آحاداً، وهي لا تفيد العلم عند الفقهاء، وإنما يجوز العمل بها عند ترجح صدقها.

وقد قسموا الحديث كذلك إلى درجات بحسب تسلسل الرواة في السند، ومن ذلك الحديث المسند وهو ما اتصل إسناده من روايته إلى منتهاه

ويسمى هذا النوع من الحديث أيضاً المتصل أو الموصول .

والحديث المرسل وهو الذي سقط من سنده الصحابي فرواه التابعي عن الرسول مباشرة .

والحديث المنقطع وهو الذي سقط من سنده راو أو أكثر ؛ والحديث المعضل وهو الذي سقط من سنده اثنان أو أكثر من الرواة .

وقد بدأ العلماء يدونون الحديث في مطلع القرن الثاني الهجري ، ومن أوائل الكتب التي الفت فيه (الموطأ) للامام مالك بن انس المولود في المدينة سنة ٩٥ هـ والمتوفى فيها سنة ١٧٩ هـ ، والموطأ مزيج من الحديث والفقه ، فقد جمع أحاديث الرسول ﷺ والآثار المروية عن الصحابة والتابعين ومعاملات الناس في المدينة وهو يقيم الأحاديث بحسب المواضيع ، ويجمع الأحاديث التي تخص كل موضوع في باب مستقل .

وبعد عصر الامام مالك نشط التأليف المنظم في الحديث حين جمعت الأحاديث في كتب خاصة وأفردت عن الشروح الفقهية ، وأشهر هذه الكتب صحيح البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، وصحيح مسلم المتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وسنن ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وسنة ابي داود السجستاني المتوفى بالبصرة سنة ٢٧٣ هـ وجامع الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ وسنن النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ ، وتسمى هذه الكتب بالصحاح الستة ، وأعظمها شهرة وتوثيقاً (صحيحاً البخاري ومسلم) ، فقد ميزها العلماء وسموها بالصحيحة ، وسموا صاحبيها بالشيخين ، وسموا الكتب الأربعة الأخرى بالسنن والأحاديث في الصحاح الستة مقسمة على أبواب الفقه حيث جمعت الأحاديث المتعلقة في موضوع معين في باب معين :

ومن الكتب المعتمدة في الحديث مسند الامام احمد بن حنبل الشيباني المتوفى سنة ٢٤١ هـ وهو يشتمل على أربعين ألف حديث تكرر منها عشرة آلاف .

وأحاديث المسند مرتبة بحسب الرواة من الصحابة ، أي أن كل الأحاديث التي رواها صحابي معين تجمع تحت اسمه في فصل خاص مهما اختلفت موضوعاتها من صلاة أو زكاة أو ميراث أو غيرها .

والخلاصة أن أساس ترتيب الأحاديث في الموطأ أو الصحاح الستة هو وحدة الموضوع ، أما أساس التقسيم في المسند فهو الصحابي الراوي ، ومن كتب الحديث المشهورة الكافي للكليني المتوفي سنة ٣٢٩ هـ ، وفقيه من لا يحضره الفقيه لابن بابويه المعروف بالصدوق المتوفي سنة ٣٨١ هـ وتهذيب الأحكام والاستبصار للشيخ الطوسي المتوفي سنة ٤٦٠ هـ.

لقد اكتمل جمع الحديث وتدوينه والتصنيف فيه في القرن الرابع الهجري ، واعتمد المسلمون جملة من هذه الكتب واحلوها المنزلة العالية ، وانصرف العلماء إلى هذه الكتب المعتمدة ، وأخذوا يشرحونها ، أو يهذبونها ، أو يختصرونها أو يعيدون ترتيب الاحاديث فيها وفق أنماط جديدة وقد الفت في ذلك المئات من الكتب في مختلف العصور .

٣ ـ أهم أئمة الحديث :

بعدما تناولنا تدوين الحديث على أيد الأئمة السابق ذكرهم ، نود أن نفرد جانباً خاصاً لأهم هؤلاء الأئمة ، فلم يلق علم من العلوم من العناية والاهتمام ما لقيه علم الحديث ، فقد عكف الناس منذ صدور الاسلام على حديث رسول الله يحفظونه وينقلونه ، ويبحثون عن سنده ورواته .

ففي عصر الصحابة اشتهر عدد من الصحابة برواية الحديث ومن أهمهم أبو هريرة وعبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، والسيدة عائشة ، وعبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدري ، وكان هؤلاء من الرواة المكثرين .

وفي عصر التابعين اشتهر عدد من العلماء برواية الحديث ، منهم : سعيد بن المسيب ، والزهري ، ومحمد ابن سيرين .

وأول من صنف في الحديث الصحيح الامام البخاري ، ثم جاء بعده الامام مسلم ، وقد حاول كل منهما أن يدون الحديث الصحيح وفق شروط معينة ، وقد استوعبا في صحيحيهما عددا كبيراً من الأحاديث النبوية الصحيحة ، حتى قال ابن تيمية : « ليس تحت أديم السماء كتاب أصح من البخاري ومسلم بعد القرآن ».

الإمام البخاري :

هو أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري المولود سنة ١٩٤ هـ من بخارى ، والمتوفى سنة ٢٥٦ هـ قرب سمرقند .

كان البخاري من أئمة الحديث وأعلامه ، تلقى الحديث عن كبار علماء عصره حتى استطاع أن يحفظ عدداً كبيراً من الأحاديث على اختلاف أنواعها الصحيح منها وغير الصحيح ، وقد اشتهر بسرعة الحفظ ودقة النقل وسرعة البديهة ، بالاضافة إلى ما اتصف به من صبر وجلد في طلب العلم ، وحب وشغف بحديث رسول الله .

وبفضل هذه الصفات أصبح البخاري الامام الأول في الحديث والرواية ، وأصبح « صحيح البخاري » الكتاب الاول الذي يعتمد عليه في الحديث الصحيح .

وقد ترك البخاري عدداً من المؤلفات العلمية ، إلا أن أشهر هذه الكتب كتابه « الجامع الصحيح » المشهور بصحيح البخاري ،ويعتبر هذا الكتاب أول كتاب في الحديث الصحيح ، إذ اشتمل على ٩٠٨٢ حديثاً اختارها من الروايات الكثيرة التي توافرت لديه .

وكان البخاري متشدداً في قبول الأحاديث ، إذ كان يشترط في رواة أحاديثه أن يكونوا قد بلغوا أعلى درجة من درجات العدالة والضبط والاتقان لكي تكون الرواية المنقولة عنهم صحيحة ، ولهذا تلقى الناس صحيح

البخاري بالأكبار والتقدير ، ووثقوا به كل الثقة نظراً للجهد الكبير الذي بذله البخاري في جمع صحيحه ، وإذا كان البخاري قد جمع هذا العدد من الأحاديث الصحيحة فإن هذا لا يعني أنه قد استوعب كل الحديث الصحيح ، ولكن من المؤكد أن ما ورد في صحيح البخاري هو أصح ما ورد في الحديث .

الإمام مسلم :

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المولود سنة ٢٠٤ هـ ، والمتوفي سنة ٢٦١ هـ في نيسابور .

تلقى الامام مسلم الحديث عن عدد كبير من علماء عصره ، ورحل إلى عدد من الامصار الاسلامية باحثاً عن الحديث ، حتى استطاع أن يبلغ درجة كبيرة من العلم ، اعترف له بها العلماء الذين عاصروه والذين جاؤوا من بعده .

وقد وضع كتابه الشهير « صحيح مسلم » الذي يعتبر من الكتب الهامة التي يرجع اليها ويعتمد عليها في معرفة الأحاديث الصحيحة ، ولم يذكر من كتابه إلا ما ثبتت عنده صحته من الأحاديث وقال في كتابه : ما وضعت شيئاً في كتابي هذا إلا بحجة ، وما أسقطت منه شيئاً إلا بحجة » ، ويبلغ عدد الأحاديث التي اشتمل عليها صحيح مسلم ٣٠٣٠ حديثاً .

٤ ـ علوم الحديث :

تكاملت جهود العلماء في الحديث في جمع الحديث وتدوينه في القرن الرابع بما لا مزيد عليه ، واستمرت عنايتهم بعلوم الحديث وظلت حية على مدى العصور المختلفة ومن هذه العلوم :

(أ) علم غريب الحديث :

وهو علم يبحث في الأحاديث ذات المعاني الغامضة ، أو ما كان المراد

منها بعيداً غير واضح للقارىء العادي ، فيشرح هذه المعاني الغامضة ، ويفسرها ، ويوضحها ، ويقرب المراد منها ، ويكشف عما ينطوي فيها من المعاني والأحكام ، ومن أشهر الكتب في هذا العلم « غريب الحديث » لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

(ب) علم تأويل الحديث :

وهو علم يبحث عن التوفيق بين الأحاديث المتناقضة في الظاهر بطريقة التأويل ، فيزيل التناقض ، ويكشف المعنى ويبين عن المراد المقصود من الحديث ، ومن الكتب المشهورة في هذا العلم « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة الدينوري .

(حـ) علم علل الحديث :

وعلل الحديث هي الأسباب الخفية التي تقدح في الحديث وتضعفه من وصل منقطع ، أو رفع موقوف ، أو إدخال حديث في حديث .

(د) علم ناسخ الحديث ومنسوخه :

يسمى الحديث محكماً إذا سلم من المعارضة وإذا عورض الحديث بحديث آخر ، وظهر بينهما تناقض ، وأمكن التوفيق بين المتعارضين بما يرفع التناقض بلا تعسف ولا إسراف في التأويل ، فيسمى الحديث مختلفاً ، وإذا لم يمكن التوفيق بين الحديثين ، وثبت تأخر أحدهما بالزمن فالمتأخر بالزمن يسمى ناسخاً ، ويقال للمتقدم المنسوخ ، وقد ألف في هذا العلم علماء كثيرون منهم أبو جعفر النحاس مؤلف كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن المتقدم ذكره في فصل القرآن .

(هـ) مصطلح الحديث :

وعلوم الحديث ، وهي تجمع مختلف فنون الحديث في علم واحد وتسمى أيضاً علم مصطلح الحديث ، وقد كتب فيه العلماء الكتب الكثيرة ،

ومن أشهرهم الخطيب البغدادي ، صاحب تاريخ بغداد ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، الذي لم يترك فناً من فنون الحديث إلا وصنف فيه كتاباً مفرداً ؛ وألف الحافظ تقي الدين بن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣ هـ « علوم الحديث » وقد اشتهر هذا الكتاب باسم مقدمة ابن الصلاح ، وقد اختصره المؤرخ المفسر ابن كثير واستدرك عليه استدراكات مفيدة في كتابه « اختصار علوم الحديث » ، وقد شرح هذا الكتاب احمد محمد شاكر ونشره بعنوان : « الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث » وهو من أحسن الكتب المختصرة في علوم الحديث .

(و) علم رجال الحديث :

وقد اهتم علماء المسلمين برواة الحديث إهتماماً كبيراً ، والفوا في ذلك الكتب العديدة ، وكانت تلك المؤلفات التاريخية ، نوعاً رائعاً من المؤلفات في هذا المجال ، وسجلاً مفصلاً للحياة الثقافية في البلاد الاسلامية عامة على مدى العصور . وقد سلك المؤلفون طرقاً عديدة في تأليفهم فمنهم من عنى بحياة الرواة وفصلها ، ومنهم من عنى بأسماء الصحابة خاصة ، ومنهم من عنى برواة الحديث عامة ، ومنهم من قصر كتابه على الضعفاء ، أو الحفاظ ، أو المدلسين ، أو الوضاعين . ومنها كتب خاصة بالجرح والتعديل ، أو برجال كتاب معين ، والكتب المؤلفة في رجال الحديث كثيرة تكاد لا تحصى ومن أشهرها كتاب التاريخ للبخاري ، وكتاب الطبقات لخليفة بن الخياط المتوفى سنة ٢٤٠ هـ وكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ والاستيعاب لابن عبد البر المتوفى سنة ٤٩٣ هـ وأسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣١ هـ وميزان الاعتدال للحافظ الذهبي .

والخلاصة أن الحديث هو الأصل الثاني من أصول الدين في الاسلام ، وقد اهتم به المسلمون فرحلوا في طلبه ، وجمعوه والفوا في علومه المختلفة

ما لا يحصى من الكتب ، وبنوا لتدريسه المدارس والمكتبات ، وقد نتج عن العناية بالحديث انتشار الثقافة في العالم العربي الاسلامي وتوحيدها وفتح أبوابها لجمهور الناس ، والعناية باللغة العربية والمحافظة عليها ، وبالتراث العربي والاسلامي عموماً .

المراجع

١ ـ الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث / تأليف الحافظ ابن كثير وشرح احمد محمد شاكر .

٢ ـ علوم الحديث ومصطلحه / صبحي الصالح . ـ دمشق : جامع دمشق ، ١٩٥٩ .

٣ ـ فجر الاسلام / أحمد امين ـ القاهرة :

٤ ـ قواعد الحديث / محي الدين الموسوي ـ النجف : مطبعة الآداب .

٥ ـ كتاب الكفاية في علم الرواية / الخطيب البغدادي ـ حيدر اباد الدكن ، ١٣٥٨ هـ .

ثالثا : الفقـه :

يتناول الفقه الاسلامي جميع المسائل التي تواجه الانسان في حياته الشخصية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، ويضع القواعد التي تنظم حياته ، فهو يبحث في الفرائض الدينية ، والأحوال الشخصية ، والمعاملات الاقتصادية ، وفي الجرائم وعقوبتها ، وقد مر الفقه بتطورات هامة ، وأنتج حركة رائعة من حيث ضخامة الانتاج وعدد العلماء والفقهاء وابتكار الأساليب في الاجتهاد ، والتعبير اللغوي والمصطلحات ، ووضع القواعد التي تساير

تغير الظروف ، وتطور المجتمع ، والحق أن إنتاج المسلمين في الفقه من أقوى الأدلة على خصب الثقافة العربية الاسلامية ، ورقي مستواها وأصالتها .

١ ـ مصادر الفقه :

وتستند قواعد الفقه على أصول أربعة وهي : القرآن ، والسنة ، والاجماع ، والرأي أو الاجتهاد .

أولاً ـ القرآن :

القرآن يفيد القطع من ناحية ثبوته ووجوب العمل به ، وهو المصدر النقلي الأساسي الأول الذي لا يعدلْ عنه إلى سواه .

ولكن لفظ القرآن قد يكون نصاً واضحاً محدداً لا يحتمل إلا معنى واحداً ، وقد يحتمل عدة معان ، فيكون محل اجتهاد المجتهدين ، وقد بين الفقهاء قواعد التفسير والاجتهاد ، وأوضحوا شروطها ، والعلوم الموصلة إليهما . وقد ذكرنا شيئاً من ذلك عند الحديث عن التفسير .

ثانياً ـ السنة :

والسنة هي المصدر الأساسي الثاني للتشريع بعد القرآن ، وقد أجمع الفقهاء على وجوب العمل بالحديث الصحيح ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ الحشر : ٧ .

ثالثاً ـ الاجتهاد أو الرأي :

قام التشريع في حياة الرسول ﷺ على القرآن الكريم وعلى السنة النبوية الشريفة ، ولما توفى الرسول سار المسلمون على هذين الأساسيين في حل ما ينشأ لهم من مشاكل قانونية ، فإذا واجهتهم مسائل لا يجدون فيها نصاً في القرآن أو السنة لجأوا إلى الاجتهاد برأيهم ، وهذا ما عرف فيما بعد بالاجتهاد أو الرأي أو القياس .

وقد كان الخليفة أبو بكر الصديق (رض) إذا عرضت عليه قضية ولم يجد فيها نصاً في القرآن والسنة يجمع الناس ويستشيرهم فيبحثون القضية ويبدون فيها آراءهم ، فإذا اجتمع رأيهم على حل قضى به ، وكذلك كان يفعل الخلفاء الراشدون وفقهاء عصورهم ، وقد قال عمر بن الخطاب (رض) لشريح لما ولاه قضاء الكوفة « انظر ما يتبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً ، وما لم يتبين لك فاتبع فيه سنة رسول الله ﷺ وما لم يتبين لك في السنة فاجتهد فيه برأيك » .

رابعاً - الاجماع :

وكان الحكم الذي يتوصل إليه المجتهدون من الصحابة ، بعد مشاورة وتقليب للآراء المختلفة ، يسمى إجماعاً ، ويتوجب على الناس أن يتبعوه ولا يخالفوه ، لأن في مخالفته نقضاً لوحدة الرأي ، وكان الاجماع في ذلك العصر ميسوراً لأن عدد المجتهدين من الصحابة كان قليلاً ، فكان من السهل جمعهم واستشارتهم والاطلاع على آرائهم في أي موضوع .

وكان الاجتهاد والاجماع يستندان إلى القرآن والسنة ، وإلى العرف والعادة السائدة في المجتمع مما لم يتعرض له القرآن والسنة بالتغير .

وكان الاجتهاد والاجماع في هذه المرحلة بسيطين ، ببساطة المجتمع العربي الاسلامي الأول ، وقد تعقد فيما بعد وكثرت فيهما المصطلحات ، واختلفت حولهما الآراء .

وفي عصر التابعين ، أي من نهاية العصر الراشدي إلى حوالى نهاية القرن الأول ، نشط التشريع ، وتعددت فيه الاتجاهات الفقهية .

وفي هذا العصر بدأ النزاع بين أصحاب الاجتهاد والرأي وأصحاب الحديث ، وكان أصحاب الحديث يقفون عند ظاهر النصوص من القرآن والسنة ، لا يبحثون في عللها ، وقلما كانوا يفتون برأيهم إجتهاداً ، أما

أصحاب الرأي فكانوا لا يقبلون الحديث على علاته ، ويحاولون ربط المسائل بعضها ببعض ، ويبدون آراءهم ويجتهدون في القضايا التي لا يجدون لها نصوصاً في الآثار النقلية .

وقد اشتهر أهل الحجاز بالتمسك بالحديث ، أما فقهاء العراق فقد أخذوا بالرأي واشتهروا فيه ، ومن الأسباب التي جعلت أهل الحجاز يتمسكون بالحديث ، وأهل الأمصار ، وخاصة العراقيين ، يميلون إلى الاجتهاد ، أن الحجاز هو موطن السنة وفيه كثير من العادات والاعراف التي أقرها الاسلام ولم يتعرض لها بتغيير وتحوير إلا قليلاً ، وقد بقي الناس يذكرون سيرة الرسول ﷺ وأصحابه ويتبعون ما توارثوه عنهم ، ويسيرون حسب تقاليدهم وأعرافهم .

أما في الأمصار الجديدة فقد واجه الفقهاء حضارات قديمة متطورة ، ووجدوا أموراً لم تكن في الحجاز ، ووجدوا نظماً وحياة إجتماعية جديدة عليهم ، واطلعوا على تشريعات وأحكام سائدة وطرق في التقاضي غير معروفة لديهم ، وقد حملتهم كل هذه الأسباب على أعمال الفكر والاجتهاد فيما يعرض عليهم من قضايا تحتاج إلى حلول تشريعية .

وقد بلغ الفقه مستوى عالياً خلال القرنين التاليين ، أي من أوائل القرن الثاني إلى منتصف القرن الرابع ، فقد تم في هذا العصر تدوين الحديث ، واستقل عن الفقه وظهرت الكتب المعتمدة فيه ، وفي هذا العصر ظهرت الاصطلاحات الفقهية ، واشتدت المناقشات حول أصولها العقلية ، كالقياس والاستحسان وما تفرع عنهما .

وفي هذا العصر ظهر كبار الفقهاء الذين أصبح كل واحد منهم إماماً لمذهب فقهي ما زال قائماً حتى عصرنا هذا ، وقد امتاز هذا العصر بالخصب ، والحيوية وحرية التفكير ، فقد كان باب الاجتهاد مفتوحاً ، ولم تصبح بعد ، أقوال الفقهاء الكبار مصونة عن النقد ، فكان الفقهاء ، أحراراً في إبداء آرائهم ، ونقد آراء مخالفيهم ، وكان الناس أحراراً في الأخذ برأي

هذا الفقيه أو ذلك ولم يجمدوا على تقليد اتجاه معين .

٢ ـ المذاهب الفقهية :

لا تمثل المذاهب الفقهية آراء خارجة عن نطاق النصوص التشريعية الثابتة ، وإنما نجد الحرص الأكيد من جميع أئمة المذاهب المشهورة وغير المشهورة على تلمس الحق والصواب ، ونظراً لأن الصواب في القضايا الاجتهادية لا يمكن التأكد منه فقد حاول كل فقيه من الفقهاء أن يتلمس الصواب ويصل إليه عن طريق الاجتهاد ، إذ لا يجوز في نظر الاسلام التقليد لمن توفرت فيه شروط الاجتهاد ، ولهذا نصل إلى أن تعدد الاجتهادات وتعدد المذاهب ، إنما هو ظاهرة صحية أنجبت هذه الثروة الضخمة في الآراء والفروع .

أولاً : المذهب الحنفي :

ينسب هذا المذهب إلى شيخه ، النعمان بن ثابت ، المولود في الكوفة سنة ٨٠ هـ ، والمتوفى عام ١٥٠ هـ ، وقد نشأ في الكوفة حيث الحركة العلمية الدائبة ، فتأثر في طفولته وتلقى العلم عن كبار علماء الكوفة ، وبفضل ذكائه وصبره وجهده استطاع أن يحتل مكانة كبيرة بين علماء عصره مما مكنه من أن يتصدى للتدريس ، فالتف الناس حوله ، ووجدوا فيه علماً غزيراً ، وقدرة على المناظرة والمجادلة ، وموهبة في البحث عن العلل والأسباب .

ولعل الشيء البارز في منهجه التدريبي هو أسلوبه في الحوار ، والذي يشبه فيه طريقه « سقراط » فهو لا يلقى الدرس إلقاء ، ولكن يعرض المسألة ثم يفتح فيها باب المناقشة ، فيبدي كل فرد من تلاميذه رأيه فيها ، ثم إذا إنتهى الحوار أبدى وجهة نظره ، معتمداً في ذلك على ما تمخضت عنه المناقشة .

وقد توسع المذهب الحنفي في الأخذ بالقياس والرأي ، لا عزوفاً عن

حديث رسول الله ، ولكن لقلة الحديث الصحيح في العراق ، فإذا صح الحديث عنده فإنه لا يخرج عنه أبداً ، فإذا لم تثبت صحة الحديث عنده فعندها يلجأ إلى الرأي مستعملاً القياس والاستحسان ، وقد كان يملك قدرة فائقة في عملية التفريع واستخراج الأحكام من النصوص ، وهذا يدلنا على تمكنه من فهم الشريعة ومن استيعاب مراميها ومقاصدها .

ومن أشهر تلاميذه أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم المتوفى سنة ١٨٢ هـ الذي شغل منصب قاضي القضاة ، وأول من عين في هذا المنصب ، ومحمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩ هـ.

ثانياً ـ المذهب المالكي :

ينسب المذهب المالكي إلى شيخه الامام مالك بن انس المولود في المدينة سنة ٩٣ هـ والمتوفى فيها سنة ١٧٩ هـ وقد نشأ مالك بن أنس في المدينة فتأثر بالبيئة العلمية التي كانت مسيطرة على الرسول الكريم ﷺ وتلقى العلم عن علماء المدينة ، فاستطاع بجهده ودأبه وإلحاحه في طلب العلم أن يتبوأ مكانة كبيرة في النفوس ، ولما جلس للتدريس في مسجد الرسول الكريم ﷺ ، رحل الناس إليه من كل مكان والتفوا حوله ، فكان يتكلم في الحديث وفي الفقه ، وقد ترك كتابه الشهير « الموطأ » الذي جمع فيه الأحاديث الصحاح والفتاوى ورتبها حسب الترتيب الفقهي ، فكان هذا الكتاب كتاب حديث وفقه في آن واحد .

ويختلف منهج الامام مالك عن منهج الامام ابي حنيفة من حيث أن الامام مالك بن أنس كان زعيم مدرسة الحديث ، فكان يكره منهج مدرسة الرأي في العراق ، وبالرغم من هذه الكراهية ، فقد كان يأخذ بالرأي ويعتمد على الاجتهاد والقياس والمصلحة عندما لا يكون هناك نص شرعي ثابت .

وقد اشتهر من تلاميذ مالك عدد من العلماء منهم : عبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وقد قام تلاميذه من بعده بتدوين آرائه ونشرها ،

وقد انتشر هذا المذهب في مصر ثم انتقل إلى المغرب والأندلس ، ولا زال حتى الآن في بلاد المغرب وبعض البلاد الإسلامية .

ثالثاً ـ المذهب الشافعي :

ينسب المذهب الشافعي إلى محمد بن ادريس الشافعي المولود في غزة سنة ١٥٠ هـ والمتوفى في مصر سنة ٢٠٤ هـ وقد نشأ محمد بن ادريس يتيماً بسبب فقده لوالده فانتقلت به أمه إلى مكة ، وفي مكة تلقى العلم عن شيوخه فيها ، ثم رحل إلى المدينة حيث التقى بالامام مالك وأخذ عنه العلم ، وبعد وفاة الامام مالك اصبح والياً على « نجران » إلا أنه سرعان ما اتهم بتشيعه للعلويين والدعوة لهم فحمل إلى الخليفة الرشيد في الرقة ، إلا أنه بريء من هذه التهمة .

وبعدها انتقل إلى بغداد وكان على صلة وثيقة بالامام محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة فأخذ عنه كثيراً من علمه وفقهه .

وهكذا استطاع الشافعي أن يجمع بين منهجي أستاذه الأول مالك بن انس زعيم مدرسة الحديث ، وأستاذه الثاني محمد بن الحسن تلميذ ابي حنيفة زعيم مدرسة الرأي .

ونستطيع أن نقول أن الشافعي يعتبر مجدداً بالنسبة لعصره ، فقد لجأ في تدريسه وتقريره للأحكام إلى منهج جديد يعتمد فيه على وضع القواعد الأساسية والأصول الكلية سواء بالنسبة لمصادر التشريع أو بالنسبة لوضعه علم اصول الفقه ، حيث ترك لنا كتابيه « الام » ، و« الرسالة ».

رابعاً ـ المذهب الحنبلي :

ينسب هذا المذهب إلى الامام « أحمد بن حنبل » المولود ببغداد سنة ١٦٤ هـ والمتوفى فيها سنة ٢٤١ هـ ، واتجه إلى دراسة الحديث والرواية والتقى بالامام الشافعي في الحجاز ، فأخذ عنه الفقه والأصول .

وأحمد بن حنبل محدث وفقيه ، وقد اشتهر بالحديث أكثر من إشتهاره بالفقه ولهذا عده بعض العلماء محدثاً وليس فقيهاً .

ومن الملاحظ أن الامام أحمد بن حنبل لم يكتب آراءه الفقهية ، كما فعل الشافعي ، بل كان يكره كتابتها ، ولعل سبب ذلك يعود إلى رغبته في ألا ينصرف الناس إلى الفقه عن القرآن والسنة .

خامساً ـ المذهب الظاهري :

ينسب هذا المذهب إلى شيخه « داوود بن الاصبهاني » المولود بالكوفة سنة ٢٠٢ هـ والمتوفى في بغداد سنة ٢٧٠ هـ . وكان داوود المعروف بالظاهري من أنصار المذهب الشافعي ومن علماء هذا المذهب إلا أنه بالرغم من ذلك فقد خرج على آراء الشافعية ، وخالفهم في موضوع الأخذ بالقياس ومن المعروف أن الشافعي يعتبر القياس هو المصدر الرابع من مصادر التشريع ، ولا يأخذ بالاستحسان ، واعتبر الظاهري أن المصادر الحقيقة للتشريع هي النصوص فقط القرآن والسنة ، ولا يجوز الاعتماد على الرأي أو القياس ، ولهذا سمي بالظاهري لأنه كان يأخذ بظواهر النصوص فقط دون البحث عن العلل والأقيسة .

إلا أن المذهب الظاهري لم ينتشر بشكل واسع ، ولم تعرف آراؤه الفقهية إلا على يد « أبي محمد علي بن حزم الاندلسي » المتوفي سنة ٤٥٦ هـ والذي صنف كتابيه « المحلي »، « الاحكام في اصول الاحكام » حيث ضمنهما منهجه وهو المنهج الظاهري ، أي الأخذ بظواهر النصوص من القرآن والسنة دون الخوض فيما وراءها من علل وأقيسة .

سادساً ـ المذهب الشيعي :

بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ اختلف المسلمون في موضوع خلافة الرسول : من أحق الناس بخلافته ؟ . . إلا أن الموضوع قد حسم عندما بويع أبو بكر بالخلافة .

وبعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان تولى علي بن أبي طالب الخلافة - فأصبح الخليفة الرابع ، ولكن خلاف حاداً نشأ بين المسلمين ، ففريق وقف إلى جانب الخليفة يناصره ويدافع عن الخلافة ، وفريق آخر بزعامة معاوية بن أبي سفيان وقف في وجه الخليفة ورفض مبايعته .

ثم انشق بعض أنصار الخليفة - عليه بعد معركة « صفين » وقالوا « لا حكم إلا لله » وحارب الخليفة الخارجين عليه إلا أن أحد الخوارج طعنه في مسجد الكوفة فقتله .

وهنا استقر الحكم للأمويين وابتدؤوا ممارسة أقسى أساليب الاضطهاد ضد كل من يتوسمون فيه القدرة على مقاومتهم من آل بيت رسول الله وبخاصة من آل علي بن أبي طالب ، وكانت حادثة كربلاء ، التي قتل فيها « الحسين بن علي » على يد الأمويين من أقسى الجرائم الوحشية التي ارتكبت في حق آل البيت .

وقد ظهرت فرق كثيرة كالخوارج والشيعة وأهل السنة . ومن أهم هذه الفرق « الشيعة » ومن أهمها الزيدية والجعفرية ، والزيدية تنسب إلى الامام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ٨٠ - ١٢٢ هـ وهو فقيه محدث ؛ والجعفرية تنسب للامام جعفر الصادق ٨٠ - ١٤٨ هـ وجده علي زين العابدين بن الحسين إمام المدينة في العلم .

والخلافات بين أهل السنة والشيعة الامامية لم تكن جوهرية في أصول المسائل الفقهية ، لهذا فإن أمتنا بخير إن شاء الله وأوجه الالتقاء أكبر وأكثر .

المراجع

---

١ - تاريخ التشريع الاسلامي ، ط ٢ / عبد العظيم شرف الدين - بنغازي : جالعة بنغازي ، ١٩٧٤ .

٢ـ تاريخ التشريع الاسلامي ، ط ٧ / محمد الخضري .ـ القاهرة : ١٩٦٠ .

٣ـ تاريخ المذاهب الاسلامية / محمد أبو زهرة ـ القاهرة ؛ دار الفكر العربي .

٤ ـ مبادىء الثقافة الاسلامية / محمد فاروق النبهان ـ الكويت : دار البحوث العلمية ، ١٩٧٤ .

٥ ـ مدخل الفقه الاسلامي / محمد سلام مدكور ـ القاهرة : ١٩٦٤ .

٦ ـ محاضرات في تاريخ المذاهب الاسلامية / محمد ابو زهرة : ـ القاهرة ، مطبعة مخيمر .

٧ـ النظم الاسلامية / صبحي الصالح ـ بيروت : دال العلم للملايين ، ١٩٦٥ .

الفَصل السَابع

العلوم اللسانيَّة والإنسانيَّة

أولاً : اللغة والمعاجم

ثانياً : النحو

ثالثاً : البلاغة

رابعاً : الأدب

خامساً : التاريخ

سادساً : الجغرافية

سابعاً : الفلسفة

أولا : اللغة والمعاجم :

خصائص اللغة العربية :-

لغة كل قوم ، في أي عصر من العصور ، هي مظهر لعقليتهم في ذلك العصر فهي تدل على الأفكار التي جالت في عقولهم ، وأدوات الحضارة المادية التي إستخدموها ، والنظم الاجتماعية التي عاشوا في ظلها . وكانت لغة العرب في الجاهلية غنية بالألفاظ وخاصة فيما يتصل بطبيعة أرضهم وأجوائهم وحياتهم المادية والاجتماعية والرحوية . واللغة العربية ، بالاضافة إلى غناها اللفظي ، دقيقة التعبير ففيها لكل معنى لفظ خاص به ، وفيها ألفاظ لتأدية فروع المعاني وأجزائها . ومن أمثلة ذلك أن لكل ساعة من ساعات النار إسماً خاصاً بها . وفيها ألفاظ تعبر عن ترتيب عمر الانسان منذ تكوينه جنيناً إلى هرمه ووفاته . ونجد مثل ذلك في المعنويات ففيها كلمات تعبر عن السرور والسعادة واللهو والمرح والبؤس والخوف والفقر وكل ذلك إنما يعبر عن أحوالهم وحياتهم .

وليست اللغة العربية غنية بألفاظها فقط ، بل هي غنية كذلك بقواعد

نحوها وصرفها وإشتقاقها . ولعلها أغنى اللغات في الألفاظ التي تعبر عن المعاني المجردة والعواطف والانفعالات .

وقد أصبحت اللغة العربية ، بعد ظهور الاسلام لغة الدين والفكر وإعانتها خصائصها التي ذكرناها على التعبير عن أدواة الحضارة المادية ، والمعاني المجردة فأصبحت أداة رائعة للعلوم والفلسفة والأدب ، وكانت لغة المعرفة والثقافة في العالم خلال عصور طويلة .

جمع ألفاظ اللغة :

ومنذ صدر الإسلام بدأ العلماء يجمعون ألفاظ اللغة ويرتبونها . وإستمرت جهودهم طوال القرون الثلاثة الأولى . وكانوا يجمعون مفردات اللغة من القرآن الكريم لأنه أفصح اللغة العربية ألفاظاً وأبلغها تعبيراً ، كما كانوا يجمعونها من الشعر الجاهلي ومن ألفاظ أعراب البادية . وكانوا يرحلون إلى البادية ، أو يتصلون بمن يقدم من الاعراب إلى البصرة والكوفة ، فيسألونهم ويأخذون منهم ويدونون عنهم . وكانوا ينقدون الألفاظ ليتأكدوا من أن الكلمة صحيحة من حيث اشتقاقها من أصولها . وإنقسم علماء اللغة إلى فريقين : فريق يصححون اللفظة على أساس صحة روايتها ، وفريق لا يعتبرونها صحيحة إلا إذا كانت صحيحة من حيث القياس وقد اشتهر أهل البصرة بالقياس ، واشتهر أهل الكوفة بالسماع أي بالاعتماد على الروايات المنقولة عن الاعراب .

تدوين ألفاظ اللغة وترتيبها :

وقد دون بعض العلماء ألفاظ اللغة في رسائل وكتب صغيرة مستقلة ، يقتصر كل كتب أو رسالة منها ألفاظ موضوع معين ، مثل كتاب الابل ، وكتاب الخيل ، وكتاب النخيل للأصمعي . وكتاب خلق الانسان لأبي إسحاق الزجاج المتوفى سنة ٣١١ هـ . ونظم بعض العلماء الألفاظ في معاجم عامة لا

تقتصر على موضوع معين ، وإنما ترتب على حسب الحروف الهجائية أو على المعاني المتشابهة أو المتقاربة . وأول من رتب ألفاظ اللغة حسب الحروف الهجائية الخليل بن أحمد الفراهيدي الازدي المتوفى حوالي سنة ١٧٠ هـ وهو واضع قواعد علم العروض ، أي علم أوزان الشعر وبحوره . وقد رتب ألفاظ اللغة حسب مخارجها من الحلق فاللسان فالشفتين . وبدأ بحروف العين وجعل حرف العلة الآخر . ولهذا سمي الكتاب بكتاب العين . وقد أفاد من كتاب العين الأدباء واللغويون وأصحاب المعاجم فائدة كبيرة .

المعاجم اللغوية :

وقد إستمر العلماء على وضع المعاجم ، أو القواميس ، واتبعوا أساليب مختلفة في ترتيب الكلمات . ومن أشهر هذه المعاجم : الجمهرة في اللغة لأبي بكر محمد ابن الحسن الأزدي البصري (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) وهو معجم مرتب على حروف الهجاء مع تقليبات الكلمة . والتهذيب للأزهري (المتوفى سنة ٣٧٠ هـ) وهو مرتب على طريقة كتاب العين . والمجمل لابن فارس المتوفى (سنة ٣٩٠ هـ) والصحاح للجوهري (المتوفى سنة ٣٩٨ هـ)، وقد لخصه الرازي من أهل القرن الثامن في كتاب سماه (مختار الصحاح) . والصحاح ومختار الصحاح مرتبان على الحرفين الأول والآخر من أصل الكلمة ، أي أن الكتاب مقسم إلى أبواب بحسب الحرف الأخير من الكلمة . وكل باب مقسم إلى فصول بحسب الحرف الأول من الكلمة . فالباحث عن كلمة (علم) يجدها في باب الميم فصل العين . و (كتب) في باب الباء فصل الكاف . وقد سار على هذا النهج ابن منظور في معجمه « لسان العرب » الفيروز أبادي في « القاموس المحيط » « والزبيدي » في « تاج العروس » .

ومن المعاجم المعتبرة « المحكم » « والمخصص » لابن سيده العالم الضرير الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ فأما «المحكم والمحيط الأعظم » فهو

معجم كبير جامع ويشتمل على معظم ألفاظ اللغة . والألفاظ فيه مرتبة على ترتيب كتاب العين ، ويمتاز بالضبط والدقة . وقد انتقى المؤلف الشواهد من أوثق المصادر الشعرية وغيرها . وقد اعتمد عليه الفيروز أبادي في القاموس المحيط . أما المخصص فإن مواده مرتبة حسب مواضيعها ومعانيها وليس على الحروف الهجائية .

ومن أوسع معاجم اللغة وأعظمها إنتشاراً إلى يومنا هذا لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ وقد أورد عن كل كلمة شواهد كثير من الآيات والأحاديث والأشعار . ولسان العرب أكثر من معجم . فهو كتاب لغة ، ونحو ، وصرف ، وفقه ، وآداب وشرح للحديث ، وتفسير للقرآن . وهو يقع في عشرين مجلداً كبيراً . القاموس المحيط للفيروز أبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ وقد شرحه السيد مرتضى الزبيدي ١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م مستعيناً بلسان العرب وغيره من كتب اللغة ومعاجمها ، وسمي شرحه « تاج العروس في شرح جواهر القاموس ». وهو من أكبر المعاجم وأوثقها . ولم ينقطع التأليف في معاجم اللغة منذ فجر النهضة العربية حتى يومنا هذا : فقد ألفت عشرات المعاجم نذكر منها « المعجم الوسيط » الذي نشره مجمع اللغة العربية في القاهرة بجزئين سنة ١٩٦٠ وهو من أصح المعاجم العصرية ، وأعظمها فائدة للقارىء ولما حوى من الألفاظ المعربة والاشتقاقات الجديدة والكلمات الحضارية والعلمية المستحدثة . والمعاجم العربية الحديثة ترتب الكلمات بحسب الحرفين الأولين من المادة . فالبحث عن كلمة علم يجدها في حرف العين المتبوعة باللام و (كتب) يجدها في حرف الكاف المتبوعة بالتاء . وهكذا .

ثانيا : النحو :

النحو هو علم قواعد اللغة العربية ، وبه تعرف أحوال التراكيب العربية من الاعراب والبناء وغيرها . وهو يساعد على معرفة صحة الكلام وفساده .

وكان العرب يتكلمون لغتهم صحيحة على الفطرة والسليقة ، فلما تمت حركة التحرير وتعلم أبناء البلاد المحررة اللغة العربيـة ، دخل الفساد إلى هذه اللغة وشاع اللحن فيها ، فصاروا يرفعون المنصوب وينصبون المرفوع . وكان بعضهم يخطيء حتى في قراءة آيات القرآن الكريم . وقد إهتم العلماء بهذه المشكلة ، فبدأوا يضعون القواعد لضبط الكلام .

نشوء علم النحو :

وقد اختلف المؤرخون في أول من وضع قواعد النحو . فمنهم من قال أنه الإمام علي (كرم الله وجهه) . ومنهم من قال أنه أبو الأسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٩هـ ومنهم من ذهب إلى أن واضع النحو هو أبو الأسود الدؤلي بإرشاد الإمام علي وتوجيهه . ومنهم من يذكر غير ذلك . على أن الشيء المؤكد هو أن مباديء النحو ظهرت في البصرة أولاً ، ثم في الكوفة .

مذهب الكوفيين والبصريين في النحو :

كان أكثر اعتماد علماء النحو البصريين على القياس ، وكانوا يهملون الشاذ الذي لا ينطبق على القاعدة . وكان أكثر إعتماد علماء الكوفة على الرواية والسماع ، فكانوا يقبلون الشاذ الذي لا تنطبق عليه القاعدة ، إذا كانوا قد سمعوه من العرب . وأما الخلافات بين الكوفيين والبصريين في الفروع والتفاصيل فكثيرة جداً . وقد ألفت في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين كتب عديدة أهمها : « الانصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » لابن الأنباري .

مدرسة بغداد في النحو :

وعندما تأسست مدينة بغداد وإنتقلت الحركة العلمية إليها ، وفق العلماء بين نحو البصريين والكوفيين ، فكونوا مدرسة جديدة للنحو قامت على أساس مدرستي البصرة والكوفة ، فأصبح ذلك هو الأساس والمصدر لما ألف بعد ذلك من الكتب في النحو . وكانت الغلبة في مدرسة بغداد لنحو الكوفة .

علماء البصرة في النحو :

ومن أشهر علماء البصرة في النحو أبو الأسود الدؤلي ، الذي ينسب إليه وضع أسس هذا العلم ، والخليل بن أحمد الفراهيدي ، ويونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٢ هـ وسيبويه المتوفى حوالي سنة ١٧١ هـ ، وقد نشأ في البصرة ، وتتلمذ علي الخليل ويونس بن حبيب في النحو ، وألف فيه كتابه المسمى « الكتاب » وهو كتاب لم يسبقه أحد في النحو إلى مثله ، وقد جمع مسائل النحو العربي ، فهو يحتوي ، مثلاً ، على الكلام وأقسامه ، والفاعل والمفعول ، والفعل وما يعمل عمله وأحكام المصدر ، والحال والظروف وحروف الجر والبدل والمعرفة والنكرة والنداء والاستثناء ، وما ينصرف وما لا ينصرف والنسبة والاضافة ، والتثنية والتصغير والمقصور والممدود ، ومزيدات الأفعال ، والوقف وشروطه . ويشمل الكتاب ما يتصل بالعربية من صرف وإشتقاق وبناء وغيرها من مواضيع اللغة .

يتبين من هذا أنه كتاب جامع لكل ما يحتاجه الطالب في قواعد النحو واللغة ومن مشهوري علماء البصرة محمد بن يزيد الأزدي المعروف بالمبرد المتوفي سنة ٢٣٥ هـ واشتهر كتبه « الكامل في اللغة والأدب » .

علماء الكوفة في النحو :

وأشهر علماء الكوفة ابو جعفر بن الحسن الرؤاسي المتوفي سنة ٢٣٥ هـ وهو مؤسس مدرسة الكوفة ورأس علمائها . وقد غلبت عليه الناحية الصرفية التي اهتم بها الكوفيون وتقدموا بها على البصريين حتى عدهم المؤرخون الواضعين لعلم الصرف . ومن نحوييهم المشهورين الفراء (المتوفي سنة ٨٠٧ هـ) والكسائي وهناك لقي سيبويه وناظره وتغلب عليه ، فلمع نجمه وكان ذلك فوزاً لمدرسة الكوفة في بغداد .

التأليف في علم النحو :

وضع هؤلاء العلماء أصول علم النحو ثم جاء بعدهم علماء الفوا في

هذا العلم عدداً كبيراً من الكتب في بعضها ابتكار وإبداع وإضافة معلومات جديدة ، ولكن الكثير منها كان مجرد تقليد وشرح ، وتعليق وتلخيص لما سبق . ومن أشهر العلماء المتأخرين ابن جني المتوفي سنة ٣٩٢ هـ وكان رأس علماء النحو في بغداد وقد عمل أكثر من غيره على توحيد مذهبي البصرة والكوفة وعلى استنباط المبادىء الفلسفية في اللغة ، وعني بالصرف عناية كبيرة . والزمخشري المتوفي سنة ٣٥٩ هـ وهو أديب وعالم ومتكلم معتزلي ، وله كتاب المفصل في النحو ، وقاموس أساس البلاغة ، ومقامات في الانشاء الأدبي . وجمال الدين بن الحاجب المتوفي سنة ٦٤٦ هـ مؤلف « الكافية » في النحو وهي من أشهر المختصرات في هذا العلم وأكثرها تداولاً بين القراء ، وقد شرحها كثيرون . ومن هؤلاء العلماء محمد بن مالك الأندلسي المتوفي سنة ٦٧٢ هـ صاحب الألفية المسماة باسمه : « ألفية ابن مالك » ، وقد جمع فيها خلاصة قواعد النحو.

ثالثا: البلاغــة:

معنى البلاغة :

إهتم العلماء بنقد الأدب ، وميزوا الجميل من الشعر والنثر ، وفاضلوا بين الشعراء ، وبينوا موضع الجمال وسبب المفاضلة . وما زال النقد ينمو حتى استقل عن الأدب وأصبح علماً قائماً بذاته يسمى علم البلاغة . ويبين هذا العلم نصيب العبارة فيها ، من الصواب والوضوح ، ومقدار ما فيها من الفصاحة ، ويشير إلى موضع الجمال فيها ، ويبين أين تكون البلاغة :أهي في جمال اللفظة المفردة وحلاوة جرسها . أم في جمال المعنى ، أم في حسن التوفيق والملاءمة بين الألفاظ في العبارة أي ما يسمى بالأسلوب . ويبين هذا العلم متى يكون الكلام مؤثراً في النفس مقنعاً للعقل ، وما هي وسائل ذلك . ويورد الأمثلة على الكلام البليغ للتأثير به وإحتذائه والنسج على منواله ، وأمثلة

على الكلام الرديء لتجنبه والابتعاد عن ركاكته وأخطائه . وقد وضع العلماء في ذلك القواعد ، وقدروا لها الأصول . وكان الدافع لهم على ذلك إظهار مواضع الاعجاز في القرآن الكريم ثم في الكلام عامة .

كتاب البيان والتبيين للجاحظ :

من أقدم من وضعوا أسس هذا العلم الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين » وقد جمع الجاحظ في كتابه هذا عدداً من مسائل البلاغة والبيان والنقد . وأورد فيها الكثير من مختار الكلام ، وحاول أن يستخرج من هذه المختارات قواعد للكلام البليغ . وقد عني الجاحظ بمسائل البيان والبلاغة والقواعد البلاغية والخطابية والشعر ، والرسائل ولكن أهمية الكتاب الكبرى هي في إحتوائه على هذه المجموعة الكبيرة من مختار كلام العرب في الخطب والرسائل والقصص والشعر . وهدف الجاحظ هو تحديد خصائص الكلام الواضح السليم من العيوب ، وبيان كيف تكون الاصابة في القول ، ومتى يكون الكلام مقنعاً . فهو يتكلم على صحة مخارج الحروف وعلى الصلة بين الألفاظ في الجملة الواحدة . ويتكلم على الجملة فيبين كيف يكون الايجاز والاطناب . ويشرح العلاقة بين المعنى واللفظ . وخلاصة رأي الجاحظ في الكلام البليغ هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال فهو يقول :ـ

« والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله ، كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان ذلك الدليل . لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والافهام ، فبأي شيء بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع ». (البيان والتبيين ج ١ ص ٧٦).

المؤلفون في علم البلاغة :

وجاء بعد الجاحظ علماء كثيرون كتبوا في البلاغة الفصول والكتب

الكاملة . ومن هؤلاء ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ مؤلف كتاب البديع . وقدامه بن جعفر المتوفي سنة ٣١٠ هـ مؤلف كتاب نقد الشعر . وأبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وله كتاب الصناعتين في النظم والنثر . على أن أشهر من ألف في موضوع البلاغة وأعظمهم تأثيراً هم عبد القاهر الجرجاني المتوفى ٤٧١ هـ مؤلف كتابي « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » وأبو يعقوب السكاكي المتوفى سنة ٦٢١ هـ مؤلف كتاب « مفتاح العلوم » . وضياء الدين ابن الأثير المتوفي سنة ٦٣٧ هـ مؤلف كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ».

رابعا : الأدب :

معنى الأدب :

إهتم العلماء بجمع مفردات اللغة وتحقيقها وتنظيمها في كتب ومعاجم . وإهتموا بالنحو والصرف وألفوا في ذلك الكتب . وإهتموا بالنقد الأدبي والبلاغة وعنوا طوال العصور الاسلامية بالشعر والخطب والرسائل والقصص والأمثال والمناظرات وغيرها . لم يقتصروا على فرع واحد من الأدب ، وإنما كانوا يلمون بها جميعاً . وقد يتعمق أحدهم في ناحية من الأدب يختص بها ويبرز فيها . فقد كان مفهومهم للثقافة عاماً واسعاً يمثل المعرفة بأسرها . ومن هنا كان تعريف الأديب والمثقف ، في عرفهم ، بأنه (الشخص الذي يعرف طرفاً من كل علم) . وتظهر هذه الصفة في المؤلفات الأدبية عامة . فلم تقتصر هذه الكتب على نوع واحد من الأدب ، فقد كان الأديب لغوياً ومؤرخاً وجغرافياً ، وملماً بأطراف المعارف الأخرى .

الشعر الجاهلي :

الشعر أهم جوانب الفكر العربي قبل الاسلام : أصالة ، وإبداعاً ، وكمالاً فنياً . وضع العرب فيه أجود ما ابتكرته قرائحهم ، وعبروا فيه عن

خطرات عقولهم وخلجات أنفسهم وآرائهم في الطبيعة والحياة والمجتمع وقد وصف الشعراء طبيعتهم أرضاً وسماء وجواً وحيواناً ونباتاً ، ووصفوا مجتمعهم وما كان يلم به من خطوب أو ما يظفر به من خير . وذكروا فيه أخبارهم الماضية ، وأنسابهم وأحسابهم ، وتغنوا فيه بالمناقب التي يحمدونها وذموا المعايب التي يكرهونها وقديماً قالوا : « الشعر ديوان العرب » . والحق أن الشعر الجاهلي هو السجل الجامع لأخلاق العرب وعاداتهم ومعتقداتهم وعواطفهم وسائر معارفهم . يقول أبو هلال العسكري المتوفى سنة (٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م) في كتاب الصناعتين : « لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها . فالشعر ديوان العرب ، وخزانة حكمتها ، ومستنبط آدابها ، ومستودع علومها » .

كان الشاعر الجاهلي كريماً في قومه ، عالي المنزلة في قبيلته ، لأنه كان لسان القبيلة ، يدافع عن أحسابها ومناقبها ومما رفع من مقام الشاعر بين أبناء قومه أنه كان كريماً على نفسه حريصاً على كرامته ، فلم يذل نفسه إلتماساً للمال على أبواب ذوي المال والسلطان كما فعل شعراء المدح بعد الاسلام .

وكان الشاعر الجاهلي قوي الاحساس ، دقيق الملاحظة حاذق الوصف ، واقعي النظرة إلى الحياة . وكان الشعر غني اللغة والمعاني والموضوعات ، لغته بسيطة ، مباشرة ، خالية من الحشو والتلف ، مقتصدة في الزخارف اللفظية والمحسنات البديعة . وكانت خاصيته المميزة الايجاز البليغ ، فهو من شعر اللمحة الخاطفة الذي تعبر فيه الجملة القصيرة عن المعاني العديدة ، وترسم العبارة الوجيزة الصورة التامة .

وكانت القصيدة قوام الشعر . وهي منظومة ذات وزن واحد وقافية واحدة وتتألف من عدد من الأبيات ، كل بيت وحدة قائمة بذاتها . وتتألف القصيدة من أجزاء يتناول كل جزء موضوعاً معيناً . ومن المواضيع التي طرقها الشعراء وأكثروا فيها الحماسة والأدب والنسيب والهجاء والرثاء والوصف . وكانت كل

قصيدة تستهل عادة بالنسيب . وبعد أن يستوفي الشاعر القول فيه ينتقل إلى الموضوعات التي يقصدها كالحماسة أو الرثاء وغيرها . ويشمل النسيب الكلام في الحب والشوق والذكرى والحنين وما إلى ذلك من معاني الحب وظروفه وأحواله . ويعبر عن النسيب أيضاً بالغزل . تشمل الحماسة كل ما له صلة بالقتال والبسالة فيه ، والذود عن الحريم ، والأخذ بالثأر ، والفخر بالأهل والقبيلة .

وأما الرثاء فيشمل البكاء والحزن على الميت . ومنه التأبين أي مدح الميت والثناء عليه وتعديد صفاته الكريمة . ومنه المراثي الحكيمة التي يتحدث فيها الشاعر عن فلسفة الحياة والموت .

وموسيقى الشعر الجاهلي غنية متنوعة ، ولعلها كانت موسيقى شعر عند الأمم القديمة . وقد استخلص الخليل بن أحمد الفراهيدي بحور الشعر الستة عشر وضروبها من بحور هذا الشعر وضروبه العديدة التي لم يضف إليها الشعراء إلا القليل في عصور الاسلام كلها .

ولم يخل الشعر الجاهلي من فلسفة ، أي من نظرة معينة إلى الكون ، وموقف معين من الحياة ، مع تعليل لهذه النظرة ولهذا الموقف . وهذه الفلسفة بسيطة ، بعيدة عن التكليف ، واضحة البرهان . فقد كان الشاعر واقعياً يستمد أفكاره من تجاربه ، ويركز التجربة في بيت واحد أو في أبيات معدودة . وبساطة الفكر ناتجة عن بساطة تجربة الشاعر وتجربة المجتمع الذي يعيش فيه . ونجد نماذج جيدة لهذه الفلسفة في معلقات طرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى والحارث بن حلزة وقصائد دريد بن الصمة وغيرهم .

نقل الأدب الجاهلي وتدوينه :

كان الأدب ينتقل شفاها منذ العصر الجاهلي حتى عصر التدوين المنظم في صدر الدولة العباسية حيث إهتم الرواة بالشعر ، واختص بعضهم بروايته ، وعن طريقهم وصلنا شعر الجاهلية وصدر الاسلام . وقد ضاع معظم الشعر

الجاهلي ولم يصلنا منه إلا النزر اليسير الذي لا يتعدى تاريخ أقدمه مئة وخمسين سنة قبل الاسلام .

وأهم مجموعات الشعر الجاهلي التي وصلتنا :-

١ - المعلقات :

المعلقات أقدم ما بقي لنا من مجموعات الشعر الجاهلي وهي سبع قصائد طوال لسبعة من شعراء الجاهلية المشهورين ، جمعها حماد الرواية المتوفى سنة ١٥٦ هـ وسماها السموط أو المعلقات .

٢ - المفضليات :

والمجموعة الشعرية الثانية هي مجموعة المفضل الضبي المتوفي سنة ١٦٤ هـ وقد سماها المؤلف في الأصل « كتاب الاختيارات » ولكنها عرفت بعد ذلك بالمفضليات نسبة إلى جامعها ، وهي من أهم ما وصلنا من الشعر القديم . وتحتوي المفضليات على ١٢ قصيدة لسبعة وستين شاعراً ٤٧ منهم من شعراء الجاهلية ، و١٤ من الشعراء المخضرمين ، أي الذين ولدوا في الجاهلية وعاشوا بعد الاسلام ، و٦ من الشعراء الاسلاميين .

٣ - الاصمعيات :

والمجموعة الثانية هي القصائد التي جمعها الأصمعي وتسمى « الاصمعيات » وتشتمل على ٧٢ قصيدة مجموعة أبياتها ١١٦٣ بيتاً وعدد شعرائها ٦١ شاعراً . والمجموعة الرابعة هي جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القريشي . وهناك مجموعات شعرية أخرى أهمها الحماسة لأبي تمام المتوفى سنة ٢٣١ هـ ، والحماسة للبحتري المتوفى سنة ٢٨٤ هـ . ويضاف إلى هذه المجموعات كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة . وطبقات الشعراء لابن سلام ونجد مختارات من الشعر العربي القديم في كتب الادب كالأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، ومعجم الأدباء لياقوت ، والعقد فريد لابن عبد ربه وغيرها .

الشعر في صدر الاسلام والدولة الاموية :

وبعد ظهور الاسلام ظل العرب يهتمون بالشعر ونظمه ، ولم يقتصر ذلك على الصحراء بل امتد إلى موطن العرب في المدن والأمصار الاسلامية ، مثل المدينة ومكة والبصرة والكوفة والشام . وقد أضيفت إلى موضوعات الشعر القديمة موضوعات جديدة اقتضتها ظروف الحياة الجديدة .

فقد أيد الشعراء الدعوة الدينية ، وشاركوا في معارك التحرير والفتوح . ومدحوا الرسول ﷺ وأصحابه ، وتغنوا بشجاعة العرب المسلمين في الحروب ، وحثوا المقاتلين على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، ورثو القتلى من المجاهدين . ومن أشهر الشعراء في فترة ظهور الاسلام وإنتشاره : كعب بن زهير المتوفى سنة ٢١ هـ صاحب قصيدة « بانت سعاد » المعروفة بالبردة ، وأبو ذؤيب الهذلي المتوفى سنة ٢٦ هـ ، وحسان بن ثابت الأنصاري المتوفى سنة ٥٤ هـ ، وهو شاعر الرسول ﷺ .

ويرز في هذا العصر عدد من العشراء نظموا في الشعر السياسي منهم الأخطل المتوفى سنة ٩٢ هـ ، وعمران بن حطان والطرماح بن حكيم شاعر الخوارج ، الكميت بن زيد المتوفى سنة ١٢٦ هـ ، وعبد الله بن قيس الرقيات القريشي المتوفى سنة ٧٥ هـ.

وفي هذا العصر استقل الغزل ، وأصبح ينظم لذاته ، وأخذ الشعراء يفردون له قصائد بكاملها يعبرون فيها عن حبهم وعواطفهم وأشواقهم . وكان الغزل ، في هذا العصر ، نوعين : الغزل العفيف أو العذري ، ويمتاز بالبساطة والصدق والرصانة ومن شعرائه المشهورين : جميل بن معمر المعروف بجميل بثينة ، المتوفى حوالي سنة ٨٢ هـ وكثير عزة ، وليلى الاخيلية المتوفاة سنة ٧٥ هـ.

والغزل الحضري المترف ، وقد اشتهر به عمر بن أبي ربيعة المتوفى سنة ٩٣ هـ . ولمع في هذا العصر شعراء كثيرون نظموا في الشعر السياسي

والغزل والفخر والهجاء ومن أبرزهم جرير والفرزدق والأخطل .

وكان لتقدم الموسيقى والغناء في هذا العصر أثر ظاهر في الشعر ، وخاصة في الشعر الغنائي والغزلي ، حيث أصبح أرق ألفاظاً من غزل الجاهلين وألطف أخيلة ، وأحلى أنغاماً . ولم يكتف شعراء هذا العصر باصطناع معاني الأقدمين وأخيلتهم ، وإنما أضافوا إليها الكثير من المعاني المبتكرة والخيالات الجميلة ، وتأنقوا في إختيار الألفاظ واصطنع عمر بن أبي ربيعة القصص. والحوار في قصائده فجاءت سهلة الفهم حلوة الوقع في الانشاء ، تمتع النفس بطرافة صياغتها ، ولطافة معانيها .

الشعر في العصر العباسي :

طرأت على الشعر تغيرات عديدة في العصور العباسية . فقد ضعفت فيه مواضيع وقويت مواضيع أخرى ، ونشأت فيه أغراض لم تكن موجودة أصلاً ، أو كانت ضئيلة محددة المجال ، وتغيرات معانيه وأخيلته والألفاظ المستعمله فيه . لقد ضعف الشعر السياسي والحماسي ، والغزل العذري ، وقوي شعر المدح والرثاء وازداد الشعر الحكمي عمقاً ، واشتد ميل الشعر الوصفي إلى التعبير عن مظاهر المدينة والعمران ، وظهر الشعر الزهدي والصوفي والفلسفي والتعليمي والقصصي وغير ذلك من الموضوعات الجديدة . وحرص الشعراء على التناسب والترابط بين أجزاء القصيدة ، وراعوا الترتيب في المعاني ، واختاروا الأوزان الخفيفة ، واستعملوا الألفاظ الواضحة ، اللطيفة ، وأكثروا من المحسنات البيانية والبديعة . وقد أسرف الشعراء المتأخرون في إستعمال ضروب البديع من جناس وطباق وتورية وما إليها ، واهتموا بتزويق اللفظ . وهكذا تدرج الشعر العربي من المعاني البسيطة الساذجة إلى المعاني المعقدة ، ومن الخيال البسيط والصورة الواقعية إلى التكلف في الصنعة ، والغلو في الوصف والاستعارة والتشبيه .

وقد ظهر في العصور العباسية عدد كبير من الشعراء المجيدين في

مختلف الأقطار العربية والاسلامية ومن أبرزهم : بشار بن برد المتوفى سنة ١٦٨ هـ . وأبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ هـ . وأبو تمام حبيب بن أوس الطائي المتوفى سنة ٢٢٨ هـ . والبحتري المتوفى سنة ٢٨٤ هـ . وابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٣ هـ . وعبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ . والمتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ . وأبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ هـ . والشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ . وأبو العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩ هـ . وابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ .

الشعر الأندلسي :

وقد تابع الشعراء الأندلسيون شعراء المشرق في معظم أغراض شعرهم ومعانيه وأساليبه . ولكنهم جددوا في الغزل ، ووصف الطبيعة والعمران . ولعل أهم ما أضافه الاندلسيون إلى الشعر العربي هو ابتكارهم الموشح وتطويره ، وتفننهم في أساليبه . لقد درج الشعراء العرب على استعمال وزن واحد وقافية واحدة في القصيدة الواحدة . ولكن الشعراء ابتكروا أشكالاً مختلفة للشعر غير القصيدة ، منها الأرجوزة وهي معروفة منذ الجاهلية والمخمسة وهي منظومة تتألف من قطع تحتوي كل قطعة على خمسة أشطر ، للأربعة الأولى منها قافية واحدة ، وللشطر الخامس قافية تتفق مع قافية الشطر الخامس لكل قطعة . والمربعات وتجري على طريقة المخمسات ، سوى أن أشطرها أربعة بدلاً من خمسة على أن أهم أشكال الشعر الجديدة هي الموشح . والموشح منظومه مقسمة إلى قطع مستقلة بقوافيها ، مع قافية موجودة تتكرر من قطعة إلى قطعة . والشائع أن مبتكر فن الموشح هو عبد الله بن المعتز . ولكن المرجح أنه نشأ في الأندلس أصلاً ومنهم أقتبسه أهل المشرق . وحتى في الأندلس لم يظهر هذا الفن إلا في العصور المتأخرة . وكان الموشح خطوة كبيرة في تطور شكل الشعر العربي ، فقد أتاح للشاعر ، بالاضافة إلى حرية التصرف في القوافي ، حرية التنويع في الوزن . وذلك بأن يقصر شطراً ويطيل شطراً . وكان من نتائج إنتشار الموشح ، بلغته السهلة وأوزانه المختلفة وقوافيه

المتعددة وملاءمته للغناء ، إنبعاث أدب جديد هو الزجل الشعبي ، ونشوء فن جديد في الشعر الأوروبي هو شعر الطروبا دور الذي سنتكلم عنه بعد قليل .
وتفخر الأندلس بعدد كبير من الشعراء المجيدين منهم : ابن هاني المتوفى سنة ٣٦٢ هـ ، وابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، والمعتمد بن عباد المتوفى سنة ٤٨٨ هـ .

الشعر العربي والمجتمع :

يؤلف الجيد من الشعر العربي ، منذ الجاهلية إلى مطلع النهضة الأدبية الحديثة تراثاً ضخماً ، رائع الفكر واللغة والعبارة ، ويمتاز بأناقة ألفاظه ، وحلاوة أنغامه ، وطرافة أخيلته ، وجمال صوره ، ودقة معانيه وإتساع آفاقه وجمال صياغته وتأليفه . وقد عبر الشعر عن عواطف الشعراء وأفكارهم ، ووصف حياة الناس وما يحيط بها من مظاهر الطبيعة والعمران . وكان جانب من هذا الشعر ، وخاصة في العصور العباسية ، يعبر عن حياة الطبقات الحاكمة والمترفة في المجتمع .

ولكن الشعر العربي ، حتى في العصور العباسية ، لم يكن كله شعر تكسب ، ومدح كاذب ، فالحق أن كثيراً من الشعراء المجيدين كانوا ملمين بأحوال جمهور الناس ، شاعرين بمشاكلهم وآلامهم ، وقد عبروا في شعرهم عن متطلبات الفكر والحياة ، وعن وجدان الأمة ووعيها وموقفها من الحياة والكون .

وللتأكد من هذه الحقيقة بحسبنا أن نقرأ ، على سبيل المثال ، شعر حروب التحرير ، والشعر الذي قيل في حصار بغداد وتخريبها أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون ، وشعر المتنبي في وصف معارك العرب والبيزنطيين وقصائد الشعراء في معارك الحروب الصليبية والحملات الاسبانية على المدن الاسلامية في الاندلس .

والخلاصة أن الشعر العربي ذو قيمة تاريخية عظيمة لفهم نفسية العرب

وتتبع مراحل نمو عواطفهم ، والكشف عن وجدان الأمة عموماً . ولكن للشعر العربي قيمة ذاتية ما تزال تمنحه البقاء والخلود .

إن في الشعر العربي قصائد كثيرة تسمو إلى أعلى آفاق الشعر الوجداني الانساني الذي يثير النفوس ، ويلهم العقول ، والذي يعبر عن القيم الانسانية الخالدة وعن ابتهاج الانسان بالحياة ، وقلقه الدائم ، وأشواقه التي لا تعرف المستقر كشعر المعري والحلاج وابن الفارض وابن العربي والمتنبي وابن الرومي والشريف الرضي وغيرهم من الشعراء الكبار الخالدين .

النثر :

كان للعرب نثر فني رائع ، ما زالت نماذجه الحية تقرأ فتثير النفوس وتمتع العقول . وقد بدأ النثر في صدر الاسلام بسيطاً ، مباشراً ، موجز العبارة ، واضح الألفاظ ، وكانت أهم أشكاله : الرسائل والخطب والأحاديث والأخبار التاريخية . وبتقدم الحياة الاجتماعية والعقلية تقدم النثر فتنوعت مواضيعه ، وتعددت فنونه ، ودقت معانيه ، وظهرت الصنعة في أسلوبه والاسهاب في عبارته ، ومن كبار الكتاب الأولين عبد الحميد الكاتب وعبدالله بن المقفع . وجاء الجاحظ فطور النثر المرسل ووسع آفاقه وصار إماماً فيه يقتدي به المقتدون ، ويحذو حذوه المنشؤون . وقد بلغ تطور النثر الفني مداه في القرن الرابع الهجري ومن أشهر كتابه أبو حيان التوحيدي . ثم طغت بعد ذلك ، على النثر موجة الزخرفة اللفظية ، والاسراف في التأنق ، والاكثار من المحسنات البديعية ، على حساب دقة المعاني وعمق الموضوعات . ويظهر ذلك في المقامات ورسائل بعض الكتاب المتأخرين . ويجدر بنا أن نؤكد هنا على أن النثر لا يقتصر على الخطب والرسائل والمقامات وإنما يشمل كل ما انتجه الكتاب من نثر فني . والحق أن روعة النثر العربي تتجلى في مؤلفات كثير من المؤرخين والجغرافيين والفقهاء والفلاسفة ، حيث يجد القارىء العبارة الرصينة ، والمعاني الدقيقة ، والوصف الحي الممتع ،

والتأليف المحكم . تناول النثر كل موضوعات الفكر والوجدان المعروفة ، واصطنع كل أشكاله الممكنة يومئذ ، ومن أهم أشكاله الفنية الرسائل والخطب والأمثال والقصص .

الرسائل :

والرسائل نوعان : رسمية أو عامة . ورسائل غير رسمية أي خاصة أو اخوانية كما تسمى أحياناً . وقد كانت الرسائل الرسمية في الدولة العربية في صدر الاسلام والعصر الأموي ، موجزة بسيطة ، واضحة ، لا تكلف فيها ولا صنعة . وكانت تصل إلى الغرض المقصود بعد السلام والتحية رأساً دون ديباجة مطولة في الافتتاح أو دعوات كثيرة في الانتهاء . ومنذ أواخر عهد الدولة الأموية أخذ كتاب الدواوين يتأنقون في الرسائل حتى أصبحت معرضاً للصياغة اللفظية والبراعة والبلاغة في الدولة العربية في أواخر العصر العباسي . ومن أشهر كتاب الرسائل الرسمية : عبد الحميد الكاتب ، الحسن بن سهل ، وأبو اسحاق الصابي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وضياء الدين بن الأثير . أما الرسائل الخاصة ، أو الأخوانيات ، فهي التي يكتبها الكاتب إلى صديق ، ويعبر فيها عن أفكاره أو يصف حوادث وقعت أمامه ومن أشهر كتاب هذا النوع من الرسائل : الجاحظ ، والخوارزمي ، وبديع الزمان الهمداني ، وابن زيدون وغيرهم .

الخطابة :

واهتم العرب بالخطابة . وهي تلي الشعر في الأهمية عندهم . لأنها كلام بليغ فيه حماسة وخيال ، يتوجه به الخطيب إلى عقول السامعين فيقنعها بالمنطق ، وإلى عواطفهم فيثيرها بالحماسة ويحملها على قبول فكرته والتسليم بها . وقد كان للخطابة شأن كبير في الجاهلية وصدر الاسلام . فكانوا يدربون فتيانهم على الخطابة منذ حداثتهم ، ويحفظونهم الخطب البليغة ليتأدبوا بها ويحذوا حذوها . ونجد الكثير من الخطب البليغة في كتب

الأدب التي ذكرناها ، وفي البيان والتبيين للجاحظ ، وفي نهج البلاغة الذي يضم خطب الامام علي (كرم الله وجهه).

الأمثال :

وقد إهتم العلماء العرب بالأمثال فجمعوها وألفوا فيها الكتب ومن أشهرها « مجمع الأمثال » للميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ جمعه مؤلفه من نحو خمسين كتاباً في الأمثال ورتبه على حروف المعجم بعد أن أضاف إليه أمثال المولدين . وهو أجمع كتاب في الأمثال العربية . والمستقصى في الأمثال للزمخشري ، وهو معجم للأمثال العربية مرتب على حروف الهجاء حسب أوائل الأمثال . والمثل عبارة موجزة تلخص مغزى تجربة مر بها الفرد أو الجماعة ، أو خلاصة رأي حكيم . ولما كانت الأمثال نتيجة تجارب الأمة جيلاً بعد جيل أصبحت دراستها مهمة لمعرفة درجة عقلية الأمة وأخلاقها وعاداتها وظروفها عامة . وتنطلق كثير من الأمثال عفوياً من تجارب أبناء الشعب ، وتشيع على ألستهم بلغة تخاطبهم دون صقل وتهذيب ، وهذا ما يجعلها أدل على نفسية الشعب ومستوى عقليته . ولهذا قيل المثل هو صوت الشعب .

القصص :

للعرب في القصة تراث ضخم ما زال الناس يقرأونه فيبهرهم ويخلبهم بسعة آفاقه ، ولطف أخيلته ، وغرابة أحداثه ، وعجيب تصرفات أشخاصه . وقد وردت في القرآن الكريم قصص عديدة تذكر وقائع الأمم الغابرة والأنبياء الأولين ليعتبر الناس بها . وجمع الرواة من أخبار عرب الجاهلية وأسمارهم عشرات الكتب يدور معظمها على الغزوات والحروب وأخبار العشاق . وفي القرن الرابع الهجري وضعت القصص الأدبية القصيرة التي تسمى المقامات ، وهي حكايات قصيرة قليلة الحوادث ، يقصد فيها الكاتب إلى التأنق في العبارة ، وإظهار البراعة في اللغة ، أكثر مما يقصد إلى القصة بذاتها . ومن

أشهر كتاب المقامات بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ، والحريري البصري المتوفى سنة ٥١٦ هـ . وبالاضافة الى هذه القصص الموضوعة ترجمت قصص عديدة عن اللغات الأجنبية ، منها الواقعية ، والرمزية ، والخرافية ، ومن أشهر هذه القصص المترجمة « كليلة ودمنة » التي ترجمها إلى العربية بأسلوب رفيع عبد الله بن المقفع وقصصها تحكي على لسان الحيوانات .

وقد ازدهر فن القصة في مصر منذ عصر الفاطميين حيث وضعت اعظم القصص العربية وأطولها وهي قصة عنترة التي يطلق عليها بعض مؤرخي الأدب المحدثين « اليانة العرب » وقد وضع هذه القصة يوسف بن اسماعيل شيخ القصاصين في عهد العزيز بالله الفاطمي ٣٦٥ـ ٣٨٦ هـ .

وتصور هذه القصة العظيمة المثل البطولية التي يعتز بها العرب بأسلوب قصصي رائع الخيال ، متماسك الحبكة ، قوي الاثارة ، يتخلله حوار ممتع ، وشعر شعبي فصيح بسيط العبارة والتأليف . وفي أثناء الحروب الصليبية والعصور التالية ألفت قصص بطولية كثيرة تشيد بمآثر أبطال العرب والمسلمين ومن أشهرها : سيرة الظاهر بيبرس ، وقصة سيف بن ذي يزن ، وقصص أبي زيد الهلالي وغيرها . ولعل أعظم القصص العربي جميعاً « ألف ليلة وليلة » والتي تم جمعها في مصر بصورتها الحاضرة في القرن العاشر الهجري . ومن روائع القصص العربي رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، وحي بن يقظان للفيلسوف الأندلسي ابن طفيل . وهي تعبر ، صراحة ورمزاً وإيحاءاً ، عن المعاني الفلسفية والدينية والاجتماعية ، بالاضافة إلى ما تحويه من قصص طريفة ممتعة . والقصص العربي عموماً ثروة عظيمة في الأدب العربي .

أثر الأدب العربي في الآداب الشرقية :

أثر الأدب العربي ، شعراً ونثراً وقصصاً ، في آداب الأمم الشرقية من حيث الموضوعات والمعاني والأساليب وأوزان الشعر وإيقاعاته ومفردات

اللغة ، ومقاييس الفصاحة والبلاغة . ويظهر أثر الأدب العربي واضحاً في نشوء وتطور الآداب الفارسية والتركية والهندية وغيرها من آداب الأمم الشرقية التي نشأت في محيط الثقافة العربية الاسلامية أو كانت على اتصال بها .

لم يكن للفرس أدب مزدهر في العصر الساساني ، ولم يؤلف في اللغة الفارسية ، بعد الفتح الاسلامي ، إلا كتب قليلة معظمها في الدفاع عن الدين المجوسي ، ولا يتجاوز أقدامها عهد عصر المأمون . وقد اصطنع مثقفو الفرس اللغة العربية ، واستعاضوا بها عن لغتهم الفارسية فكتبوا بها ونبغ منهم نوابغ عديدون في مختلف فروع الثقافة العربية الاسلامية . ومنذ أواخر القرن الثالث بدأ الأدب الفارسي الجديد بالظهور ، وقد شجع على ذلك عوامل عديدة منها : ظهور الأسر الفارسية المتنفذة والامارات الفارسية المستقلة وشبه المستقلة في المناطق الفارسية ، والمناطق المتاخمة لها . وكان هذا الأدب الفارسي الجديد أدباً إسلامياً احتذى حذو الأدب العربي في أساليبه ومعانيه وموضوعاته ، وكتب بالحروف العربية واستعار من العربية ألفاظاً كثيرة . واقتبس شعراء الفرس من الشعر العربي الأوزان واللغة والقوافي ، وطبقوا ذلك على ما نظموه في لغتهم . وتناولوا في قصائدهم كثيراً من موضوعات الشعر العربي كالمدح والهجاء والغزل والوصف ، ويبدو أثر العربية في النثر الفارسي أبين من أثرها في الشعر ، فالألفاظ العربية فيه أكثر ويكثر فيه الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث والأمثال وأبيات الشعر العربي . وطبق الأدباء الفرس قواعد البلاغة العربية والمحسنات البديعية على الشعر والنثر الفارسي ، وأخذوا اصطلاحات البلاغة العربية .

وقد تأثر الأدب في الهند تأثراً عميقاً بالأدب العربي الاسلامي . وظهر بين المسلمين الهنود مؤلفون كبار كتبوا باللغة العربية المؤلفات الكثيرة التي يدور معظمها على العلوم الدينية واللغوية والتاريخية . وقد نشأت ، تحت تأثير الثقافة العربية والفارسية لغة هندية جديدة هي اللغة الاوردية ، وهي جمعت بين السنسكريتية والعربية والفارسية والتركية . ويستمد الأدب الاوردي ، مثل

سائر الآداب الإسلامية غير العربية ، كثيراً من موضوعاته ومعانيه من الأدب العربي ، ولغته تزخر بالألفاظ العربية ، وبمقتبسات من القرآن الكريم والحديث وأبيات الشعر العربي . وقد أخذ أدباء الاوردية أوزان الشعر العربي وقواعد البلاغة العربية واصطلاحاتها .

أثر الأدب العربي في الآداب الاوروبية :

انتقلت معظم المؤثرات العربية في الأشعار العربية بواسطة الأغاني والأناشيد والقصص الشعبية التي كان الناس يتداولونها ويتناقلونها شفاها . وكان الاقبال على غناء المغنين الأندلسيين عظيماً في بلاط الأمراء في اسبانيا والبلدان الاوروبية القريبة منها ، مثل بروفاني في جنوب فرنسا وايطاليا . وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ظهرت في أوروبا طائفة من الشعراء المنشدين جمعوا بين الغناء والعزف على العود وقد أطلق على هؤلاء الشعراء المنشدين اسم « الطروبادور » وهي كلمة مشتقة من لفظة طرب العربية ، والطابع العربي في شعر هؤلاء الشعراء ظاهر ولا شك فيه ، فقد كانت أغانيهم تدور حول الغزل والنسيب بكل خصائصه المميزة من الهوى العذري ، والشوق والحنين إلى محبوبة عزيزة المنال ، إلى ما في الغزل العذري من وفاء ونبل وغاية ، وتأجج عاطفة وكانت هذه الأغاني الأندلسية في أوزانها وقوافيها .

وترجمت إلى اللغات الأوروبية قصص كثيرة أهمها كتاب (كليلة ودمنة) الذي ترجم إلى الاسبانية واللاتينية في القرن الثالث عشر ، ثم إلى اللغات الاوروبية الأخرى ، وأصبح نواة أدب قصصي عن الحيوان والطير ، وكان له أثر بالغ في أدب الشاعر الفرنسي « لافونتين ». ولعل القصص العربية التي نقلت إلى أوروبا كانت أبعد تأثيراً في الآداب الاوروبية من القصص المترجمة والمنشورة .

فأثر القصص العربي يبدو واضحاً في قصص « ديكاميرون » للكاتب

الايطالي بوكاتشيو وكذلك أثبت مؤرخو الأدب أثر رسالة الغفران لأبي العلاء المعري وأحاديث المعراج في « الكوميديا الالهية » للشاعر الايطالي دانتي .

وقد اشتد اقبال الأدباء الغربيين على الأدب العربي منذ القرن السابع عشر لأسباب عديدة منها توسع أوروبا ، والحركة الرومانطيقية ، وإنتظام حركة الاستشراق ، فترجمت قصة حي بن يقظان إلى اللاتينية في القرن السابع عشر . وظهرت الترجمة الأولى الفرنسية لكتاب ألف ليلة وليلة في سنة ١٧٠٤ م ، وانتشرت في أوروبا إنتشاراً سريعاً حيث ترجمت إلى معظم لغاتها . ونذكر من أدباء اوروبا الكبار الذين تأثروا بالأدب العربي دانيل ديفو مؤلف « روبنصن كروزو » ويوناثان سويفت مؤلف « رحلات كوليفر » . وفولتير في قصصه وحكاياته ، وشاعر الالمان غوته الذي نظم كتاباً كاملاً سماه « ديوان الشرق والغرب » واستمد موضوعه من الأدب العربي والفارسي ، وسرفانتس أديب أسبانيا الأكبر في قصته الخالدة « دون كيشوت ».

المراجع

١ ـ ابن النديم الفهرست

٢ ـ بروكلمان تاريخ الأدب العربي

٣ ـ جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية

٤ ـ حنا الفاخوري تاريخ الأدب العربي

٥ ـ طه حسين وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد التوجيه الأدبي

خامسا : التاريـخ :

تعريف التاريخ :

التاريخ علم يبحث في الوقائع الماضية . وكان العرب في الجاهلية يتخذون من بعض الحوادث المهمة مبدأ للتوقيت كبناء الكعبة أو عام الفيل وما إلى ذلك . ولما ظهر الاسلام وتأسست الدولة العربية الاسلامية وإمتدت الفتوحات أصبحت الحاجة ملحة إلى إتخاذ حادثة مهمة يجعلونها أساساً لتوقيت رسائلهم وكتبهم وحوادثهم ، فوقع إختيارهم في عهد عمر بن الخطاب (رض) على اتخاذ عام هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة مبدأ للتاريخ . واعتبروا المحرم أول السنة . وتقابل السنة الأولى من الهجرة سنة ٦٢٢ في التاريخ الميلادي وكانوا يؤرخون بالأشهر القمرية ، وبالليالي ، لأن الليلة تسبق النهار .

التاريخ عند العرب في الجاهلية :

كان لعرب اليمن وسكان شمال الجزيرة العربية معرفة بسيطة بالتاريخ ، وكانوا يدونون بعض الحوادث المهمة في حياتهم . وإنما نشأ علم التاريخ ونما وتطور بعد ظهور الاسلام ، وأصبح جزءاً مهماً من الثقافة العربية الاسلامية له قواعده وأصوله وفروعه . كان عرب الجاهلية يتناقلون أخباراً متفرقة حدث بعضها في بلادهم والبعض الآخر في البلدان الأخرى . وكانوا يتخذون هذه الأخبار والقصص مادة لسمرهم . وكانت كل قبيلة تتناقل أخبارها الماضية ، ومآثرها وبطولات أجدادها . فكان من الطبيعي أن ينصرف راوي كل قبيلة إلى تمجيد أحساب قبيلته ، والمغالاة في عرض بطولات أجدادها . ومآثرهم ومناقبهم .

الأنساب :

واهتم العرب بالانساب إهتماماً كبيراً ، فقد كان نظامهم الاجتماعي

قائماً على القبيلة ، وأساس وحدة القبيلة صحة النسب . ويلحق بالنسب الحسب وهو تعداد مناقب الأجداد ومآثرهم وشيمهم ، وقد كثر النسابون في الجاهلية فلم تخل قبيلة من واحد منهم ، وكان النسب يؤلف عماد الأخبار المتداولة بينهم .

أثر الاسلام في نشوء علم التاريخ :

كان ظهور الاسلام وإنتشاره السريع أهم الحوافز التي دفعت العرب على الاهتمام بالتاريخ . فقد اهتموا بتتبع حياة الرسول ﷺ وغزواته وحديثه واهتموا بالردة وحركة التحرير والفتوح وما جرى فيها من الوقائع . وقد ظهر أسلوبان في تدوين التاريخ : أسلوب المحدثين ، وأكثر ما يظهر في تاريخ السيرة النبوية الشريفة . وكانت المدينة مركز هذا النوع من التاريخ . ويتميز هذا الأسلوب بذكر الخبر على وجه الايجاز وذكر الراوي الذي رواه . وأسلوب الاخباريين ، وكانت الكوفة مركزه . ويتميز أسلوب الاخباريين بإعطاء صورة كاملة عن الواقعة التاريخية ، وفي ذكر التفاصيل ، ورواية الشعر والخطب . ثم اتحد الاسلوبان في مطلع العصر العباسي ، وأصبح المؤرخون يجمعون بينهما .

المؤلفات في السيرة النبوية الشريفة :

إن ظهور الرسول ﷺ أعظم حدث في تاريخ العرب والمسلمين ، ومن أعظم الحوادث في التاريخ الانساني . فقد بشر بدين جديد ، ووحد كلمة العرب ، وأدخلهم في التاريخ الانساني العام يشاركون في أحداثه مشاركة مبدعة ويضيفون إلى الحضارة الانسانية صفحات مجيدة من الفكر المشرق والعمل البناء والمثل النبيلة . ومن الطبيعي أن يهتم العرب والمسلمون بحياة النبي ﷺ وتعاليمه وأعماله منذ الصدر الاول . وقد انصرف جمهور من المحدثين والرواة إلى جمع ما تفرق من أخبار سيرته . ويمكن تصنيف رواة السيرة بحسب تقدمهم في الزمن إلى ثلاث طبقات . الطبقة

الأولى وأهم رجالها أبان بن عثمان بن عفان المتوفى حوالي سنة ١٠٥ هـ وعروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ . والطبقة الثانية وأشهر رجالها محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ . والطبقة الثالثة وأشهر رجالها محمد بن اسحاق المتوفى حوالي سنة ١٥٠ هـ ومحمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

الاخباريون :

والأسلوب الثاني في كتابة التاريخ ، أي أسلوب الاخباريين ، فهو إمتداد لما كان معروفاً في الجاهلية . وأهم الاخباريين أبو مخنف الازدي المتوفى سنة ١٥٧ هـ . وعوانة بن الحكم الكلبي الكوفي المتوفى سنة ١٤٧ هـ . وسيف بن عمر التميمي الكوفي المتوفى سنة ١٠٨ هـ ونصر بن مزاحم الكوفي المتوفى سنة ٢١٢ هـ . وأعظم الاخباريين الكبار وأهمهم جميعاً المدائني المتوفى سنة ٢٢٥ هـ وهو يتفوق على من تقدمه من الرواة والاخباريين باعتماده على الاسناد أكبر مما اعتمدوا ، وباتباعه أسلوب المحدثين في نقد الروايات وتمحيصها ، وبتنظيم رواياته . وقد جمع بين الدراسات التاريخية والأدبية . وهو يتناول في كتبه ورسائله التي تزيد على المئتين مختلف جوانب التاريخ العربي الاسلامي منذ بدء الاسلام إلى خلافة المعتصم العباسي .

النسابون واللغويون :

وقد نمت بعد الاسلام العناية بدراسة الانساب وتسجيلها . وكانت الدوافع لذلك متعددة منها : الحاجات الادارية كتنظيم العطاء ، وإسكان القبائل في الأمصار والمدن الجديدة .

ومن أشهر النسابين محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ هـ . وابنه هشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ مؤلف كتاب جمهرة النسب . ومصعب الزبيري المتوفى سنة ٢٣٦ هـ مؤلف كتاب نسب قريش . وهو يورد نسب الشخص ، ويورد موجزاً عن حياته وأهم أعماله .

وقدم علماء اللغة مادة للدراسات التاريخية . فقد اهتموا بتوضيح ظروف نظم الشعر الذي جمعوه ، وشرحوا الاشارات التاريخية الواردة فيه وتتبعوا الأخبار والانساب التي يشير إليها الشعراء . ومن أشهر هؤلاء اللغويين : أبو عمرو بن العلاء ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى .

خصائص علم التاريخ عند العرب :

أصبحت هذه المادة التي جمعها مؤرخو السيرة النبوية الشريفة والاخباريون والنسابون واللغويون المصادر الرئيسة التي اعتمد عليها المؤرخون العرب في العصر العباسي ، وأفادوا منها في تأليف كتبهم التاريخية ، وصاغوها بأشكال مختلفة . فمنهم من نظم المادة التاريخية بحسب السنين كما في تاريخ الطبري ، حيث يذكر في كل سنة ما جرى فيها من الحوادث . ومنهم من نظمها بحسب عهود الخلفاء كما فعل اليعقوبي . ومنهم من إتخذ أسلوب الطبقات كما فعل ابن سعد ومنهم من اتبع طريقة الانساب كما فعل البلاذري ، وقد تعددت المواضيع التي تناولتها المؤلفات التاريخية العربية ولم تترك موضوعاً إلا وطرقته ، ولا ناحية من الحياة الانسانية إلا وسجلتها . فلم تقتصر كتب التاريخ على السياسة وحياة الخلفاء والأمراء والخاصة من الناس ، وإنما تناولت حياة عامة الشعب ومختلف نشاطاتها الاجتماعية والاقتصادية والروحية . وتناول بعض المؤرخين تفسير الحوادث التاريخية ، أو ما يدعى بفلسفة التاريخ، كما فعل ابن خلدون في مقدمته المشهورة .

المراجع

١ ـ فرانز روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح احمد العلي .

٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، مادة تاريخ .

٣ ـ عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب

سادسا : الجغرافية :

أقسام علم الجغرافية :

إستعمل العرب أسماء متعددة لأقسام علم الجغرافية . فقد أطلقوا على الجغرافية الفلكية اللفظ اليوناني جغرافياً . وكانوا يسمون هذا العلم أيضاً علم الأطوال والأعراض ، أو علم تقويم البلدان ، أو صورة الأرض . وأطلقوا على الجغرافية الوصفية اسم علم المسالك والممالك .

نشأ علم الجغرافية عند العرب نشأة بسيطة . ثم أخذ ينمو تدريجياً حتى أصبح من أهم العلوم العربية ، واحتل مركزاً ممتازاً في الآداب العالمية . ومن أهم العوامل التي حفزت المسلمين على الاهتمام بعلم الجغرافية والتأليف فيه :

١ ـ إتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية بصورة عامة ، وحاجة الدولة إلى معرفة البلاد ، لضبط شؤونها . إذ كانت الدولة بحاجة إلى معلومات دقيقة عما ينتج من المحاصيل ، وعن أحوال السكان ، وعن طرق المواصلات وأطوالها ومسافاتها ، والمراحل التي يقطعها البريد .

٢ ـ كان العرب بحاجة إلى معلومات دقيقة عن البلاد الأخرى غير الاسلامية وخاصة البلاد المجاورة . وقد استمدوا هذه المعلومات من مصادر مختلفة عديدة أهمها الوفود والسفارات التي كانت الدولة العربية الاسلامية تتبادلها مع الدول المجاورة ، ومن الرحالين ، والتجار ، وأسرى الحرب ، ومما كان يقع في أيديهم من الوثائق المكتوبة .

٣ ـ الرحلات : وكانت الرحلات متنوعة الأصناف والأسباب . فمنها السفر لاداء فريضة الحج ، فقد كان المسلمون يأتون من أقاصي البلاد إلى مكة لأداء فريضة الحج . ومنها الرحلات التجارية . ولم يكتف العرب والمسلمون بالتجارة داخل العالم الاسلامي بل مدوا نطاق تجارتهم إلى

الأقطار الخارجية مثل جنوب شرقي آسيا والصين وإلى المناطق النائية من أوروبا وأواسط أفريقيا وشرقها . ومنها الرحلة في طلب العلم . فقد أصبح من التقاليد الراسخة في العالم الاسلامي ألا يكتفي طالب العلم بالدراسة على شيوخ بلده ، بل يرحل إلى البلاد المختلفة ليدرس على علمائها .

٤ ـ وكان الدين الاسلامي من أهم الحوافز على الاهتمام بالجغرافية الفلكية ، بالاضافة إلى فريضة الحج التي تقدم ذكرها . فقد اهتم المسلمون بالجغرافية الفلكية لتحديد إتجاه القبلة في البلاد المختلفة . كما كانوا مضطرين إلى تحديد بداية الأشهر القمرية ، وأوقات الصلوات ، وغير ذلك من الأمور الدينية . وقد استلزم ذلك الاهتمام بخطوط الطول والعرض ، وبالحسابات المتعلقة بذلك ، وبدراسة الفلك . وقد دفعهم ذلك إلى الاهتمام بصناعة الساعات ، فصنعوا الساعات الرملية ، والمائية ، والمزاول وغير ذلك من آلات تحديد الوقت وضبطه . وكان السفر البحري من العوامل الدافعة في الاهتمام بالجغرافية الفلكية . فالمعروف أن السفر في تلك الأيام ، وخاصة السفر البحري ، كان يعتمد على معرفة مواقع النجوم .

٥ ـ وكان لبعض العلماء ولع شخصي بالاطلاع على أحوال البلاد ، والتعرف على سكانها ودراسة عاداتهم وأخلاقهم وصنائعهم . ولم يكونوا يقصدون من وراء رحلاتهم إلا الاستزادة من المعرفة ، وخدمة العلم وإكتشاف المجهول .

٦ ـ قد أفاد علماء الجغرافية العرب مما ترجم من كتب الجغرافية الاجنبية ، وخاصة الهندية واليونانية ، وأكبوا على دراسة هذه الكتب ، واستمدوا منها بعض المعلومات . وكان اعتمادهم الرئيسي على مؤلفات الجغرافي والفلكي اليوناني الاسكندري المشهور بطليموس المتوفى سنة ١٦٨ ميلادية .

تطور علم الجغرافية عند العرب :

وقد مر علم الجغرافية بمراحل متعددة . ففي صدر الاسلام كانت المعلومات الجغرافية متناثرة في الأدب اللغوي . وفي صدر الدولة العباسية تعرف العرب على مؤلفات بطليموس ، وظهرت الترجمات ، وبدأ التأليف العلمي ، وظهرت الكتب في الأقسام المتعددة من الجغرافية الوصفية . وفي هذا العصر وضعت الكتب الجغرافية العامة لسد حاجة كتاب الدواوين من المعلومات عن البلاد المختلفة ولاكمال ثقافة الأدباء . وفي هذا العصر ازدادت الرحلات وتنوعت دوافعها ، وأخذ الرحالون يكتبون الكتب عن رحلاتهم . وفي القرن الرابع الهجري بلغ علم الجغرافية العربية أوجه ، حين وضعت أهم كتب الجغرافية ، وكمل فن رسم الخرائط والمصورات الجغرافية . ومنذ القرن الخامس أخذت تظهر المعاجم الجغرافية التي تتناول جغرافية العالم بأسره ، وترتب المادة الجغرافية على حسب الحروف الهجائية . وكان ظهور هذه المعاجم نتيجة لتراكم المادة الجغرافية عند علماء العرب والمسلمين . وقد أفردت فصول طويلة للجغرافية في الموضوعات العلمية والأدبية التي صنفت في مصر والشام في عهد المماليك .

وأهم ناحية برز فيها الجغرافيون العرب ، وجعلت إنتاجهم الجغرافي أضخم إنتاج عرفته الأمم القديمة ، هي الجغرافية الوصفية ، وهي العلم الذي يتناول وصف البلدان المختلفة ، وبيان طبيعتها ، ومصادرة ثروتها ، وحياتها الاقتصادية وأحوال سكانها . وفي الجغرافية الوصفية يظهر فضل العرب خاصة على علم الجغرافية ، وقد تجمع لدى جغرافي العرب مادة جغرافية تفوق كثيراً ما كان يعرفه جغرافيو اليونان والهند والسريات وغيرهم . وقد عرفوا أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شمالها . وعرفوا النصف الجنوبي من آسيا ، وأفريقيا الشمالية إلى خط عرض ١٠ درجات شمال خط الاستواء ، وعرفوا ساحل افريقيا الشرقي . ووصف الجغرافيون العرب وصفاً مفصلاً جميع البلدان من

اسبانيا غرباً إلى تركستان ونهر السند شرقاً . وقدموا وصفاً مفصلاً للمناطق المأهولة بالسكان ، وللمناطق المزروعة والصحارى ، وبينوا مدى إنتشار النباتات المزروعة وأصنافها وأنواعها ، وأماكن وجود المعادن . ولم يهتموا فقط بالجغرافية الطبيعية والظروف المناخية للبلاد ، وإنما اهتموا بالحياة الاجتماعية والصناعية والزراعية واللغة والعادات والعقائد الدينية والحركة العلمية . وقد ألف العرب في الأحوال الجغرافية البحرية ، ودققوا في ذلك ، ومن أشهر المؤلفين في هذا الموضوع العالم الملاح ابن ماجد وهو الذي أرشد الرحالة البرتغالي فاسكو داغاما في رحلته من سواحل كينيا إلى الهند سنة ١٤٩٨ م .

أشهر الجغرافيين :

وقد نبغ في علم الجغرافية عدد كبير من العلماء من أشهرهم ابن خرداذبة واليعقوبي ، والبلاذري ، والمسعودي ، والمقدسي ، والاصطخري المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وله كتاب مسالك الممالك . وابن حوقل وله كتاب صورة الأرض ، وأبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ وله في الجغرافية كتاب « تقويم البلدان » . ومن أهم الجغرافيين الذين اهتموا برسم الخرائط : أبو زيد احمد بن سهل البلخي المتوفى في مطلع القرن الرابع للهجرة وله كتاب « صور الأقاليم »، والاصطخري ، وابن حوقل وقد تقدم ذكرهما ، والشريف الادريسي المتوفى سنة ٥٤٨ هـ وله كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الأفاق »، وخريطة العالم التي رسمها الإدريسي معروفة مشهورة وقد نشرها المجمع العلمي العراقي .

كتب الرحلات :

وتزخر المكتبة الجغرافية العربية بكتب الرحلات . ومن أهمها رحلة ابن فضلان إلى منطقة نهر الفولغا سنة ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م . ورحلة ابي دلف الخزرجي سنة ٣٣١ هـ - ٩٤٢ م إلى تركستان والصين والتبت والهند

وسجستان . ورحلة ابراهيم بن يعقوب العالم الأندلسي إلى ألمانيا وأوروبا الوسطى وما يسمى الآن بلغاريا وبولندة وجيكوسلوفاكيا وساحل فرنسا وهولندا . وأعظم الرحلات شهرة رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة .

ابن جبير :

ولد ابن جبير في الأندلس سنة ٥٣٩ هـ - ١١٤٤ م وتوفي في مصر سنة ٦١٤ هـ - ١٢١٧ م . وكان أديباً ، وعالماً في الفقه والحديث . رحل إلى بلاد المشرق ثلاث رحلات استغرقت إحداها ثلاث سنوات فقد بدأها يوم الأثنين ١٩ شوال ٥٧٨ هـ وختمها يوم الخميس ٢٢ من شهر المحرم سنة ٥٨١ هـ . أي من ١١٨٢/٢/٣ إلى ١١٨٥/٤/٢٥ م . وقد وصف في هذه الرحلة كل ما مر به من مدن ، وما شاهد من عجائب البلدان وغرائب المشاهد ، وبدائع المصانع ، والأحوال السياسية والاجتماعية والاخلاقية . وعنى عناية خاصة بوصف النواحي الدينية والمساجد والمشاهد وقبور الصحابة ومناسك الحج ، ومجالس الوعظ ، والمستشفيات والمارستانات ، والكنائس والمعابد ، والقلاع ، ووصف كذلك العواصف البحرية ، وما كان يكابده المسافرون من ضيق وذعر ، ولم يغفل الحروب التي كانت دائرة بين المسلمين والصليبيين . وكان شديد الاعجاب بصلاح الدين الأيوبي ، دائم الذكر له ، كريماً في الثناء على حسن إدارته ، وعظيم جهاده . وابن جبير كاتب دقيق الملاحظة ، واضح العبارة ، رصين الأسلوب ، يصف الحادثة أو المشهد وصفاً دقيقاً حياً حتى يخيل للقارىء أنه حاضر يشاهد المنظر بنفسه . والحق أن رحلة ابن جبير كتاب تاريخ ، وجغرافية ، وأدب .

ابن بطوطة :

ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواقي الطنجي المعروف بابن بطوطة سنة ٧٠٣ هـ في طنجة وتوفي في مراكش سنة ٧٧٩ هـ . وقد طاف في أرجاء العالم الاسلامي ، وفي معظم مناطق العالم المتحضر يومئذ . فزار

الحجاز والشام والعراق وفارس وآسيا الوسطى وبيزنطة ، وبخاري وأفغانستان والهند والصين وسيلان . وعاد إلى بلاده . رحل إلى الأندلس فزار مدنها وعاد إلى وطنه . ثم سافر إلى أفريقيا فزارها ووصل إلى تمبكتو وغيرها من مناطق أفريقيا الوسطى . ووصف ما شاهده في رحلاته هذه في كتابه المسمى « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وهو المعروف المشهور برحلة ابن بطوطة .

أهمية المؤلفات الجغرافية العربية :

والخلاصة أن المؤلفات الجغرافية العربية مصدر مهم لعلماء الجغرافية والتاريخ والاجتماع عموماً . وأسلوب الجغرافيين العرب عليم ، محكم العبارة دقيق التنظيم . والحق أن النثر العربي قد بلغ قمة الجمال الفني في كتب المؤرخين والجغرافيين والفقهاء وفي بعض كتب الفلاسفة .

المصادر والمراجع

(أ) المصادر :-

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواقي الطنجي) - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .

المعروفة برحلة ابن بطوطة - جزءان ، القاهرة ١٩٥٨ .

- ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني الأندلسى) - تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار .

المعروفة برحلة ابن جبير - القاهرة ١٩٥٥ .

- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي الموصلي) - صورة الأرض . بيروت .

- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) - مروج الذهب ومعادن الجوهر (جزءان) ، القاهرة ١٩٥٨ .

- المقدسي (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر) - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، بغداد .

- ناصر خسرو - سفرنامة . المعروفة برحلة ناصر خسرو . (الترجمة العربية) - بيروت ١٩٧٠ .

(ب) المراجــع :

١ - أغناطيوس بوليانوفتش كراتشكوفسكي - تاريخ الأدب الجغرافي العربي (الترجمة العربية) - جزءان ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم القاهرة ٦٣ / ١٩٦٥ .

٢ - حسين مؤنس - تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس - مدريد ، ١٩٦٧ .

٣ - زكي محمد حسن - الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٥ .

٤ - نفيس أحمد - الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي . (الترجمة العربية) . الكويت ١٩٧٨ .

سابعا : الفلسفة :

معنى الفلسفة :

الفلسفة كلمة تعني في أصلها اليوناني حب الحكمة . وموضوعها البحث في الكون وفي طبيعة الانسان ومركزه في العالم وسلوكه الأخلاقي . وأداء الفلسفة الوصول إلى المعرفة هي العقل وما اكتشفه من قوانين المنطق وأساليب الجدل والبرهان والاستقراء والاستنتاج .

الفلسفة اليونانية :

حاول الانسان فهم نفسه ، وإدراك حقيقة الكون المحيط به ، منذ أن نشأ الوعي عنده . ولكن وسائل الانسان لفهم القوانين التي تتحكم بالناس والطبيعة كانت محدودة ، ولم تتطور إلا بدرجات بطيئة ولهذا السبب كانت معارف الناس الأقدمين مزيجاً من الحقائق المستمدة من الواقع الملموس ، ومن الخيالات والخرافات والرموز والسحر . وقد نشأت بدايات التفكير الفلسفي والعلمي في العراق ومصر والهند والصين . ومن العراق ومصر انتقل التراث الفكري إلى اليونان ، حيث بدأت الفلسفة تزدهر منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وحاولت أن تقدم تفسيراً متناسقاً للكون والانسان ، واستعملت مختلف الطرق الموصلة إلى المعرفة . وأهم خصائص الفلسفة اليونانية الايمان بقوة العقل الانساني .

الفلسفة العربية الاسلامية :

إهتم العرب والمسلمون بالفلسفة اليونانية فترجموا كتبها وآراءها إلى اللغة العربية ، وعكفوا على دراستها ، وشرحها وتفسيرها ، وتوضيح غوامضها ، واختصار مطولها . لكنهم لم يكونوا مجرد مترجمين وناقلين يرددون ما قاله فلاسفة اليونان ، وإنما أنتجوا فكراً فلسفياً خاصاً بهم ، وأضافوا

إلى الفكر الانساني إضافات أصيلة . وقد تعددت جوانب الفكر الفلسفي العربي الاسلامي وأهمها : الفلسفة بمعناها الخاص ، وعلم الكلام ، والتصوف والأخلاق . وهذه الفروع تعني جميعاً بالوجود ، والمعرفة ، والدين ، والأخلاق ، والتربية .

بحث الفلاسفة العرب والمسلمون في موضوعات الفلسفة المختلفة . فكتبوا في الطبيعة وفيما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) ، والمعرفة ، والأخلاق ، والنفس ، وغير ذلك من الموضوعات الفلسفية . وكان معظمهم من المشتغلين بالعلوم الطبيعية والرياضية . وكانت القضايا الدينية من أهم القضايا التي ركزت عليها الفلسفة العربية الاسلامية نظراً لما كان للدين من مكانة في حياة العرب والمسلمين وتفكيرهم . وقد أنصبت معظم جهود العرب والمسلمين على محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين .

ولا يظهر إبداع الفلاسفة العرب والمسلمين بالنتائج التي توصلوا إليها فحسب ، وإنما في أسلوب عرضها والمجادلة فيها . ولا يستطيع الطالب أن يستشف أسلوب أولئك الفلاسفة في البحث والتحليل إلا إذا قرأ شيئاً من كتبهم حيث يشرح كل واحد منهم فلسفته ويوضح رأيه .

أشهر الفلاسفة العرب المسلمين :

١ ـ الكندي :

أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي (المتوفى بعد سنة ٢٥٧ هـ فيلسوف العرب ، ومؤسس الفلسفة العربية الإسلامية . ولد في الكوفة في أسرة عربية شريفة تنتمي إلى قبيلة كندة ، ودرس في البصرة وبغداد ، وكان على صلة وثيقة بالمأمون والمعتصم والمتوكل . وقد ألف في مختلف أبواب المعرفة ، فكتب في الفلسفة ، والحساب ، والهندسة ، والفلك والتنجيم والموسيقى ، والطب ، والعلوم الطبيعية . وتزيد الكتب والرسائل

التي ألفها عن ٣٦٠ كتاباً ورسالة . وقد طبع عدد من رسائله الفلسفية في جزئين بعنوان (رسائل الكندي الفلسفية) كما طبعت عدة كتب ورسائل أخرى له بأجزاء مستقلة .

تقبل الكندي عقيدة المعتزلة إلا أنه أقامها على أساس فلسفي ، وحول النظريات الفلسفية اليونانية وقربها من العقائد الاسلامية . فهو يقر بخلق العالم من العدم . وبعث الأجساد يوم القيامة . كان يرى أن الله القادر على كل شيء خلقت إرادته الفلك الأعلى من العدم ، بلحظة واحدة من الزمن فالخلق يعتمد على فعل من أفعال الله الذي هو فوق قوانين الطبيعة . وكان الكندي يرى في النبوة أرفع كمال يستطيع البشر بلوغه . وللنبي معرفة إلهية وصلته عن طريق الوحي والالهام . وهي أرفع درجات المعرفة البشرية ، وبناء على هذا فإن القرآن الكريم يمد البشر بحقائق الفلسفة .

٢ ـ الفارابي :

ولد الفارابي في فاراب في أواسط آسيا . ودرس الفلسفة في بغداد ، ورحل إلى حلب وعاش متزهداً في كنف سيف الدولة الحمداني ، ومات في دمشق سنة ٣٣٩ هـ ـ ٩٥٠ م . لقد سمي ارسطو بالمعلم الأول لأنه جمع ما تفرق من مباحث المنطق ومسائله وهذبها . وسمي الفارابي بالمعلم الثاني لأنه جمع الفلسفة اليونانية ورتبها وشرحها . ولكن أسلوبه كان غامضاً وعباراته غير واضحة . ومن أشهر كتبه « آراء أهل المدينة الفاضلة » و « إحصاء العلوم » و « تحصيل السعادة » و « السياسة المدنية » وقد حاول الفارابي أن يفسر نواحي الاسلام المختلفة وجوانب الثقافة العربية الاسلامية المتعددة في ضوء فلسفته الخاصة . فبحث في علم الكلام ، والعقيدة ، والفقه ، والشريعة وقواعد النحو ، والتقدير الجمالي للشعر والنثر ، وتنظيم المجتمع الكامل ، والصفات الجوهرية التي يتصف بها حاكم هذا المجتمع . وقد شرح في كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » نظام المجتمع الانساني الأمثل .

٣ - ابن سينا :

ولد الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا قرب بخاري سنة ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م وتوفي في همدان سنة ٤٢٨ هـ - ١٠٣٧ م . وقد كان نابغة عصره في الطب والفلسفة. وألف كتباً عديدة أشهرها « القانون في الطب » و « كتاب الشفاء » وملخصه « النجاة » في الفلسفة . و « كتاب الاشارات والتنبيهات » وقد ذكر فيه مباحث في الطبيعيات والإلهيات والتصرف والأخلاق واعتمد الأسلوب الأسطوري الرمزي في بعض رسائله مثل « رسالة حي بن يقظان » و « رسالة الطير » ولابن سينا عدد كبير من الرسائل يدور بعضها على ماهية النفس وقواها ووجودها ومآلها . ويوضح كتاب الشفاء شمول الفلسفة العربية الاسلامية مختلف موضوعات المعرفة أحسن توضيح . فهو يشتمل على أربعة أقسام هي المنطق ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والآلهيات ويتناول كل قسم موضوعات متعددة فقسم الرياضيات يتناول الهندسة والحساب والفلك والموسيقى . وقسم الطبيعيات يتناول علم النفس ، والحيوان ، والنبات والجيولوجيا أي طبقات الأرض . ويتناول قسم المنطق ، إلى جانب موضوعات المنطق المعروفة ، الخطابة والشعر ويعرض قسم الآلهيات مع الفلسفة الأولى السياسية والأخلاق . وقد أثر ابن سينا في الشرق والغرب تأثيراً عظيماً فقد تأثر به فلاسفة المسلمين الذين جاءوا بعده . وترجمت كتبه الطبية والفلسفية إلى اللاتينية فكانت أحد ينابيع المعرفة في أوروبا .

إلى جانب هؤلاء الفلاسفة الثلاثة الكبار لمع في المشرق عدد من الفلاسفة يضيق بنا مجال البحث عن التوسع بذكرهم ومنهم : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الفيلسوف والطبيب العظيم ، ويحيى بن عدي المتوفى سنة ٣٦٤ هـ ٩٧٥ م ، وهو من أشهر فلاسفة بغداد ، وتلميذه أبو سليمان محمد بن طاهر المنطقي السجستاني المتوفى حوالي سنة ٣٩١ هـ ١٠٠١ م ، وتلميذه أبو حيان التوحيدي الأديب الفيلسوف .

٤ - ابن رشد :

انتقلت كتب فلاسفة المشرق إلى المغرب العربي والأندلس فأحدثت فيهما حركة فلسفية كان من أبرز إعلامها ابن باجة المتوفى سنة ٥٢٣ هـ ١١٣٨ م ، وابن طفيل المتوفى سنة ٥٨١ هـ ١١٨٥ م وأشهر كتبه « حي بن يقظان ». وأبو الوليد ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ١١٩٨ م ، وهو أعظم فلاسفة المسلمين المتأخرين ، وقد ألف كتباً عديدة معظمها تلخيص لمؤلفات أرسطو ، وشروح لها ، وقد نقلت جميعاً إلى اللغة العربية وترجمت منها إلى اللغة اللاتينية ، فأحدثت أثراً عميقاً في الفكر الفلسفي والديني اليهودي والمسيحي في أوروبا . وأشهر مؤلفات ابن رشد « تهافت التهافت » و « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وهو يوضح العلاقة بين الفلسفة والدين ، ويبين أن الحقيقة واحدة ، وإنما تصل إليها الفلسفة والشريعة ، كل بطريقتها الخاصة ، وتعبر عنها بأسلوب خاص .

علم الكلام

بين القرآن الكريم أصول العقيدة الاسلامية ، ودعا الناس إلى الايمان بها . وجوهر هذه العقيدة الايمان بالله ونبوة محمد ﷺ . وقد آمن المسلمون الأولون بهذه العقيدة ، وسلموا بها ، ولم يتعرضوا لشرحها وتفصيلها . ولكنهم ما لبثوا ، بعد الفتوحات ، أن تعرضوا لمؤثرات داخلية وخارجية جعلتهم يفكرون في أصول عقيدتهم ، ويدققون في فروعها وجزئياتها ونشأت في الاسلام فرق عديدة كانت في بادىء أمرها سياسية ثم أخذت تتناول أصول العقيدة الدينية .

واختلط العرب بالأمم الأخرى فأطلعوا على عقائدها وأديانها ، وترجمت إلى العربية كتب الفلسفة والمنطق والجدل ، كل هذه العوامل دعت إلى البحث في العقيدة الإسلامية ، وتوضيح أسسها وأصولها ، والدفاع عنها

بأساليب لم يعرفها العرب من قبل . فقد استخدموا الحجج المنطقية ، والتعابير الفلسفية . ومن الجدل في العقائد ومناقشتها وتوضيحها ، تولد علم الكلام ، وسمي المشتغلون به : المتكلمين : ويرى بعض الباحثين المحدثين أن علم الكلام هو الفلسفة العربية الاسلامية الحقة ، فيه تجلت أصالة العرب المسلمين وفيه ظهر ابداعهم في البحث والتأليف .

المعتزلة :

وأول من وضع أسس هذا العلم المعتزلة وإمامهم ورئيسهم واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١ هـ ٧٤٧ م ثم ظهر بعده عدد كبير من توابغ المتكلمين من أشهرهم بشر بن المعتمر المتوفى ببغداد سنة ٢١٠ هـ وابراهيم بن سيار النظام البصري المتوفى سنة ٢٢١ هـ وأبو الهذيل العلاف المتوفى حوالي سنة ٢٢٦ هـ والجاحظ المتوفى سنة ٣٥٥ هـ . ويسمى المعتزلة أهل العدل والتوحيد كما يسمون أيضاً ، القدرية . ويتفق المعتزلة حول أصول خمسة هي : التوحيد والعدل ، الوعد والوعيد ، السمع والعقل ، الصلاح والاصلح ، ويختلفون حول فروع كثيرة .

علم الأخلاق :

موضوع الأخلاق :

ما معنى الخير والشر ؟ وما معنى الفضيلة والرذيلة ؟ وما هو مصدر الخير والشر ؟ هل مصدرها نفس الانسان وطبيعته ؟ أم مصدرهما من خارج الانسان ؟ وما هو الضمير وما هي درجات الفضائل ؟ وهل الانسان خير بطبيعته أم شرير ؟ وما هو دور التربية في تهذيب أخلاق الانسان وتعويده على فعل الخير ؟

يتناول علم الأخلاق هذه الأسئلة وغيرها مما يدخل في موضوعها . ولا يخلو أي دين ، أو نظام فلسفي ، من قواعد الأخلاق والسلوك ، ومن أسس

شرعية أو عقلية يقيم عليها هذه القواعد الخلقية . ومصدر الأخلاق عند الفلاسفة والمتصوفة المسلمين عموماً هو القرآن والسنة . والمعرفة والأخلاق ، عند معظم فلاسفة الاسلام متلازمان . فالانسان يحصل على المعرفة بتنقية ما فيه من نفس وعقل حتى يعود إلى أصله العقلي ، وعالمه الروحي . وسبيل حصول الانسان على الفضيلة والخلق الحميدة هي سبيل حصوله على المعرفة المحنة ، فالشر ناجم عن انغماس الانسان في الشهوات المتولدة عن المادة . فإذا فطم الانسان نفسه عن الشهوات وصدها عن التعلق بالعالم المادي اعتدلت أخلاقه ، وكملت فضائله ونال سعادته وأصبح إنساناً سوياً .

مسكويه :

ومن أعظم الذين عنوا ببحث الأخلاق أبو علي أحمد بن محمد مسكويه . المتوفى سنة ٤٢١ هـ - ١٠٣٠ م . وكان فيلسوفاً ، وطبيباً ، ومؤرخاً ، ومن أشهر كتبه في الأخلاق : « تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق » الذي استهدف فيه توضيح معنى السعادة التي هي غاية الانسان ، وبيان وسائل الحصول عليها ، وخلاصة فلسفة مسكويه في الأخلاق أن الخير هو ما يبلغ به الانسان كمال وجوده . ويختلف الناس في استعدادهم لتقبل الخير . فمنهم فئة قليلة هم أخيار بالطبع ولا يمكن أن يفعلوا الشر . ومنهم أشرار كثيرون بالطبع لا يمكن أن يحملوا على فعل الخير . وهناك فئة وسطى من الناس ليسوا أخياراً ولا أشراراً بطبيعتهم بل عندهم الاستعداد الفطري لفعل الخير والشر . فإذا أحسن تأديبهم وتهذيبهم فعلوا الخير ، وإذا اسيء تأديبهم وصادقوا الأشرار ، ضلوا وارتبكوا الرذائل والمضار . والخير اما خاص أو عام . فهناك خير مطلق يسعى الأخبار جميعاً للوصول إليه وهناك خير خاص بكل انسان وهو شعور الانسان بالسعادة أو اللذة ويحقق الانسان به عندما يقوم بالأفعال التي تخص طبيعته الانسانية الخيرة في أرقى مراتبها . والانسان لا يستطيع أن يحقق جميع الخيرات الممكنة إذا اعتمد على نفسه فقط . ولذلك يجب إجتماع أفراد كثيرين وتعاونهم لتحقيق الفضائل .

وأول هذه الفضائل هو محبة الانسان للناس كافة ، إذ بدون هذه المحبة لا يمكن أن يقوم مجتمع . ولا يمكن أن يبلغ الانسان كماله إلا مع أبناء جنسه ويمعونتهم . وهذه المحبة مثل جميع الفضائل ، لا تظهر آثارها إلا في جماعة أو مدينة ، ولا تظهر آثارها في عزلة الراهب الناسك الذي يفر من الدنيا . أن أساس الأخلاق الفاضلة في جميع الشرائع الدينية هو محبة الانسان لأخيه الانسان ، وتعاونه على تحقيق السعادة والخير .

ولقد لخص مسكويه نظرياته الأخلاقية في وصيته التي يوصي بها طالب الحكمة بأن يتحلى بالفضائل الأربع الكبرى وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة . ثم بالفضائل الصغرى التي تتصل بأخلاق الانسان الشخصية مثل : إيثار الحق على الباطل في الاعتقادات ، والصدق على الكذب في الأقوال . والخير على الشر في الأفعال ، والجهاد الدائم للنفس . ثم يوصيه بالفضائل العملية كحفظ المواعيد ، ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك . والتفكير في المسألة قبل إبداء الرأي فيها . والإقدام على فعل كل ما كان صواباً . وإنفاق العمر في فعل الشيء المفيد لأن العمر قصير ، وترك الخوف من الموت والفقر بعمل ما ينبغي ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد . وذكر المرض وقت الصحة ، والهم عند السرور ، والرضي عند الغضب ، ليقل الطغي والبغي . وقوة الأمل وحسن الرجاء والثقة بالله .

المصادر والمراجع

(أ) المصادر :

- ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي) ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل . القاهرة ١٣٢٠ هـ .
- البغدادي التميمي (عبد القاهر بن طاهر) ـ الفرق بين الفرق . بيروت ١٩٧٨ .

ـ الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم) ـ كتاب الملل والنحل . بيروت ١٩٧٥ .

ـ النوبختي (أبو محمد الحسن بن موسى) ـ الفرق الصحيحة . بيروت .

(ب) المراجع :

ـ ابراهيم مدكور ويوسف كرم دروس في تاريخ الفلسفة ، القاهرة : ١٩٤٤ .

ـ دي يور وترجمة عبد الهادي أبو ريده تاريخ الفلسفة في الاسلام ، القاهرة : ١٩٣٨ .

ـ حنا الفاخوري وخليل الجبر تاريخ الفلسفة العربية ، بيروت ١٩٥٧ .

ـ دي غويه ـ القرامطة . (الترجمة العربية) بيروت ١٩٧٨ .

ـ دي لاسي أو نيري ـ الفكر العربي ومكانه في التاريخ . (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٧١ .

ـ زاهية قدوره ـ الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي الأول . بيروت ١٩٧٢ .

ـ ريتشارد فالتزر وترجمة محمد توفيق . الفلسفة الاسلامية ومركزها في التفكير الانساني ، بيروت ١٩٥٨ .

ـ عارف تامر ـ القرامطة. بغداد

ـ عبد العزيز الدوري ـ الجذور التاريخية للشعوبية . بيروت ١٩٦٢ .

ـ عبد الرحمن بدوي ـ مذاهب الاسلاميين (جزءان) بيروت ١٩٧١ ـ ١٩٧٣ .

ـ تاريخ التصوف الاسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني . الكويت ١٩٧٨ .

ـ عرفان عبد الحميد ـ دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية . بغداد .

- فؤاد كامل وآخرين - الموسوعة الفلسفية المختصرة، القاهرة ١٩٦٣.
- قاسم غني - تاريخ التصوف في الاسلام . (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٧٠ .
- كمال اليازجي وانطوان كرم اعلام الفلسفة العربية، بيروت ١٩٥٧ .
- ماجد فخري - تاريخ الفلسفة الاسلامية . (الترجمة العربية) بيروت ١٩٧٤ .
- محمد رضا كحالة - الفلسفة الاسلامية وملحقاتها . دمشق ١٩٧٤ .
- محمد عمارة - الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية . بيروت ١٩٧٧ .
- محمد اسماعيل - الحركات السرية في الاسلام . القاهرة ١٩٧٣ .
- وداد القاضي - الكيسانية في التاريخ والأدب . بيروت ١٩٧٤ .
- يوليوس فلهوزن - أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام : الخوارج والشيعة . (الترجمة العربية) الكويت ١٩٧٦ .

الفصل الثامن

التراث العلمي عند العرب المسلمين

أولاً : الطب

ثانياً : دور علماء العرب المسلمين في مجال الفيزياء

ثالثاً : دور علماء العرب المسلمين في علم الفلك وأثر ذلك على الحضارة الانسانية

رابعاً : الرياضيات عند العرب المسلمين

- دور علماء العرب المسلمين في استخدام الارقام وأثر ذلك على الحضارة الانسانية .

- دور علماء العرب المسلمين في تطوير علم الجبر .

خامساً : علماء الحضارة العربية الاسلامية والطريقة العلمية التجريبية

أولا : الطب :

أشاد القرآن الكريم بالحكمة ، وجعلها أعظم الخير والبركة على الإنسان ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ومَنْ يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أُوتى خَيراً كثيراً ﴾[1] . وقال : ﴿ ولقد ءاتينا لُقمَنَ الحِكمَةَ أنِ اشكُر لله وَمَن يَشكُرُ فإنما يَشكُرُ لِنَفسِهِ ﴾[2] . ومن الحكمة التطبيب أو (الطب) قبل سائر ضروب الحكمة ـ وكذلك أطلق المسلمون على الطبيب اسم « الحكيم » ولا يزال هذا الاسم متداولاً بين بعض الناس إلى اليوم ـ فجعل الاسلام هذه الصناعة نعمة يشكرها من أسبغها الله عليه ، واتخذها وظيفة معترفاً بها ولو لم تكن من أعمال المتدينين . لهذا كثر اشتغال الناس بالطب في ظل الدولة الاسلامية من مسلمين وغير مسلمين ، في الوقت الذي كانت في الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب ، لأن المرض في زعمها عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه . وظل الطب محجوراً عليه في العالم المسيحي بهذه

(١) سورة البقرة من الآية ٢٦٩ .
(٢) سورة لقمان من الآية ١٢ .

الحجة إلى ما بعد إنقضاء العهد المسمى « عهد الايمان » عند مستهل القرن الثاني عشر الميلادي .

وقد كثر المشتغلون بالطب في العالم الإسلامي كثرة لا نظير لها من قبل ، حتى لقد دُعي للامتحان في بغداد في عهد المقتدر بالله العباسي (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) نحو تسعمئة طبيب ، وهم غير الأساتذة الثقاة الذين تجاوزوا مرحلة الامتحان . وهذه عناية بالطب والصحة لم تشهدها قط حاضرة من حواضر التاريخ القديم . ويتبين من هذه الكثرة في عدد الأطباء ومعلمي الطب أن الحاجة إلى دراسة الطب والعلوم كانت حاجة عمران كامل ، ولم تكن حاجة طوائف أو حاجة أفراد .

ولقد كانت الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية تعد أقوى الحضارات التي كانت قائمة قبل ظهور الحضارة الاسلامية ، بل ظلت الحضارة الرومانية قائمة إلى جانب الحضارة الاسلامية ، ولكن لم يتسع نطاق المعرفة هذا الاتساع ، ولم يبلغ ارتقاء المعيشة في عهد هاتين الحضارتين هذا المبلغ الذي وصل إليه المسلمون . ويرجع هذا التقدم العظيم في عالم الاسلام إلى التفاعل الطيب بين طوائف المجتمع ، مع قيام الدولة الصالحة التي نهضت بها العبقرية الاسلامية ، وتكفلت بها سماحة الدين الاسلامي .

وقد كانت بعض الدراسة كافية لمزاولة الصناعة الطبية في تلك العصور ، ولكن الأطباء المسلمين طلبوا العلم للعلم ، فلم يقنعوا بما وجدوه من كتب الاغريق الأقدمين أو كتب الفرس والهنود ، بل رجعوا إلى كل فطنة من فطان التوسع في هذه البحوث . وقد ألفوا الكتب فيما قرأوه وترجموه ، فإذا هو موسوعات تشمل « الوصفة » الهندسية إلى جانب الوصفة العربية أو الفارسية أو اليونانية ، فجاءت كتبهم مباحث تهذيب واستقصاء .

ومن موسوعات الطب الاسلامية ما لم يوضع له نظير في الضخامة التمحيص على قدر ما عرف التمحيص في زمانهم . وقد ترجمت كلها إلى

اللغة اللاتينية ، وإستخدمها أطباء أوروبا فنقلتهم من حال إلى حال . ولم يضارع علماء المسلمين في هذا التأليف أحد من العلماء الاوروبيين إلى مطلع العصور الحديثة . وقد ترجم كتاب « القانون » للرئيس ابن سينا في القرن الثاني عشر ، وهو موسوعة جمعت خلاصة ما وصل إليه الطب عند العرب والاغريق والهنود والسريان والأقباط . وترجم كذلك كتاب « الحاوي » للرازي سنة ٦٧٩ هـ - ١٢٧٩ م ، وهو أكبر من « القانون » وأوسع منه في المادة والموضوع ، وقد أكمله تلاميذ الرازي بعد موته لأنه عمل كبير لا يضطلع به فرد .

وقد كانت كتب ابن سينا والرازي هي المراجع المعول عليها في كليات الطب في اوروبا الى القرن السابع عشر . وجاء المدد إلى اوروبا من الأندلس الاسلامية فأمدها بمرجعها الأكبر في الجراحة وتجبير العظام ، وهو كتاب « التعريف لمن عجز عن التصريف » لأبي القاسم خلف بن العباس ، وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع بها في القرن الخامس عشر ، وكان قبل طبعه دروساً متداولة يعتمد عليه الأساتذة والدارسون في الأعمال الجراحية ولا سيما في فتح المثانة وإستخراج الحصاة .

وقد سبق علماء المسلمين في الطب الأوروبيين في وصف مرض الجذام ، ومرض الجدري والحصبة ، وعلاج أمراض العيون . كما عالجوا « الجنون » علاج الأمراض الطبيعية ، وقد كان يسمى عند الأوروبيين بالمرض الإلهي أو المرض الشيطاني ، لأنهم كانوا يحسبونه من إصابات الأرواح أو الشياطين .

المستشفيات والمعاهد الطبية عند العرب المسلمين :

عرف العرب القدماء الطب قبل ظهور الاسلام ، غير أن معرفتهم كانت مبنية على التجربة والملاحظة ومن أخبار قدمائهم ومقتصرة على حالات مرضية محدودة . وكانوا يعالجون بالرقي والسحر وتلاوة العزائم لاصنامهم وتقديم

القرابين لها وبالعقاقير البسيطة ومعظمها من أعشاب البادية وبالاشربة وخصوصا العسل الذي كان العلاج الاساس عندهم في معالجة الأمراض الباطنية ، وفي بعض الحالات كانوا يعالجون المرضى بالجراحة والحجامة والفصد والقطع والكي بالنار . وكانوا يعتقدون أن معظم الأمراض التي تصيب الانسان أساسها الافراط في الطعام على اعتبار أن « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء ».

وبعد ظهور الاسلام ظهر اتجاه للعناية بالجسم باعتباره ضرورة لتحقيق سعادة الانسان وإشراق روحه وفي قول الرسول الأعظم محمد ﷺ : « إن لجسدك عليك حقاً » تأكيد لذلك .

ومن الملاحظ في عبادات الاسلام تحقيقها أهم غرض من أغراض علم الطب وهو حفظ صحة الانسان ، فالصلاة والصيام والحج وما تتطلبه هذه العبادات من شروط وأركان وأعمال ، جميعها تحفظ للجسم صحته ونشاطه وقوته ، كذلك حث الدين الاسلامي على ضرورة مقاومة الأمراض ووقف إنتشارها ، وترغيبه في طلب العلاج المكافح لها وهذا بطبيعته لا يتأتى إلا بمتابعة دراسة الطب . في المدارس الموجودة آنذاك ، ومن أهمها مدرسة جند يسابور الطبية في الأهواز التي أنشأها كسرى في منتصف القرن السادس الميلادي وتخرج فيها بعض أطبائهم كالحارث بن كلدة الذي عاش في عصر الرسول الأعظم محمد ﷺ وكان يشير على أصحابه بالتداوي عنده ومراجعته حين تنتابهم الأمراض .

لم يكن عند العرب قبل الإسلام مستشفيات بالرغم من وجود عدد من الأشخاص الذين مارسوا مهنة الطب وأول من بنى أول مستشفى (بيمارستان) كامل في الاسلام الوليد بن عبد الملك بن مروان (ت ٨٨ هـ / ٧٠٦ م) وهو خاص بالمجذومين وعين لها الأطباء وأجرى عليهم الرواتب والهدايا ، وأمر بحجرهم لئلا يخرجوا ، وأجرى على العميان الأرزاق ، ثم تتابع إنشاء

المشافي ، ويذكر الطبري أن الوليد كان عند أهل الشام أفضل خلفائهم بنى المساجد وأعطى الناس وأعطى المجذومين . ويذكر اليعقوبي ان الوليد أول من عمل البيمارستان للمرض وأول من أجرى على العميان والمساكين والمجذومين الارزاق . إلا أن بعض المؤرخين يعتبرون الخيمة التي أمر الرسول الأعظم ﷺ بنصبها في غزوة الخندق هي نواة البيمارستانات (المستشفيات) في الاسلام فقد كانت رفيدة الاسلمية تداوي جرحى المسلمين فيها .

وبعد انتشار الاسلام في المناطق المفتوحة واستقرار الحكم العربي فيها ، استخدم الخلفاء أطباء من غير العرب وشجعوهم وبالغوا في إكرامهم . فاستخدم معاوية بن أبي سفيان رجلاً من دمشق يدعى ابن أثال ، كما استخدم الحجاج بن يوسف الثقفي ، والي العراق ، الطبيب تياذوق .

وكان عبد الملك بن أبجر الكناني طبيباً لعمر بن عبد العزيز . واشتهر في العصر الاموي عدد من الأطباء من بينهم ماسرجويه البصري ، الذي ترجم عدداً من الكتب الطبية من السريانية إلى العربية . وفي العصر العباسي إزداد إهتمام الخلفاء بالبيمارستانات ، فقد أنشأ الرشيد بيمارستاناً في بغداد سماه باسمه ، وعهد لماسويه (من أطباء بيمارستان جنديسابور) برئاسته ، كما تولاه جبريل بن بختيشوع أيضاً .

وأقام البرامكة في بغداد بيمارستانا تولاه ابن دهني ، أما البيمارستان الثالث فهو بيمارستان علي بن عيسى الوزير عام ٩١٤م . والبيمارستان الرابع ، هو بيمارستان المقتدري بناه الخليفة المقتدر عام ٩١٨م . وهناك البيمارستان العضدي الشهير الذي بناه عضد الدولة عام ٩٨١م . وثمة بيمارستانات أخرى (مثل بيمارستان ابن الفرات ، أنشأه ابن الفرات وزير المقتدر ، و« بيمارستان بدر غلمان بني على طلب سنان بن ثابت » و« بيمارستان السيدة بناه سنان بن ثابت ».

كذلك إزداد اهتمام الخلفاء بالأطباء ، واشتهر منهم جرجيس بن بختيشوع ، وابنه ، وأبو العباس أحمد بن محمد ، وعلي بن ابن الطبري (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) ويوحنا بن ماسويه ، وأبو علي بن زرعة وغيرهم .

أنواع المستشفيات : ـ

كانت المستشفيات نوعين : المتنقلة (المحمولة) والثابتة .

فالأولى ، وهي عبارة عن مستشفى مجهز بجميع ما يحتاجه المرضى من الأدوية والأشربة والملابس والأطباء ينتقل من بلد إلى آخر من البلدان النائية والخالية من المستشفيات الثابتة لمعالجة المرضى . وأول ما عرفت في عهد الرسول الأعظم محمد ﷺ ، في غزوة الخندق ، إذ ضرب خيمة لعلاج جرحى المسلمين تشرف على علاجهم فيها رفيدة الأسلمية باعتبارها طبيبة متميزة بالجراحة . فلما أصيب سعد بن معاذ في أكحله (والأكحل عرق في الذراع يفصد) أمر الرسول ﷺ بنقله إلى الخيمة لعلاجه ، وهو أول مستشفى حربي متنقل في الاسلام ، ثم توسع فيه الخلفاء والملوك من بعد ، حتى أصبح المستشفى المتنقل مجهزاً بجميع ما يحتاجه المرضى ، من أطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة وعلاج ، وكان ينقل من مكان إلى آخر وفق ما تقتضيه الظروف الصحية آنذاك وكان نقله يتم إلى الأماكن التي لا توجد فيها مستشفيات ثابتة . وأول من فعل ذلك علي بن عيسى الجراح وزير الخليفة العباسي المقتدر حيث كتب إلى سنان بن ثابت ، وكان يتولى النظر على مستشفيات بغداد وغيرها : « فكرت فيمن بالسواد من أهله ، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء ، فتقدم بإيفاد متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون بالسواد ، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ، ويعالجون من فيه ، ثم ينتقلون إلى غيره » . فكان هذا أول ظهور ما نسميه اليوم بالمستوصفات السيارة . ومع مرور الوقت تطورت هذه المستشفيات واتسع نطاقها وكانت تصحب الخلفاء

والوزراء في رحلاتهم . كما كانت هنالك وحدات طبية متنقلة تصحب الجيوش أثناء الحرب ، كذلك كانت هناك مستشفيات سيارة أو كما يسميها الدكتور محمود الحاج قاسم محمد[1] (بيمارستان السبيل) يرافقها طبيباً وممرضين مجهزة بمواد الاسعاف والأدوية المحمولة من صناديق خاصة ترافق قوافل الحجاج أو التجار ويعالجون كل من يحتاج للمعالجة من أفراد القافلة أو من الذين تمر بهم القافلة في الطريق . وأول من قام بعمل مثل هذا النوع من المستشفيات هو معاوية بن أبي سفيان .

وأما المستشفيات الثابتة ، فقد كانت كثيرة تفيض بها المدن والعواصم ، ولم تخل بلدة صغيرة في العالم الاسلامي يومئذ من مستشفى فأكثر ، حتى أن قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى .

المستشفيات الخاصة :-

١ - **مستشفيات المساجين** : لم يرض العرب المسلمون للمسجونين من المرضى أن يبقوا محرومين من الرعاية الطبية ، لذا ولأول مرة في التاريخ ينشأ لهم أول بيمارستان خاص بهم مزود بالأطباء والأدوية اللازمة والأطعمة والأشربة والملابس ، وأول من أحس بضرورة ذلك علي بن عيسى الجراح وزير الخليفة المقتدر بالله العباسي في القرن الثالث الهجري ، فكتب إلى سنان بن ثابت ، رئيس أطباء بغداد وقتذاك ما يلي : « فكرت في أمر من في الحبوس ، وأنهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونهم من الأطباء فيما يعرض لهم فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم وتحمل إليهم الأدوية والأشربة ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى ».

٢ - **محطات الاسعاف** : كانت هذه المحطات تقام بالقرب من المساجد

---

(١) الموجز لما اضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ، ص ١١٤ ، بغداد ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

والجوامع وفي محطات البريد والأماكن العامة التي يكثر بها إجتماع الناس وتزود بالأطباء والصيادلة لمعالجة المرضى والمصابين بالأمراض والحوادث الطارئة ويذكر المقريزي بأن أحمد بن طولون (٢٢٠ هـ - ٢٧٠ هـ) هو أول من أنشأ هذه المحطات فعندما بنى جامعه الشهير في مصر عمل في مؤخره ميضأة وخزانة شراب (أي صيدلية أدوية) وفيها جميع الأشربة والأدوية ، وعليها خدم ، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة ، لمعالجة من يصابون بالأمراض من المصلين .

٣ - **مستشفيات الجذام** : كان للمصابين بمرض الجذام مستشفيات خاصة لهم مزودة بأكفأ الأطباء ومزودة بالأدوية اللازمة لعلاج مثل هذه الحالات . ويذكرنا التاريخ بأن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك هو أول من أنشأ مستشفى لعلاج مرض الجذام وكان ذلك سنة ٨٨ هـ/ ٧٠٦ م ، ثم قلده من خلفه من الخلفاء وحكام الولايات .

٤ - **المستشفيات الحربية** : كان لأفراد الجيش مستشفى خاص بهم يعمل به أطباء متخصصون وصيادلة ، وكانت هذه المستشفيات ترافق الجيش في أوقات السلم والحرب متنقلة على ظهور الجمال والبغال بمحامل مريحة واسعة لنقل المرضى ، في الوقت الذي كانت خدمة الجرحى في جيوش أورو تقع على عاتق زملائهم حيث لم يكن لديهم الأطباء الاختصاصيين لعلاج جرحى الحروب .

٥ - **مستشفيات المجانين والمعتوهين** : بنى الخلفاء العباسيون مستشفيات خاصة للمجانين والمعتوهين وزودوها بأطباء إنسانيين رحيميين عاملوا المرضى المصابين بهذا النوع من الأمراض معاملة خاصة باعتبارهم عاجزين عن القيام بحاجتهم ، ووفروا لهم كل سبل الراحة والرعاية الطبية على أساس أنهم مصابين بأمراض يمكن بعد تشخيصها معالجتها إما بالعقاقير الطبية أو بالطرق النفسية . وفي بعض الأماكن كان يخصص لهم أجنحة مستقلة في

المستشفيات العامة لكي يقوم أطباء المستشفى بتفقد المرضى ومعالجتهم كما كان في المستشفى بالقاهرة في القرن السادس الهجري ، في الوقت الذي لم تكن فيه أوروبا تعرف الطب بالمعنى الحقيقي وكانت متأثرة إلى درجة كبيرة بالتعاويذ والأحجبة والتمائم ، مع الاستسلام لأقسى أنواع الدجل والشعوذة بالاضافة الى التعصب الديني . وفي هذا يقول الاستاذ درابد في كتابه ـ The Intellectual Development in Europe «بأن الفلاح الأوروبي إذا أصابته حادثة وفاجأته الحمى يسرع إلى ضريح قرب قديس إنتظاراً لحدوث معجزة تشفيه . . .».

٦ ـ طبابة المدارس : لما توسعت رقعة الدولة العربية الاسلامية وأقبل الناس على الدخول في المدارس ، تطلب الأمر المحافظة على صحة الطلاب وإجراء الفحوصات الدورية لهم باستمرار ، لذا كان من الضروري تخصيص طبيب يشرف على طلاب المدارس والأساتذة والخدم ، فمثلاً كان في المدرسة المستنصرية ببغداد طبيب كان يتردد إلى مرضاها في بكرة كل يوم يتفقدهم . وذكر ابن العبري وابن واصل وغيرهما أنه كان في المستنصرية مخزن فيه أنواع الأشربة والأدوية والعقاقير . ولا شك في أن هذا المخزن كان بمثابة المذخر الطبي أو الصيدلية فيها . ومما يحسن ذكره ، في هذا الصدد ، أن بناء مدرسة الطب المستنصرية بجوار مدرسة الفقه ودار السنة ، ودار القرآن الخ كان أمراً ضرورياً وذلك لتسهيل معالجة المرضى في تلك الجامعة الواسعة ، فقد عد حفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان من الأمور التي كانت تحظى بعناية هذه المدرسة وأطبائها .

المكاتب والملاجىء الخيرية : فالعرب المسلمون ـ كعادتهم في كل ما هو خير للمجتمع الانساني ـ كانوا سباقين إلى إنشاء الملاجىء والمدارس الخيرية الخاصة بحضانة الأطفال وإيواء الأيتام وأبناء الفقراء وتعليمهم وتربيتهم ويمكن إيجاز ذلك بما يلي :ـ

١ ـ دور المراضع والميآتم (دور الحضانة) : خصصت هذه الدور للأطفال الذين فقدوا أمهاتهم ولأبناء الفقراء الذين لم يكن لديهم من يقوم بإرضاعهم والسهر على تربيتهم وإعاشتهم . وأول من بدأ بتخصيص دار كامل الأثاث واللوازم لهؤلاء الأطفال هو مظفر الدين كوكبوري (٥٤٩ ـ ٦٣٠ هـ) صاحب أربل وخصص لهم مراضع مقيمات في الدار وعين فيها قومه وخدماً يقومون على خدمتهم . وعين طبيباً يشرف على معالجتهم والعناية بصحتهم .

٢ ـ مكاتب السبيل ـ الكتاتيب : هي دور مفتوحة لكل المحتاجين من الأيتام وأولاد الفقراء للسكن والتعليم والدراسة . فهي عبارة عن مدارس داخلية بالمجان كان يقوم بوقفها الخلفاء ورجال الدولة من المحسنين الكبار .

وأقدم مكتب سبيل يذكره المؤرخون هو الذي أسسه يحيى البرمكي ببغداد في القرن الثاني للهجرة وكان طلاب هذه المكاتب إذا ما بلغوا سن الرشد يخيرون بين طلب العلم في المدارس أو الانصراف إلى ما يختارون من الأعمال الحرة المختلفة . أما البنات فبعد أن يعلمن ويدربن على الأعمال الزوجية كانوا يزوجونهن لمن يهيء لهن حياة زوجية سعيدة .

٣ ـ دور العجزة والمكفوفين : هي دور شيدت خصيصاً للمقعدين والعاجزين والمكفوفين لايوائهم وإطعامهم وإكسائهم وكان يصرف على هذه الدور من الأوقاف التي كانوا يوقفونها .

وأول من جمعهم في دور خاصة بهم للعناية بأمرهم هو الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦ هـ) وأعطى لكل أعمى قائداً يعينه في تنقله ويشرف على العناية بأمره وخصص لكل مقعد خادماً يكون في خدمته .

العلاج ونظام المعالجة في البيمارستان :

يقبل في البيمارستان كل مريض يحتاج للمعالجة بغض النظر عن لونه أو دينه أو مقامه ذكراً كان أم أنثى . ويعالج المريض مجاناً طيلة مكوثه في

المستشفى ، وعند مغادرته المستشفى بعد شفائه يعطي بدلة من الثياب ومبلغاً من النقود يكفيه العوز إلى أن يصبح قادراً على العمل . والذي يموت في البيمارستان يجهز ويدفن على حساب البيمارستان وتسد مصاريف المستشفى كلها من الأوقاف الخاصة بها ، لأن إيراد هذه الأوقاف كثيرة وكافية للقيام بحاجات المستشفى جميعها . وعلى سبيل المثال كان المستشفى المنصوري وحده يستهلك سنوياً ما قيمته مليون درهم .

إن النظام السائد في البيمارستانات بالنسبة لمعالجة المرضى لم يكن يختلف عن نظام مستشفياتنا كثيراً فكان هناك نوعان من المعالجة :-

النوع الأول ما يشبه العيادة الخارجية : فكان الطبيب يجلس على دكة ويكتب لمن يرد عليه من المرضى للعلاج أوراقاً تمنحهم صيدلية البيمارستان بموجبها الأشربة والأدوية التي يصفها الطبيب فبذلك كانوا أول من أوجد نظام العيادة الخارجية في المستشفيات وهم أول من ألحق الصيدليات القانونية بالمستشفيات .

والنوع الثاني معالجة المرضى الداخلية في البيمارستان : فكان المرضى يوزعون على القاعات بحسب أمراضهم وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان أطباء مختصون يتفاوت عددهم بحسب سعة القسم وعدد المرضى وداخل هذه القاعات يعالج المرضى بأحسن الطرق المعروفة لديهم في ذلك الحين . أما مسؤولية الأطباء في العمل فكانت تختلف ، فمنهم من كان يلازم البيمارستان ليلاً ونهاراً ـ « وهو ما يشبه عمل الطبيب الخفر أو المقيم الآن » ومنهم من يلازم البيمارستان يوماً واحداً في الأسبوع أو يومين أو أكثر حسب عدد أطباء البيمارستان فنجد مثلاً أن جبريل بن بختيشوع كانت نوبته في الاسبوع يومين وليلتين . وكانت طريقتهم في المعالجة مبنية على أسس علمية فقد كان لكل مريض بطاقة يدون الطبيب ملاحظاته عند المعالجة وللطبيب سجل خاص يدون فيه ملاحظاته الخاصة عن الأمراض التي يعالجها ويبين

تجاربه وإختباراته على هذه الملاحظات وفي النهاية قد تكون هذه الملاحظات مرجعاً لمن بعده من الأطباء كما حصل بالنسبة للموسوعة التي دون بها الطبيب المسلم أبو بكر محمد بن زكريا الرازي خلاصة تجاربه وملاحظاته وسماه « الحاوي في الطب ».

وكان الأطباء في البيمارستان يتحلون بروح إيجابية وعلمية عظيمتين فإذا ما عجز أحدهم عن تشخيص داء أو معالجة مريض كان يدعى طبيب من قسم آخر غير القسم الذي فيه المريض للاستشارة ورائد الجميع في كل ذلك شفاء المريض .

المراجع

١ ـ ابن أبي أصيبعة ، طبقات الأطباء .

٢ ـ الدكتور أحمد عيسى بك ، تاريخ البيمارستانات في الاسلام .

٣ ـ أمين أسعد خير الله ، الطب العربي .

٤ ـ حكمت نجيب ، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب .

٥ ـ زيغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب . « أثر الحضارة العربية في أوربا » ترجمة فاروق بيضون وكمال وسوقي ـ بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ .

٦ ـ سعيد الديوه جي ، دور العلاج والرعاية في الاسلام .

٧ ـ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك .

٨ ـ الدكتور محمود الحاج قاسم محمد ، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به .

٩ ـ ناجي معروف ، مدرسة الطب المستنصرية في كتاب بغداد ، نشر نقابة المهندسين العراقية بغداد ١٩٦٩ م .

١٠ ـ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي .

ثانيا : دور علماء العرب المسلمين في مجال الفيزياء :

أولاً ـ الجهود العلمية للعلماء العرب المسلمين في مجال الفيزياء :

تقدم علم الفيزياء ، أو علم الطبيعة بجهود علماء اليونان وفي مدرسة الاسكندرية خاصة ، حيث اكتشفوا أعداداً كبيرة من مبادئه ، وقد ترجمت مؤلفات اليونان إلى اللغة العربة ككتاب « الفيزيكس » لأرسطو وكتاب الحيل الروحانية ، وكتاب رفع الأثقال لابرن ، وكتاب هيرون الصغير في الآلات الحربية ، وكتب هيرون الاسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه وغيرها . وقد استوعب علماء العرب هذه الكتب ، فأخذوا يبحثون هم أنفسهم في هذه العلوم ، واكتشفوا قوانين طبيعية وألفوا الكتب القيمة في مختلف فروع علم الفيزياء وصنعوا الآلات الكثيرة ، وقد وضعوا بجهودهم العلمية أساس منهج البحث العلمي الحديث وأساس عدد من مباحث علم الطبيعة ، ومن أهم العلوم الطبيعية التي اعتنى بها العرب المسلمون .

١ ـ الميكانيكا :

يسمى العرب الميكانيكا علم الحيل ، ويقسمه الخوارزمي في مفاتيح العلوم إلى قسمين يبحث القسم الأول في جر الأثقال بالقوة اليسيرة ، وفي الآلات التي تقوم بذلك ، ويبحث القسم الثاني في آلات الحركات وصنعة الأواني العجيبة ، وقد اشتهر في هذا العلم من العرب المسلمين كثيرون وألفوا فيه الكتب العديدة ومنهم الأخوة محمد وأحمد وحسن أبناء موسى بن شاكر ، ولهم في الميكانيكا كتاب يحتوي على مئة تركيب ميكانيكي عشرون منها ذات قيمة علمية .

٢ ـ مراكز الأثقال :

وألف أبناء موسى بن شاكر في علم الأثقال وهو « علم يتعرف منه كيفية استخراج ثقل الجسم المحمول ، والمراد بمركز الثقل حد في الجسم عنده يتعادل بالنسبة إلى الحامل » ولابن الهيثم» مؤلفات في هذا الموضوع .

٣ ـ السوائل :

واهتم البيروني من علماء العرب بعلم السوائل ، والفوا في ذلك الكتب القيمة ، ذكروا فيها شروحاً وتطبيقات لبعض الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، وقد شرحوا صعود مياه الفورات والعيون إلى أعلى ، وتجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب حيث يكون مأخذها من المياه القريبة إليها ، وتكون سفوح ما يجتمع منها موازية لتلك المياه ، وبينوا كيف تفور العيون ، وكيف يمكن أن تصعد مياهها إلى الأماكن المرتفعة .

٤ ـ الوزن النوعي :

وكان للعرب عناية خاصة بقوانين الوزن النوعي ولعل سبب تلك العناية الشديدة رغبتهم في معرفة الوزن النوعي للأحجار الكريمة والمعادن الثمينة .

وقد أوجدوا طرقاً ، واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من حساب الوزن النوعي لكثير من الأحجار الكريمة والمعادن . وقام البيروني بتجربة لحساب الوزن النوعي واستعمل لذلك وعاء مصبه متجه إلى اسفل ومن وزن الجسم بالهواء وبالماء تمكن من معرفة الماء المزاح ، ومن هذا الأخير ووزن الجسم بالهواء حسب الوزن النوعي ، وقد وجد الوزن النوعي لثمانية عشر عنصراً ومركباً من الأحجار الكريمة والمعادن ، وقام العلماء بعمل الجداول الدقيقة فقد حسبوا كثافة الرصاص مثلاً فوجدوها ١١,٣٢ بينما هي في الحساب الحديث ١١,٣٥ ، واخترع الخازن آلات خاصة لمعرفة الوزن النوعي لأي سائل ، ولقياس حرارة السوائل .

٥ ـ الضغط الجوي :

الخازن من أشهر علماء الطبيعة وكتابه « ميزان الحكمة » من الكتب المعتبرة في علوم الطبيعة ، ومن أعظمها استيفاء لبحوث الميكانيكا ، ولعله الكتاب الوحيد من نوعه في الموضوع في العصور الوسطى ، وفي الكتاب بحث في الضغط الجوي شرح فيه المبدأ القائل بأن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل إلى أعلى على أي جسم مغمور فيه ، ومن هذا استنتج بأن وزن الجسم في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي

٦ ـ الجاذبية :

ويتحدث الخازن عن الجاذبية ، وهو يرى أن اختلاف قوة الجذب يتبع المسافة بين الجسم وهذا المركز ، ويبين العلاقة الصحيحة بين السرعة التي يسقط بها الجسم نحو سطح الأرض والبعد الذي يقطعه الزمن الذي يستغرقه ، وهي العلاقة التي تنص عليها القوانين والمعادلات التي ينسب الكشف عنها إلى علماء القرن السابع عشر مثل غاليلوونيوتن ، وقد اهتم كثير من علماء العرب بالجاذبية وعرفوا شيئاً من قوانينها ، فقد بحث محمد بن موسى بن شاكر في حركة الاجرام السماوية وخواص الجذب . واكتشف البوزجاني بعض أنواع الخلل في حركة القمر .

ويقول محمد بن عمر الرازي من اواخر القرن السادس الهجري : « إننا إذا رمينا المدرة (الحجرة) إلى فوق فإنها ترجع إلى أسفل فعلمنا أن منها قوة تقتضي الحصول في السفل حتى انا لما رميناها إلى فوق أعادتها تلك القوة إلى أسفل » (طوقان ، العلوم عند العرب ص ٣٥).

يتبين لنا مما تقدم أن علماء العرب سبقوا نيوتن في البحث عن الجاذبية وتورشيللي في أبحاث الضغط الجوي ، ومهدوا الطريق للنظريات التي وضعوها ، وللاختراعات التي بنيت عليها ، كالبارومتر ومفرغات الهواء ، والآلات الأخرى العديدة .

٧ ـ الضوء :

ويسميه العرب علم البصريات أو علم المناظر ، وقد اهتم به العرب منذ بدء اهتمامهم بالعلوم وبالفلسفة خاصة ، لقد ألف الكندي حوالى ١٦٥ هـ = ٨٧٠ م كتابين أحدهما في اختلاف المناظر ، وثانيهما في اختلاف مناظر المرآة ، وابن سينا المتوفى عام ٤٢٨ هـ = ١٠٢٧ م الطبيب والفيلسوف والرياضي والفيزيائي اشتغل كثيراً في هذا الباب وأوجد النظريات الجديدة .

٨ ـ الصوت :

بحث العرب في الصوت ومنشئه وقوته وأداهم ذلك إلى البحث في الموسيقى والآلات الموسيقية والنقر عليها وأنواع الأنغام ، ففي رسائل اخوان الصفا مثلاً نجد تعليلاً لحدوث الصوت الناتج عن حركة الأجسام المصوتة في الهواء « الذي لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها فإذا صدم جسم جسماً آخر أنسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروي واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموج إلى أن يسكن ويضمحل ».

وقسم العرب الأصوات إلى أنواع : منها الجهير والخفيف ومنها الحاد والغليظ وشرحوا العلاقة بين طول الوتر وغلظه وقوة توتره وشدة النقر من جهة ونوع الصوت الذي يحدث من جهة أخرى ، وعللوا الصدى . وشرح القزويني سبب رؤية البرق قبل أن يُسمع الرعد لأن الرؤية تحصل بمراعاة البصر ، وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت إلى الصماخ وذلك يتوقف على تموج الهواء ، وذهاب النظر أسرع من وصول الصوت ».

٩ ـ المغناطيسية وبيت الأبرة :

أخذ العرب المغناطيسية عن اليونان الذين هم أول من عرف خاصية الجذب في المغناطيس ، وعن الصينيين الذين هم أول من عرف خاصية

الاتجاه فيه . وثبت أنهم استعملوا الأبرة المغناطيسية لمعرفة الاتجاه .

وقد جاء في كتاب كنز البحار : «ومن خواص المغناطيس أن رؤساء البحر الشامي إذا اظلم عليهم ولم يروا من النجوم ما يهتدون به إلى الجهات الأربع يأخذون إناء مملوءاً ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلون إلى بطن السفينة ثم يأخذون ابرة وينفذونها من قشة حتى لتبقى معارضة فيها كالصليب ويلقونها في الماء الذي في الاناء ، فتطفو على وجهه ، ثم يأخذون حجراً من المغناطيس كبيراً ملىء الكفء ويدنونه من وجه الماء ويحركون أيديهم دورة اليمين فعندما تدور على صفحة الماء ثم يرفعون أيديهم على غفلة وسرعة ، فإن الأبرة تستقبل بجهتها جهة الجنوب والشمال ، ورأيت هذا الفعل منهم عياناً في ركوبنا البحر من طرابلس الشام إلى الاسكندرية في سنة اربعين وستمائة».

١٠ ـ الرقاص :

وسماه العرب الموار ومخترعه ابن يونس المصري المتوفى عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م واسمه الكامل ابو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس ، وجاء بعده عالم آخر باسم كمال الدين بن يونس المتوفى ٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م فلاحظ تذبذب الرقاص وعرف كثيراً من قوانينه .

هذا بجانب بحوث العرب المسلمين في مجال الموسيقى والعدسات والآلات الرافعة وغيرها .

ثانياً : العلماء العرب المسلمون في مجال الفيزياء :

١ ـ ابن الهيثم : ٣٥٤ ـ ٤٣٠ هـ = ٩٦٥ ـ ١٠٣٩ م.

هو أبو علي الحسن بن الهيثم ، ولد في البصرة ونشأ فيها ، ودرس العلوم المعروفة في عصره : الفلسفة ـ وعلوم الطبيعة والرياضيات والطب ، ثم هاجر إلى مصر في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله .

كان منهج ابن الهيثم هو المنهج الاستقرائي .

ودرس ابن الهيثم الضوء ، لا سيما الجزء الذي نسميه اليوم « البصريات الهندسية » دراسة واسعة ، وألف في ذلك كتابه « المناظر » .

شرح ابن الهيثم الرؤ ية ، ووصف تركيب العين وذهب إلى أن الصورة التي تكونها العين للأشياء تنطبع على الشبكية . ودرس الظل وشبه الظل وأجرى تجارب على الحجرة المظلمة المحتوية على ثقب في أحد جدرانها .

كما درس ظاهرة إنكسار الضوء ، واكتشف قاعدة قبول العكس ودرس انعكاس الضوء على المرايا المستوية والكروية (المقعرة والمحدبة) والاسطوانية وتكون الصور بواسطتها .

وذهب ابن الهيثم إلى أن للضوء سرعة محدودة ، رغم أنها كبيرة ، ولذلك فهو يحتاج إلى زمن في انتقاله من مكان إلى آخر .

٢ ـ البيروني :

واشتهر بالفيزياء من العرب كثيرون ، منهم أيضاً : أبو الريحان البيروني الذي ذكرنا ترجمة له في فصول هذا الكتاب والبيروني « عين الكثافة بالنوعية لثمانية عشر نوعاً من أنواع الحجارة الكريمة ، ووضع القاعدة التي تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذي يزيغه ، وشرح اسباب خروج الماء من العيون الطبيعية ، والآبار الاركوازية بنظرته الأواني المستطرقة » .

٣ ـ الخازن المصري ١٠٧٨هـ :

صاحب الأبحاث القيمة في المرايا وحرارتها ، ومحل الصور الظاهرة فيها ، وإنحراف الأشياء وجسامتها الظاهرة ، والذي وصل إلى حل لبعض مسائل في الضوء مثل : « إذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع العين ، فكيف

نجد على المرايا الكروية والاسطوانية النقطة التي تتجمع فيها الأشعة بعد انعكاسها ».

وكتابه عن البصريات الذي نقل إلى اللغة اللاتينية والايطالية استعان به كيلر كثيراً في كتابه عن البصريات ، وفيه فصول ممتعة عن حرارة المرايا ، ومحل الصور الظاهرة فيها ، وإنحراف الأشياء وجسامتها الظاهرة ، وقد عد مسيو « شاسل » وهو الحجة في هذه الموضوعات هذا الكتاب « مصدر معارفنا للبصريات ». فالخازن كان الأستاذ الأكبر لكثير من العلماء الأوروبيين في العصور الوسطى ومستهل الحديثة .

وهكذا نرى أن العرب المسلمون نهضوا نهضة واضحة في مجال الفيزياء ، وأضافوا إليها معلومات جديدة هامة ولا سيما في البصريات ، وكما رأينا أن من آثارهم تعيين الكثافة النوعية لكثير من الأحجار الكريمة ، وشرحوا أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية ، والآبار الارتوازية بنظرية الأواني المستطرقة ، واشتغلوا بالعدسات ، وبرعوا في البصريات ، وأجروا تجارب لايجاد العلاقة بين وزن الهواء وكثافته ، وكتبوا في الضوء ، والمرايا المحرقة كتابات قيمة ، إلى غير ذلك من الأبحاث التي أفاد منها العلماء من بعدهم .

ومع أن معظم مؤلفات العرب الهامة في الفيزياء قد ضاعت ، ولم يبق منها إلا القليل فإنه يمكننا أن نقف من هذا القليل على مدى تقدمهم في هذا العلم وما أفادته أوروبا من تقدمهم فيه .

المراجع

---

١ ـ أبو زيد شلبي ، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي / القاهرة مكتبة وهبة ، ١٩٦٤ .

٢ ـ أحمد سويد الدمرداس / الحسن بن الهيثم .

٣ ـ أنور الرفاعي / الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية

والعلمية والإجتماعية والإقتصادية والفنية/ ـ دمشق : دار الفكر ، ١٩٧٣ .

٤ ـ جورج يعقوب / أثر الشرق في الغرب ـ القاهرة : ١٣٦٥هـ .

٥ ـ جوستاف لوبون / حضارة العرب ـ القاهرة : الحلبي ، ١٣٦٤هـ .

٦ ـ الخوارزمي / مفاتيح العلوم .

٧ ـ قدري حافظ طوقان / العلوم عند العرب .

٨ ـ محمد الصادق عفيفي / تطور الفكر العلمي عند المسلمين ـ القاهرة : الخانجي ، ١٩٧٧ .

٩ ـ محمد عبد اللطيف مطلب / تاريخ علوم الطبيعة ـ بغداد ، ١٩٧٨ .

١٠ ـ مصطفى نظيف / الحسن بن الهيثم .

١١ ـ Einstein / Infeld: The Evolution of Physics- New York, 1942.

١٢ ـ Jeans, James: The Growth of Physical Sciences- Cambridge: 1951.

ثالثا: دور علماء العرب المسلمين في علم الفلك وأثر ذلك على الحضارة الانسانية.

كما تأثر العرب بحضارات من سبقهم ، فقد أثروا في الحضارات التي لحقتهم ، وكان لتراجم العرب عن الفرس والهند واليونان أثر في تطوير معلوماتهم وخاصة في عهد العباسيين ولا سيما أيام الخليفة المأمون .

ومن العماء العرب الذين كان لهم قدم راسخة في علم الفلك ، الفزاري ، والمجسطي ، والبيروني ، والفرغاني ، والمرور وذي ، وأبو عيسى

الاسطرلابي ، وسند بن علي ، والخوارزمي ، والبتاني ، وثابت بن قره ، والصوفي ، وأبي حامد الصفاني ، وحامد بن الخضر ، والخجندي .

وقبل أن نستعرض خلاصة فكر هؤلاء العلماء في مجال الفلك ودورهم في الحضارة الانسانية ، لا بد أن نؤكد أثر الاسلام على هؤلاء العلماء وخاصة القرآن الكريم والسنة النبوية ، حيث يقول الرسول الكريم ﷺ « ساعة فكر خير من عبادة سبعين سنة .

أولاً : الفلك في القرآن :

لقد وردت آيات قرآنية كثيرة تدل تعبير أصدق تعبر عن الكون وقدرة الخالق في خلقه وإبداعه ومن هذه الآيات :

١ ـ خلق السموات والأرض :

ـ ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾. (آل عمران ١٩٠ ـ ١٩١).

ـ ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض أتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾. (فصلت ٩ ـ ١٢).

ـ ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾ . (الأنبياء ٣٠).

ـ ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾. (هود ٧).

ـ ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾. (يونس ٣).

٢ ـ الظواهر الفلكية :

ـ ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ـ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾. (يس ٣٨ ـ ٤٠).

ـ ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾. (الأعراف ٥٤).

ـ ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء ﴾. (النمل ٨٨).

ـ ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾. (الأنعام ١).

ـ ﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى إلا هو العزيز الغفار ﴾. (الزمر ٥).

ـ ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها وجعل فيها رواسي ﴾. (الرعد ٢).

﴿ والسماء ذات البروج واليوم الموعود ﴾. (البروج ١ ـ ٢).

ـ ﴿ والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب . . . ﴾. (الطارق ١ ـ ٣) .

- ﴿ والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾. (الفجر ١ - ٥).

- ﴿ والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى ﴾. (الليل ١ - ٤).

- ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلي ﴾. (الضحى ١ - ٣).

٣ - وجود الحياة على الأرض والكواكب الأخرى :

- ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾. (الاسراء ٤٤).

- ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾. (الشورى ٢٩).

٤ - تصوير يوم القيامة :

- ﴿ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الانسان يومئذ أين المفر كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر ﴾. (القيامة ٧ - ١٢).

﴿ إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت . وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة ازلفت . علمت نفس ما احضرت ﴾. (التكوير ١ - ١٤).

- ﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾. (الانفطار ١ - ٥).

- ﴿ إذا السماء إنشقت . وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت . يا ايها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه . فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾. (الانشقاق ١ ـ ٩).

- ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا أنا كنا فاعلين ﴾ . (الأنبياء ١٠٤).

هكذا نرى القرآن الكريم حث على التفكر في خلق السموات والأرض والتدبر في هذه المخلوقات ، وكان على المسلمين تنظيم علم يسير عليهم الوصول إلى مواقع النجوم والكواكب ، فيقول ابن خلدون في مقدمته : « إن علم الهيئة علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة ، والمتحركة والمتحيرة ، ومن فروعه علم الازياج » والزيج جدول حسابي مبنى على قوانين عددية ، فيما يخص كل كوكب ، وذلك ليكشف عن مواقع النجوم والكواكب واحداً واحداً مع حسبان حركتها وما يؤدي إليه برهان الهيئة من سرعة أو بطيء .

ثانياً : جهود العلماء العرب المسلمون في مجال الفلك :

إبتدأت دراسة الفلك عن العلماء العرب المسلمين بترجمة محمد بن ابراهيم الغزاري كتاب (السند هند) أو السدهانتا Siddhanta وتعني المعرفة بواسطة الشمس ، والكتاب لم يعرف مؤلفه ، وذلك في عهد المنصور ، واتخذه العلماء مثلاً يحتذي ، ففي سنة ١٥٦ هـ وفد على الخليفة المنصور رجل من الهند له دراية وسيعة بحركات النجوم ، وحساب السند هند ، وكان يحمل معه كتاباً يحتوي على ذلك الحساب ، فطلب الخليفة ترجمة هذا الكتاب الى العربية ، وبقي يعمل به إلى ايام المأمون ، ثم ترجمت التقاويم البهلوية التي وضعت في عهد الدولة الساسانية الفارسية واضيفت إلى العلوم الرياضية ، وعرفت في العربية باسم (الزيج) .

وكان لليونان كذلك تأثير بفضل الترجمة التي تمت في عصر المأمون لبعض كتبهم في الفلك .

وقد قام علماء الفلك في عهد المنصور بقياس الدرجة الأرضية ، وكان غرضهم من ذلك تحديد حجم الأرض ومحيطها على اساس أن الأرض مدورة ، وحدثت تجربة ثانية من بعد ذلك في عهد المأمون ، فقد أمر بقياس دائرة نصف النهار ، ووكل هذا العمل إلى فريقين : فريق عمل بصحراء سنجاب شمال الفرات ، والأخر عمل بصحراء تدمر ، وقد وصل كلا الفريقين إلى نتيجة جعلت درجة الطول ٥٦ ميلاً عربياً ، وثلثي الميل ، وهي نتيجة تقرب إلى حد كبير من القياس الصحيح .

ما هي قصة المراصد والآلات الفلكية ؟
وما هي حقيقة الأسطرلاب ؟
كل هذه جهود تستحق الاشارة اليها .

كانت الجهود العلمية التي بذلها المفكرون الفلكيون العرب المسلمون ذات أثر بالغ وخاصة :

١ ـ الاسطرلاب ، وينسب إلى أبو عيسى الاسطرلابي الذي وضع أسس استعمال المسطرة الحاسية الفلكية العربية ، المعروفة منذ القرن التاسع الميلادي .

٢ ـ والجداول الرياضية التي وضعها الخوارزمي وساعدت على القيام بالحسابات الفلكية اللازمة ، ثم الفرغاني الذي قاس محيط الكرة الأرضية ، ولم يختلف قياسه كثيراً عن المعروف حالياً .

٣ ـ كما عرف التاريخ عن العرب ، المزولة التي هي في حقيقتها ساعة تعتمد على ظل الشمس لبيان الوقت ، كما عرف التاريخ عن العرب الساعة المائية التي أهداها هرون الرشيد إلى الملك شارلمان .

٤ ـ كما روي أن كثيراً من المرصد قد أقيمت لرصد القمر وحركة الشمس وخاصة في العراق والشام أيام العباسيين .

وسنتناول بالتفصيل المراصد والآلات الفلكية وكذلك الاسطرلاب :

المراصد والآلات الفلكية :

أضاف الخليفة المأمون إلى بيت الحكمة في بغداد (بالشماسية) مرصداً فلكياً . وعهد بإدارته إلى سند بن علي . ويحيى بن ابي منصور ثم العباس بن سعيد الجوهري الذي كان يتقن صنع آلات الرصد .

ثم بنى المأمون مرصداً آخر في جبل قاسيون بدمشق وجهزت المراصد في تلك الأيام بأدوات مختلفة منها : مقياس الارتفاع ، والاسطرلاب ، والمزولة (الساعة الشمسية) ، وكان أبو اسحق محمد بن ابراهيم بن حبيب الفزاري ٧٧٧م أول من صنع اسطرلابا في الاسلام ، ومن أقدم الرسائل العربية في الاسطرلاب رسالة لعلي بن عيسى .

ويذكر ابن النديم : أن آلات الرصد كانت تصنع بمدينة حران ثم انتشرت صناعتها في طول البلاد وعرضها ، واتسع مجال العمل امام الصناع بها في الدولة العباسية ، كان هذا منذ أيام المأمون ، وأول من عالج صنع الآلات هو : ابن خلف المروذي ، فاقتدى به الناس ، ثم انتشرت هذه الصناعة .

وكان بنو الصباح ، وهم ثلاثة اخوة يتقنون صناعة الآلات ، ولهم كتاب (برهان صنعة الاسطرلاب ، كما ذكره ابن النديم في الفهرست ، وممن عالج هذه الصناعة احمد بن محمد الصاغاني (٣٧٩ هـ) وكان ماهراً في صناعة الاسطرلاب حتى ضرب به المثل ، وصارت آلاته التي يصنعها لها صبغة الجودة ، وطابع الامتياز ، حتى كان يعول عليها أكثر من غيرها ، وادخل

الصاغاني تطويراً وزيادات قيمة على آلات الرصد القديمة .

الاسطرلاب :

وهو أحد الأجهزة التي اعتمد عليها المسلمون في تعيـن زوايا ارتفاع الاجرام السماوية عن الأفق في أي مكان ، ثم أمكن إستخدامه في حساب الوقت ، وكذلك البعد عن خط الاستواء (أي خط العرض) ، ويقال أن أول من خطرت له فكرة الاسطرلاب هو (هبارخش) الاغريقي عام ١٥٠ ق.م. ومن هذا نرى أن كلمة اسطرلاب كلمة اغريقية ، تعني مرآة النجوم أو مرآة الكواكب وهو على أنواع منها التام والمسطح والطوماري والهلالي والآس والزورقي والصفيحة الزرقاء والجنوبي والشمالي ، ويعد الاسطرلاب أقدم جهاز على الاطلاق استخدم بنجاح . ولعب دوراً مهماً في السير قدماً بركب المدنية .

ويتكون الجهاز في أبسط صورة من دائرة ، أو قرص من المعدن أو الخشب يعلق بحلقة ، وفي مركزها مؤشر يمكن لفه أو إدارته حول المركز ، ليتجه نحو المرئي ، وتقسم الدائرة إلى درجات تعين زاوية ارتفاع النجم أو الشمس في أي لحظة ، وقد اتكأ عليه كثير من البحارة في عرض البحار في تلك العهود ، حتى عهد اكتشاف آلة السدس .

ولكي يعين الوقت يبدأ بقياس زاوية ارتفاع الشمس ومن ثم يعين موضع الشمس لذلك اليوم ، في منطقة البروج ، ثم يحرك المؤشر ، حتى ينطبق موضع الشمس مع دائرة أخرى على القرص ، تقابل خط العرض ، ويعطي الخط الممتد من نقطة الانطباق إلى مركز الجهاز في نهاية طرفه الآخر الوقت ، وذلك على مقياس خاص على حافة الجهاز .

ثالثاً : العلماء العرب والمسلمون في مجال الفلك :

البتاني :

أبو عبد الله محمد بن جابر ابن سنان البتاني الحراني الصابىء المعروف عند الغربيين في العصور الوسطى باسم Albategni أو Albatenius من أكبر علماء الفلك عند العرب ، ولد قبل عام ٢٤٤ هـ (٨٥٨ م) ويرجح أن مولده كان في حران أو ما جاورها ولسنا نعرف أصل النسبة « بتاني » على التحقيق ، وكانت أسرته من الصائبة ، ولذلك عرف بالصابىء مع أنه كان مسلماً .

صرف معظم حياته ووقف نفسه على رصد الافلاك من عام ٢٦٤ هـ (٨٧٧) م واستمر على ذلك بقية حياته حتى عده لالند Lalande الفلكي الفرنسي الكبير المتوفى سنة ١٨٠٧م من الفلكيين العشرين المبرزين الذين انجبتهم الانسانية منذ خلق الله الخلق حتى الآن .

توفى البتاني عام ٣١٧ هـ (٩٢٩) م .

تصانيفه :

(أ) « كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك » أي مطالع نقط البروج التي ليست في وقت معلوم واحدة من الأوتاد الأربعة ، ويتناول هذا الكتاب الحل الرياضي للمسألة التنجيمية لاتجاه الراصد .

(ب) « رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات » أي الحلول المضبوطة بحساب المثلثات للمسألة التنجيمية ، عندما تكون النجوم المقصودة لها خط عرض أي خارج فلك البروج .

(حـ) شرح المقالات الأربع لبطليموس .

(د) الزيج ، وهو أهم تصانيفه ، ولم يصل الينا غيره ، وبه نتائج رصود

البتاني ، وقد كان له أثر كبير ، لا في علم الفلك عند العرب فحسب ، بل فيه وفي حساب المثلثات الكرى عامة في أوروبا خلال العصور الوسطى وأول عصر النهضة .

وهناك رسائل منسوبة إلى البتاني لا قيمة لها في التنجيم .

وحدد البتاني في كثير من الدقة ميل الدائرة الكسوفية ، وطول السنة المدارية والفصول ، والمدار الحقيقي والمتوسط للشمس ، كما أضحد مذهب بطليموس القائل بثبات الأوج الشمسي مثبتاً الدليل على تبعيته لحركة المبادرة الاعتدالية واستنتج من ذلك أن معادلة الزمن تتغير تغيراً بطيئاً على مر الأجيال ، وقد أثبت على عكس ما ذهب إليه بطليموس تغير القطر الزاوي الظاهري للشمس وإحتمال حدوث الكسوف الحلقي . وصحح البتاني جملة من حركات القمر والكواكب السيارة ، واستنبط نظرية جديدة تشف عن شيء كثير من الحذق وسعة الحيلة لبيان الأحوال التي يرى بها القمر عند ولادته ، وضبط تقدير بطليموس لحركة المبادرة الاعتدالية ، وله رصود جليلة للكسوف والخسوف اعتمد عليها دنثورن Dunthorne سنة ١٧٤٩م في تحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمان .

وأعطى حلولاً رائعة بوساطة المسقط التقريبي لمسائل في حساب المثلثات الكرى ، وقد عرف هذه الحلول رجيومنتانوس المشهور Regiomontanns (١٤٣٦ - ١٤٧٦) وسار على منهاجها .

ابن يونس :

أبو سعيد علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري . ولد في مصر من أسرة عرفت بالعلم .

ويعد أعظم فلكيي عصره بعد البتاني والبوزجاني في خلال القرن الحادي عشر الميلادي ، وقد توفى تقريباً عام ٣٩٧ هـ بمصر وغير معروف تاريخ مولده .

وقد عرف الخلفاء الفاطميون لهذا العالم قدره ، فهيأوا له أسباب العمل ، وشيدوا له مرصداً في قمة جبل المقطم في مصر ، وجهزوه بكل ما يلزم من الآلات والمعدات .

كما طلب إليه العزيز الفاطمي أن يؤلف موسوعة في علم الهيئة والفلك ، وقد بدأها في عهد العزيز ، ولكنه لم ينته منها إلا في عهد ابنه الحكم ، ومن ثم سميت باسم (الزيج الحاكمي).

وقد وفق ابن يونس الى رصد كسوف الشمس وخسوف القمر في مصر سنة ٩٧٨ م وتصحيح ميل دائرة البروج ، وزاوية اختلاف النظر للشمس .

وقد اتسمت أبحاثه الفلكية بالطابع الديني ، حتى أنه مهد لكتابه (الزيج الحاكمي) بمقدمة عظيمة حصر فيها كل الأيات المتعلقة بخلق السموات والأرض ، وكتابه هذا (الزيج الحاكمي) يحتوي على ارصاد الفلكيين القدامى في مجال الخسوفات والكسوفات ، وجميع قرانات الكواكب وأرصاده هو نفسه .

وابن يونس المصري هو مخترع بندول الساعة ، وليس صحيحاً نسبة اختراعه الى العالم الايطالي جاليلو ، بل لقد اهتدى إلى اختراعه واستعماله هذا العالم العربي قبل جاليليو بستة قرون ، وقد اعترف بذلك العالم الفرنسي (سيديو) في كتابه تاريخ العرب ، والعالم الانجليزي (تايلر) في كتابه تاريخ الرياضيات .

ومن علماء العرب والمسلمين في مجال الفلك كذلك :

البيروني :

أبو الريحان محمد بن أحمد مؤلف عربي من أصل فارس ولد في ذي الحجة عام ٣٦٢ هـ (سبتمبر عام ٩٧٣) بضاحية من ضواحي خوارزم ، درس الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ .

تصانيفه .

- الآثار الباقية عن القرون الخالية .
- تاريخ الهند .
- القانون المسعودي في الهيئة والنجوم .
- التفهيم لأوائل صناعة التنجيم .
- كتاب الصيدلة .
- كتاب الجواهر في معرفة الجواهر .

وتوفى البيروني في الثالث من رجب عام ٤٤٨ هـ (١٣ ديسمبر عام ١٠٤٨ م).

ولا يعتبر هذا حصراً شاملاً فالبيروني موسوعة علمية في مجالات متعددة وما زالت كتبه تترجم الى لغات أخرى عديدة .

ويعد البيروني من الأشخاص الذين برزوا في الأبحاث الفلكية ، فهو أول من اثبت كروية الأرض وقاس قطرها بطريقة علمية مبتكرة كما أثبت أن الأرض تدور حول محورها وفسر الجاذبية الأرضية . . واكتشف وجود قوي الجاذبية بين الأجرام السماوية وأرجع اليها الفضل في أنها لا تترك الأجرام السماوية تهوى في الفضاء ومن براهينه حول كروية الأرض قوله إن السفينة إذا أقبلت من بعيد فإن أول ما يرى منها للناظر هو ساريها (أي أعلاها) ثم يبدو باقيها شيئاً فشيئاً ونفس الشيء بالنسبة للجبال إذ تبدو قممها أولاً ، وكلما اقتربنا ظهر باقيها بالتدريج حتى قواعدها مما يدل على أننا فوق كرة .

ومن أفضال البيروني على الفلك أنه أول من صحح نظرية الاغريق القائلة بأن الشمس تدور حول الأرض فتسبب الليل والنهار وأعلن أن الأرض هي التي تدور حول نفسها أمام الشمس كما أنها تدور في فلك حول الشمس وقد أثبت البيروني نظريته هذه علمياً وعملياً قبل العالم الالماني كوبر نيكس بخمسة قرون . هذا وقد أجرى البيروني دراسات مستفيضة على ظاهرتي

الكسوف والخسوف ويقول أنه من فرط تحديقه فيه الشمس لرصد الكسوف قد كل بصره وضعف ولكن لم يثنه عن مواصلة الأبحاث حتى ألف في ذلك عدة كتب منها كتاب إمتحان الشمس وكتاب تحقيق منازل القمر وكتاب الشعاعات والقمر .

إن أول كتاب وضعه في الفلك هو الأثار الباقية عن القرون الخالية ، وقد عالج فيه تقاويم السنين عند الشعوب القديمة وتواريخهم ، ولكن مؤلفه (القانون المسعودي) يفوق أي كتاب آخر من كتبه في هذا الميدان ، حيث يعد اعظم موسوعة في علوم الفلك وحساب المثلثات ، وقد ألف البيروني هذا الكتاب سنة ٤٢١ هـ ونسبه إلى السلطان مسعود بن محمود الغزنوي .

ولقد أتى المستشرق نللينو على محتويات هذا الكتاب تلخيصاً فهي تعني بمبادىء علم الهيئة وتواريخ الأمم المختلفة ، وحساب المثلثات المستوية والكروية وصور الأرض وأبعادها ، وحركات الشمس ، وكيفية تبيانها بالشكل الهندسي ، وحركات القمر ، وبيان إختلاف مظاهره في الارتفاع والطول والعرض ، وإتصال النيرين ، وحساب الخسوف والكسوف ، بحسب رؤية الأهلة والكواكب الثابتة ، ومنازل القمر فيها .

٤ ـ ومن الفلكيين الأندلسيين أبو القاسم مسلمة المجريطي (المتوفى سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) وقد ترجمت كثير من كتب الفلك إلى اللاتينية .

كما اخترعوا أنواعاً عديدة من الميقاتات كالتي اخترعها شخص لا نعرف غير اسمه في منتصف القرن التاسع الهجري ، هو يحيى الملقب بـ « صاحب المُنَيْقِلة » وهي نوع من الساعات .

وحيث الحديث عن الفلك يذكر أيضاً أبو القاسم عباس بن فِرْناس الذي اشتهر في أكثر من علم والذي لقب بـ « حكيم الأندلس » لعصره . فيذكر المقري في نفح الطيب حـ ٣ ص ٣٧٤ ، حيث الحديث عن « الذكاء واستخراج العلوم واستنباطها » فيقول :

بأن ابن فرناس « أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك بها كتاب القروض للخليل ، وأول من فك الموسيقى ، وصنع الآلة المعروفة بالمنقانة ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال » وقد ذكر أيضاً أنه كان له في بيته مختبر فيه آلة من صنعه على هيئة السماء يخيل للناظر فيها أنه يرى النجوم والغيوم والبروق .

المراجع

١ - احمد شوقي الفنجري شخصيات علمية (البيروني) . التقدم العلمي (الكويت) . العدد ٦ اكتوبر ١٩٨٣ ص ١٧ - ٢٠ .

٢ - أنور الرفاعي / الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والإجتماعية والإقتصادية والفنية - دمشق : دار الفكر ، ١٩٧٣ .

٣ - جلال مظهر / حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي - القاهرة : مكتبة الخانجي ، (١٩٧٤) .

٤ - دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : الاسطرلاب ، التنجيم ، البيروني ، أبو الوفاء ، البتاني ، ابن يونس .

٥ - سعد شعبان / أعماق الكون - القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، (د.ت) .

٦ - عز الدين فراج / فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية - القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٨ .

٧ - عبد الرحمن علي الحجي / الحضارة الإسلامية في الأندلس : أسسها ، ميادينها ، تأثيرها على الحضارة الأوروبية - بيروت : دار الارشاد ، ١٩٦٩ .

٨ ـ محمد الصادق عفيفي / تطور الفكر العلمي عند المسلمين ـ القاهرة .
مكتبة الخانجي ، ١٩٧٧ .

٩ ـ زيغر يدنكه / شمس العرب تسطع على الغرب « أثر الحضارة العربية في أوروبا » ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ـ بيروت : المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، ١٩٧٩ .

رابعا: الرياضيات عند العرب المسلمين:

الرياضيات :

المعروف أن المسلمين بنوا معارفهم في الرياضيات على اساس من علوم اليونان والهنود ثم تقدموا بهذه العلوم وخطوا بها خطوات واسعة نحو الامام حتى ظهر منهم في المشرق علماء مبرزون في العلوم الرياضية مثل الخوارزمي (ت ٨٣٥ـ ٨٤٤م) وثابت بن قرة (ت ٩٠١م) والبتاني (ت ٩٢٦م) والخازن البصري (ولد حوالى ٩٦٠م) وعمر بن ابراهيم الخيام (ت ١١٣٢م). أما في المغرب الاسلامي فقد ظهر مسلمة المجريطي أمام الرياضيين بالأندلس (١٠٠٧م) والذي كان من تلاميذه ابن السمح (ت ١٠٣٤م) وابن الصفار والكرماني وأمية بن أبي الصلت وغيرهم .

وتقدم المسلمون بالحساب خطوات واسعة فأضافوا إلى معلومات اليونان كثيراً من النظريات التي لم تعرفها اوروبا من قبل ، كما علموا الأوروبيين نظام الاعداد الهندي الذي يمثل ثورة شاملة في علم الحساب . ويتضح لنا تسهيل هذا النظام العددي للعمليات الحسابية إذا قارنا بينه وبين النظام العددي الروماني . فنظام الأعداد الجديد الذي عرفته اوروبا عن العرب ، يمكن فيه أن تتغير قيمة الواحد حسب وضعه في خانة الآحاد أو العشرات أو الآلاف أو الملايين في حين أن قيمة الرقم لا تتغير في النظام الروماني بتغيير خانته ،

ورقم خمسة (٥) مثلاً لا يمكن ان يعني خمسين أو خمسمائة أو خمسة آلاف . وهكذا إذا أردنا أن نكتب عدداً مثل ٢٧ بالأرقام اللاتينية ـ التي لم تعرف أوروبا غيرها في العصور الوسطى ـ فإنه يكتب على هذا الوضع XXVII . ونستطيع أن نتصور مدى التعقيد الذي يصيب العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب وقسمة عند إستخدام هذا النظام العددي الروماني ، فما بالنا بالاعداد الكبيرة التي تعبر عن الآلاف والملايين أو في الجداول الرياضية والمعادلات[١] .

حقيقة أن الاعداد الجديدة المستخدمة حالياً في الغرب ليست من اختراع الغرب ، إذ المرجح أنها هندية الأصل ، كما أشار العرب أنفسهم وكما يتضح من طريقة كتابتها من اليسار إلى اليمين ، بعكس الطريقة المتبعة في كتابة معظم اللغات السامية وهي من اليمين الى اليسار ، ولكن يكفي العرب فضلاً أنهم أوصلوا هذه الطريقة الجديدة إلى أوروبا ورحموا الأوروبيين من تعقيد النظام العددي الروماني العقيم ، وبذلك سهلوا العمليات الحسابية وساعدوا على تقدم الرياضيات[٢] .

وقد كتب البيروني رسالة هامة في الاعداد ونسبها أسماها « راشيكات الهند » كما شرح اليعقوبي في تاريخه نظام الاعداد الجديد الذي أخذه العرب عن الهنود فقال : « . . . . ووضع التسعة الاحرف الهندية التي يخرج منها جميع الحسابات الذي لا يدرك معرفتها ، وهي ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، . فالأولى منها واحد وهو عشرة ومائة وهو ألف ومائة ألف وهو ألف ألف . . . وعلى هذا الحساب يجري التسعة أحرف فصاعداً . غير أن بيت الواحد معروف من العشرة وكذلك بيت العشرة معروف من المائة وكذلك كل بيت ، وإذا خلا بيت منها يجعل فيه الصفر ويكون الصفر دارة صغيرة » .

---

(١) سعيد عاشور ، مذكرات في الحضارة العربية الاسلامية ، ص ٧٣ .

(٢) سعيد عاشور ، نفس المرجع السابق ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

وهنا نجد اليعقوبي يشير إلى رمز حسابي جديد هو الصفر الذي يعتبر من اخطر المبادىء التي اهتدى إليها العقل البشري في الرياضيات . ولم يعرف الغرب استعمال الصفر إلا عن طريق العرب في القرن الثاني عشر ، حتى قال المؤرخ اير Eyre إن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التي قدمها المسلمون إلى غرب أوروبا . وكان العرب قد استخدموا لفظ (صفر) للدلالة على (لاشيء) منذ العصر الجاهلي ، كما يبدو في البيت التالي الذي جاء في قصيدة لحاتم .

ترى إن ما أهلكت لم يكن ضرني   وإن يدي مما بخلت به صفر

وفي القرن الثامن الميلادي استخدم المسلمون الصفر في الحساب ، فرسموه على هيئة حلقة . كما ذكر اليعقوبي في النص السابق . وكذلك ذكر محمد بن أحمد في (مفاتيح العلوم) أنه إذا لم يظهر في العمليات الحسابية رقم مكان العشرات وجب أن توضع دائرة صغيرة «لمساواة الصفوف» ثم شرح الخوارزمي كيفية استعمال الاعداد الجديدة ، بما فيها الصفر ، في بحث له ترجمه الأوروبيون إلى اللاتينية في الربع الأول من القرن الثاني عشر تحت اسم (Algoritmi de Numero Indorum) أي الخوارزمي عن أرقام الهنود . هكذا اشتق اللفظ الاوروبي Chiffre عن (صفر) وهو يعني أيضاً في اللغات الاوروبية (لا شيء أو عديم القيمة) ، فاستخدم مارتن لوثر هذا اللفظ للتعبير عن ضعف الأساقفة أمام البابا فقال إنهم كالأصفار . وفي القرن السادس عشر إستخدم اللفظ الاوروبي السابق للدلالة على الكتابة الغامضة أو الشفرة Chiffre ، في حين إستخدم لفظ Zero بمعنى لا شيء .

وهكذا تلقى غرب أوروبا نظام الاعداد الجديد مقروناً باسم الخوارزمي . وسرعان ما حور اسم الخوارزمي في اللغة اللاتينية - وهو Algoritmi - إلى Algorismus ثم اختصر بعد ذلك إلى Augrim ، حتى أصبح هذا اللفظ الأخير علماً لنظام الاعداد العشرى الجديد . ويدل كل ذلك على أن الغربيين تعلموا الحساب الحديث عن كتاب الخوارزمي السابق ،

وعن الكتب الأخرى التي أخذت عنه ، مثل كتاب Carmen de Algorisme الذي وضعه اسكندردي فيلادي Alexandre de Villa حوالى سنة ١٢٢٠ وكتاب Algorismus Vulgaris الذي وضعه حنا الهالفكسي John of Halivax حوالى سنة ١٢٥٠م. وكل من هذين الكتابين الأخيرين مبني إلى حد كبير على كتاب محمد بن موسى الخوارزمي في الحساب ، كما أن كلاهما استمر مرجعاً لتلقين الحساب في غرب أوروبا عدة قرون . وما زالت اللغة الانجليزية حتى اليوم تستخدم لفظ الجورزم Algorithm وهو تحريف لاسم الخوارزمي - للتعبير عن الطريقة الوضعية في حل المسائل .

ولم يقتصر فضل العرب على أوروبا في ميدان الرياضيات على علم الحساب وإنما إمتد إلى بقية العلوم ، وعلى رأسها علم الجبر الذي لا يزال محتفظاً باسمه العربي في كافة اللغات الاوروبية (Algebra, Algebre) ، بعد أن أخذه الأوروبيون عن العرب وإذا كان بعض الباحثين يميل إلى الاعتقاد بأن العرب ليسوا هم الذين وضعوا أصول علم الجبر ، وأن هذه الأصول عرفت منذ أيام ديوفانتوس Diophantus وهو عالم يوناني عاش في القرن الثالث ، إلا أنه يكفي العرب فخراً أنهم إكتشفوا أصول علم الجبر وأضافوا إليها وحولوها تحويلاً تاماً ، وخلقوا منها علماً حقيقياً بمعنى الكلمة . ثم طبقوا هذا على الهندسة وقد بلغ من اهتمام العرب بعلم الجبر أن الخليفة المأمون كلف محمد بن موسى الخوارزمي بوضع كتاب في هذا العلم ، وهو الكتاب الذي نقله إلى اللاتينية روبرت الشستر Robert of Chester سنة ١١٤٥م، وبذلك قدم العرب علماً جديداً إلى أوروبا ، إذ ظل هذا الكتاب مستعملاً في المدارس والجامعات الاوروبية حتى القرن السادس عشر . ومن علماء العرب الذين كتبوا في الجبر أيضاً أبو بكر محمد بن الكرخي المتوفى بين سنتي ١٠١٩ ، ١٠٢٩م ،ويعتبر من أكبر علماء العرب الذين شهدتهم بغداد على عهد أبي غالب محمد بن خلف الملقب فخر الملك وزير بهاء الدين عضد الدولة بن بويه . ومن أجله صنف الكرخي كتابين « الفخري في الجبر والمقابلة »

وكتاب « الكافي في الحساب ». والكتاب الأول أكثر أهمية ، ويلي في أهميته الكتاب الذي وضعه عمر بن ابراهيم الخيام (١٠٤٥ـ١١٢٣م) في علم الجبر .

أما في الهندسة وعلم المثلثات فقد ترجم العرب كتاب اقليدس في الهندسة ، وهي الترجمة العربية التي نقلها الاوروبيون إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر . كذلك ترجم الطوسي (ت ١٢٧٤م) كتاب المعطيات لاقليدس ، وهو في هندسة الأشكال الكروية ، ولكن العرب لم يقتصروا على معلومات اليونان في الهندسة وحساب المثلثات ، وإنما جددوا وأضافوا إضافات جديدة لم تعرف من قبلهم . فهم الذين أدخلوا المماس إلى علمْ حساب المثلثات ، وكان لهذه الخطوة أهمية عظمى في الرياضيات ، حتى اعتبرها علماء الرياضة ثورة علمية خطيرة . كذلك أقام العرب الجيوب مقام الاوتار ، وحلوا المعادلات المكعبة ، وتعمقوا في ابحاث المخروطات . ولا شك في أن هذه المعلومات الجديدة هي التي جعلت العلوم الرياضية تتبوأ أهميتها في الحياة . ومن أبرز العلماء المسلمين الذين كتبوا في الهندسة وحساب المثلثات الخوارزمي ، وثابت بن قرة ، والبتاني ، والخازن البصري ، وابن الهيثم ، والبيروني وارتقى أبو عبد الله البتاني (٨٥٠ـ ٩٣٩م) المعروف عند الاوروبيين باسم Albategnus بعلم حساب المثلثات إلى أبعد مبادئه التي كان عليها أيام بطليوس السكندري ، وذلك حين استبدل المثلثات بالمربعات في حل المسائل ، واستبدل جيب الزاوية بالقوس وهو الذي صاغ في حساب المثلثات النسب بالصورة التي نستخدمها الآن . أما رسالة ابن الهيثم في حساب المثلثات فتسمى « شكل بني موسى » وهو يعلل هذه التسمية « بأن الأشكال التي قدمها بنو موسى ببراهين ، كتاب المخروطات وهو الشكل الأخير من مقدماتهم . أما البيروني فكتب رسالة في استخراج الاوتار في الدائرة . ومعظم هذه المؤلفات العربية قام الأوروبيون بترجمتها إلى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر ، ونخص بالذكر اديلارد الباثي الذي ترجم جداول

حساب المثلثات للخوارزمي سنة ١١٢٦م ، كما ترجم غيرها من مؤلفات الهندسة .

أما معلومات العرب في الميكانيكا فهي واسعة وعظيمة ، تدل عليها بقايا آلاتهم ووصفهم لها في الكتب . وهنا أيضاً اهتم العرب بترجمة كتابات اليونان ، واستمر هذا الاهتمام حتى القرن الثالث عشر عند ما نجد الطوسي يترجم كتاب الكرة المتحركة « لاوطولوقس Utolycus » ولكن العرب زادوا على هذه المعلومات ، حتى يرى بعض العلماء الأوروبيين أنهم اخترعوا رقاص الساعة واستعملوا البندول في قياس الوقت . ومعنى ذلك أنهم عرفوا الساعات ذات الأثقال التي تختلف كثيراً عن الساعات المائية ، كما يتضح من وصف ساعة المسجد الأموي التي ورد ذكرها في المراجع .

وخلاصة القول أن العرب قطعوا شوطاً بعيداً في الرياضيات ، فاستفادت أوروبا منهم فائدة عظيمة في هذا الميدان . وإن المتأمل في كتاب من كتب العرب الرياضية ليأخذه العجب بما وصل إليه رياضيوا العرب من إتساع المعرفة ودقة البحث . فهذا الخوارزمي يتعرض لشرح المعادلات ذات الحدين والثلاثة حدود شرحاً علمياً وافياً ، ثم يتناول الجذور ، وكيفية استخراج مساحة الأشكال الهندية المختلفة كالمربع والمثلث والمعين والدائرة . وبعد ذلك ينتقل إلى مسائل معقدة ويحدد طرق حلها في دقة ومهارة تثير الدهشة . . . الخ[١] .

دَور علماء العرب والمسلمين في إستخدام الأرقام وأثر ذلك على الحضارة الانسانية :

تقديم :

أصبح موضوع إستخدام الأرقام العربية من الموضوعات التي تحتاج إلى

(١) سعيد عاشور ، نفس المرجع السابق ، ص ٧٣ - ٧٧ .

إبراز دور علماء العرب المسلمين في تطوير هذه الأرقام وأثر ذلك في الحضارة الانسانية .

ويثور أحياناً بين أوساط المثقفين تساؤلات حول ما هو شكل الأرقام العربية ، هل هي الأرقام الحالية :

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ٠

أما الأرقام العربية المستخدمة في كافة أنحاء العالم وبعض دول المغرب العربي :

1 2 3 4 5 6 7 8 9 0

ولعل مصدر هذا التساؤل يدفعنا إلى دراسة نستجلي بها دور العرب في إستخدام هذه الأرقام ، ونؤكد على الدور الحضاري لعلماء العرب المسلمين في استخدام هذه الأرقام .

ومن أجل هذا لا بد من تقسيم هذه الدراسة إلى الأقسام التالية :

أولاً : استخدام الأرقام عبر العصور .
ثانياً : استخدام الأرقام عند العرب .
ثالثاً : توصيات الدراسة .

أولاً : استخدام الأرقام عبر العصور :

الحضارة العربية الاسلامية ، حضارة شأنها شأن كل الحضارات تتأثر بما سبقها من حضارات ، وتترك بصماتها على ما يلحقها من حضارات .

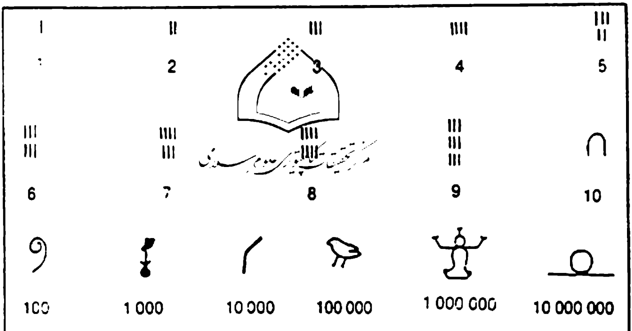
والعرب يعترفون بفضل الحضارات السابقة ، لهذا فإن الحضارة العربية الاسلامية لم تكن وليد صدفة ، أو دون ترتيب سابق .

والرياضيات ، ولنقل الحساب، وبالتالي الأرقام بصفة محددة ، كان للحضارات السابقة أثر واضح في الحضارة العربية الاسلامية .

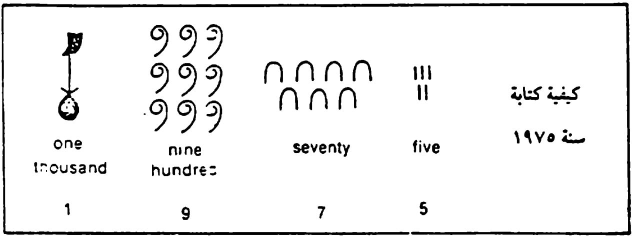
وسوف أقدم شكل هذه الأرقام عبر العصور عند المصريين القدماء والبابليين ، والصينيين ، والاغريقيين والرومانيين والهنود .

١ ـ المصريون :

اتبع المصريون القدماء في نظام عددهم النظم العشري المستقي من عدد أصابع اليدين ، وهو النظام المتبع الآن ، وكان هناك خانة لآحاد والعشرات والمئات الخ ، ووضع المصريون رمزاً خاصاً للواحد في كل مرتبة من المراتب ، وكانوا يكررون هذا الرمز بمقدار قيمة الرقم في الخانة الخاصة به ، وفيما يلي نوضح أشكال الأرقام عند قدماء المصريين ، مع نموذج تطبيقي لذلك :[١]



كتابة الاعداد عند المصريين القدماء



لقد أجمع كل الكتاب الإغريق على أسبقية مصر في كشف العلوم الرياضية ، فقد ذكر أفلاطون أن الالة توت بمصر كان مخترعاً لفنون عدة منها الحساب والهندسة والفلك ، وقال أرسطو إن مولد الرياضيات بمصر لأن طبقة الكهنة كان لديها من الفراغ ما يسمح بدراستها ، واستنتج هيرودوت بأن الهندسة بدأت بمصر ثم نقلت إلى الاغريق .

وأول مرجع كما يذكر لنا علماء تاريخ الرياضيات(٢) ، لدى المصريين القدماء في مجال الرياضيات هو قرطاس أحمس ، وقد عثر عليه ريند Rhind سنة ١٨٥٨ وترجمه إيزنلور Eisenlohr سنة ١٨٧٧ وهذب الترجمة بيت Peet سنة ١٩٢٣ ، وهذا القرطاس من عهد الأسرة الثانية عشرة (١٨٤٩ ـ ١٨٠١ ق.م)، ويعتقد برش Birch أن ما ورد به من معلومات يرجع إلى سنة ٣٤٠٠ ق.م. وقد أسماه مؤلفه (إرشادات للحصول على معرفة كل الأشياء القائمة).

ويحتوي الكتاب على خمسة أبواب ، وفيه ٨٧ مسألة موزعة على هذه الأبواب الخمسة :

الباب الأول : العد وكتابة الأرقام .

الباب الثاني : القواعد الأربعة .

الباب الثالث : الكسور .

الباب الرابع : المربع والجذر التربيعي وحل معادلات الدرجة الأولى والمتواليات .

الباب الخامس : الهندسة .

٢ ـ البابليون :

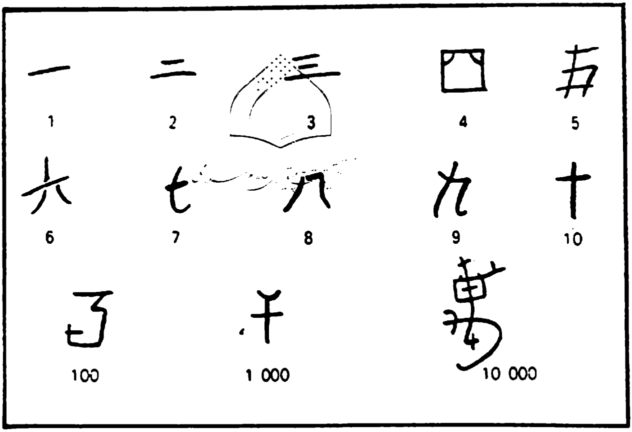
كان وادي الدجلة والفرات أحد عروش المجتمع الانساني في العصور الأولى ، وفيما يتعلق بتاريخ أول كشف للوحات رياضية وفلكية مكتوبة بالخط

المسماري ، كتبت إحداها بين سنة ٢٣٠٠ ق.م. و ١٦٠٠ ق.م.

وفيما يتعلق ، بالعد وكتابة الأرقام ، استخدم البابليون الطريقة العشرية والطريقة الستينية ، ولا توجد نماذج تحت أيدينا حالياً لنوضح شكل هذه الأرقام ، ويرى الباحثون أنه ربما يكون للبابليين تأثير في إستخدام الهنود لنظام العد عندهم(٣) .

٣ ـ الصين :

كان للصينيين الفضل في وضع أساس القيمة المحلية للرقم ، أو الخانات ، فمهدوا للهنود كشف الأرقام الهندية التي نستخدمها الآن ، وفيما يلي نوضح شكل الأرقام الصينية :



٤ ـ الاغريق :

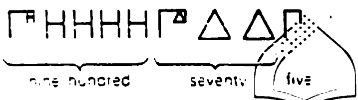
كان من نعم الله على الاغريق أن اتصلوا بالأمم القديمة إتصالاً تجارياً ، فعرفوا فلسفة هذه الأمم وفنونها وأساطيرها ، ولما نشطت الحركة التجارية بينهم وبين المصريين حوالي القرن السابع قبل الميلاد ، نهلوا من

معارف الكهنة المصريين ، وبذلك نقلت الأفكار المصرية عبر البحار الى بلاد الاغريق .

وقد كانت طريقتهم في كتابة الاعداد تشبه طريقة قدماء المصريين ، ثم استخدموا الحروف الابجدية ، ولذلك كان حسابهم معقداً ، وفيما يلي شكل الأرقام عند الاغريق :(٥)

Ι 1	Δ 10	Η 100	Χ 1000	Μ 10 000
Γ 5	ΓΔ 50	ΓΗ 500	ΓΧ 5 000	

شكل الأرقام عند الاغريق وتشبه طريقة المصريين القدماء



كيفية كتابة رقم ٩٧٥

Α 1	Β 2	Γ 3	Δ 4	Ε 5	F 6	Ζ 7	Η 8	θ 9
Ι 10	Κ 20	Λ 30	Μ 40	Ν 50	Ξ 60	Ο 70	Π 80	ϙ 90
Ρ 100	Σ 200	Τ 300	Υ 400	Φ 500	Χ 600	Ψ 700	Ω 800	ϡ 900

نظام جديد من الأرقام باستخدام الحروف ويبلغ عددها ٢٧ حرفاً

٥ ـ الرومان :

لقد كانت طريقة كتابة الأرقام عند الرومان طريقة خمسية عشرية ، دخلها الجمع والطرح ، فالواحد يرمز له بالأصبع أي بخط رأس ، والخمسة يرمز لها باليد الواحدة ذات الأصابع الخمسة ، ولما كان الإبهام مختلفاً عن باقي الأصابع فقد رسمت اليد هكذا ٧ ، ورمز للعشرة باليدين ، يد عليا

وأخرى سفلى هكذا V Λ ثم إندمجت اليدان فأصبحتا × وهكذا . فالواحد يكرر مرتين للاثنين ، وثلاث مرات للثلاثة ، أما الأربعة فقد استخدموا فيها الطرح ، فاعتبروا ٥ ـ ١ أي خمسة يسبقها واحد أي ١٧ ، وكذلك في التسعة ١ × وهكذا وفيما يلي شكل الأعداد عند الرومان[٦] .

I	II	III	IV	V	VI
1	2	3	4	5	6
VII	VIII	IX	X		
7	8	9	10		
L	C	D	M		
50	100	500	1000		

٦ ـ الهند :

لقد جعل الهنود لكل رقم من الأرقام التسعة الأولى رمزاً خاصاً به ، واستخدموه نفسه في الخانات الأخرى ، وجعلوا رمزاً عاشراً ليدل على خلو الخانة ، أي على كون الخانة صفراً ، والصفر معناها الخلو ، ورمزوا اليه بدائرة خالية ، أو بها شرطه أفقية أو راسية أو نقطة هكذا :



وقد أخذ العرب هذا النظام ، وعدلوه ونقلوه إلى الغرب .

وكان يجاور الهند قوم ذكرهم ابن النديم وهم « أهل السند » ، في كتابه الفهرست[٧] ، بأنهم مختلفي اللغات مختلفي المذاهب ويقول : « بأن لهم أقلام عدة قال لي بعض من يجول بلادهم أن لهم نحو مائتي قلم » ولذا كان لا بد للعرب من الحذر في اتباع النظام الأمثل في الترقيم ، ولعل ابن النديم

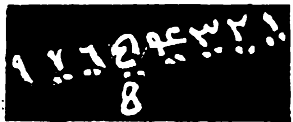
يقصد بأهل السند في ذلك الزمان أهل الهند والسند وقد أورد ابن النديم كذلك عن أهل السند طريقتهم في كتابة الأعداد بالحروف وفيما يلي نظام أهل السند :



وابتداؤه آ ب ج د هـ و ز ح ط فاذا بلغ الى أعاد الحرف الأول ونقطنه تحتـه على هذا المثال



فيكون ي ك ل م ن س ع ف ص يزاد عشرة عشرة فاذا بلغ إلى صاد يكتب على هذا المثال وينقط تحت كل حرف نقطتين هكـذا



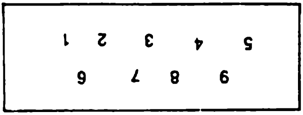
فيكون ق ر ش ت ث خ ذ ظ فاذا بلغ ظ كتب الحرف الأول من الاصـل وهـو هذا آ ونقط تحته ثلاث نقط هكذا فيكون قد أتى على جميع حروف المعجم ويكتب ماشاء

واضح أن الشكل الذي ورد في ابن النديم يشبه شكل الحروف المشرقية بكتابتها الحالية : ١، ٢، ٣، ٤ . . . الخ ولكن مع خلاف بسيط في شكل رقمي ٤، ٥.

وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن العرب والسند كانت لهم حروف أبجدية متشابهة ، في الوقت الذي تعتبر فيه السند والهند منطقة واحدة (جغرافية واحدة) ، وذلك في التاريخ القديم .

ويمكن أن يكون العرب أخذوا شكل الأرقام كما ورد في ابن النديم ليصبح مع مرور الزمن شكلاً للأرقام المشرقية الحالية

وإذا نحن قارنا الأرقام المغربية بالأرقام المشرقية لن نجد اختلافاً كبيراً بينهما ، ويمكن كتابة الأرقام المغربية هكذا مقلوبة

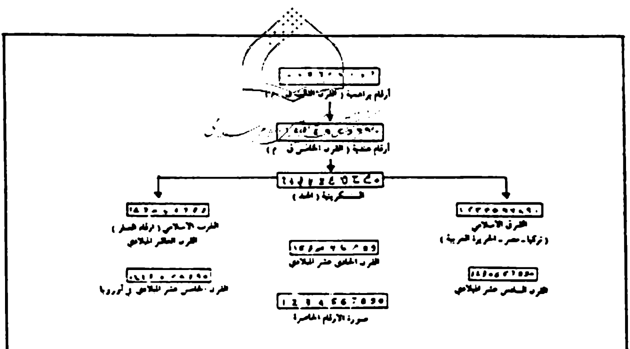


نرى أن شكل ٢، ٣، ٤، ٥ يمكن اعتبارها شكلاً واحداً للأرقام الشرقية مع إضافة خط واحد إليها .

أما رقم ١، ٦، ٧، ٨، ٩ فهي تشبه الأرقام المغربية .

والخلاصة أنه لا يوجد فرق كبير بين الطريقة المغربية والطريقة المشرقية ، وهو ما سيتضح لنا في نهاية الدراسة .

أما شكل الحروف عند الهنود وتطورها الى ما وصلت اليه الآن فيمثلها الشكل التالي :



تطور الارقام عبر العصور التاريخية

ثانياً : إستخدام الأرقام عند العرب والمسلمين :

يرجع الفضل الأكبر لتعاليم الاسلام في اهتمام المسلمين بالرياضيات وكافة العلوم المختلفة ، وكانت هذه التعاليم ولا تزال تحض على العلم وطلبه

« فالعلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »، « واطلبوا العلم ولو بالصين »، كما توجه الأنظار الى السموات وما فيها ، وإلى الأرض وما عليها وتتطلب الأحوال الشخصية وما فيها من مواريث ، والمعاملات التجارية وما فيها من عقود إلى أجل مسمى ، معرفة التقاويم ، والأصول الحسابية والهندسية ، كما تتطلب العبادات معرفة مواقيت الصلاة ، وتعيين سمة القبلة ، ومعرفة هلال رمضان ، ووقت الحج .. الخ ، مما يقتضي تتبع حركة الشمس والقمر ، كل هذا دعا إلى البحث وراء العلوم ، وخصوصاً علم الفلك الذي يستلزم معرفة الرياضيات المختلفة من حساب وحساب المثلثات ، وهندسة وجبر ، وكل ما يمت بصلة إلى علوم الطبيعة وما وراءها .

كيف اتصل العرب بالحضارات الأخرى ؟

إتصل العرب بالاغريق عن طريق السريانيين في آسيا الصغرى ، وبواسطتهم اتصلوا بمسيحي الاغريق ، وعن طريق الرحلات والأسفار ، وعن طريق استدعاء الخلفاء لعلماء الاغريق ، ونقلهم إلى اللغة العربية العلوم الاغريقية ، كما اتصل العرب بالفرس والهنود ، واتصلوا بهم إتصالاً وثيقاً ، وبهذا تعددت ثقافات العرب وحضاراتهم وفي أيام عثمان بن عفان ، كان إتصال العرب بالهنود ، وفي أثناء فتح الحجاج الثقفي للسند ، ٧١٠ م ، وفي أثناء فتح أبي جعفر المنصور لكابل وكشمير سنة ٧٦٠ م .

ويرى الباحثون[٩] أن فضل العرب على الانسانية كبير وذلك لما يلي :

١ ـ كانوا حفظة أمناء للكنوز العلمية الاغريقية ، وأبقوها سليمة مزدهرة ، وأنقذوها من الرومان .

٢ ـ كانوا وسيلة لإظهار الكنوز العلمية الهندية التي ازدهرت في المشرق ، في الوقت الذي ازدهرت فيه العلوم الاغريقية في المغرب .

٣ ـ وصلوا بين العلوم الاغريقية والعلوم الهندية ومزجوا بينها ، وسلموها

سليمة نقية إلى الغربيين حينما هبوا من سباتهم ، وخلعوا عن أكتافهم رداء الخمول ، ونزحوا إلى الأندلس حيث جامعات أشبيلية وقرطبة وغرناطة ، وإلى غير الأندلس ، باحثين وراء هذه العلوم ، وتعلموا اللغة العربية ، ونقلوا ما أخذوه من العرب إلى اللغة اللاتينية .

٤ ـ أضافوا إلى العلوم التي أخذوها ، فتوحات علمية زاهرة ، وكشوفاً قيمة جديدة نسبت لغيرهم ، وظن أنها كشفت بعدهم .

ما هي قصة الأرقام العربية ؟

لا شك في أن العرب والمسلمين شأنهم شأن أصحاب الحضارات الأخرى يتأثرون بغيرهم ويؤثرون فيهم ..

ولكن البعض يقع في الخطأ عندما يعتبر أن الأرقام العربية أرقاماً هندية ، أو أن الصفر ليس عربياً ، أو أن الأصح أن تكتب الأرقام العربية هكذا :

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ .

وليس : 0 9 8 7 6 5 4 3 2 1 أو أن الصحيح الشكل الأخير وليس الأول .

وهذا يرجع إلى أن الأمور العلمية أصبح يختلط فيها الحابل بالنابل وأصبحت غير واضحة لكثير من الناس . ولكن القصة تبدأ عندما أطلع العرب على الأنظمة المختلفة للترقيم عند الشعوب التي أخضعوها والتي كانت تربط بينهم وبينها أواصر الصداقة ، استحسنوا النظام الهندي ، وكان عند هؤلاء ، أشكالاً متعددة ، فأخذ العرب وانتقوا منها ما رأوه مناسباً واكتفوا بطريقتين مختلفتين لكتابة الأرقام :

١ ـ الطريقة المشرقية ، واستعملها عرب بغداد ، وتطورت قليلاً حتى أصبحت الأرقام التي نستعملها الآن في مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين

وبلاد العرب وهي : ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٨، ٩، ٠ .

٢ - الطريقة المغربية واستعملها عرب الأندلس ، وتطورت قليلاً حتى أصبحت الأرقام التي تستعمل الآن في بلاد المغرب وهي :

0, 9, 8, 7, 6, 5, 4, 3, 3, 2, 1.

وقد أخذ الغربيون الطريقة المغربية عن طريق الأندلس . ولا يزال المغاربة الآن يستعملون طريقة أجدادهم في كتابة الأرقام ، فلا يظن ظان بأنهم يكتبون الأرقام الافرنجية ، وإنما الفرنجة هم الذين يكتبون الأرقام عن الطريقة المغربية ، ولا يزال الغرب يطلق على هذه الأرقام اسم الأرقام العربية ، بينما يطلق عليها العرب اسم الأرقام الهندية ، وغدا بعض الكتاب الغربيين يطلقون عليها اسم الأرقام الهندية العربية .

ما هي قصة الصفر لدى علماء المسلمين :

ينكر كثير من الباحثين أن يكون « الصفر » هندياً ، ويصر البعض الآخر على أنه عربياً .

والواقع أن الصفر وغيره من الأرقام ليس في شكله بقدر ما هو في قيمته الوضعية ، ويمكن بوساطتها أن نعبر عن أكبر عدد وأصغر عدد فيكفي أن نزيد في الأصفار عن يمين العدد ليكبر ، وعن يمين مقام الكسر ليصغر .

ويرى بعض الباحثين أن شكل الصفر عند الهنود يكتب دائرة فيها نقطة هكذا ⊙ ، وكان ذلك في المدة الأخيرة ، أي خانة خالية ، وقد أخذ عرب المشرق النقطة وتركوا الدائرة ، وأخذ عرب المغرب الدائرة وتركوا النقطة .

ويرى البعض الآخر أن الحساب المسلمين كانوا يعرفون الصورة الاغريقية للصفر ○ دائرة فوقها خط ويصل الناسخ بين الدائرة والخط الذي فوقها فتصبح

وعلى ذلك تصبح الصورة الكاملة للصفر لدى الاغريق هي ذاتها الصورة الهندية ، وخاصة إذا علمنا أن التقليد الهندي لكتابة الأرقام كان يقتضي أن يوضع خط فوق الرقم وعلى الرغم من هذا ، وكما قلت في بداية الكلام على الصفر أن العرب حددوا قيمة الصفر واستخدامه ، أما موضوع شكله ، فهو نقل حضاري وقبل النقل فهو اختيار من متعدد ، وتطويعه بالشكل الأخير ليصبح للعرب أرقاماً سواء كانت بالطريقة المشرقية أو بالطريقة المغربية .

ثالثاً : توصيات الدراسة :

بعدما تأكد لنا أن العرب كان لهم الفضل الأكبر في نقل نتائج حضارات من سبقهم إلى الانسانية ، وإن اهتمام العرب أنفسهم بما لدى الاغريق والهنود نبه الهنود إلى استخدام النظام الحسابي المطور في شكله العربي الأخير وعلى ذلك فأنني أرى وأوصي بالتوصيات التالية :

١ ـ ينبغي ألا نتمسك بالشكليات ونقول أيهما أصح الطريقة المشرقية وهي :

١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ٠. أم الطريقة المغربية وهي :

1, 2, 3, 4, 5, 6, 7, 8, 9, 0 ولكن يجب أن نقرر أن كلا الطريقتين عربيتين أما ما شاع في العالم فهو الطريقة المغربية وأطلق عليها الأرقام العربية .

٢ ـ ينبغي أن نرجع في دراستنا وننبه الاهتمام إلى فضل العرب وعلماء المسلمين في قيامهم بالدور الحضاري ونشير الى البيروني والخوارزمي واليعقوبي والاقليدس فالبيروني في كتابه عن الهند يذكر بأمانة أنه لقي الهنود ووجدهم يستعملون مجموعات شتى من الأرقام وأن ما أخذه العرب هو أحسن ما عند الهنود ، والبيروني عاش في الفترة ٩٧٣ ـ ١٠٤٨ م وأول كاتب عربي كتب في الحساب الهندي هو أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي الذي

عاش في عصر المأمون ، وكتاب الخوارزمي مفقود بالعربية ، ولكن وصل إلينا بضعة كتب لاتينية هي ترجمة له أو أثر منه ، والخوارزمي عمل في مكتبة الخليفة المأمون في الفترة من ٨١٣ ـ ٨٣٣ م وأقدم وصف عربي نعرفه للأرقام الهندية نجده في كتاب اليعقوبي (التاريخ) الذي انتهى فيه إلى أحداث سنة ٨٧٢ م ، وقد وضعه سنة ٢٦٩ هـ = ٨٧٢ م ، وفيه يعطي صور الأرقام الهندية المشرقية .

وأقدم كتاب في الحساب الهندي وصل إلينا هو كتاب الفصول في الحساب الهندي ، لأبي الحسن أحمد بن ابراهيم الاقليدس ، وقد كتبه في دمشق سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ / ٩٥٣ م).

٣ ـ إن ثلثي عدد الأرقام في السلسلتين الهندية (المشرقية) والغبارية (المغربية) يكاد يكون شكلهما واحداً في السلسلتين ، ولا سيما إذا ماعرف أن التطور اقتصر في بعضها على إنحراف زاوية رسمه أو على إنحناء مخالف ، أو على استطالة في بعض أجزائها أو اختصار كما في الأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٩ .

٤ ـ ينبغي التأكيد على أن كلا الشكلين المغربي والمشرقي عربي بعد تعديلات على الشكل الهندي ، وهذا يعتبر من ابتكار الحضارة العربية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن نؤكد على أن العبرة كذلك والفضل الأكبر للعرب لاستخدامهم الأرقام في العمليات الحسابية المختلفة وجعل قيمة للصفر حتى رغم وجوده عند الاغريق والهنود .

ونقرر في النهاية وطبقاً للتطور الحضاري أن الشكل الحالي للأرقام المشرقي والمغربي عربي ليس في الشكل فحسب لكن ايضاً في الموضوع أي استخدام العمليات الحسابية والتي عرف بها العلماء العرب .

المراجع والهوامش

١ - Joy, RR: Shape and number, 1

London : Macmillan education ,1976, P. 10.

٢ - عبد الحميد لطفي ، أحمد ابو العباس : تاريخ الرياضيات - القاهرة : المطبعة الاميرية ، ١٩٥٧ ، ص ٧ .

٣ - عبد الحميد لطفي ، المرجع السابق ذكره ٢٩ .

٤ - Joy, R.R.: Shape and number 1, P11

٥ - Joy, R.R.: Shape and number 2, p 2-5

٦ - Joy, R.R.: Shape and number 2,p3

٧ - ابن النديم ، محمد بن اسحق : الفهرست - بيروت : دار المعرفة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٨ .

٨ - عبد الله طحطاح : اسهام علماء الاسلام في الرياضيات .
عالم الفكر (الكويت) ، المجلد (١١) ، العدد (١) ، ابريل - يونيو ١٩٨٠ ، ص ٢٨٣ - ٣١٢ .

٩ - عبد الحميد لطفي ، المرجع السابق ذكره ، ص ٦٤ وحول استخدام الاعداد أو الأرقام انظر كذلك :

- دائرة المعرف الاسلامية ، مادة حساب .

- الاقليدس، أبو الحسن أحمد بن ابراهيم (٣٤١هـ): الفصول في الحساب الهندي / تحقيق احمد سعيدان .عمان (الأردن) : اللجنة الاردنية للتعريب والنشر والترجمة ، ١٩٧٣ .

- ديتريش، البير : دور العرب في تطور العلوم الطبيعية . اللسان العربي (الرباط) العدد ٦ ، يناير ١٩٦٩ ، ص ٩٦ - ١٠٥ .

أول المؤلفين العرب في هذا العلم وأعظمهم شهرة ، محمد بن موسى الخوارزمي المتوفي سنة ٨٤٦ أو ٨٤٧ م عاش في زمن الخليفة العباسي المأمون فأقامه على القسم العلمي في دار الحكمة حيث انقطع الى المطالعة والتأليف ، زاهداً في الدنيا إلى آخر حياته . والمشهور من كتبه اثنان « الحساب الهندي » وقد وضعه سنة ٨٢٥ م و « كتاب الجبر والمقابلة » وقد وضعه حوالي سنة ٨٣٠ م . والكتاب الأخير طبع بمصر سنة ١٩٣٩ م وقام بتحقيقه الاستاذان : الدكتور علي مصطفى والدكتور محمد مرسي احمد .

الجبر والمقابلة :

معنى الجبر والمقابلة هو إزالة الطرح من المعادلة ، والمقابلة بين الكميات المتشابهة في طرفي المعادلة بأن تلقى الكمية من شبيهتها فلا يبقى منها إلا واحدة في أحد الطرفين . وهاتان العمليتان مع عملية الرد أساسيان في حل المعادلات . فمثلاً إذا نظرنا إلى المعادلة :

ب س + ٢ جـ = س^{٢} + ب س

وبالمقابلة تصبح : ٢ جـ = س^{٢}

ولأهمية كتاب « الجبر والمقابلة » فقد ظل مصدراً لعلماء الرياضيات في الشرق والغرب مدة طويلة ، وبقي إلى القرن السادس عشر الكتاب المعتمد في هذا العلم ، له منزلة أصول اقليدس عند المهندسين وكتب بطليموس عند علماء الفلك . ويدل على قيمته عند العرب كثرة شروحه ومكانة شارحه العلمية .

وأول من شرحه شجاع بن اسلم . واعترف باسبقية الخوارزمي في هذ

المضمار . وشرحه أيضاً : سنان بن الفتح الحاسب الحراني كما شرحه كثير من أهل الأندلس ، كما يقول العلامة ابن خلدون .

بدأ الخوارزمي فبين الأنواع الثلاثة من الحدود الداخلة في حل المعادلات من الدرجة الثانية فقال : (إني وجدت الأعداد التي يحتاج اليها في حساب الجبر والمقابلة على ثلاثة أضرب ، وهي : جذور وأموال وعدد مفرد لا ينسب الى جذر ولا إلى مال).

فالجذر هو ما يرمز له بالرمز س

والمال هو س^{2}

والعدد المفرد هو الخالي من س ، ومن س^{2}

ثم ذكر المعادلات التي تحتوي على حدين من هذه الحدود ، وعدد انماطها الثلاثة ، وهي على الترتيب :

(١) أ س^{2} = ب س

(٢) أ س^{2} = جـ

(٣) ب س = جـ

وبعد أن شرح الخوارزمي المعادلات التي تحتوي على حدين ، اتى على الحالة العامة في معادلات الدرجة الثانية حيث توجد ثلاثة حدود . وقد قسم معادلات الدرجة الثانية منقولة إلى المصطلح الرياضي الحديث ، كما يلي :

(١) أ س^{2} + ب س = جـ

(٢) س^{2} + جـ = ب س

(٣) ب س + جـ = أ س^{2}

وبين حل كل نوع من هذه المعادلات وشرحه بأمثلة عددية ، وتنبه إلى الحالة التي يكون فيها الجذر « كمية تخيلية » وذلك عندما يستحيل إيجاد قيمة حقيقية للمجهول « فالمسألة مستحيلة » على حد تعبير الخوارزمي .

ثم تحدث عن الحالة التي يتساوى فيها جذراً المعادلة ، ويكون كل منهما مساوياً لنصف معامل (س) . ثم تحدث عن العمليات الأربع في الجبر ، وعن كيفية ادخال المقادير الجبرية تحت الجذر التربيعي أو إخراجها . وأهم ما في الكتاب هو « المسائل الست » والتي سيرد ذكرها بعد قليل .

وقد تأثر بها كثير ممن ألف في الجبر بعد الخوارزمي ، لا سيما محمد بن الحسن الكرخي في كتابه « الفخري ».

ونورد المسألة الاولى مثالاً يغني عن بقية المسائل ، ونبين طريقة الخوارزمي في حلها ، فالمسألة الأولى نحو قولك : (عشرة قسمتها قسمين فضربت أحد القسمين في الآخر ، ثم ضربت إحداهما في نفسه ، فصار المضروب في نفسه مثل أحد القسمين في الآخر أربع مرات).

ثم يشرع في حل المسألة ويسمى الحل « قياساً » فيقول : (فقياسه أن تجعل أحد القسمين شيئاً والآخر عشرة إلا شيئاً ، فتضرب شيئاً في عشرة ، إلا شيئاً ، فتكون عشرة أشياء إلا مالا ، ثم تضربه في أربعة ـ لقولك أربع مرات ـ فيكون اربعة أمثال المضروب من أحد القسمين والآخر ، فيكون ذلك اربعين شيئاً إلا اربعة اموال ، ثم تضرب شيئاً في شيء ـ وهو أحد القسمين ـ في نفسه فيكون ما لا يعدل أربعين شيئاً إلا أربعة أموال فأجبرها بالأربعة الأموال وزدها على المال فيكون اربعين شيئاً تعدل خمسة أموال ، فالمال الواحد يعدل ثمانية أجذار ، وهو اربعة وستون ، جذرها ثمانية ، وهو أحد القسمين المضروب في نفسه ، والباقي من العشرة اثنان ، وهو القسم الآخر).

أي أنه حل المسألة ، حسب المصطلح الجبري الحديث كالآتي :

نفرض أن أحد القسمين = س

فالآخر = ١٠ ـ س

اذن (١٠ ـ س) (١٠ ـ س) = ٤ س (١٠ ـ س)

والطريقة الأخرى هي :

نفرض أن أحد القسمين = س

اذن القسم الاخر = ١٠ ـ س

اذن س^{٢} = ٤ س (١٠ ـ س)

س^{٢} = ٤٠ س ـ س^{٢}

اذن ٥ س^{٢} = ٤٠ س

وبقسمة الطرفين على (٥ س)، ينتج أن س = ٨، وهو القسم الاول فالقسم الآخر = ٢ .

والطريقة الأخيرة التي اتبعها الخوارزمي ، كما رأينا في النص المنقول من كتاب « الجبر والمقابلة ».

ومن اهم القضايا الجبرية التي قام بها الخوارزمي أنه أعطى طريقة جديدة لايجاد أحد جذري المعادلة ، وبهذا اضاف إلى عمل « ديوفانطوس » الاغريقي اضافة هامة إذ لم يتوصل الأخير إلا إلى إيجاد جذر واحد لها .

واستعمل أنماطاً ثلاثاً من المعادلات لم يستعملها أحد قبله ، وهي :

(١) س^{٢} + ١٠ س = ٣٩

(٢) س^{٢} + ٢١ = ١٠ س

(٣) ٣ س + ٤ = س^{٢}

وقد استفاد منها علماء الجبر بعده ، لا سيما « عمر الخيام » وظلت معادلته الأولى (س^{٢} + ١٠ س = ٣٩) . القاعدة الذهبية في عل الجبر لقرون عديدة كما يقول « كادينسكي ».

وبهذا وأمثال هذا المجهود العظيم ، أصبح الخوارزمي إماماً في علم الجبر ، وصار اسمه علماً على « اللوغاريتمات » إذ اشتقت من اسمه .

وأتم عمل الخوارزمي « أبو كامل شجاع بن اسلم الحاسب المصري » وظهر في القرن الثالث الهجري أو بين سنة ٨٥٠ وسنة ٩٣٠ م

ويظهر من كلام « القفطي » أن أبا كامل : (كان فاضل وقته وعالم زمانه) وكتابه الذي أكمل فيه ما بدأه الخوارزمي في اسمه : « كمال الجبر وتمامه » ويعترف منه بفضل السابق فيقول : (إن كتاب محمد بن موسى المعروف بكتاب الجبر والمقابلة ، أصحها أصلاً وأصدقها قياساً . وكان مما يجب علينا من التقدمة والاقرار له بالمعرفة وبالفضل ، إذ كان السابق إلى كتاب الجبر والمقابلة والمبتدىء له ، والمخترع لما فيه من الأصول التي فتح الله لنا بها ما كان منغلقاً وقرب بها ما كان متباعداً وسهل بها ما كان متعسراً) وبين عمله في الكتاب الجديد فقال : (ورأيت فيها مسائل يدرك شرحها وإيضاحها ففرعت منها مسائل كثيرة ، يخرج أكثرها إلى غير الضروب الستة التي ذكرها الخوارزمي في كتابه ، فدعاني الى كشف ذلك وتبيينه، فألفت كتاباً في الجبر والمقابلة).

ثم جاء أبو عبدالله محمد بن عيسى المعروف بالماهاني ، وهو من علماء الرياضيات المعروفين في بغداد أواخر القرن الثالث الهجري . وكان له قدر معروف بين علماء الاعداد والهندسة . ومن أهم أعماله حل ما يسمى « بمسألة ارخميدس » (Archimedean Problem) بواسطة معادلة تكعيبية وهو أول من فعل هذا على تعبير « كاجوري » والمعادلة التي وضعها هي :

$$س^{٣} + ب جـ^{٣} = هـ س^{٢}$$

ولذلك عرفت هذه المعادلة بين علماء العرب والمسلمين بمعادلة الماهاني .

وفي عصر « الماهاني » ظهر سنان بن الفتح الحراني وله مؤلفات في الحساب والجبر أشهرها : « المكعب والمال والاعداد المتناسبة » وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية . ويعد عمل « الحراني » في الجبر مكملاً لعمل

« الخوارزمي » مع زيادة في المنهج الجديد إذ أن الجديد في هذا العمل هو أنه بناه على أساس النسبة ويشرح منهجه الجديد فيقول

« والحساب نجري أعداده إذا خرجت على النسبة ، على التوالي ، على أن تسمى الأول · عدداً ، والثاني جذراً ، والثالث : مالاً ، والرابع : مكعباً ، والخامس مال المال ، والسادس : مداد ، والسابع : مال المكعب ، ثم تكون النسبة الثامنة والتاسعة » ومن الأمثلة على ذلك قوله : (وإن قدر العدد والجذر من المال.كقدر الجذر والمال من المكعب ، وكقدر المال والمكعب من مال المال ، وكقدر المكعب ومال المال من المواد . وهذا حسب التعبير الرياضي الحديث ، كالآتي .

$$\frac{\text{١ + س}}{\text{س}^{٢}} = \frac{\text{س + س}^{٢}}{\text{س}^{٣}} = \frac{\text{س}^{٢}\text{ + س}^{٣}}{\text{س}^{٤}} = \frac{\text{س}^{٣}\text{ + س}^{٤}}{\text{س}^{٥}}$$

ويلاحظ أن هذه الصورة مطابقة لاحدى صور معادلات الدرجة الثانية التي عالجها الخوارزمي وهي :

ب س + جـ = أ $\text{س}^{٢}$ وبوضعها في صور نسبة تصبح :

$$\frac{\text{ب س + جـ}}{\text{أ س}^{٢}} = ١$$ وبوضع

أ = ب = جـ = ١ تصبح النسبة :

$$\frac{\text{س + ١}}{\text{س}^{٢}}$$ ويضرب طرف النسبة في س يمكن الحصول

على الصور التي عرضها الحراني وهي :

$$\frac{\text{س + ١}}{\text{س}^{٢}} = \frac{\text{س}^{٢}\text{ + س}}{\text{س}^{٣}} = \frac{\text{س}^{٣}\text{ + س}^{٢}}{\text{س}^{٤}}$$

وبمرعاة ترتيب الحدود حسب قوى س يمكن وضعها في الصورة .

$$\frac{١ + س}{س^{٢}} = \frac{س + س^{٢}}{س^{٢}} = \frac{س^{٢} + س^{٣}}{س^{٢}} = \ldots \text{ الخ}$$

ومن علماء الرياضيات المكملين لأعمال العلماء السابقين ، أبو الحسن ثابت بن قره المولود بحران سنة ٢٢١ هـ والمتوفى ببغداد سنة ٢٨٨ هـ . وهو متعدد المواهب . إذ برع في الهندسة والحساب والجبر والطب والفلك والفلسفة وكان يحسن السريانية والعبرية واليونانية ، جيد النقل إلى العربية .

والذي يتصل بهذا البحث جهوده في حل بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية ، استعان بها بعض علماء العرب في بحوثهم الرياضية في القرن السادس عشر الميلادي . ومن مآثره أنه إشتغل بالهندسة التحليلية فأجاد فيها كل الاجادة ، وله منها ابتكارات لم يسبق إليها وقد وضع كتاباً في « الجبر » بين فيه علاقة الجبر بالهندسة . وله طريقة مبتكرة لايجاد « الاعداد المتحابة » Amicable numbers شرحها « كاجوري » في كتابه : « تاريخ الرياضيات » .

وجاء بعد أولئك الأفذاذ العالم الرياضي محمد بن محمد ابن يحيى المعروف بأبي الوفاء البوزجاني من ٩٤٠ ـ ٩٩٨ م . ولد في « بوزجان » (وهي بلدة صغيرة بين رهاة ونيسابور) . ولما بلغ العشرين من العمر جاء إلى بغداد ، وهناك قوي عوده وظهر نجمه . وكتب في الجبر وزاد على بحوث الخوارزمي زيادات في علاقة الجبر بالهندسة . وقد حل هندسياً المعادلتين :

$$س^{٤} = حـ$$
$$س^{٤} + حـ\, س^{٣} = ب$$

وهو أول من استعمل « الظل » في حل المسائل الرياضية ، وأوجد طريقة جديدة لحساب جداول الجيب وكانت جداوله دقيقة .

وله مآثر في الهندسة والمثلثات كان لها أكبر الأثر فيمن جاء بعده من علماء الشرق والغرب .

وفي أواخر القرن الخامس ظهرت شهرة محمد بن الحسن الكرخي (المتوفي في حوالي سنة ٥٠٠ هـ) .

وله في الرياضيات ثلاثة كتب هي : الفخري والكافي والبديع . والأول أهمها . والكتاب فيما يبدو من أبوابه وأقسامه ، أنه في الجبر والحساب ، ولذلك سماه بعضهم « الفخري في الحساب » . وسماه آخر : « الفخري في الجبر والمقابلة » . ويظهر أن السمة الغالبة على الكتاب هي السمة الجبرية ، وهو قسمان :

الأول : يشتمل على خمسة عشر باباً ، يتناول فيها بعض نظريات الجبر والحساب . والأعمال الأربعة . ويتناول مسائل في النسبة واستخراج الجذور الصماء ، وضربها وقسمتها ، وفيه قواعد جديدة في التربيع والتكعيب . وأتى فيه على مسائل تحل بطرق جبرية .

وفي الباب الثاني عشر تحدث عن « المسائل الست » التي سبقه اليها « الخوارزمي » أما الباب الثالث عشر فقد اشتمل على معادلات من الدرجة الرابعة ، وغيرها .

فقد حل المعادلة

$س^{٤} + ٥ س^{٢} = ٣٦$

والقانون الذي استعمله هو :

$$س = \sqrt{\left(\frac{ب}{٢}\right)^{٢} + م\,حـ} - \frac{ب}{٢}$$

وحل معادلات من النمط الآتي :

$م س^{٢ن} + ب س^{ن} + حـ = ٠$

أما القسم الثاني فقد تضمن ما يزيد على (٢٥٠) مسألة تؤدي إلى معادلات من الدرجة الأولى والثانية ودرجات أعلى .

كما نجد في هذا القسم حلولاً للمعادلات غير المعينة « أو السيالة » وهو مبدع مبتكر في معظم الأساليب والطرق التي اتبعها في حل مسائل النوعين من المعادلات .

ففي المعادلات المعينة : أتى على مسائل تؤول في حلها إلى المعادلة :

س^٢ + ٥ = ص^٢

وقد حلها بفرض (ص) = س + ١

وأتى على مسائل تؤول في حلها إلى المعادلة

س^٢ + ٥ س + = ص^٢

وحل المسألة الآتية : « ما العدد الذي لو أضيف اليه مربعه لكان الناتج مربعاً ، ولو طرح منه مربعه لكان الناتج مربعاً »؟

وهي تؤول إلى المعادلتين :

س^٢ + س = ص^٢

س - س^٢ = ع^٢

أما المعادلات غير المعينة « أو السيالة » هي المعادلة التي تكون مجموعة الحل ذات عناصر متعددة وهي عكس المعادلة المعينة فهي التي تكون مجموعة الحل ذات عنصر واحد ـ فمن الأمثلة على ذلك المسألة الآتية « أوجد عددين بحيث يكون الأول مع مربع الثاني مربعاً ، والثاني مع مربع الأول مربعاً ».

وهي تؤول في الصورة الرمزية الى : س + ص^٢ = ط^٢

ص + س^٢ = ن^٢

حيث العددان هما س ، ص .

وقد ترجم المستشرق « ويبكه » Woepcke كتاب « الفخري » إلى الفرنسية سنة ١٨٥٣ م ، فقال عن اطلاع ومعرفة : (أن الكرخي كان مبتكراً في حلوله ، وأنه على الرغم من اتباعه - في بعض المسائل - طرقاً تشبه طرق الهنود ، إلا أنه يمكن القول ، أن الكرخي يمثل التفكير العربي المستقل في معالجة المباحث الرياضية أو في حلول المعادلات المعينة ، وغير المعينة (السيالة) .

ومن الذين نالوا شهرة واسعة في الرياضيات عمر الخيام الذي كان من أعظم العلماء في عصره وكان معروفاً بين معاصريه بأنه عالم بالرياضيات والفلك وفيلسوف ولذلك لقب بالحكيم وهو من أبناء « نيسابور » ألف في الجبر والهندسة فكتابه في الهندسة المسمى بـ « رسالة في شرح ما اشكل من مصادرات كتاب اقليدس »، باق ، وقد حققه الاستاذ الدكتور عبد الحميد صبرة وطبع بمصر سنة ١٩٦١ م .

وماذا يريد الخيام بالمصادرات ؟ إنه يريد بها النظريات في اصطلاحنا الرياضي ، أو المسائل ، ومثال ذلك قول الخيام : (وقد أتى - أي : اقليدس - بمصادرة عظيمة ولم يبرهن عليها وهي قوله : إن كل خطين مستقيمين يقطعان خطاً مستقيماً على نقطتين خارجيتين منه في جهة واحدة على أقل من زاويتين قائمتين فإنهما يلتقيان في تلك الجهة).

وقد ذكر في هذه الرسالة كل المسائل التي طرحها اقليدس بدون برهان ، ثم أتى عليها واحدة واحدة فبرهن عليها هندسياً ، وجعل الكتاب في ثلاث مقالات كل مقالة تحتها مسائل سمي كل مسألة شكلاً .

أما كتابه الجبري فاسمه : « مقالة في الجبر والمقابلة » وقد ترجمه (ويبكه) ونشر في باريس سنة ١٨٥١ م .

وله كتاب « ميزان الحكمة » بالاضافة إلى رباعياته المشهورة ، دون كتبه العلمية !! ومآثره في علم الجبر تتجلى في أنه من أوائل الذين حاولوا تقسيم

المعادلات إلى أقسام متنوعة . وجعل معادلات الدرجة الأولى والثانية والثالثة إما بسيطة وإما مركبة . ومن مآثره في الجبر أنه حل المعادلات التكعيبية هندسياً . وهي :

(م، حـ) في المعادلات الآتية اعداد موجبة صحيحة :

(١) $س^{٣} + د^{٢} س = د^{٢} حـ$

وإن جذور هذه المعادلة هو الاحداثي الأفقي لنقطة تقاطع الخطين البيانيين للمعادلتين :

$س^{٢} = د ص$

$ص^{٢} = س (حـ - س)$

(٢) $س^{٣} + م س^{٢} = حـ^{٣}$

وجذورها هو الاحداثي الأفقي لنقطة تقاطع الخطين البيانيين للمعادلتين :

$س ص = حـ^{٢} = حـ (س + م)$

(٣) $س^{٣} + م س^{٢} + د^{٢} س = د^{٢} حـ$

وجذورها هو الاحداثي الأفقي لنقطة تقاطع الخطين البيانيين للمعادلتين :

$ص^{٢} = (س + م) (حـ - س)$

$س (د + ص) = د حـ$

ومن مآثره أنه وضع قانوناً لحل معادلات ذات الدرجة الثانية التي تكون من النمط :

$س^{٢} + د س = حـ$

والقانون هو :

$$\text{س} = \sqrt{\frac{١}{٤}\text{د}^{٢} + \text{حـ}} - \frac{١}{٢}\text{د}^{٢}$$

وأوجد قوانين أخرى لحل المعادلات التي تكون على النمط الآتي :

$$\text{س}^{٢} + \text{حـ} = \text{د س}$$

$$\text{د س} + \text{حـ} = \text{س}^{٢}$$

وقد تمكن « الخيام » من إيجاد مفكوك المقدار الجبري ذي الحدين عندما تكون قوته مدفوعه إلى الأسس : ٢ ، ٣، ٤، ٥، ٦، .... أو أكثر بوساطة قانون كشفه هو .

وقد توصل الرياضيون قبله إلى فك المقدار الجبري ذي الحدين ، إذا كان أسه (٢) ، أما ما فوق ذلك فأول من توصل إليه « الخيام ».

وإذا توجهنا شطر المغرب والأندلس فإننا نجد عالمين كبيرين :

الأول هو « ابن البناء المراكشي » أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي (ت ٧٢١ هـ)، والثاني « القلصادي »، أبو الحسن علي بن محمد بن علي القرشي البسطي (ت ٨٩١ هـ)، و« بسطة » في الأندلس .

أما « ابن البناء المراكشي » فقد كان غزير الانتاج في العلوم الرياضية ، إذ ألف ما يقرب من سبعين رسالة وكتاباً في الجبر والهندسة والحساب والفلك وغيرها .

وعمله الرئيسي يقوم على كتابه « تلخيص أعمال الحساب » وله « كتاب الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة » و« رسالة في الجذور الصم وجمعها وطرحها ».

وأهمية الكتاب ترجع إلى أن « صاحبه » استطاع أن يطور طريقة حساب الخطأين والمتبعة في حل معادلات الدرجة الأولى ، ووضعها بشكل قانون

جبري ويمكن وضع القضية على الصورة الاتية :

إذا كان $\text{م س} + \text{ب} = \text{صفرا}$

وفرضنا أن $\text{س} = \text{حـ}$

ولكن عند التعويض قد لا ينتج أن الطرف الأيمن يساوي صفراً ، ولنفرض أنه $= \text{هـ}$

$\therefore \text{م حـ} + \text{ب} = \text{هـ}$

ولكن $\text{م س} + \text{ب} = .$ (كما في المعادلة الأولى)

وبالطرح ينتج أن :

$\text{م حـ} - \text{م س} = \text{هـ}$

أي : $\text{م} \; (\text{حـ} - \text{س}) = \text{هـ}$ (م عامل مشترك)

وبالتعويض في المعادلة الأولى ينتج أن

$$\frac{\text{هـ س}}{\text{حـ} - \text{س}} + \text{ب} = .$$

$$\therefore \text{س} = \frac{\text{حـ ب}}{\text{ب} - \text{هـ}} = \frac{\text{حـ هـ} - \text{حـ ب} - \text{حـ هـ}}{\text{هـ} - \text{ب}} = \frac{\text{حـ} (\text{هـ} - \text{ب}) - \text{حـ هـ}}{\text{هـ} - \text{ب}}$$

وقد أوجد « ابن البناء » طرقاً لايجاد القيم التقريبية للجذور الصم . فقد أعطى قيمة تقريبية للمقدار :

$$\sqrt{\text{س}^{٢} - \text{ص}}$$

والقيمة التقريبية لهذا المقدار هي :

$$\text{س} + \frac{\text{ص}}{٢\,\text{س} + ١}$$

ولهذا كله كان كتاب « التلخيص » موضع اهتمام العلماء في المشرق والمغرب قديماً وحديثاً .

فقد تناوله بالشرح كثيرون ، أولهم : عبد العزيز بن داود الهواري ،

تلميذ ابن البناء وشرحه محمد بن زكريا الاشبيلي .

وشرحه « القلصادي » مرتين .

ويرى « كاجوري » أن عمليات القلصادي بالاضافة إلى أعمال ابن البناء في الجذور التكعيبية أبانت طرقاً لايجاد الجذور الصم بكسور متسلسلة .

فمن هو « فمن هو « القلصادي » ؟ وما هي مآثره في الجبر ؟

أما « القلصادي » فهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي .

درس في « بسطة » مسقط رأسه في الأندلس ، ثم في « غرناطة » ورحل إلى « الحجاز » ثم عاد إلى غرناطة ، ولكنه رحل بعد فترة إلى « باجة » من أعمال تونس ، وتوفي هناك سنة ١٤٨٦ م.

تتركز أهمية « القلصادي » في أنه أبدع في « نظرية الاعداد » وله فيها ابتكارات وأهم مؤلف له كتاب « كشف الجلباب عن علم الحساب » وهو من أشهر مؤلفات « القلصادي » وأكملها ، يقع في أربعة أجزاء وخاتمة ، وكل جزء في ثمانية أبواب والجزء الرابع منه تغلب عليه السمة الجبرية . وقد هذب كتاب كشف الجلباب في كتابه « كشف الأسرار عن علم حروف الغبار (علم الحساب).

وفي هذا المؤلف استعمل « القلصادي » الرموز الجبرية فقد استعمل لكلمة الجذر الحرف (حـ).

وللمجهول الحرف الأول من كلمة شيء ، (ش) ولمربع المجهول الحرف الأول من كلمة مال (م) ولمكعب المجهول الحرف من كلمة كعب (ك) ولعلامة المساواة الحرف (ل) وللنسبة ثلاث نقط (∴).

وقد اعطى « القلصادي » قيمة تقريبية للجذر التربيعي للكمية (س^{٢} + ص) والقيمة التقريبية هي :

$$\frac{٤\,س^{٢} + ٣\,س\,ص}{٤\,س^{٢} + ص}$$

وأكمل « القلصادي » عمل « ابن البناء » في تطوير طريقة حساب الخطأين .

Double False Position المستعملة في حل معادلات الدرجة الأولى .

وقد أبان مؤرخو الرياضيات أهمية ابتكارات الرياضي « القلصادي ». أما « كاجوري » فيرى أن استعمال القلصادي للرموز دفع الرياضيين من بعده إلى سلوك ما أسماه « الرموز الجبرية » أما « جينتر » فيرى أن إيجاد القلصادي للقيمة التقريبية للجذر التربيعي في الكمية ($س^{٢}$ + ص) ، أوضح الطريقة التي يمكن بها استخراج الجذور الصم بصورة متسلسلة .

المراجع

١ ـ ابن النديم ـ الفهرست

٢ ـ ابن خلدون ـ المقدمة

٣ ـ الخوارزمي ـ الجبر والمقابلة

٤ ـ عادل ابنوبا ـ أحيار الجبر

٥ ـ قدري طوقان ـ تراث العرب العلمي ـ العلوم عند العرب

٦ ـ القفطي ـ اخبار العلماء بأخبار الحكماء .

٧ ـ Cajori : History of Hindu Mathematics vol.

خامسا : علماء الحضارة العربية الإسلامية والطريقة العلمية التجريبية :

العلم هو الجسد المترابط للمعرفة المنظمة المنهجية المبنية على الحقائق ، والتي يتم الوصول إليها بالمناهج الموثوق بها ، ويتم التعبير عنها بالقياسات على قدر المستطاع . والطريقة العلمية أو المنهج العلمي لا يتم إلا بوجود العقل المفكر ، والمقصود بالعقل هنا ملكة التفكير التي وهبها الله سبحانه وتعالى لعباده وميزهم بها عن سائر المخلوقات .

والعقل البشري من أكبرالطاقات التي مكنت الانسان وساعدته على التمييز بين الأشياء وإدراك خصائصها وإستنتاج فوائدها . وعلى هذا الأساس فالهدف من التربية العقلية هو مساعدة الفرد وإعداده للتفكير السليم ، والقدرة على النظر والتأمل حتى يستطيع أن يحكم على الأشياء حكماً قوامه الصدق والعدل ، ويمكنه أن يفهم البيئة المحيطة به كما يمكنه الاستفادة من تجاربه وتجارب الغير ، وهذه نقطة هامة تستشعر الانسان المسلم وتحثه على الانفتاح على غيره من سائر الأمم المتقدمة ، لأنه ليس هناك تناقض بين الدين وأسلوب التفكير العقلي .

الانسان عندما يولد يكون خلواً من كل علم . وكل علم يوجد لديه في مستقبل حياته إنما يحصل لديه عن طريق الاكتساب من بيئته ، وفي ذلك يقول الرسول الأعظم ﷺ : « وإنما العلم بالتعلم »، لأن الانسان يولد مزوداً بالاستعداد والقوى والأدوات التي يمكن بها أن يعلم ويعرف . يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[1]

والحقيقة أن نمو الخصائص الانسانية التي تميز الانسان عن الحيوانات

(١) سورة النحل ٧٨ .

وضبط دوافعه وتهذيبها وإنارة العقل بالشرع لا يتم كل ذلك بشكل صحيح بدون التربية السليمة والملائمة لطبيعة الانسان .

وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات عن خلق السماوات والأرض والنفس والحياة والسلوك الانسان . وقد أثبت العلم الحديث بقوانينه ونظرياته صدق هذه الآيات بالدليل العلمي التجريبي ، كما أن الاكتشافات العلمية الحديثة قد ساعدت على فهم القرآن وتفسير آياته بما يتفق وروح العصر .

وتعبر أولى آيات القرآن الكريم عن أهمية العلم في الاسلام ، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم :

﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ﴾[١]

ثم نزلت آيات أخرى كثيرة تتضمن حثاً للمسلمين وتشجيعاً لهم على تحصيل العلم ، كما تتضمن تميز الذين أوتوا العلم عن غيرهم ، وتمجيداً لهم وتزكية ، ويتمثل ذلك في قوله تعالى :

﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[٢].وكان الرسول الأعظم ﷺ حريصاً على بناء أمة مستنيرة متعلمة لها قوة الحجة والقدرة على الاقناع ، ولهذا كان يسعى إلى نشر التعليم بين العرب ، وفي أحاديثه ﷺ ما يؤكد ذلك : « اطلب العلم من المهد الى اللحد » و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ». والعلم الفرض هذا هو العلم الذي لا يستغني عنه المسلم في حياته . وأما العلوم التي يحتاجها بعض الأفراد دون الآخرين مثل الطب والصيدلة وغيرها من العلوم التي إذا خلا منها بلد لحق الضرر والأذى ببعض أفراد أهل البلد كانت هذه العلوم فرض كفاية يأثم الجميع أهل البلد إذا خلا البلد من أي علم منها ، يسقط الاثم عن الباقين إذا وجد في البلد ، من يتخصص بهذه العلوم إلى الحد الذي يكفي حاجة أهل البلد من هؤلاء

(١) سورة العلق ١ ـ ٥ .
(٢) سورة الزمر ٩ .

المتخصصين . وأما التعمق في علوم فرض العين وعلوم فرض الكفاية عن الحد اللازم لحاجة الناس فيعتبر من علوم الفضيلة ، ويكون مذموماً إذا لم يكن نافعاً أو ضاراً أو كان مبنياً على أسس من الوهم والخرافة .

ونطبيقاً لما جاء في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول الأعظم ﷺ ، فقد نشط العرب المسلمون في كل ميدان من ميادين النشاط البشري في العلم والعمل . في الحرب والسياسة ، في الفقه والتشريع ، وما أسرع ما هضم المسلمون علوم من سبقهم من الشعوب والحضارات ، فبرعوا في الطب والكيمياء والفلك والرياضيات ، ولم يكتفوا بذلك بل أضافوا إلى كل فرع من هذه الفروع إضافات علمية تنسب إليهم ، فبفضل جهودهم العلمية تقدمت المعرفة الانسانية وأثرت تأثيراً عظيماً في الشرق وفي الغرب ، ولعل أعظم آثار العلم الحديث هو المنهج العلمي في التفكير والبحث أو ما يسمى بـ (الطريقة العلمية) أو (المنهج العلمي) فلولا هذا المنهج العلمي لما استطاع العلماء أن يتوصلوا إلى الكشف عن عدد من أسرار الطبيعة ، و حقائق الكون المجهولة ، ويسيطروا على بعض ظواهر الطبيعة ويطبقوا قوانين العلم عملياً فينتجوا هذه المخترعات التي أغنت حياة الانسان ويسرتها . كما انتجوا وسائل الهلاك والدمار الشامل ، وينسب إكتشاف منهج البحث العلمي ، ووضع أسسه الأولى ، إلى الفيلسوف الانكليزي فرانسس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) والعالم الايطالي غاليلو (١٥٦٤ - ١٦٤٢ م).

لقد وضع عدد غير قليل من علماء العرب الأفذاذ قواعد هذا المنهج النظرية ، وطبقوه عملياً في مؤلفاتهم ومراصدهم ، ومختبراتهم . فعلى سبيل المثال كان أبو الحسن بن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٣٩ م) يعتمد المنهج العلمي في أبحاثه . فكان يعتمد على الاستقراء أولاً ، وعلى القياس ثانياً وكان إعتماده في الاستقراء على الواقع ، ولكن ليس الواقع الذي يتيسر إدراكه ومعرفته بالمشاهدة البسيطة ، بل الذي تتطلب معرفته الاستعانة بالأجهزة والآلات أيضاً . كان يعني بوصف تلك الآلات والأجهزة ، وبيان صنعها وتركيبها وإستعمالها . وقد أجمل ابن الهيثم عناصر طريقة البحث العلمي في

مقدمة كتابه « المناظر » قال : ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصنع أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات . ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الأبصار ، وما هو مطرد لا يتغير نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب انتقاد لمقدمات والتحفظ في النتائج ونجعل غرضنا في جميع ما نستقر به ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ؛ ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء . أما منهج جابر بن حيان (ت ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م) العلمي فكان يعتمد في أبحاثه وتجاربه المنهج العلمي الدقيق هو نفس المنهج المتبع الآن في المعامل والمختبرات ، فقد كان يهتم بالتجربة إهتماماً كبيراً ، ويحث على أجرائها بدقة ويدعوا إلى التأني وترك العجلة . وكان يقول : أن واجب المشتغل بالكيمياء هو العمل وإجراء التجربة وإن المعرفة لا تحصل إلا بها وكان يطلب من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية ألا يحاولوا عمل شيء مستحيل أو عديم النفع وعليهم أن يعرفوا السبب في إجراء كل عملية ، وأن يفهموا التعليمات جيداً . ويتشدد جابر في منهجه العلمي التجريبي . فهو يقصر نفسه على مشاهداته التي تؤيدها التجربة ، إذ قد تكون الظاهرة المشاهدة حدثاً عابراً لا يدل على إطراد في الطبيعة . وهو يوضح منهجه هذا بقوله : « يجب أن تعلم أنا نذكر في هذه الكتب ما رأيناه فقط دون ما سمعناه أو قيل لنا أو قرأناه ـ بعد أن امتحناه وجربناه فما صح أوردناه وما بطل رفضناه ـ وما استخرجناه نحن أيضاً وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم » .

ويطلق جابر بن حيان اسم « التدريب » على ما يسميه العلماء اليوم « التجربة » وهو يجعل إجراء التدريبات شرطاً أساسياً للعالم الحق . وفيما يلي تجربة أجراها جابر تدل على دقة ملاحظته ، وعلى نهجه العلمي ، يقول فيها :

« كان لدي حجر ممغطس ـ أي مكتسب قوة المغناطيس ـ يدفع قطعة من الحديد وزنها مائة درهم . وحفظته زمناً طويلاً . ثم جربته على قطعة

أخرى من الحديد فلم يرفعها . فظننت أن هذه القطعة الثانية من الحديد قد تكون أكبر وزناً من القطعة الأولى . فوزنتها ووجدتها أقل من ثمانين درهماً . فاستنتجت أن قوة الحجر الممغطس قد نقصت على الرغم من ثبات وزنها ». فجابر في هذه التجربة لا يكتفي بمجرد الملاحظة والفرض ، وإنما يجري إختباراً ليتأكد من الفرض الذي توصل إليه أول الأمر .

وهذا أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٨٦٥ - ٩٢٣ م) فقد درس الكيمياء دراسة تجريبية ، وألف ما يزيد على مئتي كتاب ورسالة في الطب والفلسفة والرياضيات والكيمياء والعلوم الطبيعية . وهو أول من كتب عن الجدري والحصبة كتابة علمية دقيقة ، وله طريقة سليمة في تعليم الطب وفحص المرضى ، فكان يأخذ تلاميذه ويمر على المرضى واحداً واحداً في المستشفى . فكان يتقدم أحد التلاميذ لفحص المريض فيسأله عن مرضه فيشخصه . فإذا عجز التلميذ عن ذلك تقدم تلميذ آخر . فإذا عجز جميع التلاميذ عن التشخيص الصحيح تقدم الرازي ففحص المريض وشخص المرض ، ووصف العلاج وشرح ذلك شرحاً مفصلاً للتلاميذ . وبهذا الأسلوب فاق الرازي جميع من تقدموه في تدوين ملاحظاته السريرية لأربعة وعشرين مريضاً ، بأسمائهم وأعراضهم ومعالجاتهم ونتائجهم .

والحقيقة أن أهمية الطب العربي إنما تقوم بالدرجة الأولى على المعلومات السريرية التي جاؤوا بها ، فإن ذلك كان إضافة مهمة ألى المعارف البشرية في الطب .

وكان الجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ هـ) يمتلك عقلاً قوياً لا يسع ولا يتقبل الخرافات ، بل هو يهزأ من يقبلها ويدخلها في حسابه . وهو في كثير من الأحيان يقف على الاعتقاد حين يجرب ويشك ويدعو إلى الشك حتى تثبت صحة النظرية . في الوقت الذي كانت فيه أفكار أرسطو مسيطرة على عقليات أكثر علماء العرب ، كان الجاحظ يرفض قبول ما يأباه العقل والمنطق حتى ولو

كان مصدره أرسطو . وهو لا يقبل بالحواس ، حيث يرفضها لأنه يعتقد بأنها معرضة للخطأ مهما أبدت مظاهر الوجود أو أحداث الحياة للانسان من خلل الحواس ، حيث أن الواقع يقترن دائماً بالعقل ، والعقل دائماً يعتمد الاستنتاج والاستدلال والمقارنة والمقايسة والمفارقة . وهذه جميعاً تستند إلى استخلاص الحقيقة واستقراء النتيجة . وهذا مما جعل الجاحظ متحفظاً في قبول الغرائب التي سمع عنها أو طالعها في مؤلفات الآخرين فهو لا يرفضها ولا يتعبطها اعتباطاً وإنما يقف منها بين ذلك موقف الملتمس لوجه الحق لا يعنيه أن يكون ذلك الحق غريباً أم لا .

ومن هنا اتبع الجاحظ في كتابه الحيوان نهجاً وأسلوباً عقلانياً إختيارياً يقوم على المعاينة والمشاهدة والاختبار عندما تقتضي الحاجة لذلك . وبهذا الأسلوب والنهج الذي اختطه الجاحظ لنفسه ، إستطاع أن يسبق العصر الذي عاش فيه في غياب الوسائل العلمية التطبيقية التي تواكب البحوث النظرية كما هو متبع الآن في مراكز البحوث ومعاهد الدراسات التطبيقية ذات الاختبار التجريبي .

قد يظن البعض أن الجاحظ كان كاتباً حاول أن يصنف مؤلفاً في علم الحيوان على غرار ما قام به من سبقه من علماء اليونان كأرسطو ، ويكون ذلك المؤلف مجرد سرد لأقوال قيلت ولقصص سردت ، ولكن هذا العالم العربي خرج عن هذا التقليد فوضع موسوعته العلمية هذه في الحيوان بعد دراسات واختبارات وبحوث اعتمد فيها على أشخاص موثوق بهم من النواحي العلمية والفلسفية وعلى نفسه شخصياً .

ولما كان العلم في العصر الذي عاش فيه الجاحظ في طفولته المبكرة ؛ ولعدم توافر ما لدى علماء العصر الحديث من أساليب وأدوات ونظريات ليصل إلى نتائج يقينية ذات إطار علمي ثابت . وبالرغم من كل ذلك فإنه استطاع أن يبذر البذور الأولى لمثل هذه المعارف التي لم تكن لها أهمية تذكر على

صعيد التطور الحضاري . إن مثل هذه البحوث التي تدل على باع الجاحظ وعقليته الموسوعية الشاملة وأعماله في كل ما طرقه ، وهي تدعو إلى الدهشة وتشير إلى الروح العلمية التي كان يمتلكها أكثر علماء العرب في البحث والتقصي وتنم عن عمق جذور الحضارة العربية الأصلية .

الروح العلمية العالية التي كان يمتلكها الجاحظ برهان آخر عنى ما قدمته الأمة العربية من رصيد وزخم عظيمين في الثقافة والفكر العلمي والفلسفي .

وبعد هذا العرض لوضع علماء العرب للطريقة العلمية وتطبيقهم لها ، نعود الآن لتوضيح : قواعد الطريقة العلمية والخطوات المتبعة فيها وتأثر علماء الغرب بمنهج البحث العلمي عند العرب ، وبناء قواعد المنهج العلمي الحديث على أسس منهاج العرب .

يهدف المنهج العلمي في البحث والتفكير إلى معرفة طبيعة الأشياء وفهم القوانين العامة التي تخضع لها وتسير بموجبها على ما هي عليه في الواقع ، ويتبع الباحث العلمي الخطوات التالية للوصول إلى التفسير الصحيح لظاهرة من الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية :

الخطوة الأولى : يستوحي الباحث من مشاهداته لهذه الظاهرة وما يماثلها فرضاً يفرضه لنفسه ثم يأتي بنتائج لهذا الفرض ، أي بيان أسباب حدوثها وطبيعتها ، والظروف المحيطة بحدوثها .

الخطوة الثانية : يستنبط من هذا الفرض نتائج تترتب عليه من الوجهة النظرية الصرفة ، ولكن هذا العالم لا يعتبر النتائج التي توصل إليها صحيحة بصورة نهائية قبل أن يقوم بالخطوة التالية .

الخطوة الثالثة : يعود إلى دراسة الظاهرة الطبيعية من جديد ، فيمتحن النتائج التي توصل إليها على ضوئها ، ليرى هل تصدق أو لا تصدق على

ضوء مشاهداته الجديدة . فإن صحتَ نتائجه على ضوء الاختبار والفحص الجديد ، يتحول الفرض الذي افترضه إلى قانون علمي يستخدم في التنبوء بما سيحدث فيما يتعلق بهذه الظاهرة أو أن ظروفاً بعينها توفرت . أي إذا حدثت الظروف المعينة التي أنتجت هذه الظروف أو أن ظروفاً بعينها توفرت . أي إذا حدثت الظروف المعينة التي أنتجت هذه الظاهرة ، فإن الظاهرة بعينها سوف تتكرر » فطريق السير إذن هو هذا : مشاهدات توحي بفروض ، ثم استنباط للنتائج التي يمكن توليدها من تلك الفروض . ثم مراجعة هذه النتائج على الواقع ، وعندئذ فأما أن نقبل الفروض ، أو نرفضها تبعاً لصدق نتائجها على الواقع ». وتسمى الخطوة الأولى والثالثة « الاستقراء » ، لأن في كلا العمليتين مشاهدة الوقائع العينية ، أي حصرها ، ودراستها وفحصها . وتسمى الخطوة الثانية : « الاستنباط » . وهي عملية توليد النتائج واستخراجها من الفروض . وكان التفكير القديم يعتمد على الاستنباط ، فقد كان المفكر يعتمد على مقدمات يفترضها صحيحة ، ويستنبط من تلك المقدمات النتائج ، فيسلم بصدقها ، لأنه قد سلم مسبقاً بصدق المقدمات . وكان منطق أرسطو يتبع منهج الاستنباط . وسار على هذا النهج ما يسمى بالقياس عند العلماء المسلمين وفقهائهم .

وقد وجد العلماء في مطلع عصر النهضة الأوروبية أن منهج الاستنباط وحده لا يسد حاجة التفكير ، فوضعوا قواعد منهج الاستقراء الذي يقوم على أساس المشاهدة وإجراء التجارب . ثم وجد العلماء أن منهج الاستقراء وحده لا يكفي . فاندمج المذهب الاستقرائي والمذهب الاستنباطي في منهج واحد وهو الذي يسمى منهج البحث العلمي . وهو يقوم على المشاهدة والملاحظة الخارجية التي يستوحي منها العالم فروضاً يفرضها ، ثم يولد في داخل عقله بطريق الاستنباط نتائج ينتفع بها في العمل والتطبيق . ثم يقوم بإجراء التجارب للتأكد من صحة النتائج التي توصل إليها . وكلما زادت التجارب ، وكلما أجريت في ظروف متغيرة ، كلما كانت النتائج أدق وأوثق صحة . وقد

شرح الرازي هذا المنهج وطبقه في فحوصه الطبية السريرية ، وشرحه جابر ابن حيان وطبقه في مختبره كما ذكرنا ذلك آنفاً .

لقد ترجمت كتب الرازي والحسن بن الهيثم وجابر بن حيان وغيرهم من علماء العرب المسلمين إلى اللغة اللاتينية . وقد درسها غاليلو وغيره من علماء الغرب ، وعلى الخصوص كتاب ابن الهيثم في المناظر . ولا نبعد عن المنهج العلمي إذا استنتجنا بأن هؤلاء العلماء الغربيين قد تأثروا بهذه الكتب ، وبكتاب المناظر خاصة ، وأفادوا منها في وضع أسس التفكير العلمي الحديث والحقيقة التاريخية تلزمنا أن نقر بأن علماء العرب قد سبقوا العلماء الغربيين في وضع أسس الطريقة العلمية في البحث . ولكننا يجب أن نحتاط ولا نغالي فنذهب إلى القول بأن علماء العرب قد فصلوا مناهج البحث العلمي كما فصلها علماء الغرب ، وتوسعوا في استعمالها كما توسع هؤلاء ، ونشروها بين طلاب العلم وعامة المثقفين كما فعلوا . يقول الاستاذ طوقان في كتابه العلوم عند العرب بهذا الصدد ما يلي : «أنا لا أقول أن علماء العرب قد توسعوا في هذه الطريقة واستغلوها على النحو الذي استغلها به علماء أوروبا . أنا لا أقول أنهم كانوا يدركون ما لهذا الأسلوب من شأن كما أدركه علماء أوروبا . ولكن أقول أنه وجد بين علماء العرب من سبق (باكون) في إنشائها ، بل ومن زاد على طريقة (باكون) التي لم تتوفر فيها جميع عناصر البحوث العلمية».

المراجع

(أ) المراجع العربية :

١ ـ أحمد بدر ، أصول البحث العلمي ومناهجه ، الطبعة الرابعة ، الكويت ١٩٧٨ م .

٢ ـ الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، أجزاء ١ ـ ٧ ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٩ م.

٣ ـ روحي الخالدي ، الكيمياء عند العرب .

٤ ـ زكي نجيب محمود ، جابر بن حيان .

٥ ـ صموئيل عبد الشهيد ، الروح العلمية عند الجاحظ ، بيروت ١٨٧٥ م.

٦ ـ قدري حافظ طوقان ، العلوم عند العرب .

٧ ـ مختارات رسائل جابر بن حيان ، نشرها ب . كراوس ، القاهرة .

٨ ـ الدكتور مصطفى نظيف ، الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية .

(ب) الدوريات :

١ ـ الجمهورية العراقية ، وزارة الثقافة والفنون ، المورد ، المجلد السابع ، العدد الرابع ١٩٧٨ م .

٢ ـ المملكة العربية السعودية ، جامعة أم القرى ، مركز البحوث التربوية والنفسية ، مكة المكرمة ، النشرة التربوية ، العدد الثامن ، شوال ـ ذي الحجة ـ ١٤٠٠ هـ.

(جـ) المراجع الاجنبية :

1 - Durant, W .: The Story of Civilisation.

2 - Mitti, Ph .: History of Arabs.

3 - Holmyard, E.J.: Makers of Chemistry.

4- Singr, Ch.: A short History of Scientific Ideas.

مصادر ومراجع التراث العلمي عند العرب المسلمين

(أ) المصادر :

- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس احمد بن قاسم)- عيون الأنباء في طبقات الأطباء . بيروت ١٩٦٥ .
- ابن الأزرق- تسهيل المنافع في الطب والحكمة . القاهرة ١٩٥٥ .
- ابن البيطار (عبد الله بن احمد) - الجامع لمفردات الأدوية والأغذية . بغداد .
- ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي) - طبقات الأطباء والحكماء . القاهرة ١٩٥٥ .
- ابن زبن الطبري (علي) - فردوس الحكمة . برلين ١٩٢٨ .
- ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله) - القانون في الطب . بيروت .
- ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي) الطب النبوي . بيروت ١٩٥٧ .
- البغدادي (عبد اللطيف بن يوسف بن محمد) - مقالتان في الحواس . تحقيق : بول غليونجي . الكويت ١٩٧٢ .
- البيهقي (ظهير الدين) - تاريخ حكماء الاسلام . دمشق ١٩٤٦ .
- جمشيد (غياث الدين بن مسعود الكاشي) - مفتاح الحساب . القاهرة .
- المهري (سليمان بن احمد) - المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر . دمشق ١٩٧٠ .

(ب) المراجع :

- أبو الوفاء الغنيمي التفتزاني - الانسان والكون في الاسلام ، علم الفكر (والكويت) العدد (٣) ، ١٩٧٠ .

- أحمد حسين القرني - قصة الطب عند العرب . القاهرة .

- أسامة عانوني - ابن أبي اصيبعة ، تعريف وتقويم . بيروت ١٩٧٥ .

- أوثوشييس - طب الاسنان عند العرب . مجلة الدراسات الاسلامية - مجلد ١٤ . مدريد ٦٧ - ١٩٦٨ .

- براون - الطب العربي . (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٦٦ .

- بول غليونجي - ابن النفيس . سلسلة اعلام العرب رقم ٥٧ . القاهرة .

- توماس أرنولد وآخرين - تراث الاسلام . (الترجمة العربية) بيروت ١٩٧٢ .

- جورج سارثون - تاريخ العلم . (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٧٢ .

- حكمت نجيب عبد الرحمن - دراسات في تاريخ العلوم عند العرب . بغداد ١٩٧٧ .

- خليل الزرو - الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني بيروت ١٩٧١ .

- سالم محمد الحميدة - الارقام العربية ورحلة الأرقام عبر التاريخ . بغداد ، ١٩٧٥ .

- عبد العظيم الديب - أبو القاسم الزهراوي . القاهرة ١٩٧٩ .

- عبد الكريم العلاف - الطب عند العرب . بغداد ١٩٦٣ .

- عبد اللطيف العبد - الطب الروحاني لأبي بكر الرازي . القاهرة ١٩٧٨ .

- عز الدين فراج - الطب الاسلامي . القاهرة .

- عمر رضا كحالة - العلوم العملية في العصور الاسلامية . دمشق ١٩٧٢ .

- عمر رضا كحالة - علوم الدين الاسلامي . دمشق ١٩٧٤ .

- عمر فروخ - تاريخ العلوم عند العرب . بيروت ١٩٧٠ .
- قدري حافظ طوقان - العلوم عند العرب والمسلمين . نابلس ١٩٦١ .
- قدرى حافظ طوقان - تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك . القاهرة ١٩٦٣ .
- كريم عجيل حسين - الحياة العلمية في مدينة بلنسية . بغداد ١٩٧٥ .

جمال الفندي وامام ابراهيم احمد - ابو الريحان محمد بن احمد البيروني - القاهرة : ١٩٦٨ .

- محمد الصادق عفيفي - تطور الفكر العلمي عند المسلمين - القاهرة : الخانجي ، ١٩٧٧ .

- محمد عبد اللطيف مطلب - تاريخ علوم الطبيعة : - بغداد ، وزارة الثقافة - ١٩٧٧ .

- محمد علي الهاشمي - الكيمياء في التفكير الاسلامي . بيروت ١٩٥٨ .
- محمد كامل حسين - محمد عبد الحليم العقبي - طب الرازي دراسة وتحليل لكتاب الحاوي . القاهرة ١٩٧٧ .
- محمو الحاج قاسم - الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به . بغداد ١٩٧٤ .
- مصطفى نظيف - الحسن بن الهيثم : بحوثه وكشوفه البصرية - القاهرة ، ١٩٤٢ .

* * *

الفصل التاسع

التربية والتعليم والمكتبات في الإسلام

أولاً : أهداف التربية في الإسلام

ثانياً : المناهج وطرق التعليم

ثالثاً : تعليم المرأة في الإسلام

رابعاً : تربية الطفل في الإسلام

خامساً : المكتبات في الإسلام

سادساً : نظم تصنيف العلوم والمعارف في نظر علماء المسلمين وأثرها في الحضارة الإنسانية

سابعاً : توثيق العلوم والمعارف في الإسلام وأثر ذلك في الحضارة الانسانية : الترجمة أو التعريب .

مقدمة :

اهتم الاسلام بالعلم والدعوة إلى تحصيله ، ولم يختص الرسول الرجال بالعلم والتعليم بل كان التعليم للمرأة والطفل مهما كان سنهما وكذلك الرجل مهما كان سنه ، فقال ﷺ ، طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

ويمكن اعتبار أول مدرسة في العصر الإسلامي ، هو قيام أسرى بدر بتعليم المسلمين الأميين ، ووجدنا من أصحاب الرسول الأعظم ﷺ الحفظة للقرآن والحديث والملمين بعلومهما . وانتشرت المدارس بعد ذلك ومن قبلها المساجد في العصر الأموي والعباسي وكانت حوانيت الوراقين والمكتبات وقصور الخلفاء وبيوتهم من أهم الوسائط في التعليم .

وظهر المؤدب ، واهتم بالرحلة في طلب العلم والاجتهاد في تحصيله .

وموضوع التربية والتعليم موضوع طويل لهذا فقد اقتصر بحثنا فيه على الموضوعات التالية :

أولا : أهداف التربية في الاسلام(*) :

إن للتربية في الاسلام أهداف شمولية ، واسعة ، وعميقة . فهي تشمل تنمية الجانب الفكري في الانسان ، وتنمية الجانب الاجتماعي ، والنفسي ،

(*) محمود السيد سلطان : مفاهيم تربوية في الاسلام . ـ القاهرة : مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع ، ١٩٧٧ ص ٨٨ ـ ١٠٢ .

والأخلاقي ، والجسمي فيه .

وهي في تنميتها هذه الجوانب كلها فإنها تستهدف في نفس الوقت تكاملها في حركة نموها ، وتناسقها بحيث يصبح الانسان الذي تعده مكتملاً في شخصية ذات نظرة شمولية للأمور في الحياة ، وما بعد الحياة .. في الطبيعة ، وما بعد الطبيعة .

وفي نقاشنا لهذه الأهداف ما يوضح اتجاهاتها ، وأعماقها ، وخصائصها .

الأهداف الفكرية والمعرفية :

تستهدف التربية في الاسلام تنمية ذكاء الانسان ، وتنمية قدرته على التأمل ، والنظر والتفكير . وسيلتها في ذلك دعوة الانسان إلى النظر في الطبيعة وفي الكون ، والنظر في النفس البشرية نفسها ، وتأملها ، واستبطانها . كما تستهدف تنمية قدرته على التصور والتخيل بما أبدعه القرآن الكريم من مشاهد ، وصو فنية عن الغيب والقيامة . كما تستهدف تقوية الذاكرة والتذكر بحفظ القرآن نفسه ، واستيعاب معانيه ، وتدبره . كما تستهدف تنمية القدرة على التحليل ، وإدراك العلاقات بفهم عظات التاريخ ، وربطها بالواقع الإجتماعي للمجتمع ، وللانسان ، وربط العلل بالمعلولات ، والأسباب بالنتائج . كما تستهدف تنمية القدرة على التعبير عما تحتويه الخبرات الحياتية ، وما يكونه عقله لها من معان ، ومفاهيم ، وذلك باتقانه ، وألفته بالتعبيرات ، والمعاني القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وتراث السلف الصالح .

وهذه التنمية الفكرية التي تشمل جميع وظائف العقل الانساني تستهدف في المقام الأول بناء المفاهيم الاسلامية في الانسان عن الحياة ، والكون ، والانسان نفسه في صلاته بهما ، وصلاته بخالقه ، وصلاته بجميع المخلوقات .

ولذلك فقد جعل الاسلام التفكير فريضة ، والتعليم فريضة . ولذلك أيضاً فقد احترم ذكاء الانسان فخاطبه في كل أمور الحياة والكون ، وخالقهما على نحو ما أشرنا من قبل .

كما اعتبر الاسلام العقل أداة التفكير ، والفهم معياراً للحكم على كثير من القضايا في اطار الحرية والتحرر من الخوف ، وفي اطار القيم الاسلامية التي هي الضمان الوحيد لضبط منطقه ، وحركته ، وما يصدر عنه من تعبير لفظي .

التربية الأخلاقية :

وتستهدف التربية الأخلاقية في الاسلام بناء إنسان على خلق عظيم ، وبناء مجتمع تسوده مجموعة من القيم والمثل العليا . فهي تحرص على تنشئة انسان يسلك في إطار مجموعة من القيم التي شملها هذا الدين ، بحيث يكون سلوكه مقسماً بالعدل وبالمساواة الإجتماعية ، والفردية أي المساواة داخل المجموعة ، والمساواة داخل نفسه ، ومتسماً بالحرية الإجتماعية بما تشمله من حرية سياسية ، واقتصادية ، وفكرية ، وعلمية . وبهذا السلوك الانساني يتشكل المجتمع الذي ينشده الاسلام .

وهذه القيم الخلقية قد صاغتها السماء بما يتفق مع خصائص الطبيعة البشرية الفردية والإجتماعية . وهي من ثم قيم انسانية إجتماعية ، وليست قيماً مجردة بعيدة عن الواقع والممارسة .

كما أن صياغتها قد تمت لتساير هذه الطبيعة في كل أطوار نموها خلال خبراتها المتجددة . وجعلت للشخصية البشرية ، وللمجتمعات أن تتحرك في حرية تامة في إطارها على شرط الحفاظ على هذا الاطار ، والاتفاق معه .

ولعل انسانية ، وإجتماعية القيم الاسلامية وواقعيتها كانت السبب وراء إمكانية تجسيدها في الشخصية الاسلامية .

وكان رسول الله ﷺ النموذج الأعلى لهذه الأخلاق إذ يقول فيه القرآن

الكريم : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1].ويقول في أهداف رسالته الاسلامية « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وقال أبو بكر رضي الله عنه للرسول عليه الصلاة والسلام : « لقد طفت العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما رأيت ، ولا سمعت مثلك أحداً . فمن أدبك ، قال : أدبني ربي فأحسن تاديبي » .

ولقد احتوى الاسلام على مجموعة من القيم الأخلاقية ، والمثل العليا ، والعادات الأخلاقية الفردية ، والإجتماعية مما لا يرقي إليها أي دستور أخلاقي ، منها الاخلاص في العمل وتقديسه . ومنها الصدق والأمانة ، وأداء الواجب ، واستثمار الوقت ومساعدة الانسان للانسان ، والايثار ، والاعتماد على النفس ، وحب الناس .

وهو يحرص على أن تشكل هذه القيم الأخلاقية ومثيلاتها ضمير الانسان ، وإرادته وسلوكه الفردي والاجتماعي .

وأهم ما يميز الأخلاق الاسلامية أنها أخلاق ترتبط بجميع السلوك البشري في جميع النظم الاجتماعية . حتى أنها تشكل مجموعة القيم ، والعادات ، والتقاليد الاسلامية التي يحتويها النظام الاجتماعي في ظل الاطار الاسلامي ، أو ما يمكن تسميته النظام الإجتماعي العام للمجتمع .

كما أنها الميزان الذي تصاغ في ظله القوانين ، والتشريعات المختلفة لهذه النظم .

ويصاغ في إطاره التنظيم الإداري ، وقواعده ، ونظرياته المختلفة خاصة في مجال العلاقات الاجتماعية ، والانسانية بين مجموعة القوى البشرية التي يتشكل منها النظام الاجتماعي .

كما أن أهداف النظم الاجتماعية ، وأغراضها ، وغاياتها القصوى تصاغ في إطار العقد المنتظم الذي تكونه هذه القيم الأخلاقية الاسلامية .

---

(١) القلم (٤)

وما يميزها أيضاً أنها يمكنها أن تشمل ، ويمكن لها أن تحتوي مواقف الحياة كلها ، بحيث يمكن أن نقنن هذه المواقف في ضوئها . وهي لا تستغرق مواقف الحياة الماضية كما يظن بعض الناس ، ولكنها لها من الخصائص ، والامكانات ما يمكنها من أن تستوعب مواقف الحياة المتجددة المستمرة . وهذه الخصائص هي إحدى معجزات هذا الدين المنزل من الاله .

وهي خصائص لا تتوافر للأخلاق الوضعية ، ولا حتى للأخلاق المنزلة في الديانات الأخرى .

أهداف جهادية :

إن أهداف التربية في الاسلام تشمل أهدافاً جهادياً لاعداد المسلمين ليكونوا قادرين على الدفاع عن وطنهم ، وأمتهم ، وعن أعراضهم ، وشرفهم ، وليكونوا قادرين على الجهاد في سبيل نشر الدعوة الاسلامية .

وفي هذا تتعدد الآيات ، والأحاديث النبوية ، ويمكن أن نذكر منها ما يلي :

١ ـ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله ، وعدوكم ﴾[١].

وهذه الآية تبرز ضرورة الاستعداد المستمر لملاقاة الأعداء .

٢ ـ ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾[٢]. ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾[٣]

وهذه الآيات تشير إلى نشر الدعوة على العالم كله . ويتطلب ذلك دعوة بالحسنى .

---

(١) الانفال (٦٠) .
(٢) سَبَأ (٢٨) .
(٣) آل عمران (١١٠) .

﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن (١)﴾

وهذه الدعوة تكون في إطار مبدأ هام من مبادىء الاسلام وهو « لا اكراه في الدين » وإنما تحتاج الدعوة في نشرها أيضاً إلى إزالة العوائق التي تحول دون نشر الاسلام . وعادة ما تكون هذه العوائق قوى وجيوش تتربص بالدعاة . ومن هنا وجب الجهاد والدفاع عن النفس . وفي هذا يقول الحديث الشريف : « من مات ولم يغزو في سبيل الله أو لم ينو الجهاد مات ميتة جاهلية » .

فإذا كانت الرسالة الاسلامية ، وما تتطلبه من نشر ، وما تتطلبه من حماية تستهدف إعداد المسلمين إعداداً فكرياً ، وعقائدياً فإن التربية العسكرية تكون من أهداف التربية في الإسلام لحماية هذا الإعداد الفكري والعقائدي ، ولنشره على العالم كافة .

والمعروف أن الرسول ومن تبعه من الخلفاء الراشدين ، وغيرهم من خلفاء المسلمين قد كانت هذه التربية إحدى مهامهم الأساسية . وكانت تستخدم أساليب وفنون وأدوات عصرهم .

أما اليوم فإن التربية العسكرية تتطلب من التربية سواء على مستوى الفكر ، أو على مستوى الممارسات التعليمية في المعاهد ، والجامعات ، والمدارس برامج ، ومناهج ، وأدوات ووسائل فنية وتكنولوجيا حديثة من ابتداعات هذا العصر كما تتطلب إعداد الناشئة على كل ما تتطلبه من مهارات ، ومعلومات ، واتجاهات ، وقيم .

ولا يجب أن تقتصر التربية العسكرية على قطاع واحد من المجتمع وهو « الجيش » وإنما يجب ضرورة أن تمتد لتشمل مراحل التعليم المختلفة لتعم جميع المسلمين .

(١) النحل (١٢٥)
(٢) البقرة ٢٥٦

كما لا يجب أن تقتصر على التدريبات العسكرية ، وإنما تتطلب ربط العسكرية بالعقيدة ، وبفريضة الجهاد الاسلامية . وربطها بكثير من المهارات ، والمعرفة ، والاتجاهات التي يكتسبها التلاميذ من الخبرات التربوية المختلفة .

التربية الروحية :

إن تنمية الروح الاسلامي في الانسان ، وفي المجتمع من أهم ماتستهدفه التربية في الاسلام. والروح الاسلامي لها ركائز كثيرة ترتكز عليها منها « الغيرية » « والايثار » وتشير إليها الآية الكريمة : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾[1]. ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾.[2]

وهذه الركيزة الأساسية في الروح الاسلامي في الانسان ، وفي المجتمع تتطلب بناء هذه الروح في الانسان لقاء جزاء الله ، وثوابه ، وحباً في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

والركيزة الثانية هي الانفاق في سبيل الله حينما يفيض على الانسان من خير تجارته وماله ، والمثل الذي ضربه عثمان بن عفان في حياة رسول الله وبداية الدعوة الاسلامية يقرر هذه الركيزة حينما عرض عليه تجار مكة بربح يصل إلى أكثر من الضعف فأخبرهم بأنه ابتاعها لله سبحانه الحسنة بعشرة أمثالها .

والركيزة الثالثة جهاد النفس ، وهي ركيزة يقرر رسول الاسلام أنها جهاد أكبر من القتال في سبيل الله لأن النفس أمارة بالسوء ، ولها رغباتها ونزواتها . ولذلك فإن ضبط النفس في إطار القواعد والقيم والضوابط الاسلامية قضية تربوية يوليها الاسلام مكانة كبيرة فيجعلها في مرتبة أعلى من الجهاد في سبيل الله في ممارستها . إدراكاً من المسلم بأن « النفس أمارة بالسوء » . ولذلك

---

(١) الحشر (٩) .

(٢) الانسان (٨) .

فإن قمة التطهر هو الوصول إلى المرحلة التي يخلع فيها الانسان نفسه ، وجسده : « اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى »(١) .

والركيزة الرابعة هي الجهاد في سبيل الله . وهي ركيزة هامة في نشر الدعوة ، والدفاع عنها ، وعن أهلها . ومن ثم فهي تتطلب إنساناً قادراً على بذل النفس ، والتضحية بها في سبيل الله . وهذا قمة البذل ، والعطاء الانساني والاسلامي في نفس الوقت . وحينما رسخت هذه الركيزة في أعماق الشخصية الاسلامية ، وجدنا أناساً يتسابقون على الجهاد . بل ويدعون دعوات صادقة لتحقيق « أمنية » الاستشهاد في سبيل الله .

وهذه الركيزة الروحية تعتبر « قضية تربوية إسلامية » يحرص الاسلام على تنشئة أبناء المسلمين عليها . وبدون هذه الركيزة يضيع أغلى ما في الروح الاسلامي من ركائز . وتصبح الديار الاسلامية عرضة لأعداء الإسلام والمسلمين يمزقونها ، ويخربونها ، وينتهكون حرماتها ، ويستبيحون ثرواتها .

والركيزة الخامسة : وهي ليست الخامسة في ترتيبها . وإنما هي الأولى في البناء الإسلامي كله ويعتبرها الاسلام « أركان الاسلام » . وهي الفرائض الخمس . والنظرة لها هنا في موقع بناء الروح الاسلامي نظرة تتعمق جوهر هذه الفرائض . جوهر الشهادتين ، وجوهر الصلاة ، وجوهر الزكاة ، وجوهر الحج ، وجوهر الصيام . فهي فروض تستهدف في النهاية بل ومنذ البداية تنمية الروح الاسلامي في الانسان ، وتجرد ذاته من « أمور الدنيا » التي تشغله في السعي لرزقه ، وفي الاستمتاع بلذة الطعام ، وبلذة التملك ، وبلذة الاسترواح ، وبلذة الضياع الدنيوي .

ويتدرج الاسلام في بناء الروح الاسلامي ابتداء بهذه الفرائض الخمس إلى أن يصل إلى الركائز الأربع التي أشرنا إليها ، ثم إلى درجات أعلى يصل إليها من يريد مكانة أسمى في الدنيا وفي الآخرة : « نرفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذي علم عليم »(١) .

(١) طه (١٢) .
(٢) يوسف (٧٦) .

الركيزة السادسة : التوبة من المعاصي خجلاً من أن يقابل الانسان ربه وقد ارتكب ما نهي عنه ، وأهمل ما أمر به . وهذه الركيزة هي التي تفسر لنا الروح الإسلامي التي كانت وراء اعترافات من اقترفوا الفواحش والآثام في عهد رسول الله ﷺ نشداناً للتوبة ، وغفران الله سبحانه وتعالى .

إن تنمية الروح البشري وفقاً « لروح الاسلام » هدف رئيسي من أهداف الاسلام ؛ والتربية فيه . وروح الاسلام هو المحصلة النهائية لطبيعة هذا الدين . وهو وراء جميع النماذج « غير العادية » من السلوك البشري الذي سلكه من تمكن من روح هذا الدين وتمكن منه هذا ؛ ابتداء برسول هذا الدين ، واستمراراً بخلفائه الراشدين ، وصحابته ، وبالنماذج البشرية التي سلكت مسالك في الحياة ، وفي العطاء ، وفي البذل ؛ وفي التعبد أكثر مما يفرضه هذا الدين كحد أدنى للإسلام .

لقد كانت هذه الروح وراء جميع نماذج السلوك البشري التي ضربها أبو بكر ، وعمر ، وعثمان وعلي ، وعمر بن عبد العزيز ، وغيرهم ممن يعجز عن حصرهم الحساب . ووراء مجموعات من المسلمين المتصوفين الحقيقيين الذين رأوا « الدنيا » و « الآخرة » برؤيا خاصة صورتها لهم المشاهد ، والصور الفنية في القرآن لهم ، فتعاملوا معهما وإزاءهما بمنطق الربانيين الذين تزلزل أقدامهم الأرض إذا ركلوها ، وتستجيب لهم السماء إذا دعوها ، وتتضاءل أمامهم مطامع الدنيا إذا تراءت أمامهم .

« هذا الروح هو الذي يرسم الأفق الأعلى الذي يتطلب الاسلام من معتنقيه أن يتطلعوا إليه ، وأن يحاولوا بلوغه ، لا بتنفيذ الفرائض والشعائر فحسب ، ولكن بالتطوع الذاتي لما هو فوق الفرائض والشعائر . . وهذا الأفق عسير المرتقى ، وأعسر من ارتقائه الثبات عليه ! لأن نوازع الحياة البشرية ، وضغط الضرورات الانسانية لا يطوعان للأكثرين من الناس أن يرقوا إلى هذا الأفق العالي ، ولا أن يصبروا عليه طويلاً ، إن ارتقوا إليه في فورة من فورات الشوق والتطلع ، فلهذا الأفق تكاليفه العسيرة ، وهي تكاليف في النفس

والمال ، وفي الشعور والسلوك . ولعل أشد هذه التكاليف مؤنة هو تلك اليقظة الدائمة التي يفرضها الاسلام على ضمير الفرد ، والحساسية المرهفة التي يثيرها في شعوره ، تجاه الحقوق والواجبات ، لذاته وللجماعة التي يعيش فيها ، وللانسانية التي ينتسب إليها ، وللخالق الذي يراقبه في الصغيرة والكبيرة ، ويعلم سره ونجواه » .

« ولكن صعوبة هذا المرتقى ، وتعذر الاستواء عليه طويلاً . . لا يعني أن الإسلام فكرة شاعرية خيالية ، ومثل وجداني تدركه الأشواق وتقصر دونه الأعمال ، فذلك الأفق الأعلى الذي نتحدث عنه لا يكلفه إلا كل إنسان في جميع الأزمان ، إنما هو هدف مرسوم لتحاوله البشرية اليوم ، كما تحاوله غداً ، وكما حاولته بالأمس ، فبلغت إليه أحياناً ، وقصرت عنه أحياناً . وهو مثل فيه من الثقة بالإنسان وضميره وطاقاته قدر كبير ، وفيه الدليل على أن الإنسانية غير ميؤوس منها في المستقبل القريب أو البعيد . ودون ذلك مجال فسيح للعمل والواقع المستطاعين للأكثرين ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾[1] وسماحة الإسلام تقبل من الجميع ما يستطيعون في حدود مرسومة ، لا تهبط عنها الحياة ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾[2] والطريق إلى الأفق الأعلى أبداً مفتوح[3].

وكما تجسدت هذه الروح في واقع الحياة الاجتماعية ، وفي شخصيات كثيرة من المسلمين فإن لذلك مغزى تربوي ومضمون تعليمي . فالشخصيات التي احتشد بها التاريخ الاسلامي يمكن أن تكون محاور دراسة لمنطلقات تنطلق منها التربية لدراسة الأخلاق الانسانية في أوج عظمتها من إيثار وتضحية وبذل وجهاد وتصدق وزهد وأمثلة في الحكم ، وفي السياسة ، وفي إدارة الأعمال ، وفي الاقتصاد إذا أردنا أن نبني نماذج من البشر على هذا ، وأن نكسو النظم الاجتماعية بقيم هذا الروح الاسلامي المتسامى الرفيع .

(١) سورة البقرة : (٢٨٦) .
(٢) سورة الأنعام : (١٣٢) .
(٣) سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الاسلام ، دار الكاتب العربي ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

وأن تدرس هذه النماذج التاريخية الرائعة في ارتباطها بهذا الروح الاسلامي . فهو مصدر هذه الطاقة البشرية الهائلة في البشر الذين اتسموا بالشجاعة ، والايثار والطهر ، والفناء في العقيدة .

« ولن نكون مخطئين حين نرد انبعاث هذه العبقريات كلها ، وبروز تلك البطولات جميعها ، إلى فعل ذلك الروح القوي ، فهو حركة كونية شاملة ، تتوافى مع هذه الطاقات ، الفردية في الظاهر ، الكونية في الحقيقة . فلا عجب أن كانت أكبر عظمة هي نبوة محمد بن عبد الله ﷺ ، فهي التي تلقت ذلك الفيض كله واستوعبته ، وأطاقت تلقيه كاملاً والصبر عليه طويلاً ، لأنها في صميمها قوة كونية لا طاقة فردية » .

« ثم تتدرج العظمات تحت أفق النبوة ، في أصحاب محمد ﷺ ، وفي معتنقي دينه على مدار التاريخ ، كل بقدر ما فيه من استعداد لتلقي ذلك الروح الكامن ، في ذلك الدين العظيم[1] .

إن الاسلام ينمي في المسلم حساسية مرهفة ، وروحاً عالياً كانت وراء الأمثلة ، والنماذج الحية من الشخصيات الشجاعة في الحق حتى وصلت حد اعتراف المسلم على نفسه بالذنب . كما كانت وراء الشخصيات الحاكمة الرحيمة التي تحاول أن تدرأ الحدود بالشبهات ، ولكنها إذا تيقنت من ذنب المذنب دفعها الحزم إلى إقامة حدود الله لأن « المسلم » حاكماً أو مذنباً يهمهما بالدرجة الأولى روح هذا الدين القيم الذي تمثلته روحهم ، والذي قننته حدود الله .

ولقد تمثل هذا الروح الاسلامي في بناء الكيان الاجتماعي للأمة الاسلامية . وفي حساسية هذا الروح في عدم تقبل أخطاء أكبر القادة من أمثال عثمان بن عفان وهذه إشارات خفيفة لهذا الروح الاسلامي الذي لا نظير له في الحياة الدنيا كلها من يوم وجدت حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ .

إن تنمية هذه الروح في « المسلم » ترتبط بتنمية معاني أخرى نبيلة ، وقيم أخرى لا تدانيها قيم وهي قيم العدالة المطلقة ، والمساواة المطلقة بين البشر جميعاً ، وقيم الحرية والتحرر من كل ما يعوق هذه المساواة المطلقة .

التربية الجسمية :

إن العناية بالبدن ؛ وبصحة الانسان ، وبمظهره من أهم الأمور التي عني بها الاسلام ، واستهدفها .

وفي هذا يقول رسول الاسلام : « إن لبدنك عليك حقاً » ، و« المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » . والمعروف أن بناء قوة الانسان البدنية يحتاج إلى تربية رياضية وتربية جسمية ، تفرض برامج للتربية الرياضية ، وبرامج غذائية لتنمية الجسم الانساني . وتربية صحية للعناية بصحة الانسان ، والمحافظة عليها . وفي هذا يشير رسول الاسلام « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، فإن كان لا محالة فاعل فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لهوائه » .

ويمكن للتربية الصحية وللتربية الرياضية أن ترتبط بمفاهيم الاسلام التي تشير إليها الأحاديث النبوية ، ومثيلاتها . كما يمكن أن ترتبط العادات الصحية ، بما جاءت به الفرائض الاسلامية من عادات مثل : فرائض الوضوء»، وفرائض الصلاة، وفرائض الصوم ، وما إلى ذلك .

والتربية الجسمية ، والمحافظة على صحة الانسان وبدنه ، مسؤولية فردية بقدر ما هي مسؤولية اجتماعية .

وإذا كانت مسؤولية رعاية البدن ، والمحافظة عليه سواء بالبرامج الرياضية أو بالبرامج الغذائية فإنها في نفس الوقت مسؤولية اجتماعية . ونشير الآية الكريمة الخاصة بالاستعداد للحرب إلى ذلك حيث تقول ل؛ ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾(١)

---
(١) الانفال (٦٠) .

وهذه الآية تشير إلى برامج للتدريب الرياضي والعسكري ، ليتحقق قوة المسلمين البدنية والعسكرية ، استعداداً لملاقاة أعداء الاسلام الذين يتربصون بهم الدوائر . واستعداداً لنشر الدعوة الاسلامية بازالة الطواغيت ، والقوى التي تحول بين الناس ، والدخول في الإسلام .

أهداف اجتماعية :

إن غني الاسلام بالتشريعات الاجتماعية التي تحدد « العلاقات الاجتماعية السوية بين البشر » لا يصل إلى مستواه أي تشريع آخر ، أو اجتهاد بشري .

فلقد شرع لنظام الحكم ، وللسياسة ، والاقتصاد ، وللأسرة ، وللنظام الاجتماعي العام .

وأية تربية اسلامية عليها أن تستهدي في تنمية البشر في ظل هذه التشريعات المختلفة للنظم الاجتماعية .

شرع للحكم في إطار الشورى . « وأمرهم شورى بينهم » ؛ ومن ثم فإن الانسان يعد لكي يكتسب مفاهيم ، واتجاهات ، ومهارات أسس الشورى ، ومضمونها ، ومعانيها ، وتطبيقاتها المختلفة في المجتمعات المختلفة .

وشرع للسياسة في اطار العدالة ، والفضيلة ، والأخلاق والمساواة ، والحرية . وأي اعداد للانسان يجب أن يتم في اطار هذه القيم والمفاهيم ليتسم بجوهرها ، ويعايش أشكالها التطبيقية المختلفة .

وشرع للاقتصاد في اطار الدوافع الانسانية الأخلاقية من أجل العمل والانتاج. ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[1] « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

إن العمل في الاسلام قيمة كبرى لا يعدلها قيمة أخرى . ومن ثم فإن

(١) التوبة (١٠٥) .

التربية الاسلامية عليها أن تستهدي « بقيمة العمل » في بناء الشخصية الانسانية . كما أنه حرص على أن يكون الانتاج في ظل علاقات انسانية بحيث يصبح عائده محققاً لخير المجموع فلا يكون وسيلة للاستغلال ، أو المنع عن البقية من البشر . وهو يستهدف بذلك بناء كيان اجتماعي متكافل اجتماعياً متكافل اقتصادياً .

ومن أجل ذلك شرع « للزكاة » ، وللصدقة ، وللانفاق النقدي في أوجه الخير بما يعود على المجتمع بالرفاهية ، وبما يحقق التكافل الاجتماعي ، والمعيشة في ظلال الأمن الاقتصادي ، والاجتماعي .

وشرع للأسرة . وبنى العلاقات الاجتماعية فيها على أصول تعجز أمامها التشريعات الوضعية . وشرع للميراث . وشرع للقوامة في الأسرة ، ونسبة الأطفال ، وتربيتهم . وشرع للملكية في الأسرة وللمساواة بين الرجل والمرأة مساواة واضحة . كل ذلك لنظرته للطبيعة البشرية ، ولطبيعة الجانب الاجتماعي والنفسي في الانسان التي أشرنا إليها سابقاً .

ولذلك فإن إحدى مفاهيم التربية في الاسلام هي تقديس هذه التشريعات الاجتماعية سواء في مجال الحكم ، أو في مجال الاقتصاد ، أو في مجال الأسرة . ومن ثم فإن تنشئة الأجيال الجديدة وتربيتهم على هذه المفاهيم هي إحدى الأطر الفكرية الهامة في الفكر التربوي في الإسلام .

خصائص الأهداف السابقة :

١ ـ الوضوح والعمومية :

فوضوحها يظهر من أنها مباشرة بسيطة يستطيع أن يفهمها الناس ، كل الناس . وعموميتها تظهر في أنها تشكل إطاراً عاماً ، وموجهاً عاماً لبناء الشخصية الإنسانية وبناء المجتمعات الإنسانية . وهي بوضوحها ، وعموميتها تسمح بأن ينضم تحتها مجموعة من الأفكار والقيم التي وجهت إليها كثير من

الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والممارسات الاسلامية التي قام بها رسول الله ﷺ ، ومن رباهم فاستوعبوا فكره ، ودعوته ورسالته . فضلاً عن أنها لا تغلق باب الاجتهاد على الناس في كل زمان ، ومكان . وإنما تسمح لكل اجتهاد بشري ، ولكل حلول انسانية واكتشافات إجتماعية تصل إليها المجتمعات ، ويصل إليها الناس شريطة ألا تتناقض معها ، وألا تتعارض وتتنافى . فهي صحيحة طالما اتفقت مع الاطار العام لهذه الأهداف العامة . وهي خاطئة إن تجاوزت أن تناقضت مع قيمها .

٢ ـ الشمول والتكامل :

فهي شاملة تشمل الانسان بكل جوانبه ، وتشمل المجتمع بكل نظمه ، وأوضاعه . وهي متكاملة لأن كل معالجاتها لكل ناحية ، وكل جانب ، وكل نظام تتكامل مع بعضها ، وتترابط بحيث تتعاون هذه الجوانب ، وهذه النظم مع بعضها .

ويبدو شمولها أيضاً في عموميتها لكل جوانب الانسان وكل نظم المجتمع بشكل يسمح ، ويستوعب جميع الجزئيات التي تحتويها هذه الجوانب وتلك النظم .

٣ ـ العقلانية والمنطقية الواقعية :

فهي أهداف تتفق ومنطق العقل الانساني ، كما تتفق مع إجتماعية الانسان ، ومع نظم المجتمع المختلفة . فهي ليست خيالية ، أو مثالية كما أنها ليست قاسية على النفس البشرية ، وعلى الشخصية الانسانية وامكاناتها ، وإنما هي في مقدور الانسان العادي . وفي مقدور المجتمعات البشرية في كل عصر ومصر .

فواقعيتها تظهر في أنها تمس حياة الانسان ، وحياة المجتمع بشكل مباشر . وتفصل في قضايا الحياة ، والكون ، والانسان بشكل واقعي مبني

على نظرة واقعية لطبيعة الانسان ، والمجتمع ، والثقافة فيه .

ولذلك فإن أي هدف من هذه الأهداف إنما ينطلق من البناء العقلي والاجتماعي والنفسي ، والجسمي في الانسان .

٤ ـ احتوائها لأبعاد الزمن :

هذه الأهداف قد بنيت على أساس مراعاتها لأبعاد الزمن الثلاث . فهي تستفيد من الماضي وتتمثله ، كما أنها تستوعب الحاضر وتواجهه . وهي في نفس الوقت تتهيأ للمستقبل ، وتستقبله .

فهي في مخاطبتها للانسان . ورسمها لصورته ؛ وصورة مجتمعه إنما تستحضر خبرات السابقين له . وترسم حلولاً لمشكلاته الواقعية ، وتساعده على تصور ، وتخيل المستقبل بناء على معطيات الماضي والحاضر .

وهي في استحضارها لخبرات الحياة البشرية السابقة لا تسردها سرداً تاريخياً ، وإنما تذكر الخبرات ، ودلالاتها الانسانية ، والاجتماعية . وهي في مساعدة الانسان على أن يواجه حاضره ومستقبله تخاطبه بمعرفة ودراية بكل مكنونات النفس البشرية ، وإمكانات الشخصية الانسانية : العقلية ، والنفسية ، والوجدانية ، والاجتماعية ، والجسمية .

ثانيا : المناهج وطرق التعليم في الاسلام(*) :

المنهج صورة لأحوال المجتمع :

إذا شئنا أن نعرف العلة التي من أجلها وضع القابسي[1] منهج التعليم للصبيان في الكتاتيب ، أو أقره على النحو المذكور في رسالته ، فينبغي أن ننظر إلى حالة المجتمع في ذلك العصر ، لنرى مبلغ حاجاته ومطالبه .

(*) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الإسلام . ـ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠ ـ ص ١٦٠ ـ ١٧٥ . .

(١) القابسي من علماء التربية في الاسلام وقد درس فكره التربوي الدكتور الاهواني وقدم لنا من خلال آراء القابسي وغيره من علماء التربية المناهج وطرق التعليم .

وعندئذ يتبين لنا السر الذي دفع المربين في الإسلام إلى تعليم الصبيان علوماً معينة ، منها يتألف ما نسميه المنهج الدراسي على الإصلاح الحديث المعروف الآن .

وقد يكون المنهج واقعياً ، وقد يكون مثالياً ، وفي الحالتين يستمد وجوده من المجتمع . فالمنهج الواقعي ، وهو ما يدرس بالفعل يستقي كيانه من المجتمع القائم ، أما المنهج المثالي ، فهو ما يطالب به المفكرون والمصلحون ويلائم صورة المجتمع المثالية التي يتخيلها هؤلاء المفكرون في مدنهم الفاضلة . ومنهج القابسي في التعليم واقعي . كما سبقت الإشارة إلى ذلك فهو يصف ما كان متبعاً فعلاً في الكتاتيب الإسلامية في شمال أفريقية . وهذا المنهج المتبع في عصره هو أثر البيئة الإجتماعية .

يقول بيتس : « على المجتمع يقع عبء تعليم الأجيال الجديدة ، والمجتمع هو الذي يهيىء البيئة الصالحة لنمو الأفراد . وعلى الأفراد أن يحملوا عبء المسؤولية فيستجيبوا لنداء التعليم بحسن التعلم »(١) . وقد أورد المؤلف تعريفين للتعليم ، الأول يرمى إلى تنبيه مواهب الفرد ، والثاني إعداد الفرد للحياة الإجتماعية . والمقصود بمواهب الفرد القوى العقلية المختلفة كالذاكرة والإبتكار والذكاء والملاحظة وما إلى ذلك(٢) .

ويقول ألبير مالوا أستاذ التربية بجامعة السوربون : « الآراء متفقة في جميع الشعوب الحديثة على أن التعليم يجب أن يعد الفرد للحياة الإجتماعية أكثر مما هو حاصل الآن »(٣) .

والرأي عندنا أن التعليم إعداد للحياة الإجتماعية ، ولا ننكر أنه يأخذ بيد الفرد في طريق التقدم . وبذلك يهيئه في نهاية الأمر للحياة الإجتماعية .

---

(١) Betts. Social Principles of Education. p. 30.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤ .

(٣) Albert Millot. Les Grandes Tendances de la Pédagogie Contemperaine. Alean. 1938. p. 17.

ولا نستطيع أن نفهم الخلاف في مناهج التعليم خلال العصور المتعاقبة ، وفي الأمم المختلفة التي تعيش في عصر واحد ، إلّا نتيجة اختلاف البيئات جميعاً .

فإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا أن اليونان كانوا يعنون بتعليم الصبيان الرياضة البدنية بألوانها والموسيقى والأدب والقراءة والكتابة . وكانت عناية الإسبرطيين بالرياضة البدنية الشاقة شديدة ، على حين اتجهت أنظار الأثينيين إلى الموسيقى والأدب . ومناهج التعليم في الدولة الرومانية كانت تشبه إلى حد كبير ما عند اليونان ، لأن الدولة الرومانية ورثت حضارة اليونان وثقافتها . هذه المناهج كانت تلائم البيئة الإجتماعية في ذلك العصر . وهي مناهج تلائم الطبقة الأرستقراطية ، وتتفق مع إنقسام الدولتين إلى طبقات فيها الأشراف والعامة . أما العامة فكانوا بعيدين عن التعليم لا يلحقهم نوره ، أما أبناء الأشراف فكانوا يهيئون لهذه الحياة الخاصة بما فيها من لهو وترف وزينة ومتاع . ولم تكن هناك مدارس بالمعنى الصحيح ، بل كان الغالب إتصال الطفل بمعلم خاص .

وإلى عهد المسيحية الأولى كانت جميع المدارس لا دينية . وكان الأطفال يعلمون القراءة في كتب مملوءة بالميثولوجيا . لذلك كان من الخطر على أبناء المسيحيين أن يتأثروا بما في تلك الكتب من آراء تخالف الدين . واستمر الصراع بين المسيحية والوثنية شديداً ، وتأثرت البرامج الدراسية بالنظام الروماني وبالكنيسة معاً . فقد كانت المعرفة باللاتينية ضرورية لفهم الإنجيل في الترجمة المقبولة التي قام بها سانت جيروم . ثم أصبحت المعرفة باليونانية ضرورية أيضاً[١] . ولما انتصرت المسيحية كان الأطفال يلحقون بالمدارس الكنيسية يتعلمون فيها القراءة والكتابة والموسيقى الكنيسية وبعض الحساب[٢] . فالخلاف في البرامج الدراسية عند المسيحيين عما كان عند

---

(١) Adamson. A. Short History of Education. p. 1 and 2.

(٢) Cubberly. History of Education. p. 100.

الرومان ناشىء عن الخلاف في الحياة الاجتماعية حيث اتخذ الدين المسيحي مكان الوثنية .

ووظيفة المنهج تحقيق أغراض التعليم . وللمنهج وظائف ثلاث :

١ ـ إبراز القيم الإجتماعية في شعور الفرد .

٢ ـ حفز المواهب الفردية إلى النمو .

٣ ـ إعداد الفرد للحياة الإجتماعية(١) .

وهذه الوظائف كلها ترمي إلى نتيجة واحدة هي إعداد الفرد للحياة الإجتماعية .

فإذا ألقينا نظرة سريعة على المنهج الذي وضعه القابسي لتعليم الصبيان نجد أنه متأثر بالبيئة الإجتماعية للمسلمين في ذلك العصر ، وأنه يهيىء الصبيان للحياة الإجتماعية المستقبلة ، وذلك ببيان قيمة العلوم الواجب معرفتها إلى نظر الصبيان ، وإبراز وجه أهميتها وضرورتها في عقولهم ، ثم تنمية المواهب الفردية التي تلائم المطالب الإجتماعية .

والبيئة الإجتماعية في عصر القابسي كانت بيئة دينية خالصة . لذلك نجد المنهج الدراسي يدور حول محور الدين ، ويهيىء الصبيان لهذه الحياة الدينية .

وينقسم المنهج الذي ذكره القابسي إلى قسمين : إجباري واختياري . فالعلوم الإجبارية هي القرآن ، والصلاة ، والدعاء ، وبعض النحو العربية والقراءة والكتابة . والعلوم الاختيارية هي الحساب ، وجميع النحو والعربية ، والشعر ، وأيام العرب وأخبارها .

هذا المنهج المتبع في القرن الرابع الهجري هو الذي كان متبعاً في

---

(١) Betts. Social Principles of Education. p. 247.

القرن الثالث أيضاً كما جاء في كتاب محمد بن سحنون . ولا حاجة بنا إلى بيان أن المنهج على هذا النحو هو الذي كان متبعاً في الكتاتيب الإسلامية منذ نشأتها ، وأنه ظل متبعاً إلى عهد قريب جدّاً في الكتاتيب في شتى الأقطار الإسلامية . بل تستطيع أن تجزم إذا وجدت كتاباً في أي قطر إسلامي أن ما يدرسه الصبيان في هذا الكُتاب لا يختلف اليوم عما كان يدرس منذ ألف عام . .

أما الخلاف الذي ذكره إبن خلدون في طريقة التعليم فهو خلاف في المظهر لا الجوهر . فبعض الأقطار كان يقدم تعليم الخط على تعليم القرآن ، والبعض الآخر كان يبدأ بتحفيظ القرآن ، يصحبه تعليم الخط أو يتأخر عنه قليلًا . أما الجوهر الثابت الذي لم يلحقه التغيير منذ ظهور الكتاتيب حتى عصور متأخرة ، بل حتى العصر الحاضر ، فهو تعليم القرآن والصلاة ، وما يصحب ذلك من معرفة للقراءة والكتابة وبعض النحو والعربية .

ففي القرن الثامن الهجري ، نجد الحافظ بن رجب البغدادي يصف المنهج على النحو الآتي : « فالمعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها ، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة وتابعيهم في معاني القرآن والحديث ، وفيما ورد عنهم في مسائل الحلال والحرام والزهد ؛ والرقائق والمعارف وغير ذلك »[1] .

ولا نزال في العصر الحاضر ، في مصر وفي الأقطار العربية الأخرى ، نشهد هذا اللون من التعليم في الكتاتيب . وقد سجل الدكتور طه حسين في كتابه الأيام صورة واضحة لحياة الكتاب في العصر الحاضر لا نعتقد أنها تختلف عن تلك التي كانت جارية في عصر القابسي .

والمشاهد الآن[2] في مصر وجود نوعين من التعليم الأولى يسيران جنباً

(١) فضل علم السلف على الخلف للإمام أبي الفرج زين الدين الشهير بابن رجب الحنبلي البغدادي المتوفى سنة ٧٩٥ هـ ـ المطبعة المنيرية بالأزهر .

(٢) أظن أنه لا وجود اليوم للكتاتيب في مصر ، بعد عشر سنوات فقط من الطبعة الأولى لهذا الكتاب . وقد اختفت تماماً مع هذه الطبعة الثالثة .

إلى جنب : « النوع القديم الذي يعتمد على تعليم القرآن والكتابة في الكتاتيب ، والنوع الحديث الذي يضيف إلى جانب ذلك مبادىء الحساب ومبادىء العلوم .

وسينتهي الأمر بالكتاتيب القديمة إلى الزوال عندما يطبق التعليم الإلزامي عن طريق الدولة ، فيزول آخر مظهر من مظاهر القديم .

هذا التحول الجديد دليل على تغير الحياة الإجتماعية ، ودليل على مسايرة الشرق للحضارة الحديثة ، والتقدم العالمي السريع .

على أن ثبات المنهج الدراسي هذه الفترة الطويلة من الزمان يحتاج منا إلى تفسير ؛ فالعلة في هذا الثبات ترجع إلى سلطان التقاليد على المنهج ، والخضوع للتراث الموروث ، وتأثير التقاليد الميلُ بالمنهج إلى المحافظة ، والنصوص الثابتة هي التي تحفظ المنهج[1] .

والقرآن نص المسلمين الثابت ، وكتاب الله لا مبدل لكلماته .

وستبقى برامج تعليم الصبيان عند المسلمين ثابتة ، ما دام المسلمون متمسكين بدينهم وكتابهم ، إلاّ إذا اكتفى الناس بقدر يسير من الدين ، حتى يفسح المجال لدرس العلوم الحديثة كما هو واقع الآن .

أما القابسي فإنه لا يقبل التهاون في تعليم القرآن ، ويستعيذ بالله : « أن يتفق المسلمون على ترك القيام به ، ولو كان كذلك لكانت الهلكة المبيرة ، فأعوذ بالله من غضبه ، ومن أن ينتزع كتابه من صدور المؤمنين » ٣١ ـ ب .

هذه البيئة البيئة الدينية المستغرقة في الشعور الديني قد تغيرت الآن حتى بلغت حد التقابل في بعض الممالك الغربية ، التي خلعت رداء الدين ، وعادت بالمدارس إلى اللادينية المطلقة . وهذا الإتجاه الحديث يحمل روح الثورة على التقاليد ، فلا ندري أتفلح هذه الثورة فيلغي الدين ، أم تنتصر

---

(١) Betts. p. 248.

المبادىء الروحية على الموجة المادية الطاغية فيعود الدين إلى مكانته .

وإننا نسوق هذه المشاهدات والوقائع من الماضي البعيد إلى الحاضر القريب . لنبين أن مناهج التعليم تستمد وجودها من التيارات الفكرية التي تسود المجتمع .

وقد كانت البيئة الإجتماعية في عصر القابسي بيئة دينية بعيدة عن الروح المادي والنزعة الإلحادية ، ولهذا ليس من الغريب أن يكون القرآن والصلاة وما يتصل بالقرآن من علوم ضرورية لفهمه ، أول ما يتجه الناس إلى تعليمه لأبنائهم . والقابسي يؤيد هذه الطريقة ويقرها ويطالب بدوام الإستمرار عليها .

العلوم الإجبارية في المنهج :

القرآن هو أول العلوم التي ينبغي أن يدرسها الصبيان ، بل هو المحور الذي يدور عليه التعليم في الكتاتيب .

ووجه الضرورة في تعليم القرآن عند القابسي ، وعند غيره من الفقهاء ، ترجع إلى أسباب كثيرة : فالقرآن كلام الله ، وقد حث الله العباد على تلاوته في غير آية ، ذكر بعضها القابسي ، مثل : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية يرجون تجارة لن تبور »(*)، وهنا نرى الجمع بين تلاوة القرآن وإقامة الصلاة ، والإحسان ، وهي أهم واجبات المسلم .

والقرآن مرجع المسلمين في معرفة العبادات والمعاملات ، ولا سبيل إلى معرفة الحدود الشرعية الصحيحة للديانة إلاّ بمعرفة الأصل الأول من أصول الدين وهو القرآن .

إلى جانب ذلك ، فإن الصلاة ، وهي ركن هام من أركان الدين ، لا تتم إلا بقراءة شيء من القرآن فيها ، فمعرفة القرآن ضرورية لأداء الصلاة

(*) فاطر (٢٩) .

المفروضة . وأقل جزء من القرآن تصح به الصلاة عند المالكية هو الفاتحة .

قال الدردير في شرح مختصر خليل في فقه المالكية : وإذا كانت الفاتحة من فرائض الصلاة ، فيجب على كل مكلف تعلمها إن أمْكَن بأن قَبِل التعلم ، ولو في أزمنة طويلة وأيام كثيرة . ويجب عليه بذل وسعه في تعلمها إن كان عسير الحفظ في كل الأوقات إلاّ أوَقات الضرورة ، ووجد معلماً ولو بأجرة [1] .

وللقرآن فضائل كثيرة ، وللنبي ﷺ أحاديث تفيض بهذا الفضل ، مثل : « خيركم من تعلم القرآن وعلّمه » ، وفي ذلك حث على تعلمه وتعليمه . وقد أطال فقهاء المسلمين الذين كتبوا في التربية في ذكر فضائل القرآن ، وألّف بعضهم كتباً منفصلة ، ورسائل خاصة في هذا الموضوع .

وقد انتهى الأمر بالفقهاء إلى فرض تعليم القرآن ، فقال صاحب مفتاح السعادة : « اعلم أن حفظ القرآن فرض كفاية على الأمة لئلا ينقطع عدد التواتر فيه ، فلا يتطرق إليه التبديل ولا التحريف . وتعليمه أيضاً فرض ، وهو من أفضل القُرب » ففي الصحيح : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » [2]» .

والقابسي وبعض الفقهاء يبدءون في المنهج بتعليم القرآن ، وكانت هذه هي العادة المتبعة . وقد أراد أحد العلماء وهو أبو بكر بن العربي أن يؤخر تعليم القرآن وأن يبدأ الصبي بتعلم الشعر والعربية ثم الحساب ، فأنكر عليه ابن خلدون ذلك قائلاً : « وهو لعمري مذهب حسن إلاّ أنه العوائد لا تساعد عليه ، وهي أملك بالأحوال . ووجه ما اختصت به العوائد من تقديم دراسة القرآن إيثار التبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن » [3] .

---

(١) شرح الدردير على مختصر خليل في فقه مالك ج ١ ص ١٠٤ .
(٢) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ـ طاش كبري زادة المتوفى سنة ٩٥٣ ، جـ ٢ ص ٢٥٩ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٩ .

وقد جرت العادة أن يتعلم الصبيان جميع القرآن ، ويعرف هذا بالختمة . على أن ختم القرآن لم يكن واجباً ، فقد يكتفي بثلاثة أرباع أو ثلثي أو نصف أو ثلث أو ربع القرآن ، حسب طاقة الصبي والظروف الخارجية الأخرى .

ويشترط القابسي في تعليم القرآن : حسن الترتيل ، وجودة القراءة ، وحسن الوقف ، والأخذ عن مقرىء حسن ؛ وهو ينصح بقراءة نافع .

أما تعليم الصلاة فهو فرض عين على جميع المسلمين ، كما ذكر الفقهاء الذين قسموا الفرض قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية . ولذلك قال القابسي : ينبغي للمعلم أن يعلمهم الصلاة إذا كانوا بني سبع ، ويضربهم عليها إذا كانوا بني عشر ويلزمه أن يعلمهم الوضوء للصلاة ، وعدد ركوعها وسجودها ، والقراءة فيها ، والتكبير ، والإحرام ، والسلام ، والقابسي لا يكتفي بتعليم الصلاة المفروضة ، وإنما يذكر أنه : « ينبغي أن يعلمهم سنن الصلاة ، حتى يعلمهم دينهم ، الذي هو تعبدهم الله عز وجل وسنة نبيهم » .

فالصلاة هي الواجب الديني المفروض على الذكور والإناث . وقد سمي النبي ﷺ : عماد الدين ، وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة (١) .

ولا عذر في التخلف عن الصلاة . وفي ذلك يقول الإنبابي : « وأن لا يسامح (أي الصبي) في ترك الطهارة والصلاة ونحوهما » .

ومن الأمور التي يرى القابسي وجوب تعليمها الدعاء : « ليرغبوا إلى الله عز وجل ، ويعرفهم عظمته وجلاله ، ليكبروا على ذلك » .

---

(١) تفسير النسفي لآية : الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة . في أول البقرة .

والصلاة مع أنها عبادة فيها ركوع وسجود لا تخلو من الدعاء ، وقد جمع الله بين العبادة والدعاء في فاتحة الكتاب قائلاً : « إيّاك نعبد وإيّاك نستعين » . فالجمع بين وجوب تعليم الصلاة والدعاء والقرآن ليس غريباً ، لأن هذه الأمور الثلاثة تجمع بين الفكر والوجدان والعمل ، وترمي إلى غرض واحد هو معرفة الله معرفة صحيحة كاملة ، والإيمان به إيماناً صادقاً ، ولا يتم ذلك إلاّ بالعبادة والحمد والشكر والتسبيح ، والإلتجاء إليه بطلب الهدى والرحمة ، وكشف المصيبة والغمة .

وحفظ القرآن يزيد في معرفة الإنسان لله ، لما جاء فيه من آيات دالة على الوحدانية ، دافعة إلى الإيمان الصحيح ، وما فيه من وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، ووصف للجنة والنار ، وما فيهما من نعيم وعذاب .

وفي الأثر أن الرسول كان يقرأ في الصلاة سوراً طويلة بأكملها ، كالبقرة وآل عمران والنساء ؛ وعلى ذلك جرى الصحابة والتابعون . وقد كان القابسي أميناً على هذه السنة فقرر أن القرآن في الصلاة خير من القرآن في غير صلاة . لهذا لم يكن من الغريب أن يسعى الناس إلى تحفيظ أبنائهم القرآن بأكمله ، تبركاً به كما يقول إبن خلدون ، وزيادة في القرب من الله على رأي القابسي .

على أن المعرفة الصحيحة للقرآن تستلزم العلم بالنحو لإعراب الكلمات إعراباً صحيحاً ، والعلم باللغة العربية لفهم معاني القرآن ، والعلم بالهجاء والخط لكتابته والنطق به صحيحاً .

والإعراب يميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين (١) .

وذكر القابسي عن ابن وهب : « أرأيت الرجل يتعلم العربية ليقيم بها لسانه ويصلح بها منطقه ؟ قال : نعم فليتعلمها ، فإن الرجل يقرأ الآية فيعني بوجهها فيهلك » ٤٦ ـ ١ .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ١ ص ٣٠٦ طبعة محمود توفيق بالأزهر .

وقد نص الله في أول سورة نزلت على فضل القلم والكتابة فقال : « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم»(*). فنبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلاّ هو . وما دوّنت العلوم ، ولا قيّدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلاّ بالكتابة . ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا[1] .

فالنحو والعربية والخط من « معاني التقوية على القرآن » ٤٣ ـ ١ . وتعليمها واجب على المعلم كما نقل القابسي على إبن سحنون : « إنه ينبغي أن يعلمهم إعراب القرآن ، ذلك لازم له ، والشكل والهجاء والخط الحسن » .

والاهتمام بحسن الخط كان عادة جارية في بلاد المغرب ، وهو يدل على تذوق الجمال ، والعناية بالكمال والإتقان . ولا ننسى أن المسلمين كرهوا بل حرموا تصوير ذي الروح لما فيه من تشبيه بالوثنية ، ولهذا السبب إتجه الروح الفني عندهم إلى الزخرفة الهندسية ، والبراعة في رسم الخط على أشكال مختلفة جميلة ، والآيات القرآنية المسطورة على جدران المساجد شاهد على الإبداع في الفن . لهذا حلت العناية بحسن الخط في برامج الدراسة الإسلامية محل الرسم والتصوير عند غير المسلمين .

ويرى ابن خلدون أن حسن الخط يتصل بالحضارة ، ورداءته بالبداوة . « لذلك كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط ، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع » . ثم ترقت الخطوط لما استبحر الإسلام في العمران . . « وكان الخط البغدادي معروف الرسم ، وتبعه الإفريقي ويقرب من أوضاع الخط

(*) العلق ١ ـ ٥ .
(١) تفسير الكشاف للزمخشري .

الشرقي وتميز صنف الخط الأندلسي »[1] .

والإجادة في الخط ، والحذق في رسم الحروف طبقاً لقوانين وأشكال متعارفة ، مما يؤدي إلى ضبط القراءة والبعد عن التحريف . ولا تخفي أهمية ذلك في قراءة القرآن خاصة ، لأن التبديل في كلمات القرآن مما يأباه الدين وينهى عنه ، فإذا صارت الخطوط مائلة إلى الرداءة ، بعيدة عن الجودة « صارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلاّ العناء والمشقة ، لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف »[2] .

وقال صاحب الإتقان : « يستحب كتابة المصحف وتحسين كتابته وتبيينها وإيضاحها »[3] .

ونذكر لهذه المناسبة أن : « أهل المشرق لا يعلمون الصبيان الخط المكاتب بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على إنفراد ، كما نتعلم سائر الصنائع . وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة »[4] .

من الطبيعي إذن أن ينص المنهج الإجباري على تعلم القرآن والصلاة والدعاء والكتابة والنحو وبعض العربية ، فكلها ترمى إلى غاية واحدة هي معرفة الدين والعبادات مما هو مفروض على المسلمين كافة .

العلوم الاختيارية في المنهج :

العلوم الاختيارية هي الحساب ، والشعر ، وأيام العرب وأخبارها ، وجميع النحو والعربية .

ومن الواضح أن هذه العلوم تختلف عن سابقتها في بعدها عن الصفة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٥ .
(٣) الإتقان جـ٢ ص ٢٨٩ .
(٤) مقدمة إبن خلدون ص ٣٩٨ .

الدينية ، وإذا كان بعض النحو والعربية مما يجب درسه ، فإن هذا البعض ضروري لفهم الدين . أما جميع النحو وجميع العربية ، فما يعتبر خروجاً على الغاية الدينية إلى غاية أخرى .

ولذلك كره أحمد (وهو الإمام أحمد بن حنبل) التوسع في معرفة اللغة وغريبها وأنكر على أبي عبيدة توسيعه في ذلك وقال : هو يشغل عما هو أهم منه [1] .

وفي الحديث : « تعلموا من العربية ما تعرفون به كتاب الله ثم انتهوا » [2] .

ومن الطبيعي الاقتصار في المنهج على قدر من العلوم دون الآخر ، واختيار علوم معينة وإهمال باقي العلوم ، إذ لا يخفي أن الأمم التي تضرب في الحضارة وترتفع في المدنية ، تتعدد عندها المعارف والصنائع ، ولا يستطيع الفرد الواحد الإحاطة بها جميعاً . واختيار المنهج المناسب للطفل من بين هذا الحشد من المعرفة النظرية والعملية يتوقف على الغاية من التعليم ، وعلى حاجة المجتمع ، وعلى طبيعة الطفل .

ولكن المبدأ المسلم به عند جميع علماء التربية ، هو الاقتصار في المنهج على بعض العلوم دون البعض الآخر .

قال المأمون يصف العلوم ويحث على التخصص : « ولو قلت إن العلم لا يدرك غوره ، ولا يسبر قعره ، ولا تبلغ غايته ، ولا تستقصي أصنافه ، ولا يضبط آخره ، فالأمر على ما قلت . فإذا كان الأمر كذلك فابدءوا بالأهم فالمهم ، وابدءوا بالفرض قبل النفل » [3] .

وأهمية العلوم مسألة اعتبارية ، تتوقف على الغرض المنشود ،

---

(١) فضل علم السلف لإبن رجب الحنبلي .
(٢) المرجع السابق .
(٣) البيان والتبيين ـ الجاحظ جـ٣ ص ٢٢٢ .

والمطالب الإجتماعية ونوع الإعداد المطلوب .

فعلم الملوك : النسب والخبر وجمل الفقه . وعلم التجار : الحساب والكتاب . وعلم أصحاب الحرب : درس كتب المغازي وكتب السير [1] .

ولكن القابسي لا يريد أن يعلم ملوكاً أو تجاراً ، أو قادة حرب وساسة دول ، إنما يريد أن يعلم أبناء المسلمين لينشأوا على الإسلام ، ولا يعنيه ماذا يصيرون فيما بعد .

فالمنهج الذي يذكره يخص جميع الصبيان في السن التي تسبق التخصص ، سواء استكمل الصبي التعليم ، أم انقطع عنه وتوجه إلى احتراف صناعة يكسب منها معاشه .

وقد يتطرق إلى الذهن أن تعليم الحساب لا صلة له بالدين . فعلماء التربية في العصر الحاضر ينصون على تعليم الحساب ، إما لفائدته العملية في الحياة ، وإما لقيمته في التدريب على التفكير الصحيح ، لأن الرياضة علم العلاقات الضرورية المضبوطة .

أما فقهاء المسلمين فقد نظروا إلى الحساب من وجهة نظر دينية ، وعندهم أن الحساب فرض كفاية ، فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها ، وأما ما يعد فضيلة لا فريضة : « فالتعمق في دقائق الحساب ، وحقائق الطب ، وغير ذلك مما يستغنى عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه » [2] .

ويذهب ابن رجب البغدادي مذهب الغزالي فيقول : « كذلك الحساب يحتاج منه إلى ما يعرف به قسمة الفرائض والوصايا والأموال التي تقسم بين المستحقين لها . والزائد على ذلك مما لا ينتفع به إلاّ في مجرد رياضة

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ جـ٣ ص ٢٢٣ .

(٢) الإحياء للغزالي جـ١ ص ١٥ .

الأذهان وصقلها لا حاجة إليه ، ويشغل عما هو أهم منه »[1] .

فالغزالي وغيره يرون في معرفة الحساب مصلحة دينية . أما الجاحظ فإنه يرمي من معرفته إلى النفع الإجتماعي وضبط الحضارة والعمران ، وفي ذلك يقول : « وأما القول في العقد وهو الحساب دون اللفظ والخط ، فالدليل على فضيلته ، وعظم قدر الانتفاع به قول الله عزّ وجل : (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)* . والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة . وفي عدم اللفظ ، وفساد الخط ، والجهل بالعقد فساد جل النعم ، وفقدان جمهور المنافع ، واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواماً ومصلحة ونظاماً »[2] .

ولا ندري أأراد القابسي من تعليم الحساب المصلحة الدينية أم الإجتماعية أم كليهما معاً . وأكبر الظن أنه يرمي إلى نفع الحساب في كمال المعرفة الدينية الصحيحة على مذهب الفقهاء وهو في ذلك يقول : « ينبغي أن يعلمهم (أي المعلم) الحساب ، وليس ذلك بلازم له ، إلاّ أن يشترط عليه » ٤٤ ـ أ .

وهذا يؤيد وجهة نظرنا القائلة بأن الغرض من تعليم الحساب عند القابسي هو المصلحة الدينية لا الإجتماعية . ولو كان الأمر غير ذلك لألزم تعليمه على الإطلاق ، دون التعليق بشرط رضا الأباء .

وتعليم الشعر موضوع جدل بين الفقهاء . وقد عَرَض القابسي هذا الجدل بين الأنصار والمعارضين ، ثم رجح تعليمه على وجه الاختيار فمالك وسحنون يأبيان تعليم الشعر بالأجر إذا لم يكن القصد تعليم القرآن والكتابة . وابن حبيب لا يرى بتعليم الشعر بأساً إلاّ أنه يكره من الشعر : « ما فيه ذكر الحمية والخنا أو قبح الهجاء » .

(١) فضل علم السلف على الخلف .
(*) يونس ٥ .
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٨١ .

وقد اعتمد القابسي في تعليم الشعر على أحاديث للرسول، منها: «إنما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح»، ومنها: «إن من الشعر لحكمة». وقد شك القابسي في رواية الحديث الأول، ثم أثبت حديثاً لم يشك في نسبته إلى النبي، وهو: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً»، وقد فسر القابسي هذا الحديث بأن يكون الشعر غالباً على الإنسان حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن.

ومن الفوائد التي يجنيها من يحفظ شيئاً من الشعر أنه: «يقيم لسانه ويفصحه ويأنس إليه في بعض الأوقات، ويستشهد به فيما يريد بيانه» ٥٤ ـ ب.

وقد عابوا على العرب إهمال الفنون في مناهج التعليم، وها نحن أولاء نرى القابسي يطلب تعليم الشعر، وهو لون من ألوان الفن، ولم يغب عن نظر القابسي قيمة الشعر الفنية وأثرها في النفس الإنسانية. ذلك أن الإحساس بالجمال، وتذوق الفن، من عوامل الراحة النفسية، أو الأنس على حد قول القابسي. وقد رأينا هذه النزعة المتجهة نحو الفنون الجميلة بادية في العناية بحسن الخط، ونحن نراها الآن في تعليم الشعر، وهو نوع من الأدب، وفرع من الفن.

وقد دار مثل هذا الجدل في العصر الحاضر حول قيمة الفن في التعليم، وفي الحياة. وهل الأهم العلوم الطبيعية أو الأدبية أو الفنية، وأثر كل ذلك في تربية الأطفال.

ويرى دوركهيم [1] أن حب الفنون الجميلة وتذوق الجمال، مما يؤدي إلى تحرر المرء من نفسه، فيخف عنه عبء الحياة. فالفن سبيل إلى الراحة النفسية لأنه يخفي عن العين مشاغل الحياة اليومية.

---

(١) Durkheim L'Education Morale

ولكن ميدان الفن هو الخيال لا الحقيقة . وجمال الآثار الفنية مستمد من إحساس الفنان لا من حقائق الأشياء . ولذة الفن ناشئة عن تأثيره في الخيال لا في الحواس والعقل . ويحرك الفن الخيال إلى العمل ، والخيال أكثر العمليات النفسية مرونة وأقلها جموداً . لهذا كان ميدان الفن بعيداً عن عالم الحقيقة مع أن عالم الأخلاق هو الحقيقة نفسها . وهنا ينتهي دوركهيم إلى هذه النتيجة وهي أن الفن والأدب لا يصلحان أساساً للسلوك والعمل .

وقد انتهى سبنسر إلى هذه النتيجة نفسها ، ولهذا يجعل أساساً السلوك في الحياة تعليم العلوم الطبيعية ، لأنها تعرفنا حقائق الأشياء على الوجه الصحيح [1] .

وقد أشار القرآن إلى ابتعاد الشعر عن عالم الحقيقة قائلاً : « والشعراء يتبعهم الغاوون الم تر انهم من كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون » ومع ذلك فالتمييز الحاد بين الفن والعلم ، والحقيقة والخيال « فيه كثير من الافتعال ، لأن الحقيقة والخيال قطعة واحدة في عقل الإنسان ، والفن جهد للتعبير بطريقته الخاصة عن أغوار الحقيقة وما فيها من أعماق » [2] .

وقديماً وحد أفلاطون بين الحق والخير والجمال في المثال الأول .

وقد كان الغرض الأول الذي يرمي إليه القابسي هو تهيئة الأطفال إلى معرفة الخير أولاً وقبل كل شيء . وذلك عن طريق الفن ، ولابأس عنده بقدر من الفن الجميل إذا كان هذا القدر لا يتعارض مع معرفة الخير والعمل به .

ولهذا لم يقف القابسي في سبيل تعليم الشعر ، بل نصح منه بمقدار .

ومن العلوم الاختيارية التي لا يرى القابسي ما يمنع تعليمها : « أيام العرب وما أشبه ذلك من علم الرجال وذوي المروءات » ٤٤ ـ ب .

هذه المادة تعرف في المناهج الحديثة بعلم التاريخ السياسي .

(*) الشعراء (٢٢٤ ـ ٢٢٦) .

(١) Spencer. Education

(٢) Albert Mallot, Les Grandes Tendances de La Pedagogie Moderne. p. 130

وبعض علماء التربية يقدمون علم التاريخ في الأهمية بالنسبة للطفل على العلوم الطبيعية ، لأنه أكثر مساساً بمشاعر الأطفال ، وألصق بخيالهم ، وأنفع في المعرفة بالماضي وما له من صلة وثيقة بالحاضر .

والطفل جزء من الحياة يتحرك في العالم الخارجي المحيط به ، وسلوكه في هذا العالم استجابة للمؤثرات الخارجية ؛ وهذه الاستجابة نتيجة فهم العالم وإدراك الأشياء . والعالم الخارجي بالنسبة إلى الطفل هو عالم الأشياء وعالم الإنسان . ولا بد لمن يعيش في هذه الحياة من إدراك الأشياء وحقائقها ، ومعرفة الإنسان وطبائعه .

روسو وسبنسر وغيرهما ممن يبدءون بتعليم الأطفال العلوم الطبيعية يجعلون تاريخ الإنسان في المحل الثاني .

فدراسة التاريخ على أي الحالات من العلوم اللازمة لتثقيف الطفل .

والقابسي يريد من تعليم التاريخ أن يكون محركاً لهمم الأطفال نحو أعمال البطولة ، وباعثاً لهم على أفعال الخير . والغرض من علم الرجال التشبه بالأبطال ، والتشبه بالرجال من الكمال . والغاية من سير ذوي المروءات القدوة في السبق إلى الخيرات .

والمحاكاة فطرة نفسية تدفع الأطفال إلى تقليد الأعمال من غير قصد أو شعور .

وذكر الإنبابي : « أن يتعلم الطفل القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم ، لينغرس في نفسه حب الصالحين » . وهذا المؤلف يقصر فائدة التاريخ على ناحية واحدة هي ناحية الصلاح والخير .

وتعليم السير وحكايات الأبرار وأيام العرب وأخبارها ، زيادة فضل على ما جاء في القرآن من قصص الأمم السالفة وأخبار الأولين ، ففيه من تاريخ الغابرين الشيء الكثير وقصص القرآن يرمى إلى غاية دينية وخلقية ، فالظلم

والفساد مما يؤدي إلى الهلاك ، والله هو الذي يصب على المفسدين أسواط العذاب ، إن ربك لبالمرصاد .

ثالثا: تعليم المرأة في الاسلام:

قلما نجد في أي دين من الديانات أو نظام من المجتمعات ذلك التكريم الذي أعطاه الإسلام للمرأة .

ففي كل المجتمعات التي سبقت ظهور الإسلام على اختلاف زمانها ومكانها لم تكن المرأة تتمتع بنظرة محترمة وكانت مكانتها الإجتماعية تتسم بالدونية بدرجات متفاوتة في هذه المجتمعات تشتد حيناً وتخف حيناً آخر .

ففي الهند القديمة كان ينظر إلى المرأة على أنها دورة للروح في حياة شريرة وكان الهنود يؤمنون بتناسخ الأرواح وفي مصر الفرعونية كانت المرأة أقل من الرجل في قيمتها ومكانتها الإجتماعية رغم أننا نجد نساء وصلن إلى مرتبة الحكم مثل : حتشبسوت وكليوباترا . وفي وصية الحكيم آني لابنه يقول له : « أحذر أن تمشي في طاعة أنثى أو تسمح لها بأن تسيطر على رأيك » .

وعند اليونان والرومان كانت المرأة ظلًا للرجل ومجرد تابع له ولا تملك من أمرها شيئاً .

وفي المسيحية كان ينظر للمرأة على أنه فخ نصبه الشيطان للرجل وأنها سلاح إبليس للفتنة والإغراء ورغم أن تقديس العذراء مريم قد رفع من النظرة إلى المرأة فإن ذلك لم يغير شيئاً كثيراً من الوضع الإجتماعي للمرأة . وفي أوروبا لم يكن للمرأة أي حقوق حتى العصور الحديثة وكان القانون الإنجليزي في أوائل القرن التاسع عشر يبيح للزوج أن يبيع زوجته بمبلغ زهيد .

(*) محمد منير مرسي : التربية الإسلامية ـ القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٢ ـ ص ١٤٨ ـ ١٥٨ .

وفي الجاهلية كانت المرأة في وضع لا تحسد عليه فقد كانت مخلوقاً للخدمة والمتعة للرجل

وجاء الإسلام ليشرع للمرأة أول قانون كامل يضمن لها منزلتها وكرامتها ويحقق لها حياة تتفق مع طبيعتها ورسالتها .

وكان النبي ﷺ المثل الأعلى في معاملة زوجاته ، ويقول في ذلك « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرّته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها حفظته في ماله وعرضه » . ويقول أيضاً : « أكمل المؤمنون إيماناً أحسنهم خلقاً » ، « وخياركم خيارهم لنسائهم » وقوله في آخر خطبة له « استوصوا بالنساء خيراً » . وقد أسهمت المرأة المسلمة في كثير من جوانب الحياة الإسلامية منها السياسة وشؤون الحكم وإدارة شؤون الدولة والإصلاح الإجتماعي والحروب وغيرها من المجالات التي تزخر بها كتب التاريخ وسنعرض لبعض الأمثلة في كلامنا عن المرأة والتعليم .

المرأة والحجاب :

من الأخطاء الشائعة التي روج لها المغرضون أن حجاب المرأة نظام جاء به الإسلام وأصبحت المرأة المحجبة رمزاً للمرأة المسلمة .

والواقع أن حجاب المرأة كان معروفاً في المجتمعات القديمة قبل الإسلام ففي الهند القديمة كان نظام « البردة » Purda معروفاً . وتعني البردة « الستار » أو « الطرحة » تغطي بها المرأة وجهها عند خروجها من المنزل . كما كان لها في المنزل مكان خاص لها تنعزل فيه .

وكان حجاب المرأة وعزلتها في المنزل وخارجه معروفاً لدى اليونان القدماء . ويشير هوميروس في « الأوديسة » إلى « بنيلوب » زوجة يوليسيس كمثال على الزوجة الشابة المخلصة لزوجها الواقرة في منزلها . وكان الرومان

يحرمون على المرأة الظهور متزينة في الشارع . بل وحرموا عليها المغالاة في التزين في البيوت .

وكان حجاب المرأة معروفاً عند العبرانيين من عهد إبراهيم عليه السلام وظل معروفاً عندهم إلى ما بعد المسيحية . وقد تكررت الإشارة إلى « البرقع » في العهد القديم ، والتوراة و « العهد الحديث » أي « الإنجيل » .

ففي الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين عن « رفقة » أنها رفعت عينيها فرأت إسحاق « فنزلت عن الجمل وقالت للعبد : من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائي ؟ فقال العبد : هو سيدي .. فأخذت البرقع وتغطت » .

ويقول « بولس » الرسول في رسالة « كورنثوس الأول » أن النقاب شرف للمرأة فإن كانت ترخي شعرها فهو مجد لها لأن الشعر بديل من البرقع . . » .

وكانت المرأة عندهم تضع البرقع على وجهها حين تلقى الغرباء وتخلعه حين تنزوي في الدار بلباس الحداد[1] .

ويقول العقاد :

« جاء الإسلام والحجاب في كل مكان وجد فيه تقليد سخيف وبقية من بقايا العادات الموروثة لا يدري أهو أثرة فردية أم وقاية إجتماعية . بل لا يدري أهو مانع للتبرج وحاجب للفتنة أم هو ضرب من ضروب الفتنة والغواية . فصنع الإسلام بالحجاب ما صنعه بكل تقليد زال معناه وتخلفت بقاياه بغير معنى ، فأصلح منه ما يفيد ويعقل ولم يجعله كما كان عنواناً لإتهام المرأة أو عنواناً لاستحواذ الرجل على ودائعه المخفية . بل جعله أدباً خلقياً يستحب من الرجل ومن المرأة ولا يفرق بين الواجب على كل منهما إلاّ لما

---

(١) عباس محمود العقاد : المرأة في القرآن ـ دار الهلال ، ص ٦٣ .

بين الجنسين من فارق في الزينة واللباس والتصرف بتكاليف المعيشة وشواغلها »[1] .

وقد نهى الإسلام الرجال عن الزينة المخلة بالرجولة ونهى النساء عن التبرج وعدم إبداء زينتهن إلاّ ما ظهر منها . قال تعالى :

﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن . ﴾[2] . إلى آخر الآية الكريمة .

وقال تعالى :

﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن إتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً . وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[3] .

وقد استدعت هذه الآية الأخيرة اجتهاد المفسرين فجمهور المفسرين وغالبيتهم يفهمون من قوله تعالى « وقرن في بيوتكن » أنه أمر بالقرار أو الجلوس في البيت . وبعضهم يرى أن هذا الأمر مقصور على نساء النبي ﷺ فقط لأنهن المخاطبات في هذه الآية الكريمة . وبعض آخر يرى تعميم هذا الأمر على كل النساء باعتبار أن نساء النبي قدوةً حسنة لغيرهن من المسلمات وبعض الشراح أو المفسرين استنتج من ذلك أن المكان الطبيعي للمرأة هو المنزل وقيدوا خروجها منه .

وهناك تفسير آخر يورده أبو الأعلى المودودي في كتابه « الحجاب » ولم أقرأه عند أحد غيره هو أن الأمر في قوله تعالى « وقرن في بيوتكن » يعني الأمر بالوقار أي الاحتشام والتأدب وهذا تخريج لطيف لمعنى الفعل « وقر » الذي يحتمل المعنيين كما جاء في المعاجم اللغوية . تقول وقر في بيته وقرا وقورة

(١) المرجع السابق ص ٦٤ .
(٢) النور (٣١) .
(٣) الاحزاب (٣٢) ، (٣٣) .

أي جلس ووقر فلان وقاراً أي رزن رزانة[1] .

وقد استخدمت الكلمة بهذا المعنى الأخير في القرآن في قوله تعالى : ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ .[2]

ويقول العقاد أن المفهوم من الحجاب في الإسلام ليس إخفاء المرأة وحبسها في المنزل . فلا حجاب في الإسلام بمعنى الحبس والحجر والمهانة ولا عائق فيه لحرية المرأة حيث تجب الحرية وتقضي المصلحة . وإنما هو الحجاب مانع الغواية والتبرج والفضول وحافظ الحرمات وآداب العفة والحياء[3] .

المرأة والتعليم :

لم يرد نص من القرآن أو السنة يحرم تعليم البنت أو يفرض قيوداً على تعليمها بل إننا نجد على العكس من ذلك حث على طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم . وتنكير كلمة مسلم هنا يفهم منها الاستغراق كما يقول علماء البلاغة بمعنى أن نستغرق كل المسلمين وتشمل الذكر والأنثى على السواء .

وهناك كثير من الأمثلة والشواهد التي تلقي الضوء على تعليم المرأة في عصور الإسلام الأولى منها :

١ ـ يروي البلاذري في فتوح البلدان أنه عند مجيء الإسلام كان هناك خمسة من نساء العرب يقرأن ويكتبن منهن الشفاء بنت عبد الله العدوية التي كانت تعلم حفصة واستمرت في تعليمها بناء على طلب الرسول ﷺ حتى بعد زواجه منها . وروى الواقدي أن عائشة وأم سلمة زوجتي رسول الله ﷺ تعلمتا القراءة والكتابة .

---

(١) انظر المعجم الوسيط جـ١ ص ١٠٤٩ .
(٢) نوح (١٣) .
(٣) العقاد : المرجع السابق ص ٦٦ .

٢ ـ وقد ورد عن النبي ﷺ قوله : « خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء يقصد زوجته عائشة التي روت عنه ألف حديث رواية مباشرة وهو ما لم يتوفر لسواها . كما أنها برعت في قول الشعر وروايته ونقده .

٣ ـ وقد عقد محمد بن سعد جزءاً من كتابه « الطبقات الكبرى » لرواية الأحاديث عن النساء ذكر فيه ما يزيد على سبعمائة امرأة روين عن الرسول ﷺ وعن أصحابه الثقات .

٤ ـ ترجم ابن حجر في كتابه « الإصابة في تمييز الصحابة » لكثير من النساء المحدثات الثقات العالمات .

٥ ـ خصص كل من النووي في كتابه « تهذيب الأسماء » والخطيب البغدادي في كتابه « تاريخ بغداد » والسخاوي في « الضوء اللامع » حيزاً كبيراً للحديث عن النساء اللائي كن على ثقافة عالية لا سيما في العلوم الدينية ورواية الحديث . ومن بين هؤلاء الشهيرات في العلوم الدينية نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي وكانت من خيرة المحدثات في عصرنا وسمع عنها الإمام الشافعي عندما حضر إلى مصر .

كما كان هناك عالمات يجلسن للتدريس في المساجد للرجال والنساء على السواء . وكان يجلس في حلقاتهن مشاهير العلماء والمجتهدين .

٦ ـ كان عيسى بن مسكين (٢٧٥ هـ) يعلم طلبته في الصباح وبعد العصر كان يعلم بنتيه وبنات أخيه وحفيداته . وكذلك علم أسد بن الفرات بنته أسماء وعنى الإمام سحنون بتعليم بنته خديجة وكانت لها حلقة لتعليم النساء .

٧ ـ يذكر ياقوت في معجم الأدباء أن الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد قرأ صحيح البخاري على كريمة بنت أحمد المروزي وأنه كان لها دور كبير في تكوين هذا العالم الكبير كما يذكر أيضاً أن ابن عساكر في تعداده لأساتذته وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم ذكر من بينهم إحدى وثمانين امرأة .

٨ ـ وهناك أدلة كثيرة على وصول النساء العربيات إلى مكانة عالية في العلوم والمعارف المختلفة وكان من بينهن عالمات فاضلات تعلم على أيديهن كثير من رجالات الإسلام . فقد ذكر إبن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور التي يرجع نسبها إلى الحسن بن علي بن أبي طالب والتي ولدت بمكة المكرمة (١٤٥ هـ) وتوفيت بمصر سنة ٢٠٨ هـ ولها مقام معروف بإسمها ـ كان لها في مصر مجلس علم حضره الإمام الشافعي نفسه وسمع عليها فيه الحديث . وذكر أبو حيان من بين أساتذة ثلاثاً من النساء هن : مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي ، وشامية التيمية وزينب بنت المؤرخ والرحالة المعروف عبد اللطيف البغدادي صاحب كتاب « الإفادة والاعتبار » .

٩ ـ كتب التاريخ والأدب حافلة بأسماء مشاهير النساء المسلمات اللائي برعن في الأدب والشعر وقد ترجم السيوطي في مخطوطة « نزهة الجلساء في أشعار النساء » لسبع وثلاثين شاعرة . كما كان هناك نساء مسلمات برعن في صناعة الطب والجراحة والمداواة ، وكانت لهن شهرة كبيرة وقد ترجم ابن أبي أصيبعة لبعضهن في كتابه « طبقات الأطباء » .

واشتهرت كثيرات في الطرب والغناء وقد عرض الأصفهاني في كتابه الأغاني لذكر أسماء كثير منهن .

آراء علماء المسلمين في تعليم المرأة :

كان من الطبيعي بالنسبة لموضوع حساس مثل تعليم المرأة أن تكثر حوله الآراء وتتباين ويمكن بصفة عامة أن نقسم هذه الآراء إلى مجموعتين :

المجموعة الأولى :

تمثل آراء غريبة عن روح الإسلام وتراثه وتاريخه تفرض قيوداً كثيرة على تعليم المرأة لا سيما في الأمور التي تزيد من حريتها كتعليم القراءة أو الكتابة

أو الأمور التي يخشى منها فتنتها وانحرافها مثل قرض الشعر أو دراسته بل أن التحفظ بلغ أشده في تحريم تعليم المرأة لبعض سور القرآن الكريم مثل سورة يوسف لما يخشى عليها من الغواية . بل أن بعض الآراء تذهب إلى الاقتصار على تعليمها « سورة النور » من بين القرآن الكريم كله . وواضح أن كل هذه الآراء تحركها دوافع الغيرة الشديدة على المرأة والتخوف الشديد من كل ما يحتمل فيه مجال الغواية والانحراف لها .

المجموعة الثانية :

تمثل الآراء المعتدلة لعلماء المسلمين التي تتمشى مع روح الإسلام وتقاليده وتسلم بتعليم المرأة في إطار من الثقة الكاملة بأن تعليمها هو خير ضمان لعصمتها وحمايتها من الإنحراف والزلل .

وسنعرض في السطور التالية لكل مجموعة من هذه الآراء :

أولاً ـ آراء غريبة عن الإسلام :

ترددت بعض الآراء عن تعليم المرأة تعتبر غريبة عن روح الإسلام بل وعن تراثه وتاريخه كما أشرنا . فلقد رأينا كثيراً من النماذج لمسلمات مشهورات كان لهن باع طويل في العلم والتعليم . ومن هذه الآراء الغريبة :

١ ـ لا تعلموا بناتكم الكتاب (أي الكتابة) ولا ترووهن الشعر وعلموهن القرآن ومن القرآن « سورة النور » .

وقد أورده الجاحظ في كتابه البيان والتبيين (جـ ١ ص ١٨٠) وكأنه يتهكم عليه . كما فند شمس الحق العظيم أبادي أحاديث النهي عن تعليم المرأة الكتابة واعتبرها كلها باطلة وموضوعة وألّف في الرد على ذلك رسالته المسماة « عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان » .

٢ ـ ذهب القابسي إلى أن تعلم المرأة القرآن والعلم أما أن تعلم الترسل والشعر وما أشبهه فهو مخوف عليها .

٣ ـ ذهب أبو الثناء الألوسي إلى تحريم تعليم البنت الكتابة وقد ألّف كتاباً في هذا المعنى سماه « الإصابة في منع النساء من تعليم الكتابة »[١] ويسمى كتابه الإصابة أي وجه الصواب . وهو ليس كذلك كما سنرى من رد علماء المسلمين على ذلك .

٤ ـ أباح بعض علماء المسلمين تعليم الجواري دون الحرائر لأن تعليم الجارية يرفع ثمنها . وإذا كان التعليم يرفع من ثمن أو قيمة الجارية أليس تعليم الحرائر أولى وفيه أي التعليم كمال صفاتهن وخلقهن كما سنرى في كلام الشيخ الطهطاوي فيما بعد .

ثانياً ـ آراء معتدلة تتفق مع روح الإسلام :

١ ـ يعترف المربون المسلمون بحق البنت في التعليم إنطلاقاً من أن التكاليف الدينية واجبة على الرجل والمرأة وهذا يتفق مع روح الإسلام الحقيقية التي جعلت من طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة .

٢ ـ وكان الإمام محمد عبده من المؤمنين بضرورة تعليم المرأة وتنوير عقلها فقد رأى أن المرأة قد ضرب بينها وبين العلم بما يجب عليها في دينها ودنياها . ونادى بتكوين جمعية نسائية تقيم المدارس لتعليم البنات . وقد دافع عن تعليم المرأة مع تلميذه قاسم أمين فيما جاء بكتاب « تحرير المرأة » عن تعليمها .

٣ ـ يعتبر الطهطاوي التربية أساس صلاح المرأة وتمام كمالها ويرفع قدرها في نظر الرجل والتعليم يزيل عنها سخافة العقل والطيش الذي يصيب المرأة الجاهلة . كما أن التعليم يمكن المرأة من العمل على قدر قوتها وطاقتها . وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل . فالعمل

(١) إبراهيم العبيدي التوزري : تاريخ التربية بتونس ، جـ١ ، ص ١٢٢ .

يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة . ويرد الطهطاوي على التخوف من تعليم المرأة فيقول :

« إن التجربة في كثير من البلاد قضت أن نفع تعليم البنات لا ضرر فيه ويستعين أيضاً بما روى في كتب الأحاديث وما كان في زمن الرسول من تعليم النساء » .

والتعليم الذي يليق بالبنات في نظره هو القراءة والكتابة والحساب وبعض الصنائع كالخياطة والتطريز .

وهو يرد على من ذهب إلى تحريم تعليمهن القراءة والكتابة والحساب وبعض الصنائع وأنها مكروهة في حقهن لما قد يؤدي إليه تعلمها من إساءة إستخدام بأن ذلك لا ينبغي أن يكون على عمومه .

ويضرب أمثلة بمن كان يعرف القراءة والكتابة من زوجات النبي ﷺ وغيرهن من النساء في كل زمان .

ويرجع التشدد في عدم تعليم المرأة إلى المبالغة في الغيرة عليها وفي ذلك يقول :

« وليس مرجع التشدد في حرمان البنات من الكتابة إلّا التغالي في الغيرة عليهن من إبراز محمود صفاتهن أيا ما كانت في ميدان الرجال تبعاً للعوائد المحلية المشبوبة بجمعية جاهلية « ولو جرب خلاف هذه العادة لصحت التجربة » .

رابعا : تربية الطفل في الاسلام :

إن طفل اليوم هو أمل المستقبل ورجل الغد ، تنظر إليه أمته بعين الرجاء ، لهذا تبذل الدول أقصى جهودها في سبيل العناية بأطفالها في مجالات التربية ، والرعاية الصحية والاجتماعية اللازمة لهم .

ويتناول موضوع هذا البحث عدة قضايا هي :

١ ـ أسس منهج الاسلام في التربية .
٢ ـ الجوانب التي يهتم بها في تنشئة الطفل في الاسلام .
٣ ـ أوساط تربية الطفل في الاسلام .
٤ ـ المواد الدراسية المقررة .
٥ ـ وجهات نظر علماء المسلمين في مجال تربية الطفل .

ولكن لا يستطيع الباحث المنصف أن يقرر أن هذه الصفحات كافية لاعطاء هذا الموضوع العلمي حقه من البحث والدراسة ، ولكن يمكن الاعتراف بأنه جهد متواضع بذلته لفتح الطريق إلى دراسات أكثر شمولاً وعمقاً للوصول إلى تنشئة أطفالنا طبقاً لمعايير تربوية تتفق وتراث أمتنا الاسلامية .

أولاً : أسس منهج الاسلام في التربية :

يتلخص منهج الاسلام في التربية في مجموع الاجراءات التي تتبع في تربية الانسان لتحقيق أهداف التربية المنشود تحقيقها وتجسيد الفلسفة التي تقوم عليها . ومن أهم الأسس التي يقوم عليها هذا المنهج :

١ ـ الايمان الصادق :

فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، ضرورة من ضرورات الوجود الانساني ، وبدونه يعيش الانسان في حيرة وقلق .

فالتربية الايمانية تتطلب شروطاً لازمة في المربي ، وفي البيئة وفي الصحبة ، واستمرارية من المهد إلى اللحد ، وتطبيقاً عملياً في كل جانب من جوانب الحياة واتصالاً روحياً بين المربي والمتربي[1] .

٢ ـ العلم النافع :

وهو كل معرفة تزيد الانسان صلة بالله ، وتمكننا من القيام بواجبات خلافته في الأرض ، وعمران الحياة فيها ، وإقامة العدل الإلّهي بين الناس ، فالعلم في الاسلام مرتبط إرتباطاً وثيقاً بالأخلاق ، فهو ليس عرفاً ذهنياً معزولاً عن الحياة ومشاكلها ، لأن ذلك يخرجه عن إطاره النافع . قال تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[٣] . وفي القرآن الكريم أكثر من (٧٥٠) آية تتعلق بالعلوم الكونية ، بينما آيات الفقه لا تتعدى (١٥٠) آية .

٣ ـ الأخلاق الفاضلة :

قدّم القرآن الكريم دستوراً أخلاقياً شاملاً يقوم على أسس تتلخص في الالزام والمسؤولية والجزاء والنية والجهد .

ويمكن الرجوع إلى دراسة المرحوم الدكتور / محمد عبد الله دراز في هذا المجال[٤] . والحاسة الخلقية انبعاث فطري داخلي في النفس الانسانية منذ نشأتها ، قال تعالى : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾[٥] .

وفي الأخلاق اعتراف بالله مالك الملك ومجرى الخيرات وواهب النعم ، فغايتها الله ، نهتم فيها بأمور الدنيا والآخرة .

٤ ـ العمل الصالح :

وهو نتيجة طبيعية للايمان الصادق والعلم النافع والأخلاق الفاضلة . قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ويتردد ذلك في مواضع عديدة .

ويعرف الرسول ﷺ الايمان بأنه « ما وقر في القلب وصدقة العمل » وقال ﷺ « تعلموا العلم فإذا علمتم فاعملوا ».

وقال أيضاً ﷺ « تعلموا العلم وانتفعوا به ، ولا تتعلموا لتتجملوا ». وقوله ﷺ « لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً » . وقال تعالى : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾[٦] . وقال تعالى : ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وإن إلى ربك المنتهي ﴾[٧] .

ثانياً : الجوانب التي يهتم بها في تنشئة الطفل في الاسلام :

التربية الاسلامية هي تنشئة الطفل وتكوينه إنساناً متكاملاً من جميع نواحيه المختلفة من الناحية الصحية والعقلية والروحية والأخلاقية ، وفي ضوء المبادىء التي جاء بها الاسلام ، وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي بينها ، فقد اهتم بهذه الجوانب التربوية في تربية الطفل في الاسلام .

١ ـ الناحية الصحية :

كانت لدى المسلمين مبادىء تربوية يعتمدون عليها في تنشئة أطفالهم ومن ذلك ما ورد في صحيح البخاري ، أن الرسول ﷺ قال لرجل يكثر من الصلاة ويصوم ولا يفطر « إن لبدنك عليك حقاً »[٨] .

وكان رجال الفكر التربوي في الاسلام يدركون أن من طبيعة الطفل أن يكون نشيطاً كثير الحركة ، وكانوا يغذون فيه هذه الطبيعة ، ويقرر الغزالي بأنه ينبغي أن يؤذن للطفل بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح من تعب الكتاب ومنع الصبي من اللعب وإرهاقه بالتعليم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاؤه[٩] . وقد نصح عمر بن الخطاب الناس بتعليم أولادهم السباحة والرماية وركوب الخيل .

٢ ـ الناحية العقلية :

وضع الاسلام منهجاً تربوياً يخطط فيه طرق تنمية القدرات العقلية ومداركها ، بحسب نمو الطفل ، مراعياً في ذلك طبيعة الفروق الفردية في أساليبه التربوية :

(أ) فقد كان هناك مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم ، فالتعليم للجميع ، للغني والفقير على حد سواء ، وكان بالمجان دون قيد أو شرط ، وكان نظام حلقة الدراسة في المسجد يسمح بإنضمام كل من يريد الانضمام إليه في أي وقت ، وتحدثنا كتب تاريخ التربية الاسلامية عن طرب فقراء أصبحوا أغنياء بفضل هذا المبدأ .

(ب) كانت توجه عناية خاصة للطلاب الموهوبين الذين تبدو عليهم مخايل الذكاء والفطنة يحدثنا الغزالي أنه ليس الظلم في إعطاء العلم لغير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق[١٠].

(جـ) وجه العلماء المسلمين المربين نحو مراعاة استعداد المتعلمين وضرورة التعرف على طبائعهم وطباعهم ، وسوف أتعرض لهذا الموضوع في معالجتي له في الجزء الخامس الخاص بوجهات نظر علماء المسلمين في مجال تربية الطفل .

٣ ـ الناحية الروحية :

إن موضوع التربية الاسلامية هو الانسان بكل ما تتضمن كلمة الانسان من معان وإستعدادات في نظر الاسلام ، فالتربية في الاسلام كالزرع عندما تبذر البذرة الصالحة لتتعهدها في تربة صالحة فكذلك الانسان يوجد عنده استعداد روحي وأخلاقي ولا تنمو هذه الاستعدادات إلا إذا نميت وغذيت بالأخلاقيات الروحانيات .

قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء

بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيما هم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الأنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع﴾(١١) .

٤ ـ الناحية الخلقية :

فالتربية الأخلاقية تطهر النفس من الرذائل وتنمي فيها روح الخير وتوقظ الضمير فتحسن معاملة الانسان مع غيره ، وقد اهتم الاسلام بالتربية الأخلاقية ، فاهتم بتنشئة الطفل على المبادىء الأخلاقية وتكوينه تكويناً كاملاً .

ثالثاً : أوساط تربية الطفل في الاسلام

يمكننا تحديد أوساط تربية الطفل في الاسلام بالبيت والمسجد والكتاب ثم المدرسة ودور المكتبات .

١ ـ البيت :

(أ) كان للبيت دور رئيسي في غرس أسس منهج التربية الاسلامية في الايمان بالله وكتبه ورسله وفي التحلي بالأخلاق الحميدة ، وإحترام معلميهم .

(ب) ومن طبائع الأشياء حين يلتزم المسلمون بالأخذ بتعاليم الاسلام أن يبرز دور الأسرة في تربية الطفل حتى قبل الميلاد ذلك أن الاسلام يؤكد ضرورة اختيار الزوجة الصالحة والمؤمنة لتكون مع زوج صالح ويتدرج ذلك حتى في البضع حين يقدر للنطفة أن تتكون فتكون باسم الله وحتى في الحمل وهي تتدرج في النمو يكون غذاؤها من حلال وحتى حين يرى الطفل الدنيا لأول مرة يكون أول ما يتطرق إلى سمعه هو اسم الله ويحمل خير الأسماء ، ويطعم ويغذي من حلال وبالحنان ، ويحرص الاسلام كل الحرص على أن يكون للأسرة دورها في مده بكل الفضائل وتعويده كل الخصال الحميدة ، فما نحل والد ولده نحلة خيراً من خلق حسن .

(جـ) كما اهتم المسلمون بما بين البيت والمدرسة من علاقات ، فقد جاء في كتاب مؤلفه مجهول هو «كتاب الارشاد والتعليم» لبعض رجال الصوفية :

« والطفل صورة عائلته ، فكل ما فيها من خير أو شر ، وكل ما سمعه ورآه ينطبع فيه ، ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور في تربية الأبناء ومن ربى ماله وما لم يرب ولده فقد ضيع الولد والثروة[١٢] ، وتربية الفضائل لا يمكن أن تكتسب في المدارس ، بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعي الخطاب ويفهم الكلام ، وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعاً الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة ، يؤثرون عليه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم ، ثم إذا أضفنا ما تحتاجه هذه التربية من العناء والصبر ، والعقل والحنو والمحبة الخالصة ، حكمنا بأنها لا تتم إلا بواسطة من انتخبتهم الفطرة الالهية لهذه المأمورية العالية وهم الوالدان[١٣] .

٢ ـ المسجد :

(أ) كان المسجد بجانب كونه مكاناً للعبادة ، مكاناً لتعليم الأولاد ، والكبار بل كان محكمة للتقاضي ، ودارا لاستقبال السفراء .

(ب) وكان في المساجد حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها رواتب ، ولم تكن هذه الحلقات العلمية مقصورة على الدراسات الدينية ، وإنما تعدتها إلى سواها من معارف ذلك العصر ، مثل مبادىء علم الكلام ، والدراسات اللغوية والأدبية .

(جـ) إن ما يهمنا إبراز دور المسجد في تربية الطفل ، لقد كانت تقوم بدورها إلى جانب الكتاب فقد كان القرآن الكريم يتم تعليمه في أول الأمر في المساجد ، وليس في الكتاب التي كانت وظيفتها الأساسية تعليم القراءة والكتابة .

(د) والمسجد كدار للعبادة تمارس فيها الصلاة وبالأخص الصلاة

الجامعة تغرس العادات التربوية التي تربي في الأطفال الخشوع والطاعة ، والصلاة بما فيها من معاني عديدة كالوضوء والطهر والنظافة ، وبما تتضمن من التوجه لقبلة واحدة حيث الطواف والحج ، وبما في الصلاة من انقطاع عن الطعام وصلة ذلك بفريضة الصوم ، وبما يبذل فيها من وقت في سبيل الله وجهد يقدم طاعة لله وارتباط ذلك بما تتضمنه فريضة الزكاة ، وبما فيها من ذكر الله ووحدانيته ، ومعاني القيادة والامامة والانتظام ، كل هذه معاني إسلامية ينشأ الطفل متعلقاً بها بجانب حلقات العلم والدروس الدينية .

٣ ـ الكتّاب :

(أ) من الذي يقوم بالتدريس في الكتّاب ؟ وما هو شكله والغرف التي تكون في الكتّاب ؟ ومتى يذهب الطفل إليه ؟ وما هي العطلات التي كانت تمنح له ؟ ومتى يلحق الصبي بالكتّاب ومتى يتخرج منه ؟ وهل كان هناك أسلوب لتقويم الأطفال وتشجيعهم ؟

(ب) في الحقيقة هذه أسئلة تحتاج إلى دراسة عميقة يرجع فيها إلى الكتب العربية التي تناولت تربية الطفل في الاسلام[١٤] وغيرها من كتب تاريخ التربية والتعليم في العصر الحديث[١٥] .

(جـ) كانت مدة بقاء الطفل في الكتّاب خمسة أعوام أو ستة على الأكثر وتكون في الغالب ابتداء من السنة الخامسة أو السادسة من عمره إلى السنة العاشرة أو الحادية عشرة .

(د) كان الطفل يحفظ خلال هذه الفترة القرآن الكريم كله أو بعضه عن ظهر قلب ويتقن فن الخط والكتابة ، ويلم بمبادىء العربية ، ومبادىء الحساب الأولية .

(هـ) وإذا تم الطفل مدة الدراسة في الكتّاب وحفظ القرآن امتحنه المعلم لمعرفة ذلك والتأكد منه ، فإذا اجتاز الامتحان احتفل بالختمة ثم

يدخل في معركة الحياة العملية ، أو يبدأ بالدراسة الثانوية فالعالية إذا ما أراد ذلك .

٤ ـ المدرسة :

(أ) ظل الكتّاب والبيت والمسجد كأوساط لتربية الطفل تلعب دوراً رئيسياً حتى انتقل التعليم من المساجد كأماكن للتعليم إلى المدارس ولكن ظل الكتّاب يلعب دوره في تربية الطفل بجانب المدرسة .

(ب) ويغلب أن المدارس لم تعرف في عهد الصحابة والتابعين ، ولم تنشأ إلا في نهاية القرن الرابع الهجري ، وما يهمنا التعرف على المناهج التربوية التي كانت تدرس فيها .

(جـ) فنحن إذا رحنا نتتبع المناهج التي ذكرها المؤلفون الاسلاميون في متبهم في القديم والحديث نجدها كلها تحوم حول محورين :

١ ـ محور المواد الواجب درسها : درس القرآن الكريم ، بعض أخبار السنة ومعرفة أوليات الدين والعربية والحساب .

٢ ـ محور يتوسع فيه بدراسة علوم القرآن والدين وبحوث اللغة وآدابها ودراسة الحساب وما إليه من العلوم .

وهذه المناهج ، كانت متبعة منذ زمن الرسول وخلفائه الراشدين والأمويين ، وصدر العباسيين ثم تطورت المناهج لعلوم أخرى ليس هنا مجال ذكرها وليس لتربية الطفل موضوع البحث علاقة بها .

(د) والخلاصة أن المدرسة في الاسلام تقابل الجامعة في عصرنا الحديث ، ولم يستخدم المسلمون ـ طوال العصور الوسطى ، مصطلح الجامعة ، وإنما اطلقوا اسم المدارس على معاهد التعليم العالي .

(هـ) ومن المهم أن نعرف كذلك أن المدرسة الاسلامية كانت مكاناً تقام فيه الشعائر الدينية ، فقد استعملت أيضاً كمسجد تقام فيه الصلوات

الخمس فضلاً عن صلاة الجمعة والعيدين . أي أن المدارس كانت مكان عبادة ودرس ، والمساجد ظلت مكان عبادة ودرس ، وكل ما في الأمر أن المدرسة غلبت عليها صفة الدراسة ، والمسجد غلبت عليه صفة العبادة .

٥- المكتبات :

(أ) روى المؤرخون عن مكتبات في معظم المساجد والجوامع والمدارس ودور الحكمة ودور العلم لتكون مرجعاً للطلبة والعلماء والنسّاخ .

(ب) ويدل ذلك على تقدير المسلمين للكتب وإعجابهم بها وإهتمامهم بالمكتبات وإقبالهم عليها وعلى تكوينها ، وذلك لأثرها الكبير في المساهمة في تربية الأطفال والكبار على حد سواء .

(جـ) فقد كان عند المسلمين ثلاثة أنواع : مكتبات عامة ، ومكتبات بين العامة والخاصة ، ومكتبات خاصة[١٦].

رابعاً : المواد الدراسية المقررة في مجال تربية الطفل في الاسلام :

١ ـ تمكنت بعد الرجوع إلى المراجع العربية التي عالجت موضوع التربية بصفة عامة وتاريخ التربية الإسلامية خاصة وكذلك الدراسات التي خصصها أصحابها من علماء المسلمين لتربية الأولاد أو الأطفال ، أن أحدد المواد الدراسية التي كانت مقررة على الأطفال فيما يلي :

١ ـ قراءة وكتابة القرآن الكريم
٢ ـ الحديث .
٣ ـ الفقه
٤ ـ قواعد اللغة العربية
٥ ـ الأشعار
٦ ـ قصص الأنبياء

٧ - تقويم البلدان
٨ - رواية الأخبار
٩ - الحساب .

٢ - وقد لاحظت أن المسلمين في تربيتهم لأطفالهم كانوا يعتنون بالقرآن الكريم عناية شديدة ، وأقدم كتب التربية فيما نعلم هو كتاب « آداب المعلمين » مما دونه الامام العربي الفقيه محمد بن سحنون المغربي المتوفى عام ٢٢٦ هـ عن أبيه الفقيه سحنون ، وقد اشترط إبن سحنون على المؤدب أن يتعلم الطالب فنوناً وعلوماً جعلها على قسمين :

١ - أحدهما إجباري : وهو القرآن مع إعرابه ورسمه وشكله وإتقان هجائه وقراءته قراءة حسنة ، والأنسب أن تكون قراءة نافع لأن مالكاً أمام المغاربة أخذ عن نافع ، وليحذر المعلم من التغني بالقرآن والتلحين والترجيع .

٢ - والثاني اختياري : وهو الذي لا يجبر المعلم على تعليمه ما لم يشترط الولي على المؤدب ذلك وهو علم الحساب ثم الشعر فإنه ديوان العرب ومعجم لغتهم ثم أخبار العرب وأنسابهم ثم النحو والغريب ثم الخط الحسن ثم تدريبهم على الخطابة .

٣ - وهكذا نرى أن المسلمين كانوا يبدأون في إقراء الطفل بجملته ثم يعمدون إلى تحفيظه إياه كله أو ما تيسر منه ، وقد يبدأ المعلم بإعراب بعض آياته ، وتفسير غريبة تفسيراً وجيزاً وطريقة ترتيله وتجويده ، كما يعلمهم مبادىء العلوم والآداب التي تعينهم على فهم معاني كتاب الله .

٤- ويظهر أن هذه الطريقة كانت متبعة في أكثر أنحاء العالم الإسلامي ، إلا الأندلس ، كما يظهر أيضاً أن الإمام أبا بكر بن عربي العالم الأندلسي المشهور المتوفى عام ٥٤٣ هـ قد إنتقد هذه الطريقة بعد أن طاف في العالم الإسلامي ووجد أن أطفال المسلمين في كافة أصقاع الإسلام التي

زارها يبدأون بتعلم القرآن دون أن يعوه ، فانتقد ذلك ، وجاء ابن خلدون وعقد فصلاً « لبيان تعليم الولدان وإختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية وطرقه » وقد فضل إبن خلدون الطريقة المتبعة في سائر ديار الإسلام على الطريقة التي يقترحها القاضي ابن العربي ، وكان إبن خلدون يرى أيضاً أن القرآن هو أصل التعليم وأول ما ينبغي تعليم الولدان .

٥ - ويمكننا تلخيص ما ذكره ابن خلدون في المواد الدراسية ونظام البدء بها في الأمصار وإختلافهم في ذلك فيما يلي :(١٧)

١ - أهل المغرب :

كانوا يقتصرون في تعليم أولادهم على دراسة القرآن وتعليمهم القراءات المختلفة والكتابة وقلما يخلطون ذلك بسواه من الحديث أو الفقه أو الشعر قبل أن يتقن الوليد قراءة القرآن ويجاوز سن البلوغ ، ولذلك فقد كان أهل المغرب أقوى على حفظ القرآن ورسمه من سواهم .

٢ - أهل الأندلس :

فقد كانوا يعلمون القرآن ولكنهم لا يقتصرون عليه بل يخلطون به رواية الشعر وقواعد اللغة العربية ورواية الأخبار والكتابة والحساب وتقويم البلدان ، فلا يعتنون بالقرآن أكثر من عنايتهم بسواه بل أنهم كانوا يعتنون بالخط ولذلك فقد كان المتعلم الاندلسي لا يكاد يبلغ سن الشباب حتى يكون قد أخذ ببعض العلم في كل الفروع .

٣ - أهل المشرق :

فقد كانوا يخلطون التعليم كأهل الأندلس إلا أنهم يعتنون بالقرآن أكثر من غيره ولا يعتنون بالخط عناية أهل الأندلس به وإنما كانت له معاهد خاصة ومعلمون متخصصون .

خامساً : وجهات نظر علماء المسلمين في مجال تربية الطفل :

تمكنت من التعرف على آراء علماء المسلمين في مجال تربية الطفل وصنفتها تحت الموضوعات التالية :

١ ـ تعليم القرآن الكريم
٢ ـ مراعاة استعداد المتعلمين والتعرف إلى طبائعهم وطباعهم .
٣ ـ معاملة الأطفال
٤ ـ المعلمون أو معلم الأطفال

مع مراعاة أنه إختصاراً للعرض اكتفيت بهذه الموضوعات ، وراعيت في عرضي لآرائهم التسلسل الزمني لهؤلاء العلماء ، وما سبق دراسته نبهت إليه وفيما يلي عرض لوجهات نظرهم :

١ ـ تعليم القرآن الكريم :

١ ـ وقد سبق دراسة آراء ابن عربي وابن خلدون في ذلك عند الحديث على المواد الدراسية المقررة ، وقد كان علماء المسلمين يولون هذا الموضوع إهتماماً كبيراً فخصص لها محمد بن سحنون المتوفي عام ٢٢٦ هـ الفصل الأول من كتابه وعنوان الفصل « ما جاء في تعليم القرآن العزيز » وقد سبق أيضاً توضيح رأيه .

٢ ـ كما خصص القابسي[١٨] المتوفي عام ٤٠٣ هـ الفصل الأول بعنوان « ما جاء في فضائل القرآن وما لمن تعلمه وعلمه وآداب حامله ومن يعلم الاناث » وهكذا يبدو لنا إتجاه علماء الاسلام نحو هذه المبادىء التربوية التي تؤيد تعليم القرآن من قراءة وكتابة وتجويد وغير ذلك من العلوم التي تساند تعلمه ، وذلك يرجع إلى تمسكهم بمنهج إسلامي له طابعه وشخصيته .

٢ ـ مراعاة إستعداد المتعلمين والتعرف على طبائعهم وطباعهم :

١ ـ تناول الفارابي[١٩] بالدراسة القوى الإنسانية التالية : القوة الغاذية ،

والقوة المتخيلة ، والقوة الناطقة ، والقوة النزوعية ، وهذا يدل على اهتمام علماء الإسلام بأبحاث علم النفس الصادقة المأخوذة عن التجارب والدراسات الشخصية ، وهو بهذا يوجه المعلمين والمربين من أهل الملة المحمدية إلى تهذيب ناشئة الملة وتأديب أبنائها من شباب وبنات تهذيباً رفيعاً معتمداً على أصول علم النفس ودراسة الانسان .

٢ ـ كما نجد في رسائل اخوان الصف[٢٠] مباحث علم النفوس والعقل والمعقول والحاس والمحسوس ، والعلة والمعلول والنظر في أسرار الكتب الإلّهية والتنزيلات النبوية وما إليها ، وهم يرون أن قبول الصبيان تعلم الصنائع يختلف بحسب إختلاف طبائعهم المختلفة ، وإختلاف طبائعهم بحسب مواليدهم ، ويرون أن صناعات الأباء أنجع في الأولاد من صناعات الأغراب وإن إختلاف أخلاق الناس وطبائعهم سببه لأربعة أشياء :

(أ) اخلاط أجسادهم ومزاج أخلاطها .
(ب) تربة بلدانهم وإختلاف أهويتها .
(جـ) نشوؤهم على ديانات آبائهم ومعلميهم .
(د) موجبات أحكام النجوم في أصول مواليدهم .

٣ ـ ومن الأمور الطريفة أيضاً التي تناولها الفيلسوف الشيخ الرئيسي ابن سينا[٢١] . التعرف على طبع الصبي وقريحته وذكائه .

٤ ـ كما نصح الغزالي المعلم بأن يقتصر مع المتعلم على قدر فهمه فلا يعلمه ما لا يبلغه عقله ، وبأن يتدرج المعلم مع الطالب فإن كان قاصر الفهم بسّط له الأمور وإن كان ذكياً لم يضيع وقته بالتافه منها .

٥ ـ ويرشدنا إبن خلدون إلى أن أنجع الطرق في التعليم أن يكون بالتدريج شيئاً فشيئاً يلقي على الطالب أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعي في ذلك قوة عقله وإستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي في آخر العلم ، وعند ذلك

يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة وغايتها أنها هيأته لفهم العلم وتحصيل مسائله ، ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك المرتبة إلى أعلى منها ويستوي الشرح بالبيان .

٣ ـ معاملة الأطفال :

١ ـ عقد ابن سحنون فصلاً في كتابه السابق الإشارة اليه ، وهو الفصل الثاني بعنوان : ما جاء في العدل بين الصبيان .

٢ ـ كما نصح الغزالي في أحياء علوم الدين المعلم الرحمة بالمتعلم والشفقة عليه وأن يعاملهم كولده ، وأن يقوم اعوجاج المتعلم بأسلوب حكيم ما أمكن ذلك .

٣ ـ ويوجه ابن خلدون في مقدمته نظر المعلمين إلى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم لا سيما في أصاغر الولد ولا ينبغي لمؤدب الأطفال أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إلى ذلك على ثلاثة أسواط .

٤ ـ معلم الأطفال :

١ ـ لم ينس ابن سحنون في كتابه عن « آداب المعلمين » أن يخصص فصولاً عن المعلمين فيما يلي :

الفصل الخامس : ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم .

الفصل السابع : ما يجب للمعلم من لزوم الصبيان .

الفصل الثامن : ما جاء في إجارة المعلم ومتى تجب .

٢ ـ كما أوضح القابسي في رسالته المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين آراءه وعقد لذلك فصلين :

الفصل الثاني : ما يأخذه المعلمون على المتعلمين .

الفصل الثالث : سياسة معلم الصبيان وقيامه عليهم وعدله فيهم وكيف

يرتب لهم أوقاتهم لدرسهم وكتابتهم وأوقات بطالتهم ، والمكان الذي يعلمهم فيه وهل يشترك معلمان أو أكثر .

الفصل الرابع : الأحكام بين المعلمين والصبيان .

٣ - ويشترط ابن سينا في معلم الأطفال أن يكون عاقلاً ذا دين بصيراً برياضة الأخلاق حاذقاً بتخريج الصبيان وقوراً رزيناً بعيداً عن الخفة والسخف قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي .

٤ - وقد حدد الإمام الغزالي واجبات المعلم فيما يلي :

١ - الرحمة بالمتعلم والشفقة عليه وأن يعاملهم كولده .

٢ - ألا يطلب على التعليم أجراً فإن أجره عند الله .

٣ - أن لا يدع نصح المتعلم وينبهه على أن الغرض من العلم هو التقرب من الله دون الرياسات والمباهاة .

٤ - أن يقوّم اعوجاج المتعلم بأسلوب حكيم ما أمكن ذلك .

٥ - أن لا ينفره من غير العلم الذي يعلمه إياه كأن ينفر معلم الفقه من علم اللغة .

٦ - أن يقتصر مع المتعلم على قدر فهمه فلا يعلمه ما لا يبلغه عقله .

٧ - أن يتدرج مع الطالب فإن كان قاصر الفهم بسّط له الأمور وإن كان ذكياً لم يضيع وقته بالتافه منها .

٨ - أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فإن تكذيب الفعل القول من مفسدات التعليم .

٩ - أن يقرّب الطالب من مباحث الصوفية وأهل الورع والدين ما استطاع فإن هذا هو الفوز المبين .

وهكذا نرى علماء المسلمين ينظرون إلى الموضوعات التي تتعلق بتربية

الطفل نظرة كلها جد وإحساس بالمسؤولية والاهتمام .

ويمكن للباحث المدقق أن يظهر وجهات نظرهم في موضوعات أخرى مثل نظرتهم إلى تعليم البنات ، والآداب التي كان على طلاب العلم مراعاتها والقواعد والأصول التي يرون الأخذ بها وغير ذلك من موضوعات .

سادساً : وجهة نظر الباحث :

١ ـ بعد هذه الرحلة القصيرة التي شاهدنا فيها معالم حضارتنا ونهضة أمتنا الإسلامية يحق لنا أن نقف وقفة نراجع فيها أنفسنا ونكاشفها بصراحة ووضوح لنحدد لأنفسنا الطريق الذي سار فيه آباؤنا في تربية أبنائهم .

٢ ـ وقبل كل شيء أتساءل :

هل تبني الحضارات بمحض الصدفة ؟ أو أنها يمكن أن توجد بدون تخطيط ؟ هل الأمة الإسلامية في مجدها وعزها لجأت إلى حضارة اليونان أو الرومان وإستعارتها لتواكب التطور والتجديد ؟

ما هو أساس تربية الطفل في الإسلام ؟ هل اعتمدت تربيته على القرآن فقط ؟ هل كان علماء المسلمين ينظرون إلى تربية الطفل نظرة استهتار وترف ؟

٣ ـ كل هذه التساؤلات تثير مشكلة وتحتاج الإجابة ، والإجابة والألم يحز في نفسي وصل إليها الباحثون في دراساتهم(٢٢) منذ سنوات بل قل منذ آلاف السنين ، وهاأنذا أردد دعوتهم ، متوجهاً وجهتهم لا حباً في التقليد ، ولكن رغبة في بعث تراث أمتنا التليد :

٤ ـ لم يبن آباؤنا الحضارة الإسلامية إعتباطاً ولا جزافاً وإنما هي مبنية على أسس قوية ، وقواعد ثابتة مدروسة تهدف إلى إنشاء الفتى العربي حراً في نفسه مستقلاً في تفكيره واثقاً من أقواله لا يصدر آراءه وأحكامه إلا بعد التفكير والاختبار لا عن تقليد أو اضطرار .

٥ ـ كما أنهم ما كانوا يحشرون العلم في ذهنه حشراً ، أو يرغمونه على الحفظ وحشو الدماغ حشواً ، بل يتركون له حرية القراءة والإستيعاب ، والحفظ ، ولا يقسرونه على شيء وكانوا يحرصون على تنمية ملكاته متبعين في ذلك سنة الكون وعامل الزمن .

٦ ـ ظهر لنا من خلال التعرف على المواد الدراسية المقررة في مرحلة الطفولة في الإسلام أن الأساس فيها هو القرآن الكريم والحديث النبوي وبمعنى أشمل تعد المواد الدينية أساساً لتربية الطفل بالاضافة إلى مواد دراسية أخرى ، وهذا يدفعنا إلى الرجوع إلى نظامنا التعليمي الإسلامي ، ذلك أن مسألة التعليم في البلاد الإسلامية مسألة مستقلة قائمة بذاتها ، لأن الأمة الإسلامية أمة خالصة في طبيعتها ووضعها ، هي أمة ذات مبدأ وعقيدة ، ورسالة دعوة ، فيجب أن يكون تعليمها خاضعاً لهذا المبدأ والعقيدة وهذه الرسالة والدعوة ، فالعلوم التي أنشأها الإسلام ، وصاغها في قالبه ، قد سرت فيها روح الإيمان بالله والتقوى والخشية لله والفضيلة والإيمان بالآخرة .

٧ ـ إننا في البلاد الإسلامية في حاجة ملحة إلى نظام تعليمي إسلامي في الروح والوضع والسبك والترتيب ، لا يخلوا كتاب من الكتب التي تعلم مبادىء اللغة إلى آخر كتاب يدرس في العلوم الطبيعية ، أو الآداب الانجليزية من روح الدين والإيمان هذا إذا أردنا أن ينشأ جيل جديد يفكر بالعقل الإسلامي ويكتب بقلم مسلم ، ويدير دفة البلاد بسيرة مسلم ، وتكون البلاد الإسلامية ، إسلامية حقاً في عقلها وتفكيرها وسياستها وماليتها وتعليمها .

٨ ـ لم يعد هناك مجال للتردد في الغيرة على تربيتنا الإسلامية فننشأ أطفالاً لنا تنشئة إسلامية تتفق ومتطلبات العصر ، فلا نقتصر على العلوم الدينية بل لا بد من دراسة العلوم العصرية الجديدة .

٩ ـ وأخيراً فإنه لا بد من ناقوس ينبه الأمة الإسلامية فتنظر إلى اليابان البوذي الذي أبى وأبت الهند البرهمية بل وألحتا على أن يكون التعليم والثقافة

مصطبغين بصبغتهما الخاصة ، وفلسفتهما العريقة في القدم ، وإضافة إلى ذلك فالبلاد السوفياتية التي رفضت الأديان قاطبة وقطعت شوطاً بعيداً في حرية الرأي ، وشاع عنها أنها تمنح كل إنسانٍ حق الأخذ بما يحب ويختار ، وحاربت فكرة تقديس جميع أفراد البشر وفيهم الأنبياء والرسل والزعماء الروحيون ـ إن هذه البلاد لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ إنساني عالمي وتراث بشري مشاع ، وماء صافي سائغ لا يتلون بلون ، ولم تسمح بإستيراد منهج من مناهج التعليم خارج المعسكر الشيوعي .

الهوامش والمراجع

١ ـ زغلول راغب النجار. أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية (٢)، مجلة المسلم المعاصر (بيروت)، العدد (٢) أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٧٧، ص ١٣٥ ـ ١٤٣. أنظر أيضا قائمة المراجع عن موضوع التربية الإسلامية بنفس العدد من المجلة المذكورة ص ١٦٥ ـ ١٧٣.

٢ ـ سورة آل عمران آية (١٨).

٣ ـ سورة الزمر آية (٩).

٤ ـ محمد عبدالله دراز ـ دستور الأخلاق في القرآن La Morale du Koran ، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، تعريب وتحقيق وتعليق عبدالصبور شاهين، مراجعة السيد بدوي ، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٩٧٣ . وهي رسالة الدكتوراه التي حصل عليها الدكتور دراز عام ١٩٤٧ من السوربون بباريس وطبعت النسخة الفرنسية على حساب مشيخة الأزهر الشريف عام ١٩٥٠.

٥ ـ سورة الشمس آية (٧ ، ٨).

٦ ـ سورة الملك آية (٢).

٧ ـ سورة النجم آية (٣٩ ـ ٤٢).

٨ ـ صحيح البخاري، جـ ٣، ص ٤٨٩ .

٩ ـ الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ). إحياء علوم الدين، القاهرة، ١٣٠٦ هـ جـ ٣ ص ٥٩ .

١٠ ـ الغزالي، نفس المرجع جـ ١ ص ٤٧ .

١١ ـ سورة الفتح آية (٢٩).

١٢ ـ أحمد شلبي .

تاريخ التربية الاسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦ نقلا عن كتاب الارشاد والتعليم ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣ .

١٣ ـ أحمد شلبي : نفس المرجع نقلاً عن تعليم المتعلم للزرنوجي، اسطنبول، ١١٩٢ هـ ص ١٥ .

١٤ ـ أنظر: العقد الفريد لإبن عبد ربه جـ ١ ص ١٦٥ ، وكتاب آداب المعلمين لمحمد بن سحنون ٤٩ ـ ٥٧، ورسالة السياسة لإبن سينا في مجلة المشرق البيروتية جـ ٩ ص ١٠٤٧ .

١٥ ـ أنظر كذلك بالنسبة لكتب التربية في العصر الحديث الدراسات المنشورة باللغة العربية مثل كتاب الدكتور أحمد شلبي : المذكور سابقا، وكتاب الدكتور محمد أسعد طلس: التربية والتعليم في الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٧، وانظر أيضا الكتب المنشورة في العصر الحديث باللغة الانجليزية:

Ahmad, Khurshid. «Principles of Islamic Education. Lahare, Islamic Publications Ltd., 1974.

Tibawi, AIL. «Islamic Education; 1 to traditions and modernization into the Arab National Systems, London, 1972.

Quraishi, Mansoor. «Some aspects of Muslim Education. Center of advanced study in Educatin, University of Garoda. 1970

١٦ ـ أنظر عن المكتبات في الإسلام المراجع التالية:
مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا: (المكتبات الخاصة والعامة)
ماهر حماده: المكتبات في الإسلام.
وانظر كذلك المرجع التالي: Tadorer, S.K.
Muslim Libraries., Chicago: Medieval Library, 1939.

١٧ ـ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد المتوفى عام ٨٠٨ هـ.
المقدمة، القاهرة، ١٢٨٤ هـ ص ٣٩٧ ـ ٣٩٩.

١٨ ـ القابسي، أبو الحسن علي بن خلف المتوفى عام ٤٠٣ هـ.
الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين.
القاهرة، نشرها الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في ذيل رسالته التي نال بها درجة الدكتوراة وموضوعها «التعليم في رأي القابسي» ونشرت أخيراً في كتابه المعنون «التربية في الإسلام».

١٩ ـ الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن اوزلغ ٢٥٩ ـ ٣٣٩ هـ.
كتاب السياسة، نشر مجلة المشرق البيروتية، السنة الرابعة.

٢٠ ـ رسائل اخوان الصفا، طبعة مصر.

٢١ ـ ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي ٣٧٠ ـ ٤٣٨ هـ.
كتاب السياسة، نشر الأب لويس شيخو اليسوعي، مجلة المشرق البيروتية المجلد (٩).

٢٢ ـ أنظر: محمد أسعد طلس.
التربية والتعليم في الاسلام ص ٢٠٥.
وأنظر أيضاً: أبو الحسن الندوي.
نحو التربية الاسلامية الحرة. القاهرة، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، ١٩٧٤ ص ٣، ٤، ٥، ٦، ٤٠.

خامسا : المكتبات في الاسلام :

تتسم المكتبات في الإسلام بطابع فريد يجب دراسته للتعرف على جوانب حضارتنا العربية الإسلامية . فما هي فلسفة المكتبات في الإسلام ؟، وماذا عن الهيكل التنظيمي لهذه المكتبات ؟ وما أنواعها ؟ وماذا عن دور النشر في الإسلام ؟ وعن تنظيم المعرفة البشرية ! وتصنيفها ، ذلك ما سنحاول تقديمه في هذه الصفحات :

أولاً : فلسفة المكتبات في الإسلام :

لا بد لنا قبل الحديث عن سرد تاريخ المكتبات أن نذكر إلى أن القرآن الكريم والسنة النبوية ، قد حثت على تحصيل العلم وبيان فضله ، ومكانة العلماء ؛ وإذا حاولنا التعرف على ما تمّ وروده في هذا الموضوع من نصوص علمية ، فإننا نرجع إلى كتاب الله الكريم والسنة النبوية المطهرة .

قال تعالى في سورة العلق : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وحوله مكانة العلماء ، قال تعالى في سورة المجادلة : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ ، وقال في سورة يوسف : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .

وقال الرسول حضاً على طلب العلم « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » حيث روي عن أبي هريرة أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده . وفي سند ابن ماجه عن أنس بن مالك « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

ويضيق بنا المقام في التعرض لحصر أو إحصاء لما ورد من آيات قرآنية ، ويكفي أن نحيل كل من يريد إعداد وتجهيز كافة التعاليم الإسلامية حول تشجيع المسلمين على طلب العلم ـ نقول ـ نحيلهم إلى فهارس القرآن الكريم وكتب الأحاديث الصحيحة كالبخاري ومسلم .

الشريعة إذن تحرص على العلم والتعلم والتعليم ، أما كيف كان وشكل هذا التعليم ومصادره وطرقه فإن الدراسات العلمية تدل على أن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفون الكتابة ، وكانوا يؤرخون أهم أحداثهم على الحجارة وكانت الكتاتيب في الجاهلية ، وكان فيها معلمون .

والكتابة ، إذا ما وصلنا إلى عصر النبي وصدر الإسلام كانت منتشرة مما كانت عليه في الجاهلية ، واقتضت طبيعة الرسالة أن يكثر المتعلمون ، القارئون ، الكاتبون ، فالوحي يحتاج إلى كتاب ، وأمور الدولة من مراسلات وعهود ومواثيق ، فكان للرسول كتاب للوحي بلغ عددهم على حسب ما ورد في المراجع أربعين كاتباً ، وكان له أيضاً كتاب للصدقة ، وكتاب للمعاملات والمدانيات ، وكتاب للرسائل يكتبون باللغات المختلفة .

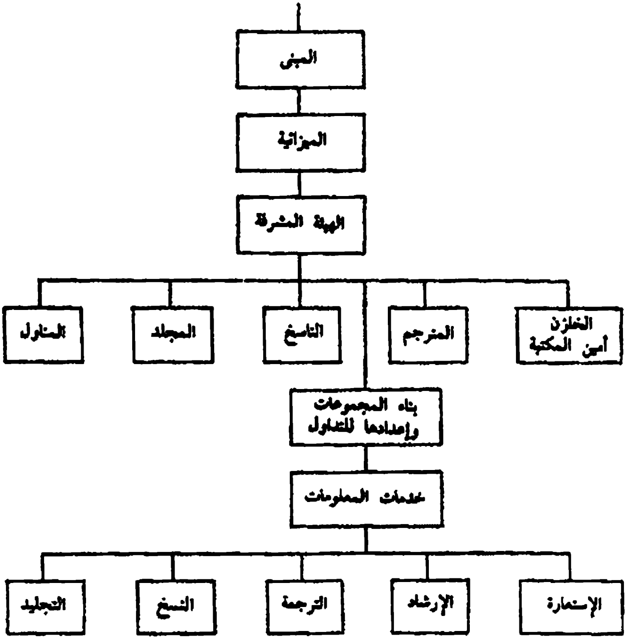
وكان لانتشار الكتابة وإتقانها أثر بعيد في تدوين العلم وحفظه ، وأول ما دون في عهد الرسول ﷺ ما كان يتنزل به الوحي من القرآن الكريم ، والوثائق والمعاهدات ، والكتب إلى الولاة وغير ذلك مما تحتاج إليه الدولة ، كما دون جانب من الحديث النبوي في عهد الرسول ﷺ على يد من سمح له بكتابته كعبد الله بن عمرو بن العاص ، ثم ما لبث أن اعتمد أهل العلم على تدوين كل ما له صلة بعلوم الشريعة ، قال ابن خلدون « طما بحر العمران والحضارة في الدولة الإسلامية في كل قطر وعظم الملك .. وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها ، وملئت بها القصور والخزائن الملوكية . . . » .

ومع هذه النهضة العلمية ، والتي تستند إلى فلسفة تربوية أساسها القرآن والسنة ، كان لا بد من تنظيم لهذه الكتب التي تعتبر كما عبر عنها أحد الباحثين « جامعات كل العصور » نقول ، أين كانت تنظم ، ولماذا تعددت أماكن وجودها في العصر الإسلامي رغم عدم اختراع الطباعة في ذلك الزمان .

ثانياً : الهيكل التنظيمي للمكتبات في الإسلام :

لنتصور الآن نموذجاً مثالياً للمكتبات في الإسلام ونرى فيه التنظيم التالي ، وهو تنظيم يدل على مدى تقدم الحضارة الإسلامية في مجال المكتبات ، والتي تعتبر مؤسسات تعليمية في ذلك الزمان :

الهيكل التنظيمي للمكتبات في الإسلام



١ ـ المبنى :

يقول O'ga pinto من مقال له عن المكتبات الإسلامية نشر في Islamic Culture 1829, 111, p.227 إن المسلمين اهتموا اهتماماً عظيماً بأبنية المكتبات العامة ، التي كانت تعد لاستقبال الجماهير ، وقد شيد بناء خاص

على طراز معيّن لمكتبات شيراز وقرطبة والقاهرة وما ماثلها ، وكان البناء مزوداً بحجرات متعددة يربط بينها أروقة فسيحة ، وكانت الرفوف تثبت بجوار الجدار لتوضع فيها الكتب ، وبعض الأروقة كان يخصص للإطلاع ، كما كانت تخصص بعض الحجرات للنسخ ، وبعض الحلقات للدراسة ، وانتظمت بعض المكتبات كذلك حجرات للموسيقى يلجأ إليها المطالعون للترفيه وتجديد النشاط ، وكانت جميع الحجرات مؤثثة تأثيثاً فخماً ومريحاً ، وقد فرشت أرضها بالبسط والحصير لتلائم أذواق الشرقيين الذين كانوا يميلون إلى الجلوس على الأرض . .

ويقول المقريزي في الخطط ط ١ ص ٤٥٨ إن دار الحكمة بالقاهرة لم تفتح أبوابها للجماهير إلا بعد أن فرشت وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وأقيم قُوّام وخدام وفراشون وغيرهم رسموا بخدمتها .

ويحدثنا المقريزي كذلك في الخطط ط ١ ص ٤٠٨ بأن البناء المخصص لمكتبة الفاطميين عظيماً جداً ؛ إذ كانت عدة الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم أربعين خزانة ، تتسع الواحدة منها لأن يوضع بها ١٨,٠٠٠ كتاب .

وفي أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤٤٩ وصفاً دقيقاً لمكتبة عضد الدولة في شيراز : والمكتبة فيها خزائن ألصقت إلى جميع حيطان المكان والخزائن بيوت طولها قامة من عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت .

ومن تذكرة السامع والمتكلم ، لإبن جماعة ص ١٧٢ ينصح من يقوم بترتيب الكتب ألاّ يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات القطع الصغير كيلا يكثر تساقطها ، ذلك أن المسلمين لم يعرفوا في القرون الوسطى الطريقة الحديثة في وضع الكتب على الأرفف التي كانوا يضعونها مستلقية الواحد فوق الآخر .

٢ ـ الميزانية :

كانت الأوقاف هي المصدر الذي ينفق منه على المكتبات وما يلزمها ، وكان المأمون يعطي ، كما حدثنا ابن أبي أصيبعة ١ : ١٨٧ ، حنين بن إسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى اللغة العربية مِثلاً بمثل .

ويحدثنا ابن أبي أصيبعة أيضاً ١ : ١٨٧ ، بأن بني شاكر محمد وأحمد والحسن يُرْزقون جماعة منها النقلة منهم حنين بن إسحق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة .

وفي كتاب Islamic Civilization, Khuda Bukhsh p. 269 ، أن الواثق وجه عناية كبيرة للمترجمين الذين نقلوا الذخائر الأجنبية للسان العربي ، وكان ابن ماسويه يده اليمنى في ذلك ، فأغدق عليه الواثق نعماً متوالية ، وخيراً وفيراً ، وفي إحدى المرات أعطاه درهم تساوي ٣٠٠,٠٠٠ روبيه .

ويخبرنا ابن أبي أصيبعة ط ١ ص ٢٠٦ بأن عطاء محمد بن عبد الملك الزيات للنقلة والنساخ في كل شهر ٢,٠٠٠ دينار .

ويورد لنا المقريزي في الخطط ط ١ ص ٤٥٩ قائمة بالنفقات السنوية لمكتبة دار الحكمة مفصلة تفصيلاً واضحاً ولكنها أقل سعة وسخاء وفيما يلي نصها :

ورق الناسخ	٩٠ ديناراً من العين المغربي
مرتب الخازن	٤٨ ديناراً من العين المغربي
مرتب الفراش	١٥ ديناراً من العين المغربي
لتجليد الكتب	١٢ ديناراً من العين المغربي
ورق وحبر وأقلام للمطالعين	١٢ ديناراً من العين المغربي
ثمن الحصر العبراني	١٠ دنانير من العين المغربي
ثمن الماء	١٠ دنانير من العين المغربي

ثمن لبود للفرش في الشتاء	٥ دنانير من العين المغربي
ثمن طنافس في الشتاء	٤ دنانير من العين المغربي
مرمة الستارة	١ دينار من العين المغربي

وفي خزائن الكتب القديمة في العراق ص ١٦٥ يحدثنا كوركيس عواد عن مرتبات موظفي المدرسة المستنصرية محددة على الوضع التالي :

لخازن الكتب من كل يوم عشرة أرطال خبزاً ، وأربعة لحماً ، ومن كل شهر عشرة دنانير ، وللمشرف في كل يوم خمسة أرطال خبزاً ، ورطلان لحماً ، وفي كل شهر ثلاثة دنانير ، وللمناول في كل يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخاً وفي كل شهر ديناران .

٣ ـ الهيئة المشرفة :

ومن هؤلاء الخازن والمترجم والناسخ والمجلد والمناول وسنتناول كل من هؤلاء على حدة .

الخازن أو أمين المكتبة :

كان الخازن يشرف على الناحية العلمية والناحية الإدارية بالمكتبة فهو يمد المكتبة بالكتب الجديدة ، ويلاحظ دقة الفهارس وحسن تنظيمها وشمولها ، وييسر للقراء عملهم والمحافظة على الكتب وترميم شعثها ، وحبكها ، والضن بها على من ليس من أهلها ، وبذلها للمحتاج إليها ، وأن يقدم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء، السبكي ، مفيد النعم ١٥٩ .

ويذكر ابن العماد في شذرات الذهب ١ : ١٠٤ بأن سابور بن أردشير ، بعد أن نقل إليها الكتب الكثيرة ، رد النظر في أمرها إلى الحسين بن شيبة ، وأبي عبد الله الضبي القاضي ، وبعد وفاة سابور آلت مراعاة الدار إلى المرتضى أبي القاسم فضم هذا إلى خازنها المعروف أبي منصور خازناً آخر

يعرف بأبي عبد الله بن أحمد ، ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٣٥٩ ، أما المقريزي فيحدثنا في ط ١ ص ٤٥٨ ، أن الفاطميين أقاموا قوام لمكتبتهم يرعون شؤونها .

أما عن ثقافة الخازن فإن كتب التاريخ تحدثنا عن أنه كان من العلماء وأساطير الأدباء ، ومن هؤلاء سهل بن هارون ، وسعيد بن هارون ، والمؤرخ الشهير والعالم الكبير ابن مسكويه ، وقد حاول مؤلف تاريخ التربية الإسلامية (شلبي) حصر هذه الأسماء عند حديثه عن المكتبات في الإسلام .

المترجم :

اهتم العرب المسلمون بترجمة العلوم التي قام بها غير العرب من الشعوب ، وقد حصر المترجمون العالم العربي الببليوجرافي الوراق ابن النديم ، وفي الباب التاسع من طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة .

كما حصر لنا شلبي في تاريخ التربية الإسلامية عدداً من هؤلاء المترجمين الذين وجدوا مكانهم في المكتبات الإسلامية ، ومن هؤلاء من ذكرهم ابن النديم :

اصطفن القديم ، وأبو سهل الفضل بن نوبخت ، سلم ، الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وحنين بن اسحاق ، وعمر بن الفرضان ، واسحق بن حنين .

وتوقف نشاط الترجمة تقريباً بعد الواثق ، ولم يعد من السهل أن يجد الباحث ذكراً للمترجمين في المكتبات العامة أو الخاصة .

وسوف نفرد في الصفحات التالية حديثاً موطولاً عن الترجمة ودورها الحضاري .

الناسخ :

من مفاخر المسلمين أنهم أدركوا في العصور الوسطى ضرورة أن يكون بالمكتبة قسم للطبع والنشر ، ولم تكن وسائل الطبع الحديثة قد وجدت بعد

بطبيعة الحال ، فعينوا بالمكتبات نساخاً عرفوا بالدقة وجودة الخط .

وقد ورد في الفهرست لابن النديم ومعجم الأدباء لياقوت وغيرهما من كتب التاريخ والأدب الكثير من ترجمات هؤلاء النساخ .

كما ورد في شلبي ، تاريخ التربية الإسلامية نماذج لهؤلاء النساخ . وكان في بيت الحكمة كما يخبرنا ابن النديم عدد من النسّاخ ، وكان في مكتبة الواقدي ٢٠٨ هـ غلامان مملوكان له يكتبان طيلة الليل والنهار ، وقد اشتهر محمد بن سعد بكتابته للواقدي حتى أصبح من مميزات ابن سعد أن يقال عنه : كاتب الواقدي .

وكان للجاحظ في مكتبته الخاصة وراق اسمه عبد الوهاب بن عيسى ؛ كما كان ابن البواب ٤١٣ هـ خطاط شهيراً وناسخاً في نفس الوقت (ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٨١) .

وفي خطط المقريزي يذكر لنا الكثير من النساخ من دار الحكمة زمن الفاطميين .

المجلد :

إن كلمة الناسخ أو المجلد كلمتان متلازمتان ، ويمكن الرجوع إلى دراسة كل من ، Thomas Arnold و Adolf Grohmann, في كتابهما The Islamic Book ، وفي هذا الكتاب من ص ٣١ - ٣٢ حقائق تشير إلى أن تجليد الكتب نال عناية خاصة من أهل العراق والأندلس ، وكانت مالقة بالأندلس أكثر المدن براعة وإتقاناً في صناعة الجلود عامة وتجليد الكتب تجليداً نفيساً على وجه الخصوص ، وقد بذل الهواة من جماعي الكتب كما بذل الأمراء المسلمون جهداً رائعاً كانت نتيجته تكوين المكتبات العامرة ، والتشجيع المتواصل لتنسيقها ، وإبداع تجليد كتبها ، مما أسهم بنصيب ملحوظ في هذا التطور الذي لا نظير له في فن تجليد الكتب في العصور الوسطى .

كما يمكن الرجوع إلى كتاب «F. sarre» :Islamic Bookbinding الفهرست لابن النديم حيث نجد معلومات مفيدة حول تطور التجليد إلى أن ظهر التذهيب والزخرفة والتزويق .

المناول :

ويمكن اعتبار هذه الوظيفة ـ من الوظائف المعاونة التي تسهل عمل الخازن أو أمين المكتبة في الوصول إلى الكتاب ، ونسميها في عصرنا الحديث « فتى مكتبة » وهي من الوظائف المحددة بهذا المصطلح «مناول» ، ويذكر المقريزي في خططه ، أنه عين بدار الحكمة في القاهرة قوم خزنة وخدام مناولون وفراشون .

٤ ـ بناء المجموعات وإعدادها للتداول :

وكان المسلمون يشجعون بناء مجموعات المكتبات ويحصلون عن طريق التجارة والتجار على الكتب النادرة التي لا يوجد لها مثيل في مكتباتهم .

ويحكى لنا ابن خلدون نشاط أهل الأندلس في تكوين وبناء المجموعات في المكتبات ، حيث أن الحكم صاحب الأندلس كان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ، ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه ، ويذكر شلبي ، في تاريخ التربية الإسلامية الكثير من معلومات الأدباء والمؤرخين حول حرص المسلمين على تكوين مكتباتهم بدفع المزيد من الأموال لشراء هذه الكتب الهامة .

وكانت مكتبات الأوقاف كذلك من مصادر تكوين المكتبات وبناء المجموعات بها وقد فصل أستاذنا عبد اللطيف إبراهيم في كتابه دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية في هذا الموضوع ، ويمكن الرجوع إليه .

أما عن إعداد الكتب للتداول :

فكانت الكتب ، كما يذكر ابن جماعة ، تذكرة السامع ص ١٧١ و ١٧٢

ترتب بعد كتابة عنوان الكتاب واسم مؤلفه على أطراف الصفحات مجتمعة من أسفل وتجعل رؤوس الأحرف تجاه بدء الكتاب فإذا وضعت الكتب بعضها فوق بعض جعل الجانب الذي عليه الكتابة في الجهة الخارجية للرف ليواجه الشخص الذي يبحث عن كتاب معين فيسهل عليه في هذه الحال أن يعثر على الكتاب الذي يريده ، وأحياناً يوضع الكتاب في صندوق ويكتب على واجهة الصندوق بيانات الكتاب .

وكانت الرفوف مفتوحة ، والكتب في متناول الجميع ، وكل شخص يستطيع أن يحصل بنفسه على الكتاب الذي يريد ما تيسر له ذلك فإذا ضل الطريق استعان بأحد المناولين الذين تحدثنا عنهم فيما سبق ، وكانت هناك على أية حال رفوف مغلقة لأنها كانت تحوي المخطوطات الثمينة والكتب النادرة ، والحصول على مخطوط أو كتاب منها يلزم أن يحصل الطالب على إذن بذلك من المشرفين على أمور المكتبة ، Islamic Culture III, 1929, P. 229 .

وفي المرجع السابق كذلك معلومات تفيد بأن الفهارس كانت متوافرة في المكتبات بكافة أنواعها وكانت منظمة للغاية فهي تشمل الكتب التي بالمكتبة ، مرتبة على حسب موضوعاتها ، وكانت هناك أدلة لمحتويات الرفوف وهي ما تسمى في عصرنا بالمرشد Lable أو Ticket ، ومسجلاً بها قائمة بمحتويات الدولاب وأرقامها فيه وملاحظات عن الكتب التي فقدت بعض أوراقها أو التي لم توجد جميع أجزائها .

وفي طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ط ٢ ص ٤ ، أن ابن سينا اطلع على فهارس مكتبة السامانيين في بخارى ، واختار بضعة كتب طلب أن يطلع عليها ، فأحضرت إليه في الحال ، كما يقول المقدسي ، في أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٤٤٩ حين وصفه لمكتبة عضد الدولة في شيراز بأن لكل نوع من الكتب فهارس فيها عناوين الكتب .

ويذكر شلبي في تاريخ التربية الإسلامية ، الحقائق الكثيرة عن فهارس المكتبات الإسلامية .

ومن ذلك أيضاً ، ما ورد في خطط المقريزي ، بأنه في مصر ومن مكتبة الفاطميين العظيمة دار الحكمة ، التي كانت تشغل أربعين حجرة لم يكن لها فهرس وكان يكتفي بقائمة خاصة لكل حجرة ، وتشمل القائمة عناوين الكتب الموجودة بالحجرة وأرقامها ، وتلصق قائمة كل حجرة على بابها ، ثم حدثنا القفطي في أخبار الحكماء ص ٤٤٠ أن أبا القاسم الجرجاني ، الوزير ، وجد أن مكتبة كهذه لا بد لها من فهرس عام ، فأصدر في سنة ٤٢٥ هـ أمره بذلك ، وعين لهذه المهمة القاضي أبا عبد الله القضاعي وأبا خلف الوراق .

وفي إسبانيا كما يحدثنا المقري في نفح الطيب ط ١ ص ١٨٦ ، كان لمكتبة الحكم فهارس غاية في الدقة والنظام ، وهي تدل على أن المكتبة كانت تزخر بمجموعة عظيمة من الكتب فقد روي المقري أن الفهرست الخاص بدواوين الشعراء وحدها كان يقع من أربعة وأربعين جزءاً .

٥ ـ خدمات المعلومات :

كانت المكتبات في الإسلام تقدم خدمات للمعلومات لا تختلف عن أيامنا الحالية ، فهي تشبه ما يسمى مركز توثيق أو مركز معلومات ، وإذا أردنا أن نعرف مركز التوثيق فإننا نقول أنه الجهاز الذي يقوم بعملية جمع وحصر ونشر وتقديم وترجمة وإفادة الباحثين بالمعلومات اللازمة توفيراً للوقت والجهد المبذولين في الوصول إليها .

فالمكتبة في الإسلام كانت تقوم بهذه الخدمات مجتمعة وسوف يحضر كلامنا في الاستعارة والإرشاد والترجمة والنسخ والتجليد .

وقد سبق أن اشرنا إلى هذه المهام عند الحديث عن الهيئة المشرفة للمكتبة .

والآن نتناول الإستعارة ، فكان المسلمون يشجعون هذه العملية ، وكانت منظمة ، وفي معجم الأدباء لياقوت ط ٦ ص ٣٧ ما يفيد بوجود الضمان أو التأمين بلغتنا الحالة ، ولكن كان يعفى العلماء وأفاضل الناس من دفع ذلك الضمان ، فلقد مدح ياقوت الرومي المشرفين على المكتبات ببلدة مرو إذ سمحوا له أن يستعير مائتي مجلد دون أن يدفع ضماناً .

وابن خلدون سجل في الوثيقة التي أهدى بها كتابه العبر إلى مكتبة جامع القيروان : أنه لا يجوز إعارة الكتاب إعارة خارجية إلّا إذا كان المستعير شخصاً موثوقاً به وأميناً ، على أن يدفع ضماناً هاماً ، وأن يرد الكتاب في مدة لا تتجاوز شهرين : The Encyclopaediq of Islam II, p 1047 كما وجدت المكتبات التي لا يصرح فيها إستعارة خارجية أنظر في ذلك المقريزي الخطط ط ٢ ص ٣٩٥ حيث اشترط شرط في مكتبة المدرسة المحمودية التي أنشأها جمال الدين محمود بن علي الذي نص في كتاب الوقفية على أنه لا يجوز إخراج أي كتاب خارج بناء المدرسة .

كما ورد في Islamic Culture III, 1929, p. 234 أن القاضي ابن حيان النيسابوري الذي وقف كتبه على أهل العلم اشترط ضمن شروط وقفه الايعار كتاب منها إعارة خارجية مهما كانت الظروف .

وابن جماعة أورد لنا نصاً ينظم عملية الاستعارة وبالمعنى الذي يمكننا التعبير عنه بلائحة الاستعارة في أيامنا الحالية ، وقد أورد النص شلبي ، تاريخ التربية الإسلامية ، ويمكن الرجوع إليه .

ثالثاً : أنواع المكتبات في الإسلام :

إذا جاز لنا الحديث في هذا العصر الذي نعيشه ونقول أن المكتبات العامة ، والمكتبات الخاصة ، والمكتبات المدرسية ، ومكتبات العلماء أو

المكتبات الأكاديمية ، تعتبر من أنواع المكتبات ؛ فإننا كذلك إذا رجعنا إلى أيام الإسلام الأولى نجد هذه المكتبات وإن اختلفت المسميات ، ونستعرض حالياً هذه الأنواع التي سادت العصور الإسلامية .

١ ـ مكتبات المساجد أو المكتبات العامة :

يجمع الباحثون على أن المساجد لم تكن مكاناً للعبادة فحسب ، بل كانت مركزاً للحياة الإجتماعية والسياسية ومركزاً لإدارة الأمة أو الدولة بمعنى أصح وتسيير أمورها ، كما كانت محط أنظار المسلمين ، ومعقد حلقات العلم ، واجتماع العلماء وتعليم أبناء المسلمين العلوم المختلفة من القرآن الكريم والتفسير والقراءة والتجويد والحديث وأصول العربية وغير ذلك ؛ وقد كتبت الدراسات التي في مجال تاريخ التربية في الإسلام حول دور المسجد وتاريخه ، ويكفي أن نشير إلى أن أول مكتبة هي بيت الرسول ﷺ حيث كانت مكتبة لجميع ما يدوّنه كتاب الوحي من التنزيل الحكيم ، ثم نقلت الصحف من بيت الرسول ﷺ ومن الصحابة إلى بيت أبي بكر ، وبعد أن جمعت في مصحف في عهد الصديق على يد زيد بن ثابت أحد كبار كتاب الوحي وحفاظه ، ثم حفظت هذه الصحف عند عمر بن الخطاب أيام خلافته ، وبقيت عند حفصة إلى أن استعارها عثمان بن عفان منها ، ونسخ عنها المصاحف وأرسلها إلى الأقطار الإسلامية .

فالمساجد إذن تعتبر مكتبات عامة ، والمكتبات في الإسلام نشأت مع نشأة المساجد ، أما كيف كان شكل هذه المكتبات ونظامها ومجموعاتها ، فقد يحتاج الأمر إلى دراسات خاصة تتعلق بهذا الموضوع فتتناوله من زواياه المتعددة وتحصره لتقدم للمسلمين ذخيرة علمية يعرفون منها فكر المسلمين الأوائل ومساهمتهم في عمليات الاتصال الحضاري في الوقت الذي كانت فيه أوروبا ترزخ في ظلمات الجهل .

٢ ـ مكتبات الصحابة والخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء أو المكتبات الخاصة :

كما سبق يتضح لنا أن المساجد كانت تشتمل على مكتبات عامة يلجأ إليها جميع المسلمين ؛ ولكن رغم سهولة التردد على هذه المكتبات وشمولها وحسن تنظيمها ، لم يمنع كل ذلك من وجود مكتبات للصحابة والخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء ، هذا النوع من المكتبات ، كان يمثل إتجاهاً فردياً بحيث يمكننا أن نسميه المكتبات الخاصة فبيوت الصحابة والتابعين كانت تشتمل على كتب مثل القرآن الكريم وحديث النبي ، فأبو هريرة رضي الله عنه المتوفي ٥٩ هـ كانت عنده كتب كثيرة ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص المتوفي ٦٥ هـ يحفظ كتبه وصحفه في صندوق له حلق ، وإذا حاولنا تحديد أول صحابي فقد كان عند سعد بن عبادة الأنصاري المتوفي ١٥ هـ كتب فيها طائفة من أحاديث الرسول وهكذا يمر الزمن فنجد الصحابة يعملون على جمع الكتب وحفظها ودراستها وإعارتها وتيسيرها لكل من يطلبها .

ومع مرور الزمن كان الخلفاء والأمراء وبعض الوزراء يلحقون بقصورهم وبيوتهم مكتبات ضخمة ، فقد كان للفتح بن خاقان المتوفي ٢٤٧ هـ وزير المتوكل الخليفة العباسي مكتبة جامعة ، وللمبشر بن فاتك المتوفي سنة ٤٨٠ هـ أحد أعيان أمراء مصر وعلمائها مكتبة قيّمة في العلوم الرياضية والحكمية وغيرها . وكان للخليفة الناصر لدين الله المتوفي ٦٢٢ هـ مكتبة كبيرة جداً ، كما كان للخليفة المعتصم بالله المتوفي ٦٥٦ هـ مكتبة ضخمة في داره ، فيها نفائس الكتب في مختلف العلوم .

٣ ـ المكتبات القومية في الإسلام :

قال القلقشندي في الجزء الأول من موسوعته « صبح الأعشي في ديوان الإنشاء » أنه كان للخلفاء والملوك في القديم بها أي بخزائن الكتب ـ مزيد اهتمام ، وكمال اعتناء ، حتى حصلوا منها على العدد الجم ، وحصلوا على

الخزائن الجليلة ، ويقال إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث ، وذكر خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد وهي دار الحكمة أو بيت الحكمة ، وخزانة الفاطميين بمصر « دار العلم » وخزانة بني أمية بالأندلس « مكتبة قرطبة » .

والمكتبات القومية أو الوطنية تقوم عادة بالحصول على جميع ما يصدر في الدولة من مصادر وتنظيمها وتحفظها وتقدمها للمستفيدين .

كان ذلك من المكتبات الثلاث التي حدثنا عنها القلقشندي واشتهرت بها :

(أ) دار الحكمة : أو بيت الحكمة :

أول من أسس هذه الدار الجامعة لمختلف المؤلفات هارون الرشيد ١٤٩ ـ ١٩٣ هـ ، ثم زوّدها ابنه المأمون من بعده بالمؤلفات الكثيرة والدواوين الضخمة ، وظلت هذه الخزانة حتى استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

وبيت الحكمة كانت مكتبة واسعة ، رتّبت فيها الكتب ونضدت على رفوف خاصة بحسب لغتهاوفروع العلم الذي تبحث فيه وزوّدت بمقاعد للقراءة والمطالعة ، وجعل لها قيم لحفظها وترتيبها وتسليم كتبها إلى القراء ، وما شاكل ذلك ، وكانت أيضاً إلى جانب ذلك تضم فرقاً خاصة للترجمة والنسخ ، فكان المأمون قد راسل قيصر الروح وجلب من بلاده ما عنده من كتب قديمة وأمر المترجمون عن السريانية ، والفارسية والسنسكريتية لترجمتها ، وكان النساخ ينسخون هذه الكتب اما لقاء جراية معلومة من الخليفة فهم أشبه بموظفين لنسخ الكتب وكتابة عدة نسخ من كل مؤلف ، أو ينسخون على حساب العلماء والأغنياء لقاء أجر معلوم ؛ إذ كثيراً ما يضطر الراغبون في الحصول على كتاب من الكتب أن ينسخوه من بيت الحكمة لانفرادها به .

وقد جعل الرشيد « يوحنا بن ماسويه » مشرفاً عاماً على ترجمة الكتب ،

بينما جعل المأمون «سهل بن هارون» وهو برتبة وزير، مشرفاً على المكتبة، لما كان لها من أهمية في نظره ونظر الدولة التي يرأسها، وزادت محتويات هذه المكتبة بما قدم إليها هدية من الحكام العرب أو غير العرب تقرباً من دار الخلافة الإسلامية، بالإضافة إلى ما كانوا يبيعونه بأسعار مرتفعة جداً، فقد أهدى صاحب جزيرة قبرص مجموعة قيمة من الكتب إلى بيت الحكمة وكذلك فعل قيصر القسطنطينية، بعد أن طلبها منه المأمون.

ولعل أشهر المترجمين أو المعربين، إنما ظهروا في فترة حكم الرشيد والمأمون أمثال: أبو سهل الفضل ويوحنا بن ماسويه، وابن البطريق، وحنين بن إسحاق، وعمر بن القرحان، وثابت بن قرة.

(ب) دار العلم:

وهي خزانة العبيدين بمصر أنشأت عام ٣٩٥ هـ، ألحقها الحاكم العبيدي صاحب مصر بدار الحكمة، التي أنشأها على غرار جامعات بغداد وقرطبة، وقد جمع في دار العلم كتب كثيرة، وأقام فيها المسؤولين وخصص لهم الجرايات وزودها بما يحتاج إليه القراء أي المطالعون، والنساخ من الحبر والمحابر والأقلام والورق. وانقرضت هذه الخزانة بموت العاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ.

ويروي أحد المؤرخين: أنه قد حملت إلى هذه المكتبة الكتب من خزائن القصور، وحمل إليها من خزائن الحاكم من الكتب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد الملوك أو الخلفاء قط.

وأجرى الحاكم بأمر الله الأرزاق على من في دار الحكمة من العلماء والفقهاء والأطباء وأباح دخولها لجميع طبقات الشعب، ومذاهب أهل السنة والشيعة، للقراءة فيها أو للكتابة والنسخ والتعليم والترجمة، وصارت تعقد فيها الاجتماعات العلمية، ليحيي فيها الجو العلمي الذي شهدته بغداد في عصري الرشيد والمأمون، وصار الحاكم يحضر بنفسه أحياناً مجالس المناظرة

العلمية ، ويخلع في نهاية كل جلسة يحضرها الخلع السنية على العلماء المساهمين في المناظرة والمناقشة والجدل العلمي والدبني والأدبي . وأكّد الحاكم بأمر الله بأن ما أوقفه على دار الحكمة من أوقاف ستمولها أبد الدهر .

ويقول المقريزي واصفاً هذه المكتبة بأنها لم تفتح أبوابها للناس إلّا بعد أن فرشت وزينت وزخرفت وعلّقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وعين لها القوام والخدم وكان البناء عظيماً جداً ـ إذ كانت عدة الخزائن برسم الكتب من سائر العلوم أربعين خزانة تتسع الواحدة منها لنحو ثمانية عشر ألف كتاب وكانت الرفوف مفتوحة والكتب في متناول الجميع .

وهذا الوصف يدل على أن المقصود بالخزانة ليس ما نعرفه من الخزائن الخشبية أو المعدنية المغلقة بل المقصود قاعة كبرى جعلت الرفوف في جدرانها وخصصت كل قاعة لفرع من العلوم .

(جـ) مكتبة قرطبة :

أنشأها الأمويون ورعاها الخلفاء ، وبلغت أوج ازدهارها في عهد المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) الذي كان له وكلاء في البلاد الإسلامية الكثيرة ، يزودونه بكل ما ينتجه العلماء المسلمون من مؤلفات .

وأقام لها المستنصر الموظفين للعناية بشؤونها وزاد عدد كتبها عن الأربعمائة ألف كتاب ، ويقول الكاتب كونديه أن الأسبان عندما استولوا على قرطبة أحرقوا في يوم واحد نحو سبعين خزانة للكتب فيها ما يزيد عن مليون وخمسين ألف مجلد .

٤ ـ مكتبات العلماء أو المكتبات الأكاديمية :

إهتم العلماء بالمكتبات وكونوا مكتبات تشبه المكتبات الأكاديمية في هذا الزمان وحرصوا أن تكون في خدمة طلاب العلم والباحثين ، ومن هذه الخزانات أو المكتبات الأكاديمية :

(أ) مكتبة ابن سوار بالبصرة :

أسسها أبو علي بن سوار الكاتب ، أحد رجال عضد الدولة البويهي ، وكان فيها شيخ يُدرس عليه مذهب الاعتزال .

(ب) مكتبة سابور :

أنشأ هذه الخزانة سابور بن أردشير المتوفي سنة ٤١٦ هـ ، سنة ٣٨٣ هـ بالكرخ وسماها « دار العلم وزادت كتبها على عشرة آلاف كتاب في مختلف العلوم ، وكانت مركزاً ثقافياً هاماً يلتقي فيه العلماء والباحثون للقراءة والمطالعة والمناظرة ، وكان أبو العلاء المعري يكثر التردد إليها عندما كان في بغداد .

(جـ) مكتبة الوقف أو خزانة الوقف بمسجد الزيدي ببغداد :

أنشأها أبو الحسن علي بن أحمد الزيدي المتوفي ٥٧٥ هـ .

٥ ـ المكتبات أو خزانات المدارس أو المكتبات المدرسية :

كان يلحق بالمدارس خزانات أو مكتبات كبيرة تتبعها ، وذلك كالمدرسة النظامية ، والمدرسة المستنصرية ، ومكتبات مدارس دمشق ، ومكتبة المدرسة الفاضلية بالقاهرة .

رابعاً : الوراقة أو دور النشر في الإسلام :

منذ فجر التاريخ وظهور مواد الكتابة ظلت متاجر الكتب أكثر من مجرد مستودعات للكتب ، وعلى امتداد العصور كان بائعوا الكتب محبين لها ، وكان البعض منهم أكثر حباً وإهتماماً بها من الآخرين ، ورغم ذلك فقد كانوا جميعاً يتطلعون إلى الكتب قبل تطلعهم إلي الكسب المادي أو الراحة الشخصية . وعبر القرون لم يكن المال ثمرة جهودهم بقدر ما كان الرضا والارتياح والسكينة التي

اكتسبوها من وضع كتاب في يد قارىء يقدره .

وبظهور الإسلام وازدهار الحضارة الإسلامية وإنتشار مجالس الإملاء كثر إنتاج الكتب ، فقد شهدت بغداد في القرن الثالث للهجرة سوقاً كبيرة للوراقين كان بها أكثر من مائة حانوت للوراقة ، ولم يبلغ الشغف بإقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الأولى له (من القرن ٨ إلى القرن ١١ الميلادي) .

وقد كانت نتيجة العمل في الوراقة أن ظهر في العالم الإسلامي وراقين من أمثال ابن النديم ، المتوفي بعد سنة ٣٧٧ هـ ؛ وهذا يقودنا إلى الحديث عن البيليوجرافيا كموضوع تعالجه مدارس المكتبات في عصرنا الحديث ، وقد سبقه ابن النديم ومثله أجدادنا العرب المسلمين بأكثر من ألف عام .

فالبحث والدرس والتأليف ، يعتمد على قوائم بيليوجرافية وفهارس عامة معدة لكل عام ، وفي كل موضوع من المواضيع بشكل خاص بحيث يتمكن الباحث أن يعرف بالضبط ما هي الكتب التي تبحث الموضوع الذي يود بحثه ، وما هي المجلات التي لها علاقة ، وما هي المقالات التي صدرت وتتعلق بنفس الموضوع ، وهي مرتبة ترتيباً هجائياً أو مصنفة وتهدف إلى خدمة القارىء والباحث وتسهيل عمله وجعل دراسته ميسرة قدر الإمكان .

هذا الشيء صحيح بالنسبة للعالم الغربي حالياً ، أما بالنسبة لنا فنحن ما زلنا في بداية الطريق . . .

والأمر الذي يؤسف له ، وفي نفس الوقت يجعلنا نفخر بعلمائنا العرب الأفذاذ ، فنحن تأخرنا عن ملاحقة التقدم ومتابعة جهد علمائنا ، نقول أن ابن النديم أول من ألف كتاباً ببليوجرافياً ، إذ يحوي كتابه الشهير الفهرست « لائحة مصنفة ومفصلة بأسماء المؤلفين ، القدامى والمحدثين والمعاصرين ، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين ، وأسماء كتبهم ولمحة عن حياتهم ، ونجد

في هذا المرجع الذي هو كنز لا ينضب من المعارف عن المؤلفين والنقلة والكتب اخبار ومعلومات لا نجدها عند غيره مما يجعل له قيمة كبرى في نظر جميع الباحثين .

خامساً : تصنيف العلوم والمعارف في الإسلام :

لقد ذاع بين المكتبيين ورجال الفكر والثقافة نظم التصنيف الغربية مثل :

تصنيف ديوي العشري ، التصنيف العشري العالمي ، تصنيف مكتبة الكونجرس الأمريكي ، تصنيف بلس ، تصنيف كولون .

وغير ذلك من التصانيف الأجنبية والتي يكانت تهدف إلى التركيز على النظرة غير العربية والغير إسلامية ، وهو ما دفع بأحد الباحثين إلى ترجمة نظام ديوي العشري إلى العربية مرة ومرات ومن باحثين آخريين .

وبات في حكم النسيان أن العرب يعتبروا سلسلة من سلاسل تقدم الحضارات ، وخاصة في مجال تصنيف العلوم والمعارف .

لقد اعتمدت نظرية التصنيف عند العرب على التصنيف للمعرفة بشكل تجريدي ، وإعتمدت أكثر من ذلك على الإنتاج الفكري والفعلي الذي انتجه العلماء والمفكرون العرب .. كما إعتمدت هذه النظرية على كل من الاستقراء ، والاستنباط ، وهما جناحاً المنهج العلمي الحديث .

ينبغي علينا دراسة نظم تصنيف العلوم والمعارف في نظر علماء المسلمين وأثرها في الحضارة الإسلامية وألا نغفل هذا الجانب الذي يدرس في مدارس المكتبات دون النظر إلى هذه السلسلة من الحضارة الإنسانية ، فقد كانت الحضارة العلمية العربية ، بما أسهمت به من فكر في مجال

التصنيف ، إحدى الحلقات القوية التي تشد ما قبلها وتربط ما بعدها في تناغم وإنسجام .

سادساً : المكتبات في الإسلام ودورها في الإتصال الحضاري :

فيما سبق شاهدنا النهضة العالية التي وصل إليها المسلمون في مجال المكتبات ، ويضيق بنا المقام إذا حاولنا الدخول في موضوعات أخرى كإحتياجات المستفيدين من هذه المكتبات وكيفية تلبيتها ، والفهارس التي كانت تعد للمكتبات وطريقتها ونظامها وأنواعها ، وعمليات الترجمة من اللغات الأخرى ، وعمليات النسخ وتفاصيلها ، وعملية التجليد ، والتزويق والتنميق ، والذي وصل مداه وغايته في عصورنا الإسلامية الزاهرة ، بحيث يمكننا الحكم على هذه المكتبات بأنها مراكز توثيق مكتملة العناصر أو مراكز معلومات بالمعنى الحديث .

وتتضح لنا أهمية هذه المكتبات كمؤسسات علمية تساهم في الحضارة وبناؤها في ذلك الزمان من إهتمام المسؤولين بأمر الأعداد المهني لمن يعمل فيها وعدم الرضا بتعيين المستويات الدنيا فيها ، فكان لا يعين فيها إلا العلماء والقادرين على فهم محتويات أمهات الكتب التي تشتمل عليها هذه الخزانات أو المكتبات ؛ وأمر إعداد العاملين في المكتبات حالياً أصبح من الأمور التي تدرس في مدارس المكتبات وأصبح الباحثون يشجعون طلاب الدراسات العليا على الخوض فيها وقد سبقنا أجدادنا المسلمين بأكثر من ألف عام في هذا الاتجاه .

لقد كانت لغة الاتصال الأولى بين السماء والأرض هي أمره عز وجل لنبيه الكريم ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾.

نعم لقد كان الإسلام هو باعث تلك النهضة العربية ، وكانت المكتبات

إحدى علامات تلك الحضارة العربية الخالدة ، لقد شهد القرن التاسع الميلادي حركة مكتبية مزدهرة ، فقد بلغت دور الكتب في بغداد أكثر من مائة في عام ٨٩١ م ومكتبة صغيرة كمكتبة النجف في العراق كانت تحوي في القرن العاشر الميلادي أربعين ألف مجلد في الوقت الذي كانت فيه الأديرة الأوروبية تقيد العدد القليل من الكتب الذي قد لا يتجاوز العشرة بالسلاسل نظراً لندرتها وخوفاً عليها من الضياع .

إننا نعترف بأن العرب المسلمين إستفادوا من الحضارات السابقة ، وكانوا كذلك من المساهمين في نقل ما سبقهم من حضارات إلى الحضارة الغربية الحالية عن طريق « جامعات كل العصور » أي الكتب والمكتبات .

إن عالماً كابن الهيثم لا توجد أصول كتبه ومقالاته في البلاد العربية ولكنها موجودة في تركيا وباريس ولندن وحيدر اباد بالهند وفي المانيا وفي ليدن بهولندا . . .

وعالم واحد كابن الهيثم له في هذا العصر الذي كان الجهل فيه مخيماً على أوروبا ـ أكثر من سبعين كتاباً . . . منها ثلاثة وأربعون كتاباً في الفلسفة والعلوم الطبيعية . . وخمسة . . وخمسة كتب في العلوم الرياضية بالاضافة إلى عشرين كتاباً في الطب . . إذا كان هذا هو تاريخنا ، فإن ذلك يدفعنا إلى أن نقوي في تقاليدنا الأصيلة في حب الكتاب وتبجيل العلم ما أضعف منه الأزمان .

المراجع

١ ـ ابنَ النديم ، محمد بن اسحق : الفهرست . ـ القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٣٤٨ هـ.

٢ ـ أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية . ـ القاهرة : الانجلو المصرية ، ١٩٧٣ .

٣ - عبد اللطيف ابراهيم : دراسات في المكتب والمكتبات الإسلامية . - القاهرة : دار الشعب ، ١٩٦٢ .
٤ - ماهر حمادة : المكتبات في الاسلام . - بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٠ .
٥ - Encyclopaedia of Islam
٦ - Savre, E. Islamic Book bindings.- Berlin, 1923.
٧ - Thomas Arnold and Adolf Grohmann : The Islamic Book, Germany, 1929

سادسا: نظم تصنيف العلوم والمعارف في نظر علماء المسلمين واثرها في الحضارة الانسانية.

لقد ذاع بين المكتبيين ورجال الثقافة في أيامنا المعاصرة نظام تصنيف ديوي العشري[١] للمعرفة الإنسانية:

«Dewey Decimal Classification»

للدرجة أن المكتبات في العالم العربي تتبع معظمها إن لم يكن كلها هذا النظام.

ما قصة هذا التصنيف كنموذج لغيره من تصانيف المعرفة الإنسانية الأخرى، وما أثر النظم العربية الإسلامية لتصنيف المعرفة ونظرتها إلى وحدة العلوم والمعارف الإنسانية، سيكون من مهمة هذه الدراسة توضيح ذلك مع بيان تطور نظم التصنيف العربية الإسلامية، وعرض نماذج لها.

إن الأقسام الرئيسية لتصنيف ديوي العشري[٢] ، كما أوضح « لايدكر »[٣] «Leidecker» تعتمد تاريخياً وتتبع نظام تصنيف « وليم توري هاريس »

«Harris» الذي وضع للمكتبة العامة المدرسية في سانت لويس: «St. Louis public school library» ودرس «هاريس» فلسفة «هيجل» من عام ١٨٥٨ وحتى عام ١٨٧٩.

ومن المناسب كذلك أن نقرر أن تصنيف مكتبة الكونجرس الاميركي، اعتمد في بنائه على فلسفة «بيكون» في تصنيفه للمعرفة الإنسانية في الوقت الذي سبق علماء العرب المسلمين بيكون في اعتمادهم على المنهج الاستقرائي القائم على الملاحظة والتجربة.

إن فكرة وحدة العلوم والمعارف قد تدعمت عبر القرون في التصنيف العربي الإسلامي، كما أن هيجل تأثر بفلاسفة المسلمين وعلى ذلك فإن جذور إسهام كل من بيكون وهيجل في عالم المعرفة والتصنيف ترجع في بعض جوانبها وحلقاتها إلى العلماء والفلاسفة العرب.

وعلى الرغم من أن فكرة وحدة العلوم واعتمادها بعضها على بعض موجودة منذ افلاطون وارسطو ودارت حولها فلسفة كل منهما، إلا أن هذه الفكرة قد تدعمت ورسخت في التفكير العربي الإسلامي مع عقيدة التوحيد التي نادى بها الإسلام.

تطور نظم التصنيف العربية الإسلامية:

أقدم هذه التصانيف للعلوم والمعارف هو التصنيف العربي لجابر بن حيان ١٦٠ هـ[٤] وجاء بعده الكندي ٢٦٠ هـ[٥]، ويعتبر تصنيف الفارابي لعلماء عصره (٣٩٩٠ هـ) من أقدم التصانيف العربية الإسلامية، وأكثرها تأثيرا في جميع التصانيف التي جاءت بعده، وجاء تصنيفه في كتابيه «التنبيه على السعادة»، و«إحياء العلوم»[٦].

كما ظهر في منتصف القرن الرابع الهجري، تصنيف جماعة إخوان الصفا في رسائلهم[٧].

وفي مفاتيح العلوم للخوارزمي « ٣٨٧ هـ »[٨] نجد تصنيفا خاصا للعلوم، ثم ظهر ابن النديم في كتابه الفهرست « ٣٧٧ هـ »[٩] كأول نظام طبق على الكتب.

وفي عام ٤٧٩ هـ ظهر « نظام الاكفاني » في كتابه: « إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد »[١٠].

وفي القرن الخامس الهجري بزغ نجم « ابن سينا » الذي تأثر بتصنيف الفارابي، وذلك في رسالته « في أقسام العلوم العقلية »[١١].

ثم نجد في القرن السادس نظام السهروردي[١٢].

وأتى فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ[١٣]، وألف كتابه حدائق الأنوار في حدائق الأسرار، وهو كتاب رتبت فيه المواد حسب المواضيع، فيه ذكر للعلوم وأسماء الكتب المؤلفة في كل علم من العلوم مع ذكر اسم المؤلف ونبذة عن حياته.

وأتى بعده السنجاري في القرن الثامن، وقطب الدين الشيرازي ٧١٠ هـ[١٤] ونحا نحو سابقه في كتابه درة التاج لغرة ديباج.

ولا ننسى فضل ابن خلدون[١٥]، الذي قام بمسح للآداب والعلوم في العالم الاسلامي محددا أهداف ونطاق كل واحد منها، ويعتبر تصنيفه ملخطا - لخطة - دراسة العلوم والآداب في المعاهد الإسلامية الدينية خلال القرون الماضية، وقد اعتبر تصنيفه الصيغة النهائية للتقسيم الإسلامي للعلوم.

وأخيرا يأتي « طاش كبرى زاده » ٩٦٨ هـ[١٦] في كتابه: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ويتفق معظم الباحثين عل أنه أكمل التصنيفات العربية والإسلامية، حيث جعل التصنيف علما مستقلا بذاته، فهو يعرفه التعريف التالي: « هو علم باحث عن التدرج من أعم الموضوعات إلى أخصها ليحصل

بذلك موضوع العلوم المتدرجة تحت ذلك الأعم، ويمكن التدرج فيه من الأخص إلى الأعم كذلك».

ويشير التعريف إلى أن طاش كبرى زاده استخدم في تصنيفه المنهجين الاستقرائي والاستنباطي، وبذلك جاء تصنيفه أقرب التصانيف إلى الأنظمة الحديثة.

ولكي ندرك أهمية الجهود الفكرية لعلمائنا العرب المسلمين الذين سبقوا نظم التصنيف السائدة الأجنبية وخاصة «ديوي» الذي ظهر وعم انتشاره، وبالتحديد ظهر في عام ١٨٧٦، أقول أنه لا بد من عرض تفصيلي لنماذج من تصنيف المعارف والعلوم كما حددها كل من الفارابي، وابن النديم، وابن خلدون، وطاش بن زاده.

نماذج من نظم التصنيف العربية والإسلامية :

تصنيف الفارابي للعلوم .

أولاً : اللغة :

١ - تركيب الألفاظ وترتيبها .
٢ - النحو والصرف .
٣ - قواعد النطق والكلام .

ثانياً : المنطق :

بما يشمل من تقسيم وتركيب للأفكار البسيطة ويتضمن المنطق بعد تعريف المصطلحات خمسة أقسام وهي :

١ - الظروف الضرورية للمقدمات المنطقية التي ستؤدي في القياس المنطقي إلى معرفة معينة .

٢ - تعريف القياسات المنطقية المفيدة ووسائل اكتشاف البراهين الجدلية .

٣ ـ اختيار الأخطاء في البراهين وفي التبرير المنطقي وطرق تفادي هذه الأخطاء .

٤ ـ تعريف الخطابة والقياسات المنطقية اللازمة لعرض المناقشة أمام الجمهور .

٥ ـ دراسة الشعر وكيف يمكن أن يتلاءم مع كل موضوع ، اخطاؤه ونواقصه .

ثالثاً : العلوم التمهيدية :

١ ـ علم الحساب : العملي والنظري :

العملي : وهو فحص الاعداد من الأجسام مثل رجال أو دنانير أي التي يتعاطاها الجمهور في المعاملات السوقية والمعاملات المدنية .

النظري : يفحص الاعداد المجردة وكل ما يلحقها وهي كالزوج والفرد وعندما يضاف إليها كالتساوي والتفاضل أو متناسبة وغير متناسبة ومتشابهة وغير متشابهة واستخراج اعداد من اعداد .

٢ ـ علم الهندسة : العملي والنظري .

العملي : كخطوط وسطوح الأجسام الخشنة والحديدية والحائط والأرض .

النظري : كخطوط وسطوح الأجسام على الأرض وهي تقسم كسطوح ومجسمات .

٣ ـ علم المناظر .

وهو يقسم إلى فرعين : الفحص لما ينظر بالاشعاعات المستقيمة والفحص عما ينظر إليه بالاشعاعات غير المستقيمة وهو علم المرايا .

٤ ـ علم السماء : « علم النجوم » ويشمل :
علم التنجيم وحركات وأشكال الأجسام السماوية .

٥ ـ الموسيقى : العملية ـ وتشمل اصناف الألحان والآلات الطبيعية والصناعية .

والموسيقى النظرية وتشمل المبادىء وأصول استخراج النغم مطابقة الأصول بالأقاويل وأوزان النغم وتأليف الألحان .

٦ ـ علم الأوزان : بما تشمل تقدير للأثقال وفحص أصول الآلات التي ترفع الأشياء الثقيلة .

٧ ـ علم صناعة الأدوات :

أي صناعة الآلات البسيطة والأدوات اللازمة لمختلف الفنون والعلوم مثل الفلك والموسيقى .

رابعاً : الفيزياء « علوم الطبيعة » :

١ ـ معرفة المبادىء التي تشترك فيها الأجسام الطبيعية .

٢ ـ معرفة طبيعة وصفات العناصر والمبادىء التي يمكن بواسطتها أن تحدد هذه العناصر لتكون الأجسام .

٣ ـ علم نشوء وتوالد وفساد الأجسام الطبيعية الأربعة وصفاتها .

٤ ـ علم تفاعلات العناصر لتكوين المُركبات

٥ ـ علم الاجسام المركبة والتي تكونت من العناصر الأربغة وصفاتها .

٦ ـ علم المعادن .

٧ ـ النباتات .

٨ ـ الحيوانات .

خامساً : ما وراء الطبيعة :

١ ـ معرفة جوهر الأشياء .

٢ ـ معرفة أصول العلوم الجزئية والعلوم التي تتصل بالمشاهدة والملاحظة « وهي الفلسفة الأولى لأرسطو » .

٣ ـ معرفة الموجودات التي ليست لها أجسام وصفاتها وذلك للوصول في النهاية إلى معرفة الحقيقة وهي الله وأحد اسمائه هو الحُق .

سادساً : علم المجتمع :

١ ـ الفقه بما يشمل من الآراء والأفعال .

تصنيف ابن النديم

يقسم المؤلف كتابه إلى عشرة أقسام أو عشر مقالات كما يسميها هو، وهو يتبع في تبويب كتابه التدرج الطبيعي والمنطقي، فيذكر اسماء المؤلفين وعناوين مصنفاتهم في ذلك العلم.

وقد افتتح كتابه بمقدمة عن فضل العلم والقلم والكتاب وما ورد في ذلك في الكتاب العزيز والسنة المطهرة والأقوال المأثورة من العلماء والمشاهير، ثم ينتقل بعد ذلك فيذكر جميع المقالات:

أولا : المقالة الأولى: وصف لغات الأمم من العرب والعجم ونعوت أقلامها وأنواع خطوط وأشكال كتاباتها وأسماء الشرائع المنزلة في القرآن وأسماء الكتب المصنفة في علوم وأخبار القراء وأسماء رواتهم والشواذ من قراءاتهم.

ثانيا: المقالة الثانية: يذكر فيها ابتداء النحو وأخبار النحويين البصريين والكوفيين وأخبار الذين خلطوا المذهبين وأسماء كتبهم.

ثالثا: المقالة الثالثة: اخبار المؤرخين والرواة والنسابين وأصحاب السير وأخبار الملوك والكتاب وأصحاب الدواوين وأخبار الندماء والجلساء وأسماء كتبهم.

رابعا: المقالة الرابعة: أسماء الشعر والشعراء وأخبارهم وطبقاتهم عن الجاهلية والاسلاميين وصناع دواوينهم وأسماء رواتهم.

خامسا: المقالة الخامسة: علم الكلام والمتكلمين من الفرق وأخبار السياح والزهاد وأسماء كتبهم.

سادسا: المقالة السادسة: الفقه والفقهاء وما ألفوه من كتب، والمحدثين وأسماء مؤلفاتهم.

سابعا: المقالة السابعة: الفلسفة والفلاسفة والعلوم القديمة وأسماء الكتب المؤلفة فيها.

ثامنا: المقالة الثامنة: الأسماء والخرافات و العزائم والسحر والشعوذة وأخبار المصورين وأسماء الكتب المصنفة فيها.

تاسعا: المقالة التاسعة: مذاهب الحرنانية والثنوية والهند وأسماء كتبهم.

عاشرا: المقالة العاشرة: أخبار الكيماويين والصنعويين من الفلاسفة القدامى والمحدثين وأسماء كتبهم.

تصنيف ابن خلدون

قسم ابن خلدون العلوم التي تدرس في العالم الإسلامي إلى قسمين رئيسيين هما:

* العلوم الفلسفية العقلية « وهي التي يمكن أن يتعلمها وأن يصل إليها الانسان طبيعيا بنفسه وعن طريق استخدامه لعقله وذكائه الذاتي».

* العلوم المنقولة « وهي التي يمكن أن يتعلمها الانسان فقط بالنقل، وأن يتتبع ـ لوصوله إلى المعرفة ـ العودة إلى مؤسس العلم وأصله. وفي حالة العلوم الدينية إلى أصل الوحي.

العلوم الفلسفية العقلية:

١ ـ المنطق.

٢ ـ العلوم الطبيعية: الطب أو الفيزياء ـ الزراعة.
٣ ـ علوم المخلوقات: ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقيا
ـ علم الصفات الحقية للحروف الهجائية.
ـ علم الكيمياء.

٤ ـ العلوم التي تتصل بالكمية:
ـ الهندسة «البصريات المستوية والدائرية».
ـ الحساب «خواص الاعداد، فن العدد، الجبر، التجارية، حساب الميراث».
ـ الموسيقى.
ـ الفلك «عمل الجداول الفلكية، حركة الاجرام السماوية، علم التنجيم».

العلوم المنقوولة:
١ ـ القرآن والتفسير وتلاوته.
٢ ـ الحديث أقوال الأنبياء وسلسلة المصادر التي نقلت عنها.
٣ ـ الفقه والقانون الإلهي.
٥ ـ العلوم اللغوية مثل القواعد في الأدب... الخ.

تصنيف طاش كبرى زاده

قسم إلى ست دوحات، ودأب المؤلف أن يمهد لكل دوحة بمقدمة لطيفة قيمة توضح مجال العلوم التي تشتمل عليها الدوحة وتعلل كيفية تقصيها بالصورة التي وردت فيها بحيث لا يترك القارىء عرضة للحيرة، ثم يقسم كل دوحة إلى عدد من الشعب وكل شعبة إلى عدد من العلوم، وهناك علوم تحتاج إلى تفريعات وفيما يلي تفصيل هذا التقسيم:

أولا : الدوحة الأولى: العلوم الخطية.

ثانيا: الدوحة الثانية: العلوم المتعلقة بالألفاظ والمصنفين في هذا الباب والعروضيين والمترسلين واللغويين والنحويين والقراء، وذكر علم التاريخ واسماء المؤرخين وتراجمهم وأسماء الكتب المدونة فيها.

ثالثا: الدوحة الثالثة: العلوم الباحثة عما في الأذهان من المعقولات الثانية فدرس علم المنطق وعلم آداب الدرس وعلم الجدل وعلم الخلاف وأسماء المؤلفين فيه.

رابعا: الدوحة الرابعة: العلم المتعلق بالأعيان فبين العلوم الحكمية وعلم الكلام ومقالات الفرق والطب والفلاحة وغير ذلك وأسماء الكتب المصنفة وأسماء مؤلفيها وتراجمهم.

خامسا: الدوحة الخامسة: الحكمة العملية، مثل علم الاخلاق وتدبير المنزل والعلوم الشرعية مثل القراءة والتفسير والحديث والفقه والأصول وبين تراجم العلماء والكتب المصنفة في هذه العلوم.

سادسا: الدوحة السادسة: العلوم المتعلقة بالتصفية التي هي ثمرة العلم بالعمل، وهي ما يسميها الباطن.

وفي نهاية عرض هذه التصانيف العربية الإسلامية وبمقارنتها بنظم تصنيف المعرفة الإنسانية الأجنبية، يتضح أن علماء المسلمين أثروا تأثيراً واضحا في الحضارة الإنسانية، مما يوصلنا إلى التأكيد على حقيقة تفاعل الحضارات والثقافات مع بعضها.

لقد أخذ العرب عن اليونان ولكنهم أسهموا في الحضارة الإنسانية بإنتاج أصيل.

وأخذت الحضارة الأوروبية عن العرب الكثير خصوصا في أوائل عصر النهضة.

الهوامش والمراجع

١ - ترجم تصنيف ديوي العشري إلى اللغة العربية عام ١٩٦٠، ١٩٨٠ والترجمة الشائعة هي التي ترجمها محمود الشنيطي، وأحمد كابش عام ١٩٦٠ بالقاهرة وهي معدلة في أقسام الدين واللغة العربية والأدب العربي والتاريخ العربي والإسلامي.

٢ - يمكن الرجوع إلى هذا التصنيف وهو متوافر في كل مكتبة من المكتبات. Dewey Decimal Classification

٣ - Leidecker, K.F.: Debt of Melvil Dewey to William Torrey Harris — New York: philosophical library, 1946.

٤ - أنظر حول تصنيف «جابر بن حيان» في المرجع التالي:
جلال محمد موسى: منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢ ٥٩-٦٢.

٥ - أحمد بدر: دراسات في المكتبة والثقافتين، القاهرة: دار الثقافة للتربية، ١٩٧٨، ص ٢٩١ - ٣٠٦.

٦ - ترجم كتاب إحصاء العلوم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي وترجمه «دومحينكوس غندياليوناس»، ونشرت مع الترجمة العبرية بواسطة الاستاذ «بلانسيه».
أنظر: زاهدة ابراهيم: تصنيف العلوم عند العرب، مجلة مكتبة الجامعة (الكويت)، المجلد الثاني، ١٩٧٣، ص ٢٦.

٧ - أحمد بدر: المرجع السابق ذكره ص ٢٩١ - ٣٠٦.

٨ - نفس المرجع السابق.

٩ - محمد ماهر حماده: المصادر العربية والمعربة - بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠، ص ٣٣ - ٤٣.

١٠ - الاكفاني : ارشاد القاصد إلى اسس المقاصد ، القاهرة : ١٩٠٧م
١١ - جلال محمد موسى : المرجع السابق ذكره .
١٢ - نفس المرجع المذكور .
١٣ - نفس المرجع المذكور .
١٤ - محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ذكره .
١٥ - احمد بدر : المرجع السابق ذكره .
١٦ - نفس المرجع المذكور ، وانظر كذلك مقدمة تحقيق كتاب طاش كبرى زادة حول تصنيف العرب للعلوم .

سابعا : توثيق العلوم والمعارف في الاسلام وأثر ذلك في الحضارة الانسانية:

الترجمة أو التعريب

مقدمة :

يعرف علماء المكتبات والمعلومات التوثيق بأنه « العمليات الفنية التي تشتمل على جمع وحصر وتنظيم وتحليل وترجمة ونشر وتصوير وتقديم المعلومات من المصادر المختلفة إلى طالبيها في أقصر وقت وبأقل جهد ممكنين »[١] .

أي أن الترجمة ، عامل أساسي من عوامل إكتمال التوثيق ، ذلك مفهوم أدركه العلماء العرب والمسلمون وأدركه الخلفاء المسلمون ، فليس من الحكمة الاعتماد على لغة واحدة ، بل لا بد من تماذج الثقافات .

وكانت المكتبات أو بيوت الحكمة[٢] تشتمل كذلك على أقسام للترجمة ، بحيث يمكننا إعتبارها مراكز للتوثيق كاملة بالمفهوم الحديث Documentation Centers ، تقدم المعلومات لطالبيها مهما تعددت لغاتها المنشورة .

ومن أجل هذا أردت تقديم دراسة لنتبين فيها الجوانب التالية : عوامل إزدهار الترجمة ، اللغات المترجم عنها ، أساليب الترجمة وأهميتها هذا بجانب :

أولاً : أثر الاسلام في الفكر العربي .
ثانياً : تطور الترجمة .
ثالثاً : بيوت الحكمة (المكتبات) والترجمة .
رابعاً : الدور الحضاري للترجمة .

عوامل إزدهار الترجمة :

بدأت حركة الترجمة في العصر الأموي بصورة محدودة ، وخاصة في العلوم العلمية كالطب والكيمياء ، وأول من فعل ذلك خالد بن يزيد المتوفى سنة ٨٥ هـ . وكان مولعاً بالعلوم ، وخاصة الكيمياء ، فدرسها وشجع على ترجمة كتبها إلى العربية ، وكان تعريب عبد الملك من مروان دواوين الدولة من أعظم الدوافع لحركة الترجمة ، ومن أولى الخطوات الممهدة لها . فقد كان تعريب الدواوين الخطوة الأساسية الأولى لتعريب الثقافة عموماً .

وقد إزدهرت الترجمة في العصر العباسي الأول إزدهاراً عظيماً ، فنقلت إلى اللغة العربية علوم الأمم المتمدنة في العصور القديمة . وقد شجع الخلفاء العباسيون الأولون حركة الترجمة ، وتابعهم ذلك الوزراء والأمراء من محبي المعرفة .

اللغات المترجم عنها :

وكان أكثر الترجمة عن اليونانية ، فقد ترجم عنها كتب الطب والعقاقير والمنطق والفلسفة والفلك والرياضيات والهندسة والموسيقى . وترجم العرب عن الهندية عدد من الكتب في الطب والحساب والنجوم . وترجموا عن الفارسية كتب الأدب والتاريخ والادارة ومراسيم البلاط والقصص .

أساليب الترجمة :

وكان للمترجمين أسلوبان في الترجمة أحدهما الأسلوب الحرفي بترجمة كل كلمة والأسلوب الثاني هو أن يفهموا معنى الجملة فيكتبوها بالعربية وبذلك تكون الترجمة واضحة مفهومة والثانية هي المفضلة . وقد أتبعها كبار المترجمين .

وقد اشتغل بالترجمة عدد كبير من التراجمة والعلماء من العرب وغيرهم . ومن أشهر المترجمين ألى العربية آل بختيشوع الذين اشتهروا بترجمة كتب الطب .

أهمية الترجمة :

بدأت حركة الترجمة المنظمة حوالي منتصف القرن الثاني الهجري وإستمرت حتى نهاية القرن الرابع الهجري . وفي خلال هذه المدة تم نقل معظم الكتب العلمية إلى اللغة العربية . فكان ذلك من الأسس الراسخة التي قامت عليها حركة الفلسفة والعلوم عند العرب . وكان ذلك من الأدلة البينة على محبة العرب للمعرفة ، وإحترامهم للفكر حيثما كان مصدره .

لقد ساعدت الترجمة على إزدهار الفكرَ في العصر العباسي وعلى نمو الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية عند العرب . على أن عمل أولئك المترجمين لم يقتصر على نقل النصوص الفلسفية والعلمية من لغة إلى لغة فقط ، وإنما أوجدوا مصطلحات فلسفية وعلمية عديدة عن طريق التعريب ، والاشتقاق وتخصيص الألفاظ العربية العامة للمعاني الفلسفية والعلمية المحددة . وقد نقل كثير من هذه الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية فكانت من أهم الحوافز على حركة إحياء التراث اليوناني والروماني في أوروبا مما ساعد على ظهور النهضة الاوروبية . وتجري الآن حركة واسعة لجمع ما بقي من هذه الترجمات العربية ، وتحقيقها ونشرها . وقد تم نشر عدد منها في الفلسفة والطب والعلوم الأخرى .

أولاً : أثر الإسلام في الفكر العربي :

لقد بشر الإسلام منذ أول عهده بالعلم ، وظل هذا الإتجاه دائماً هو الإتجاه السائد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية .

جاء في القرآن الكريم :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[1]

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾.[2]

﴿ وقل رب زدني علماً ﴾[3]، وغير ذلك كثير .

ونحن نعلم أن نبي الإسلام محمد ﷺ قد إتخذ موقفاً عظيماً من العلم والتعليم منذ أول تأسيس الدولة الإسلامية ، ذلك أنه حرص منذ البداية على تعليم أولاد المسلمين ؛ فنراه قد أمر في أعقاب غزوة بدر الكبرى الأسرى الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة بأن يعلم كل منهم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة في نظير فدائه . ثم تتابعت الأحاديث النبوية تحث المسلمين على التعلم ، وتدفعهم إلى طلب العلم[3] ، ومن هذه الأحاديث :

« الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج ».

« اطلب العلم من المهد إلى اللحد ».

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »

« من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع ».

« إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ولمداد ما جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله ».

والأحاديث كثيرة في مجال الحث على العلم والتعلم والتعليم وقد حصرها الإمام البخاري في صحيحه .

---

(١) المجادلة (١١) .

(٢) الزمر (٩) .

(٣) طه (١١٤) .

وكان الخلفاء يوصون ولاتهم بأن يتعلم المسلمون القرآن والحديث ، وأن يحكموا بينهم بالعدل بحسب ما جاء في القرآن والسنة .

واتسعت دائرة التعليم من القرآن والحديث لتشمل علوم الدين واللغة والعلوم الأخرى .

وكان لا بد من الرجوع إلى الثقافات الأخرى في مجالات الطب والفلك والهندسة والكيمياء وغير ذلك .

ولم يكن ما نفذه العرب من ثقافات ليحفظ في المتاحف والأقبية بعيداً عن النور والهواء ، كلا ، إن كل ما أنقذوه من الفناء قد خرجوا به من عالم النسيان والتعفن وبعثوا فيه حياة جديدة وجعلوه في متناول كل راغب عن طريق ترجمته . وقد ترجموه ليس إلى لغة جامدة غريبة عن الشعب لا يفهمها إلا الخاصة ، كاللاتينية في الغرب منذ القرن الثامن الميلادي . بل ترجموه إلى لغة حية في كل مكان آنذاك ، هي لغة القرآن . وكانت هذه الترجمة هي العماد الثاني الذي قامت عليه الثقافة العربية الإسلامية ، فكل مسلم يجب عليه أن يقرأ أو يتلو القرآن بالعربية ، وكل مسلم يتعلم ويفهم اللغة(4) .

ثانياً : تطور الترجمة :

تعتبر الترجمة أو عملية النقل من أهم طرق تسرب الثقافات الأجنبية ، وقد أخذت من إهتمام المسلمين العرب الشيء الكثير ، ولكن العلماء يقسمونها إلى مراحل فيما يلي :

١ ـ النقل في العصر الأموي :

إن أول من إهتم من المسلمين العرب بنقل العلوم الأعجمية إلى اللغة العربية ، هو خالد بن يزيد بن معاوية (المتوفى عام ٨٥ هـ) فقد أخفق في نيل الخلافة فصعد ميوله نحو طلب العلم والانفاق على العلماء ونقل الكتب إلى العربية ، حتى سمى « حكيم آل مروان » وقد أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل في مصر وقد تفصح بالعربية ، وقد أمرهم بنقل

الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقطر العربي ، وكان من بينهم راهب رومي اسمه « مريانوس » طلب إليه أن يعلمه صناعة الكيمياء ، فلما تعلمها أمر بنقلها إلى العربية فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم ، وهذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة[٥] .

وانكب خالد بن يزيد على تعلم علم النجوم إلى جانب تعلمه الكيمياء ، فاستحضر المنجمين وأنفق أموالاً طائلة في استحضار آلات للرصد من الاسكندرية ، ولعله أمر بترجمة بعض كتب هذا العلم ، مما لم يصلنا خبره ؛ وفي عهد مروان بن الحكم نقل الطبيب السرياني « ماسرجويه » إلى العربية كتاباً طبياً باللغة السريانية هو كناش أهروين بن أعين وحفظت هذه الترجمة العربية في دمشق حتى أيام عمر بن عبد العزيز ، وبث إلى الناس للانتفاع بها[٦] ، كما ذكر ابن النديم في الفهرست أن سالماً كاتب هشام بن عبد الملك نقل إلى العربية رسائل أرسطو إلى الاسكندر[٧] .

٢ ـ النقل في العصر العباسي الأول :

تقسم الترجمة في هذه الفترة إلى أدوار فيما يلي :

الدور الأول : من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد (١٣٦ ـ ١٩٣ هـ) :

إهتم المنصور وخلفه من الخلفاء وخاصة الرشيد والمأمون بالتنجيم فقرب إليه نوبخت المنجم الفارسي ودعاه إلى الإسلام فأجاب ، وقرب إليه كذلك ابن نوبخت أبا سهل ، وظل آل نوبخت يترجمون للعباسيين الكتب المختلفة وخاصة ما يتعلق منها بالتنجيم .

وقرب كذلك المنصور المنجم ابراهيم الفزاري وابنه محمد ، وعلي بن عيسى الأسطرلابي المنجم ، وبعض الهنود ، وأمر المنصور ابراهيم الفزاري أن يترجم له كتاب السند هند الكبير الذي بقي أصلاً في حركات الكواكب حتى أيام المأمون .

ثم أخذ المنصور يهتم بالطب ، حين أصابته بمرض في معدته ، فاستدعى جورجيوس بن بختيشوع السرياني رئيس أطباء جند يسابور وكان يعرف اليونانية والسريانية والفارسية والعربية فنقل عدداً من الكتب الطبية إلى العربية .

ولم يتفرغ المهدي والهادي للترجمة ، وإن إستمرت حركة النقل تسير سيرها الطبيعي بما يقوم به الأطباء من تعريب ، حتى كان عصر الرشيد ، فاهتم بالترجمة هو والبرامكة حيث أمر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمة كتب كثيرة ، وكذلك أمر البرامكة بنقل الكثير من الكتب الفارسية واليونانية والهندية ، فنقل كتاب المجسطى لبطليموس عن اليونانية ونقلت كتب طبية عن الهندية .

كما نقل كتاب اقليدس على يد الحجاج بن مطر ، وبعض كتب أرسطو في المنطق ، وبعض مؤلفات أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس في الطب ، ودخلت الفلسفة اليونانية إلى أبحاث العرب .

الدور الثاني : عصر المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ):

لقد كان المأمون عالماً كبيراً بجانب كونه خليفة ، لقد أعطى وزن ما يترجم له ذهباً ، وكان يضع علامة على كل كتاب يترجم له ويشجع الناس على قراءة الكتب المترجمة ويرغبهم في تعلمها ، ويضع الجوائز الكبيرة للفائزين في المناظرات التي كانت تجري تحت إشرافه المباشر أو تحت رعايته . واقتدى بالمأمون أهل الوجاهة والثروة فتقاطر المترجمون من النساطرة واليعاقبة والصائبة والمجوس والروم والبراهمة وغيرهم على بغداد ، وكثر الوراقون وباعة الكتب ، وراجت صناعة العلم والأدب واغتنى محترفوها .

وشملت الكتب المترجمة جميع المواضيع ، ففي الفلسفة ترجمت كتب أفلاطون وأرسطو ، وفي الطب كتب سقراط وجالينوس ، وفي الرياضيات والنجوم كتب أقليدس وارخميدس ومنالاوس .

وأشهر المترجمين في عصر المأمون أحمد بن محمد الفرغاني أحد

منجمي المامون وبختيشوع جورجيس طبيبه ، وجبرائيل الكحال المأموني ، والحسن بن سهل بن نوبخت . وموسى بن شاكر وبنوه محمد وأحمد والحسن وهم من أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل ، وغيرهم كثير مما لا يحصرهم عد .

الدور الثالث : حركة الترجمة والنقل بعد المأمون :

إستمرت الترجمة والنقل بعد وفاة المأمون ، وشاعت اللغات الأجنبية بين الناس حتى أصبحت الهندية واليونانية والفارسية لغات شائعة عند الطبقات المتأدبة التي لم تصل إلى رتبة العلماء .

ومن أهم ما ترجم بعد المأمون كتاب الفلاحة النبطية نقله إلى العربية أحمد بن علي بن المختار النبطي المعروف بإبن وحشية سنة ٢٩١ هـ ، وظل معتمد أهل الزراعة إلى أمد غير بعيد ، وترجمت أسفار التوراة نقلها سعيد الفيومي المتوفى عام ٣٣٠ هـ ، وكتب عديدة عن آداب الهند وعلومهم المختلفة ، نقل بعضها أبو الريحان البيروني المتوفى عام ٤٤٠ هـ[٨]

ثالثاً : بيوت الحكمة (المكتبات) والترجمة :

إهتم المسلمون بالترجمة إهتماماً كبيراً إلى درجة أنه كان يوجد في المكتبات القومية بالمعنى المعاصر أي بيوت الحكمة بالمعنى التاريخي ، مترجمون يقومون بعملية الترجمة اللازمة .

والترجمة كما سبق أن عرفنا التوثيق جزء رئيسي من عملياته الهامة ، وكذلك فهي عنصر من أهم عناصر نشر المعرفة والعلوم الانسانية .

من أجل هذا كانت بيوت الحكمة في بغداد والقاهرة وقرطبة عامرة بالمترجمين .

وقد ذكر كرد علي[٩] أن خالد بن يزيد (٨٥ هـ) كان أول من عرفت له مكتبته ، ويقول عنه ابن النديم[١٠] أنه عني بإخراج كتب القدماء ، وكان أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . . وقد سبق الحديث عنه في الدور الأول من تطور الترجمة .

ولكن الترجمة وصلت قمتها في بيت الحكمة ، ومن مشاهير المترجمين فيها أبو سهل الفضل بن نوبخت ، ويقول ابن النديم عنه[١١] إنه كان في خزانة الحكمة لهرون الرشيد ، وله نقل من الفارسي إلى العربي ، وقد أخبرنا ابن أبي صبيعة في كتابه طبقات الأطباء[١٢] بأن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجده بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه أميناً على الترجمة .

وإستمر إهتمام المأمون بترجمة الكتب التي تودع في بيت الحكمة أو خزانة الحكمة ، وقد سبق دراسة عصره ، وإشتهرت بعض المكتبات الخاصة بالحرص على النقل والترجمة ، ومن هذه مكتبة بني شاكر وهم محمد وأحمد والحسن ، وقد كان لهم مترجمون لا يفتأون ينقلون لهم ويلازمون العمل في مكتبتهم ومنهم حبيش بن الحسن وثابت بن قرة[١٣] .

رابعاً : الدور الحضاري للترجمة :

كما سبق أن أوضحنا بأن من أهم عوامل نقل الثقافة من قومية إلى أخرى هي الترجمة ، وقد قدم العرب عن طريق الترجمة تراث الدنيا القديم بإنتهاء القرن الثالث الهجري ، في العلم والأدب والفن والفلسفة ، وعلى الجملة كل ما وقع تحت أيديهم من معلومات خلفتها الحضارات السابقة .

ترجموا كتباً في الكيمياء عن مصر القديمة ، ولا يعرف عنها شيء للأسف ، وترجموا عن اليونان كتب الطب والرياضيات والفلك وأحكام النجوم والجغرافيا والفلسفة والأدب ، والموسيقى والميكانيكا ؛ وترجموا عن الفرس كتب الأدب والسير والشعر والتاريخ والأخبار ، وأحكام النجوم ؛ وترجموا عن الهنود كتب الطب والفلك وأحكام النجوم والرياضيات والتاريخ والأخبار والأسمار والأدب والموسيقى ؛ وترجموا عن النبط (سكان ما بين النهرين) كتاب الفلاحة النبطية ، وبعض كتب السحر والأصنام والطلاسم والقرابين ، وغير ذلك من هذا القبيل .

ثم أنهم لا بد ترجموا كتب العبرانيين والمسيحيين الدينية ، وبذلك اكتمل لديهم تراث الفكر الإنساني القديم كله تقريباً في مختلف فروع المعرفة ، في ترجمات جيدة .

يتبين مما سبق أن الإسلام ذاته ، بما بشر به من تعاليم واضحة جداً تحض على العلم والتعلم والتعليم وتفضل العلماء على الجهلاء ، كان الدافع الأول لحركة الترجمة والنقل والتعريب . ثانياً ، أن الخلفاء والأمراء العرب الأصلاء كانوا المحرك الأكبر ، والراعي الأول لهذه الحركة ، والسبب المباشر في إستمرارها وإزدهارها[١٤] .

وبهذا لعبت الترجمة دوراً حضارياً هاماً في نقل المعارف والعلوم الانسانية إلى الدنيا كلها في وقت كانت معرضة للفناء والنسيان .

الهوامش والمراجع

---

١ ـ المكتبات المتخصصة ـ أحمد بدر ، حشمت قاسم . ـ الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٩ .

٢ ـ بيوت الحكمة أو دور الحكمة ، هي المكتبات الاسلامية الكبيرة التي تشبه في عالمنا المعاصر المكتبات القومية National Librairies .
أنظر في ذلك : أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، عبداللطيف إبراهيم ؛ دراسات في الكتب والمكتبات الاسلامية ، ماهر حمادة : المكتبات في الإسلام .

٣ ـ حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ـ جلال مظهر ـ القاهرة : الخانجي ، (١٩٧٤) ص ٢٣٨ .

٤ ـ شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية في أوروبا ـ زيغريد هونكه وترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي . ـ بيروت : المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، ١٩٧٩ . ـ ص ٣٧٨ .

٥ - الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والإجتماعية والإقتصادية والفنية - أنور الرفاعي . - دمشق : دار الفكر ، ١٩٧٣ . - ص ٥٢٨ .

٦ - نفس المرجع .

٧ - ابن النديم ، الفهرست . - القاهرة : المكتبة التجارية ، ١٣٤٨ هـ ، ص ٣٣٨ .

٨ - الإسلام في حضارته ونظمه . . . المرجع السالف ذكره ، ص ٥٢٩ - ٥٣٤ .

٩ - خطط الشام - كرد علي ، ج ٦ ص ١٨٩ .

١٠ - الفهرست لإبن النديم . . المرجع السابق ذكره ، ص ٤٩٧ .

١١ - نفس المرجع المذكور ص ٣٣٨ .

١٢ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ابن أبي أصيبعة . - بيروت : مكتبة الحياة ، جـ ١ : ص ١٧٥ .

١٣ - تاريخ الحكماء - ابن القفطي . - ليبزج : ١٩٠٣ ، ٣٠ - ٣١ ، ابن أبي اصيبعة ١ : ١٨٧ ، ابن النديم ٣٤٠ .

١٤ - حضارة الإسلام . . . المرجع السابق ذكره ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ . وأنظر كذلك :

أوليرى : إنتقال علوم الاغريق إلى العرب - ترجمة متى بيثون ويحيى الثعالبي . - بغداد : مطبعة الرابطة ، ١٩٥٨ .

مصادر ومراجع التربية في الاسلام :

(أ) المصادر :-

- ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن) ـ تلبيس ابليس . بيروت ١٩٦٨ .
- ابن سحنون (أبو عبد الله محمد بن عبد السلام القيرواني) ـ آداب المعلمين . الجزائر ١٩٦٩ (ومنشور كذلك ضمن كتاب التربية في الاسلام للدكتور احمد فؤاد الاهواني) .
- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي) ـ جامع بيان العلم وفضله . بيروت ١٩٧٨ .
- ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب ـ التهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . القاهرة ١٣٢٣هـ
- ابن منقذ (اسامة) ـ كتاب العصا . القاهرة ١٩٧٨ .
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بعر) ـ رسالة في المعلمين . مجلة المورد ـ عدد خاص عن الجاحظ ـ ١٩٧٦ .
- اخوان الصفا ـ رسائل اخوان الصفا . (٤ أجزاء) القاهرة ١٩٣٨ .
- الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد) ـ إحياء علوم الدين . القاهرة ١٣٠٦ هـ .
- القابسي (أبو الحسن علي بن خلف) ـ ملحق الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين . (منشور ضمن كتاب التربية في الإسلام للدكتور احمد فؤاد الاهواني) .
- المغراوي (أحمد بن أبي جمعة) ـ جامع جوامع الاختصار والتبيان ، فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان . الجزائر ١٩٧٣ .
- النعيمي الدمشقي ـ الدارس في تاريخ المدارس . دمشق ١٩٥١ .

(ب) المراجع : ـ

- أحمد شلبي ـ تاريخ التربية الاسلامية . القاهرة ١٩٦٦ .

- أحمد فؤاد الأهواني ـ التربية في الإسلام ، أو التعليم في رأي القابسي . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠ ـ

- أسماء حسن فهمي ـ مبادىء التربية الإسلامية . القاهرة ١٩٤٧ .

- باقر شريف القرشي ـ النظام التربوي في الإسلام .ـ بغداد ، ١٩٧٨ .

- حسن عبد العال ـ التربية الإسلامية في القرن ٤ هـ . القاهرة ١٩٧٧ .

- حسين أمين ـ المدرسة المستنصرية . بغداد ١٩٦٠ م.

- زكي مبارك ـ الأخلاق عند الغزالي . القاهرة ١٩٦٨ .

- عبد الله عبد الدايم ـ التربية عبر التاريخ ، من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين . بيروت ١٩٧٥ .

- عبد الله علوان ـ تربية الأولاد في الإسلام . بيروت ١٩٧٨ .

- محمد أسعد طلس ـ التربية والتعليم في الإسلام . بيروت ١٩٥٧ .

- محمد جواد رضا ـ العرب والتربية والحضارة . الكويت ١٩٧٩ .

- محمد عطية الابراشي ـ التربية الإسلامية وفلاسفتها . القاهرة ١٩٦٩ .

- محمد منير مرسي ـ التربية الاسلامية .ـ القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٢ .

- محمد ناصر ـ الفمر التربوي العربي الاسلامي . (جزءان) . الكويت ١٩٧٧ .

- محمود السيد سلطان ـ مفاهيم تربوية في الإسلام .ـ القاهرة : مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع ، ١٩٧٧ .

الفصل العاشر

الفنون الإسلامية

نشأة الفنون الإسلامية

العمائر : المساجد الحصون والقلاع ، المدارس

الفنون الزخرفية عند العرب المسلمين

نشأة الفنون الإسلامية :

إزدهرت فنون عمارة المدن والقصور والنحت والتصوير لدى بعض الدول العربية القديمة خاصة في اليمن والبتراء وتدمر . ولم تتطور مثل هذه الفنون عند عرب الحجاز قبل الإسلام . وعندما ظهر الإسلام وقامت دولته وإتسعت رقعتها فشملت بلاداً واسعة ، نشأت في المجتمع الجديد وتطورت فيه فنون مختلفة ، إلى جانب نشأة النظم والعلوم والآداب . وتعتبر الفنون الإسلامية من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية ، ولا تزال هذه الفنون من عمارة وتصوير وزخرفة وكتابة ماثلة في البلاد الإسلامية أو التي وصلت إليها حضارة الإسلام . نجد هذه الآثار في المباني في بلاد العراق والشام وتركيا وإيران ، وفي مصر إليها حضارة الإسلام . نجد هذه الآثار في المباني في بلاد العراق والشام وتركيا وإيران ، وفي مصر وشمال أفريقيا والمغرب ، وفي الأندلس ، وكذلك في الهند وباكستان وغيرها . كما نجد الكثير من المخلفات الأثرية الإسلامية في متاحف العالم المشهورة .

والفنون التي تنشأ عند مختلف الأمم تتأثر عادة بعوامل مختلفة . وكل من هذه الفنون يأخذ من الفنون التي سبقته ، ويتأثر كذلك بفنون البلدان

المجاورة وأحياناً بفنون البلدان البعيدة . وتشترك الفنون التي إزدهرت في العالم الإسلامي بصفات تميزها عن الفنون الأخرى كالبابلية والفرعونية والساسانية واليونانية والرومانية والبيزنطية التي تتابعت في بلاد الشرق على مر القرون قبل مجيء الإسلام . وقد كان من الطبيعي أن يستفيد المسلمون من التقاليد الفنية التي كانت سائدة في البلاد التي فتحوها . على أن تعاليم الإسلام وطبيعة المجتمع الإسلامي وحاجاته الدينية والدنيوية هي التي حددت الإطار الهام للفنون الإسلامية وأعطتها خصائصها العامة المميزة .

وقد أخذت معالم الفن الإسلامي تظهر منذ العصر الأموي ثم تطورت من جيل إلى جيل . ومع الزمن ظهرت أنماط مختلفة في العمارة والتصوير والزخرفة إرتبطت بفترات زمنية معينة أو بأقاليم معينة من العالم الإسلامي ، على أنها اشتركت جميعاً بخصائصها العامة .

ومن أهم العوامل التي ساعدت على تطور وغنى الفنون الإسلامية إستعداد الحكام المسلمين للاستفادة من الصناع والفنانين الذين ينتمون إلى أجناس مختلفة وأديان متباينة . ومن هذه العوامل عدم تردد المسلمين بالأخذ من الأساليب الفنية التي كانت معروفة قبل الفتوحات الإسلامية . فقد استفادوا من الأساليب الفنية البيزنطية التي كانت سائدة في الشام ومصر وشمال افريقيا ، ومن الأساليب الساسانية التي عرفت في العراق وإيران . وكانت هذه الفنون السابقة متأثرة بدورها بعناصر يونانية وشرقية قديمة . وكذلك كان للثروة وحياة الترف التي شهدها المجتمع أكبر الأثر في نهضة الفنون .

العمائر :

المساجد :ـ

يحتل المسجد مكانة خاصة في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية عند المسلمين ، وهو أقدم الأبنية التي اهتم بها المسلمون . فعندما هاجر

الرسول ﷺ إلى المدينة واستقر بها اتخذ له مسجداً كان المركز العام للمسلمين ، واتخذت معظم القبائل التي أسلم أفرادها في المدينة مساجد خاصة لهم ، غير أن مسجد الرسول ﷺ كان هو المسجد الرئيسي وقد أصبح الأساس الذي سار عليه تخطيط المساجد الإسلامية . وكان إنشاء الرسول ﷺ للمسجد أول عمل قام به عليه السلام بعد إستقراره في المدينة ، وكان ملاصقاً لمنازله وكان مكوناً من رحبة (صحن) واسعة تحيط بها جدران من جهاتها الأربع . وطول كل جدار حوالي سبعين ذراعاً ، وكان في البداية مكشوفاً ثم انشئت في جهته الشمالية المقابلة لجهة بيت المقدس ظلة ، وهي سوار من جذوع النخل يقوم عليها سقف من سعف النخيل . ولما تحولت القبلة إلى الكعبة أنشئت ظلة أخرى في جهته الجنوبية تقي المصلين حر الشمس ، وبقيت الظلة الأولى مكاناً لأهل الصفة ، وكان ما بين الظلتين رحبة واسعة مكشوفة ، أما جدرانه فقد بنيت باللبن ، وجعل له ثلاثة أبواب اثنان منهما من جهة الشرق والثالث من جهة الغرب . وكانت تحيط به بيوت الصحابة من المهاجرين . وفي السنة السابعة للهجرة ضاق المسجد بالمصلين بعد أن إزداد عدد المسلمين ، فوسعه الرسول ﷺ وجعله مربعاً يبلغ كل ضلع من أضلاعه حوالي (١٠٠) ذراع وهي تساوي (٥٠ متراً تقريباً) وكانت تمتد في ظلته ثلاثة صفوف من جذوع النخل . وقد زاد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في المسجد فجعل أضلاعه (١٢٠ × ١٣٠ ذراعاً) وجعل أساطينه من لبن وسقفه من سعف النخيل ، فزاد في أبوابه فجعلها ستة أبواب . ثم زاد الخليفة عثمان بن عفان (رض) في المسجد فجعله (١٦٠ × ١٣٠ ذراعاً) وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة والجص وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه من الساج وأبقى له ستة أبواب .

وقد ظل المسجد النبوي بعد ذلك على حاله مدة ستين سنة فلما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة أمر بهدم المسجد وبنائه من جديد . وقد وسعه وجعله (٢٠٠ × ١٦٠ ذراعاً) وقد جعل بيت الصلاة خمس بلاطات (البلاطة

المساحة المحصورة بين صفين من الأعمدة) لكل منها صف من سبعة عشر عموداً مبنية بالحجارة ، ومثل ذلك في الجهة الشمالية . أما في الجهتين الشرقية والغربية فقد أحاطها بمسقفتين ، وفي الجهة الشرقية ثلاثة أروقة وفي الجهة الغربية أربعة أروقة ، وجعل له مآذن في كل زاوية مئذنة ، وجعل في بيت الصلاة مقصورة من ساج . ثم زاد الخليفة العباسي المهدي في مسجد الرسول ﷺ من جهته الشمالية حوالي (١٠٠ ذراع) وزخرف بالفسيفساء ، وقد ظلت مساحة المسجد النبوي على زيادة المهدي إلى آخر العصر العباسي . ثم زيدت عليه بعض الزيادات بعد ذلك .

وكان المسلمون عند تأسيسهم الأمصار يهتمون أول شيء بتشييد المسجد الجامع ، وهم يجعلونه في وسط المدينة ، ويجعلون حوله مساحة واسعة تتفرع منها الطرق إلى باقي أنحاء المدينة . وقد إتخذوا مسجد الرسول نموذجاً فشيدوا مساجدهم على غراره ، وكانت هذه المساجد في الغالب مربعة الشكل فيها رحبة واسعة تحتوي على الميضأة ، وفي جهة القبلة بيت للصلاة فيه ظلة تقام على أعمدة ويلاصق المسجد عادة دار الإمارة .

وقد بنيت هذه المساجد من اللبن والطين ، ثم أعيد بناؤها في العصر الأموي ، فوسعت مساحتها وجعلت أعمدتها من الحجارة وبنى سقف معظمها بالساج .

ومن أشهر الجوامع التي بنيت في العصر الأموي المسجد الجامع بدمشق وقد بني في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك بين عامي ٨٨ و ٩٦ هـ وكان شكله مستطيلاً طوله (١٦٠ متراً) وعرضه (١٠٠ متر) ، وفي جهة القبلة بيت للصلاة يبلغ عرضه (٣٦ متراً) وإرتفاعه حوالي (١١ متراً) ، وهو يقوم على أعمدة فيها عقود متعددة ، أما الجوانب الشرقية والغربية والشمالية من الجامع فيحيطها رواق كسيت جدرانه بالمرمر الملون وعقدت عمده وسواريه بالقناطر والطاقات .

ولما أسس أبو جعفر المنصور مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ إهتم بتشييد المسجد الجامع وجعله في وسط المدينة المدورة ملاصقاً لقصره ، وكان جامع المنصور مربعاً طول كل ضلع من أضلاعه مائتي ذراع وفيه بيت فسيح للصلاة يشغل ثلث المسجد وفيه خمس بلاطات في كل منها (١٦ عموداً) من الخشب . وكانت تحيط برحبة الجامع من جوانبه الثلاثة الأخرى أروقة واسعة . وقد أنشئت في بغداد عدة جوامع أخرى لاقامة صلاة الجمعة ، كما كان في كل مدينة كبيرة في العالم العربي والاسلامي جامع أو أكثر لاقامة صلاة الجمعة . فضلاً عن عدد كبير من المساجد لاقامة الصلوات فيها . وأنه ليس من اليسير أن نستعرض جميع المساجد في العالم الاسلامي وسنضرب صفحاً عنها ونقصر الكلام على بعض منها كأمثلة فحسب .

وفي مصر تم بناء الجامع الطولوني (جامع أحمد بن طولون) سنة ٢٦٥ هـ وهو يتكون من صحن مربع مكشوف وتحيط به أروقة من جوانبه الأربعة ، وتقع القبلة في أكبر هذه الأروقة ، وهناك ثلاثة أروقة خارجية بين جدران الجامع وسوره الخارجي وتسمى الزيادات ومنارة الجامع الطولوني تتكون من قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة اسطوانية على مثال ملوية سامراء .

أما الجامع الأزهر فقد انشىء في العصر الفاطمي في القاهرة بناه القائد جوهر الصقلي باسم الخليفة المعز لدين الله وتمت عمارته سنة ٣١١ هـ ويتكون من مدخل واسع وصحن تحيط به أروقة وقد أضيفت له عدة زيادات في عصور مختلفة لغرض توسيعه ، ولذا يشكل هذا المسجد معرضاً للعمارة الاسلامية في مصر ، وأهم أجزائه الفاطمية العقود المحيطة بالصحن وكذلك عقود المَجاز ذي السقف العالي .

ويعتبر العصر المملوكي في مصر العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية فقد روعي في بناء المساجد تصميم المدارس والأضرحة بدون أن يترك تماماً تصميم الجوامع ذات الايوانات والعمد ، فنرى مثلاً جامع السلطان

الظاهر بيبرس الذي شيد بين عامي ٦٦٥ هـ و٦٦٧ هـ أنه مربع تقريباً وان قوام تصميمه صحن تحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة .

أما الطراز المغربي والأندلسي في بناء المساجد فقد سار على مثال تخطيط المساجد الإسلامية في المشرق بإستثناء تصميم المنائر . فتصميم مساجد المغرب قوامها صحن تحيط به الأواوين مع مجاز عريض مرتفع يؤدي إلى المحراب في إيوان القبلة .

الحصون والقلاع :

إهتم العرب المسلمون ببناء الحصون وتحصين المدن لأغراض دفاعية وحربية والأمثلة على ذلك كثيرة . ومن أشهر حصون العباسيين قصر الأخيضر الذي ينسب إلى القرن الثامن الهجري . ويقع جنوب غربي كربلاء بنحو (٥٥ كيلو متراً) بالقرب من وادي الأبيض ، والقصر محصن مستطيل الشكل (١٧٥ م × ١٦٩ م) ولسوره الخارجي أربعة أبراج في زواياه وأربعة أخرى في منتصف أضلاعه بها أبواب ، ويبلغ ارتفاع السور (١٨ م) وسمكه نحو (٤,٥ م) إلى علو أحد عشر متراً ، ويبدأ بعد ذلك دهليز يمر فوق السور عرضه متران . ومخطط القصر يدل على وجود خمسة أقسام أساسية فيه :

١ ـ القسم الشمالي : ويتصل بالسور الخارجي ويتألف من ثلاثة طوابق في جزئيه الأوسط والشرقي ، وكان هذا القسم يضم فيما يظهر الديوان الرسمي ودوائر الحاشية والمضيف .

٢ ـ القسم الأوسط أو المركزي : ويحيط به مجاز معقود من جهاته الأربع يفصله عن سائر أقسام القصر ، وقوام هذا القسم الرحبة الكبرى أو رحبة الشرف .

٣ ـ القسم الجنوبي : ويضم مقر الخدم ويقع جنوب القسم الأوسط

ويتألف من صحنين وثماني قاعات ذا أقبية .

٤ ـ أما القسمان الرابع والخامس فمتشابهان ، يقع أحدهما شرقي القسم الأوسط والثاني غربيه ويتكون كلاهما من بيتين أو دارين ، وفي كل بيت صحن وست غرف وهما مقر الحريم .

وخلف الأيوبيون أثاراً مهمة منها قلعة صلاح الدين في القاهرة ففي سنة ١١٧٦ م ـ ٥٧٢ هـ أمر صلاح الدين الأيوبي ببناء سور يحيط بالقاهرة وقصر (القطائع والعسكر والفسطاط) ، وبتشييد قلعة الجبل وجعل الاشراف على هذا البناء للأمير بهاء الدين قراقوش . وقد أضيفت إلى القلعة بعد صلاح الدين أجزاء كثيرة ، كما حدث فيها تعديل غير بعض معالمها الأولى . ويتبين من تخطيطها أنها تتألف من مساحتين من الأرض مستقلتين الشمالية تقرب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة . أما الجنوبية فتمتد من الشمال إلى الجنوب بعد أن تكون زاوية قائمة مع المساحة الشمالية ، يفصلها جدار سميك ذو أبراج يبلغ طوله نحو (١٥٠ م) وفي وسطه باب القلعة الذي يعرف باسم (الباب الجواني) ، والواقع أن في قلعة الجبل بالقاهرة ظاهرة غير عادية في أسوار القلاع ، لأننا لا نرى لها سوراً كاملاً بأبراجه واستحكاماته البارزة . ولعل السبب في ذلك أن قلعة الجبل تتألف من المساحة الشمالية وهي الحصن ومن ملحقات تضمها المساحة الجنوبية ، وقوامها قصور وبيوت وأسطبلات وميادين ، ولكنها غير منتظمة الشكل وترجع إلى عصور مختلفة وليس لسورها كثيراً من الأبراج المربعة أو نصف المستديرة كما لسور الحصن نفسه . وهكذا يتبين أن القلعة لم تكن حصناً فحسب بل إحتوت مدينة ملكية صغيرة تضم القصور والمساجد دواوين الحكومة وأكبر الظن أن القسم الشمالي من القلعة بني في عهد صلاح الدين وأن الكامل (٦٠٥ هـ ـ ١٢٠٧ م) أضاف إلى قسمها الجنوبي بعض العمائر . ومن آثار الأيوبيين المهمة قلعة حلب التي تمت عمارتها في القرن السابع الهجري .

المدارس :

ولما كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة فقد إهتم المسلمون في عمارة المدارس . وكانت المساجد في العصر الاسلامي الأول مراكز التدريس .

ومن أبرز الأمثلة للمدارس العربية الإسلامية المدرسة المستنصرية ، بناها المستنصر بالله أبو جعفر المنصور العباسي سنة ٦٢٥ هـ وكمل بناؤها سنة ٦٣٠ هـ على ضفة نهر دجلة الشرقية في بغداد ، ولا تزال هذه المدرسة شاخصة حتى الآن وقد رممت وجلدت ، وتعتبر هذه المدرسة النموذج الجامعي في المدارس العربية الإسلامية ببنائها ونظام التدريس فيها . وقد عنيت بدراسة علوم القرآن والسنة النبوية وعلوم العربية والرياضيات والفرائض والزكاة ومنافع الحيوان وعلم الطب وحفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان في آن واحد .

والمدرسة بشكل المستطيل يمتد مع شاطىء دجلة طوله (١٠٤,٨٠) م وعرضه من الجنوب (٤٨,٤٠٤ م) ومن الشمال (٤٤,٢٠ م)، وفي وسطها صحن مساحته (١٧١٠ $م^٢$) تحف به الاواين والمسجد وغرف لسكني الطلبة وفي المدرسة ايوانان في الشمال والجنوب يرتفعان بإرتفاع طابقي البناء . ويبلغ عدد الغرف فيها (٨٠ غرفة) كما أنها اشتملت على مسناة لوقوعها إلى جوار النهر كما يوجد فيها مزملة وحمام .

وقد ألحقت بالمدرسة دار القرآن وإيوانها في الناحية الشمالية مقابل جامع الأصفية الحالي (على رأس جسر الشهداء من جانب الرصافة) ، كما ألحقت بها مدرسة الطب حيث كمل إيوانها سنة ٦٣٣ هـ وتقابل هذه المدرسة باب المستنصرية الرئيس (موقع مدرسة الطب حالياً سوق هرج) يضاف إلى كل هذا وجود مكتبة ودار للحديث .

إن عدد الطلاب في المدرسة (٢٤٨) طالباً إضافة إلى الأساتذة

والمعيدين ويلائم هذا العدد عدد غرف المدرسة وقاعاتها وتقوم الحكومة بالصرف على المدرسة وطلابها وأساتذتها ومعيديها وكان من شروطها (النظام الداخلي في الدراسة) ، كما أوقفت لها الأوقاف الكثيرة التي تصرف على المدرسة ومتطلباتها وقد اشترط في ناظر المدرسة (عميدها) أن يكون عالماً فقيهاً وقد عين لها القاضي أبو النجيب عبد الرحمن بن يحيى بن القاسم التكريتي .

وقد زينت المدرسة بعناصر زخرفية كثيرة على شكل حشوات محفورة مزينة بالعناصر النباتية والهندسية في المدخل وبين الأواوين وفوق عقود السقوف وبواطن العقود وواجهة المسجد والمحراب ، إضافة إلى وجود عناصر معمارية أخرى كالدعامات والسواري والعقود المدبية والسقوف المقببة (أي على شكل نصف اسطوانة) والشرفات والنوافذ ، وعلى جدارها المواجه لدجلة نجد شريطاً من الكتابة يؤرخ بناء المدرسة وقد حدثت عليه تغيرات أضيفت في فترات متباعدة .

الفنون الزخرفية عند العرب المسلمين :

زينت القصور والمساجد والمدن التي شيدت في العالم العربي والإسلامي بزخارف متعددة في تيجان الأعمدة والمحاريب والجدران ، وقد بدأ الاهتمام بالزخارف منذ عهد مبكر فالقصور التي بناها الخلفاء الأمويين في البادية كقصر المشتى وقصر الطوبة وقصر هشام في خربة المفجر كانت كلها مزخرفة .

وقد تطورت فيها الزخارف الإسلامية وبالذات عناصر (الارابسك) أي التفريعات النباتية أو ما يعبر عنه بالرقش العربي وقوام زخارف ورسوم هذه القصور الرسوم النباتية ومناظر الصيد وصور الحيوانات . وقد زخرف البعض منها بالفسيفساء التي تمثل رسوم أشجار الفاكهة إضافة إلى التفريعات النباتية .

لقد إستمرت الأساليب الأموية في النحت متبعة خلال النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي إبان حكم العباسيين ويتجلى النشاط الفني بإنشاء مدينة بغداد ببناء مدينة سامراء (سر من رأى) وكانت عادة الخلفاء المسلمين استقدام خيرة الصناع والفنانين في إنشاء المدن من الأقاليم المختلفة . مما أدى إلى التقاء أساليب فنية متباينة طبعت فيما بعد بطابع الفن العربي الإسلامي وقد بقي لنا كثير من زخارف سامراء .

أما الحفر على الرخام فقد وفق الفنان العربي إلى حد كبير ومن أفضل الأمثلة ما وجد في قبة الصخرة والجامع الأموي من عصر بني أمية حيث زينت هذه العمائر بالعناصر النباتية المختلفة المحفورة . ومن الأمثلة العباسية في الحفر على الرخام محراب جامع الخاصكي في بغداد ويرجح أنه كان قبل ذلك في جامع المنصور ببغداد وقد إمتدت هذه الصناعة إلى بلدان المغرب العربي حتى الأندلس وقد جاءتنا أمثلة من الأندلس منها تيجان أعمدة ، وكانت في مدينة الزهراء أعداد كبيرة من هذه الآثار وثمة أمثلة رخامية أخرى كالألواح الموجودة على جانبي المحراب الذي شيده الحاكم في المسجد الجامع بقرطبة ، إضافة إلى بعض المنحوتات الجصية في هذا الجامع .

الحفر على الخشب والعاج والعظام :

إهتم المسلمون بالحفر على الخشب والعاج والعظام . وقد اتبعوا في بداية العصر الإسلامي ماكان سائداً قبل الإسلام في هذا الميدان . ومن أمثلة ذلك زخارف المساند الخشبية بالمسجد الأقصى من العصر الأموي .

أما العصر العباسي فيمثله منبر جامع القيروان في الحفر على الخشب وحشوة خشبية مستطيلة الشكل ترجع إلى عصر هرون الرشيد عثر عليها في تكريت . وازداد الاهتمام بالحفر على الخشب في العصر الفاطمي ، وقد وصلتنا تحف كثيرة في غاية الدقة والاتقان قوام زخارفها رسوم حيوانية وطيور

وتفريعات نباتية وقد استمرت الأساليب الفاطمية في العصرين الأيوبي والمملوكي يبدو ذلك في تابوت الامام الشافعي والمؤرخ في (٧٥٤ هـ / ١١٧٨ م). وازداد الاتقان في العصر المملوكي ويبدو ذلك في مصراع باب في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة . أما الحفر على العاج والعظام فقد عثر في مدن مصر القديمة ومنها الفسطاط على قطع اتبع في زخرفتها التقليد المصري المحلي . أما تحف العصر الفاطمي فتشبه إلى حد ما أساليب الحفر على الخشب لما كان سائداً في مصر واستمرت الأساليب نفسها في العصرين الأيوبي والمملوكي أما في الاندلس فقد عرفت صناعة الحفر على العاج واهتم بها الأمراء والحكام ، وقد جاءت غالبية التحف مؤرخة . أما التحف العاجية التي عثر عليها جنوبي إيطاليا وجزيرة صقلية فإنها إسلامية أو عليها تأثير عربي إسلامي واضح الزخارف .

الفسيفساء :-

إهتم العرب المسلمون في صناعة الفسيفساء وأبدعوا فيها لتزيين العمائر والمقصود بالفسيفساء الموضوعات الزخرفية المؤلفة بجمع أجزاء صغيرة ومتعددة الألوان من الزجاج والحجر وتثبيتها بعضها إلى بعض فوق الجص أو الأسمنت ومن هذا تتكون موضوعات زخرفية ورسوم متعددة ، وقد تكون هذه الموضوعات الزخرفية هندسية أو رسوم كائنات حية أو نباتية ، إضافة إلى هذا استعمل الفنان العربي المكعبات الزجاجية الصغيرة الملونة شفافة وغير شفافة وجمع معها في بعض الأحيان المكعبات الحجرية والصدفية ، واستعمل المكعبات ذات اللون الذهبي أو الفضي ولكنه جعلها مائلة قليلاً لتعكس الضوء ولا ريب في أن أبدع ما وصل إلينا من أمثلة الفسيفساء من العصر الإسلامي فسيفساء قبة الصخرة وفسيفساء المسجد الجامع في دمشق وقد قصر هشام بخربة المفجر .

كانت الفسيفساء تغطي الجدران الخارجية في قبة الصخرة ، وما زال

معظمها ، ولا يزال محفوظاً منها الفسيفساء التي تغطي بعض الأجزاء الداخلية والتي يرجع تاريخها إلى سنة ٧٢ هـ كما تشهد بذلك كتابة بالخط الكوفي البسيط بالفسيفساء المذهبة على أرضية زرقاء . وأهم موضوعات فسيفساء قبة الصخرة فروع نباتية متصلة وحلزونية تخرج من آنية ويقع بين كل فرعين موضوع زخرفي يشبه الشمعدان وفوقه زخرفة بشكل مجنح ، إضافة إلى هذا فيها عناصر زخرفية نباتية كالأشجار والنخيل ورسوم الفاكهة ولا سيما العنب والرمان وباقات الزهور ورسوم أخرى مختلفة .

أما فسيفساء الفناء الخارجي للجامع الأموي في دمشق فإن معظمها أصابه التلف بسبب الحرائق المتعددة التي أصابت المسجد ، وقد كشفت بعضها وكانت مغطاة بالملاط ، وقوام موضوعاتها رسم نهر على ضفته رسوم أشجار تطل على منظر طبيعي فيه رسوم عمائر بين أشجار وغابات ، كما يبدو فيها رسم ملعب لخيل ورسم قصور .

التصوير :-

اهتم العرب المسلمون بترويق الكتب وتزيينها بالصور خاصة كتب التاريخ والطب والمخطوطات الأدبية ، وكان الكثير من هذه المصورات يدور حول شرح الأحداث التاريخية وحياة الأنبياء وحركات التحرير العربية وإعداد الأدوية والعلاج بها ، وقد كان التصوير العربي الإسلامي في بادىء أمره بعيداً عن الطبيعة إلا أن هذه الروح لم تلبث أن تحررت بمرور الزمن ، وقد وصلت المدارس العربية الإسلامية في التصوير عصرها الذهبي في مدرسة بغداد للتصوير .

التحف المعدنية :-

إهتم العرب المسلمون بصناعة التحف المعدنية ، وكانت هذه التحف على أشكال متعددة كالأواني والأباريق والصناديق وكانت على هيئات مختلفة

بأشكال الحيوانات والطيور ومن معادن مختلفة . كما أبدع الفنانون العرب في ميدان صناعة المصوغات الذهبية والفضية ذات القيمة الفنية العالية . وكان تأثير مدرسة الموصل في فن الصناعة المعدنية كبيراً عن إنتاج الشام ومصر وخصوصاً في العصر الأيوبي في القرن الثالث عشر الميلادي . وأبدع الفنان العربي في مصر في صناعة التحف المعدنية حيث زين العديد من التحف برسوم وبزخارف دقيقة وعديدة .

الخزف :-

وقد اهتم العرب المسلمون بصناعة التحف الخزفية وزخرفتها وبقي من آثارهم نماذج كثيرة جداً حيث أبدع الفنانون في زخرفة هذه التحف بطلائعها ، وكانت الرسوم تحت الطلاء أو فوقه ، وكان الطلاء بلون واحد أو ألوان متعددة ، وكذلك في صناعة لوحات القاشاني والمحاريب .

سار العرب المسلمون في العصر الأموي على الأساليب التقليدية التي سادت مصر والعراق وسوريا ، ولكن الفنانين بدأوا بالابتكار التدريجي حتى القرن التاسع الميلادي سواء في الزخارف أم في الألوان أم في الصناعة لذلك يعتبر خزف سامراء النموذج الذي يمثل إنتاج العصر العباسي .

أما في مصر فقد عثر في الفسطاط على أنواع عديدة من الخزف تمثل التطور في صناعته من القرن ٩ ـ ١٦ م ، فقطع الخزف التي تنسب إلى العصر الطولوني تشبه في زخارفها ما عرف في العراق في العصر العباسي حيث أن قوام هذه الزخارف دوائر ذات مركز واحد وأنصاف دوائر ونقط .

أما في العصر الفاطمي فقد بلغ الخزف درجة عالية في صناعته ويمكن تقسيمه إلى قسمين قسم برسوم منقوشة تحت الطلاء والثانية ذات زخارف فوق الطلاء ، وامتازت تحف هذه الفترة بوجود أسماء الصناع عليها ، وقد جرى الفنانون في عصر الأيوبيين والمماليك على أسلوب الفاطميين في الصناعة .

أما في الأندلس فقد عثر في مدينة الزهراء على مقربة من قرطبة وفي

قصر الحمراء على قطع خزفية تشهد على إزدهار هذا الفن العربي في فترة القرن (٤ - ٨ هـ).

المنسوجات :-

لا ريب أن الألبسة من أهم الحاجات الضرورية للإنسان وقد أولى الإسلام الاهتمام بها عناية خاصة فقال تعالى ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾[1] وعرف عن الرسول الأعظم ﷺ عنايته بالألبسة ، وكان العرب يعنون كثيراً بألبستهم . وكان في جزيرة العرب عدة مراكز للمنسوجات أهمها اليمن والبحرين وقطر . وقد اهتم المسلمون منذ أوائل العصر الإسلامي بالمنسوجات فقد صنعت المنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية وزينت حتى بخيوط الذهب والفضة وصبغت بصبغات نباتية وحيوانية طرق إستخراجها معقدة جداً . أما زخارفها فكانت نباتية كالأزهار والأوراق والرسوم الأدمية ومناظر الصيد والقنص إضافة إلى الزخارف الهندسية كالدوائر المتقاطعة والأغصان المورقة الهندسية الشكل .

لقيت هذه الصناعة تشجيعاً خاصاً في أقاليم الدولة العربية الإسلامية المختلفة ، ولا سيما بعد أن انتشرت عادة الخلفاء والأمراء في مكافأة رجال الدولة والوفود بالخلع الثمينة ، ومن هذا عرف العالم العربي والإسلامي نظاماً خاصاً في مصانع النسيج ، فقد كانت هذه المصانع حكومية أو تحت رقابة الحكومة ، وكان يطلق على المصانع الحكومية اسم (الطراز) .

ازدهرت صناعة المنسوجات والسجاد في العصر الإسلامي وصدرت إلى أوروبا والشرق وتنافس الأغنياء على إقتنائها فالمنسوجات التي كانت تسمى باللغات الأوروبية - Damasks قد إشتق أسمها من مدينة دمشق وكذلك كلمة موسلين - Muslin نسبة إلى مدينة الموصل . أنتجت مصر في عصورها المختلفة أنواع المنسوجات الحريرية والصوفية والقطنية والكتانية .

---

(١) الاعراف (٣١) .

كما ازدهرت هذه الصناعة في العصر الأموي ببلاد الشام وفي بغداد وإيران في العصر العباسي . كما أنتجت منسوجات في صقلية عليها أشرطة من كتابات عربية .

الخط والتذهيب والتجليد :-

لعب الخط العربي دوراً كبيراً في ميدان الفن الإسلامي وقد عني المسلمون منذ بداية تاريخهم بفن الكتابة والخط الجميل وذلك لسلامة الخط العربي وتعدد أنواعه وأشكاله وقابلية التصرف به . وقد استخدم الخط الكوفي والنسخي في بادىء الأمر ففي القرون الأولى إقتصر الخط الكوفي على كتابة القرآن الكريم وأقدم نسخة ترجع إلى سنة ١٦٨ هـ محفوظة في دار الكتب المصرية ، ومنذ القرن الحادي عشر قل إستخدام هذا الخط في كتابة القرآن الكريم ، وحل محله بالتدريج خط النسخ .

أما في المغرب العربي فقد إستخدم في كتابة المصاحف الخط المغربي وسمي أحياناً بالخط الأندلسي أو القرطبي .

وإلى جانب الإهتمام بالخط أولي العربي المسلمون التذهيب وزخرفة هذه الكتابات بالعناصر النباتية وأعطوها عناية كبيرة . فالتذهيب في القرن الرابع عشر الميلادي لم يقتصر على المصاحف بل إنتقل تدريجياً إلى المخطوطات . لقد كان التطور حليف الفنان العربي المسلم ولم يلازمه الجمود في هذا الميدان بل إنتقل بإهتمامه إلى تجليد الكتب وكان هذا يعتمد على أهمية الكتاب ومادته . فقد إستخدمت الجلود وحدها في تجليد الكتب وزينت برسوم مضغوطة ملونة أو غير ملونة .

الزجاج والبلور :-

مدتنا حفائر الفسطاط وسامراء والمدائن والزهراء بتحف زجاجية رائعة الصنع ، وقد استمرت فيها الأساليب القديمة ثم تطورت بعد ذلك واستخدمت

فيها أساليب شتى وزخارف متعددة ، كما عرفت هذه الصناعة النقش بالميناء والألوان الأخرى ، كما أنتج الفنان العربي المسلم تحفاً زجاجية ملونة إضافة إلى معرفته في صناعة البلور وأمثلتها كثيرة في المتاحف العالمية .

المراجع

١ ـ أرنست كونل ، الفن الإسلامي ، ترجمة د. أحمد موسى ، طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ م .

٢ ـ اي . كريستي واخرون . تراث الإسلام ، الجزءان الأول والثاني . ترجمة د. زكي محمد حسن . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م.

٣ ـ تامارا تلبوت رابس ، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي ، طبعة بغداد سنة ١٩٦٨ م.

٤ ـ د. حسن الباشا ، التصوير الإسلامي في القرون الوسطى ، القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

٥ ـ د. زكي محمد حسن ، فنون الاسلام ، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ م . واطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية . طبعة بغداد سنة ١٩٥٦ م .

٦ ـ د. سعاد ماهر محمد ، الخزف التركي ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م

٧ ـ د. محمد عبد العزيز مرزوق . الفن الإسلامي : تاريخه وخصائصه ، طبعة بغداد سنة ١٩٦٥ م.

٨ ـ م.س. ديماند ، الفنون الإسلامية : ترجمة أحمد محمد عيسى ، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٣ م.

المصادر والمراجع في الفنون الاسلامية

(أ) المصادر : ـ

ـ الزبيدي ـ تاج العروس ، معجم أسماء النباتات الواردة . القاهرة ١٩٦٥ .

ـ المقري (أحمد بن محمد) ـ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . (١٠ أجزاء) . القاهرة ١٩٤٩ .

ـ المقريزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي) ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . (خطط المقريزي) (جزءان) . القاهرة ١٨٥٣ .

(ب) المراجع :ـ

ـ أبو صالح الألفي ـ الفن الإسلامي . بيروت ١٩٦٧ .

ـ أحمد فكري ـ مساجد القاهرة ومدارسها . المدخل + الجزءان الأول والثاني . القاهرة ١٩٦١ ـ ١٩٦٩ .

ـ أحمد مختار العبادي ـ في تاريخ المغرب والأندلس . الأسكندرية .

ـ زكي محمد حسن ـ الفن الإسلامي في مصر . القاهرة ١٩٣٤ .

ـ زكي محمد حسن ـ كنوز الفاطميين . القاهرة ١٩٣٧ .

ـ زكي محمد حسن ـ الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي . القاهرة ١٩٤٠ .

ـ ناجي معروف ـ المدارس الشرابية ، بغداد ـ واسط ـ مكة . بغداد ١٩٦٥ .

ـ ناجي معروف ـ مدارس قبل النظامية . بغداد ١٩٧٣ .

ـ ناجي معروف ـ تاريخ علماء المستنصرية . (جزءان) . بغداد ١٩٦٥ .

ـ السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس . بيروت ١٩٦٢ .

- السيد عبدالعزيز سالم - تاريخ مدينة المرية الإسلامية، قاعدة أسطول الأندلس ..بيروت ١٩٦٩ .
- صباح الشيخاي - الأصناف في العصر العباسي . بغداد ١٩٧٦ .
- طاهر مظفر العميد - بغداد ، مدينة المنصور المدورة . بغداد ١٩٦٧ .
- طاهر مظفر العميد - العمارة العباسية في سامراء . بغداد ١٩٧٦ .
- عبد القادر المازني - العمارة الإسلامية في سوريا . دمشق ١٩٧٩ .
- عز الدين اسماعيل - الفن والأنسان . بيروت ١٩٧٤ .
- فريال داود المختار - من المنسوجات العراقية الإسلامية . بغداد ١٩٧٦ .
- كريسويل ك.أ.س. - وصف قلعة الجبل . (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٧٤ .
- ليفي بروفنسال - سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها (الترجمة العربية) - مطبوعات كلية الآداب جامعة فاروق الأول بالأسكندرية . القاهرة ١٩٥١ .
- محمد عبد العزيز مرزوق - المنسوجات الفاطمية .
- محمد عبد العزيز مرزوق - الفن الاسلامي، تاريخه وخصائصه. بغداد ١٩٦٥.
- م.س. ديماند (Dimand) الفنون الإسلامية . (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٥٨ .
- هناء عبد الخالق - الزجاج الإسلامي . بغداد ١٩٧٦ .

٨ - في الموسيقى والغناء :-

(أ) المصادر : -

- الفارابي (أبو نصر محمد بن طرخان) - كتاب الموسيقى الكبير . القاهرة ١٩٦٧ .

(ب) المراجع :-

- بدري محمد فهد- الخليفة المغني : ابراهيم بن المهدي . بغداد ١٩٦٧ .

- سمير شيخاني- أشهر المغنين عند العرب . بيروت ١٩٦٢ .

- عبد الحميد العلوجي ، رائد الموسيقى العربية . بغداد ١٩٦٤ .

- عبد الكريم العلاف- الطرب عند العرب . بغداد ١٩٦٣ .

- هنري جورج فارمر- تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن ١٣ . الترجمة العربية . بيروت .

- يوسف شوقي- رسالة الكندي في خبر صناعة التأليف . القاهرة ١٩٦٩ .

المراجع الأجنبية :

- Ahmad Fikry ; L'Art Roman du Puy et Les Influences Islamiques. Paris, 1934.

- Creswell K.A.C.; Early Muslim Architecture. 2 Vols., Clarendon Press. Oxford, 1932 - 1940.

- Creswell K.A.C. ; Muslim Architecture of Egypt. 2 Vols., Clarendon Press, Oxford, 1952 - 1959.

- L.A. Ars .; The Saracenic Heraldry. Clarendon . Press, Oxford, 1933.

- Louis Gardet ; La Cité Musulmane, Vie Sociale et Politique. Paris, 1954.

- Manuel Goméz - Morens ; El Arts 'arabe Espanol Hasta los Almohades Arte Moz'arabe. Vol. III, Ars Hispania. (Histotia Universal del arte Hispanico). Madrid, 1924.

- M.S. Dimand ; A Handbook of Muhammadan Art. Published by. Harvard University, Copyright by Metropolitan Museum of Art. New - York, 1944 and 1947).

[ترجم هذا الكتاب إلى العربية بمساعدة مؤسسة فرانكلين بالقاهرة تحت عنوان « الفنون الإسلامية »، ويحتوي على مجموعة كبيرة من اللوحات الهامة . أنظر المراجع العربية] .

Thomas Arnold (Sir) and Alfred Guillaume ; The legacy of Islam. Oxford University Press, 1968.

[ترجم هذا الكتاب إلى العربية تحت عنوان « تراث الإسلام » . أنظر المراجع العربية].

فهـرست

الفصل الثالث

النظام الاداري

الفصل الرابع

النظام الحربي

الفصل الخامس

النظم المالية والاقتصادية

الفصل السادس

العلوم الدينية

الفصل السابع

العلوم اللسانية والانسانية

الفصل الثامن

التراث العلمي عند العرب المسلمين

الفصل التاسع

التربية والتعليم والمكتبات في الاسلام

الفصل العاشر

الفنون الاسلامية عند العرب المسلمين